سيمون الحايك

دكتور في الفلسفة



والعرب شاركوا في الاكتشاف

او

كريستوف كولمبس

لو كنت أقدر أن أعاقب أمرأً ... قاسى بها كولمبس الأهوالا

ت منها ودها وجعلته ... فوق الضريح لذكره تمثالا

عبد الله البستاني

١٩٩١

سيمون الحايك
دكتور في الفلسفة

والعرب شاركوا في الاكتشاف
او
كرستوف كلمبس

لو كنت أقدر أن أعاقب ابحراً ... قاسى بها كلمبس الأهوالا
لنزعت منها درّها وجعلته ... فوق الضريح لذكره تمثالا

عبدالله البستاني

١٩٩١

تمهيـد

دخل القرن الخامس عشر في ربعه الاخير والعالم على ابواب تطورات وتحولات جذرية ، فهذه القسطنطينية تحني راسها مستسلمة امام الاتراك ، وعندما نقول الاتراك نقصد المسلمين. هؤلاء المسلمون الذين يهددون اوروبة هذه المرة من الشرق كما هددوها منذ سبعة قرون من الجنوب ونجت منهم في المرة الاولى عندما هاجموها من الاندلس. وها هوذا الاندلس الاسلامي الآن يجود بانفاسه بعد ان تقلص ظله عن القسم الاكبر من شبه الجزيرة الابرية ولم يبق لهم فيها سوى معقل غرناطة ، واعداؤها يحيطون به من كل جانب وكلمته منقسمة ، والملكان الكاثوليكيان ايزابيل وفرننده يستعدان للوثبة الاخيرة عليه.

وتساءل اللاهوتيون النصارى عن سبب الازدهار الذي ينعم به العالم الاسلامي ، ازدهار مادي يرتع فيه اعداء النصرانية وكيف يسمح الله بهذا التفوق العظيم على النصارى. وعمد اساقفتهم الى البحث عن اسلوب يتغلبون فيه على المسلمين لا بقوة السيف بل بالاقناع ، وترجموا القرآن الى اللاتينية في القرن الخامس عشر[1] .

واهتز اسياد اوروبة لهول الفاجعة ، سقوط القسطنطينية يفتح طريق اوروبة امام الاتراك ، فحاولوا جمع الكلمة وتوحيد الصف فالبحر المتوسط يكاد يتحول الى بحر تركي.

وارتجفت الدولة البابوية والمدن الايطالية والبلقان كله. ظنوا انهم تغلبوا على المسلمين بحصرهم في غرناطة لضربهم الضربة الاخيرة ، ولكن سقوط القسطنطينية بيد الاتراك قضّ مضاجع العالم المسيحي. فلا بد من تجنيد كل القوى في وجه هذا التيار الآتي من الشرق ،

(١) سيمون الحايك : «تعربت وتغربت» او نقل الحضارة العربية الى الغرب.

فكأن الاسلام قد اكتسب حيوية اعادت اليه قوته الاولى التي دوّخ فيها حضارتين من اعظم الحضارات التي عرفها العالم الفارسية والبيزنطية، فضرب الفرس الضربة القاضية في القادسية وهدم مجد البيزنطيين في اليرموك، والآن عاد من جديد ليهدد اوروبة، غير انه اهمل الاندلس وتركه يلاقي مصيره، مع انه بمساعدة قليلة التكاليف كان هذا المعقل الهام الجاثم في اوروبة اداة قلق انه اسفين دق في جسم اوروبة الجنوبية الممثلة بقشتالة وارغون.

ابتدأت معركة غرناطة والقوات غير متكافئة. جنّد الملكان الكاثوليكان كل طاقتهما واولياها جلّ اهتمامهما بحيث ان الملك فرننده اهمل ممتلكات ارغون في ايطالية وصقلية لينصرف بكل جهده لمحاربة غرناطة تدعمه الملكة ايزابيل الكاثوليكية بجميع مقدراتها، وظنا انهما بحشد هذه القوى يتمكنان بسهولة من توجيه الضربة القاضية على مملكة غرناطة ويوحدان شبه الجزيرة الابرية، الحلم الاكبر والدائم الذي يراود مخيلة جميع ملوك قشتالة منذ الفتح العربي في اوائل القرن الثامن الميلادي حتى اواخر القرن الخامس عشر. ولكن احتلال غرناطة لم يتم بالسهولة، فافسد حسابات الملكين الكاثوليكيين اذ ان هذه الحرب امتدت عشرة اعوام مني بها الملكان الكاثوليكيان بخسائر لا تقدر في الرجال والعتاد، واوقع البلاد تحت ديون طائلة، واقبل المتطوعون من كافة انحاء اوروبة للقتال الى جانب الملكين في حرب صليبية اوروبية بعد ان فشلت الحملات الصليبية في استخلاص بيت المقدس من ايدي المسلمين والاحتفاظ به، فعساهم يكسبون في شبه الجزيرة الابرية ما خسروه في المشرق.

لم تستسلم غرناطة بالسهولة التي توقعها النصارى، بل حاربت وانزلت هزائم شنيعة قاسية بالجيش النصراني ولكن الحشود تتزايد والملكة ايزابيل في المؤخرة تغذي آلة الحرب هذه بما تحتاج اليه من مؤن وذخائر ومتطوعين جدد، والمسلمون وحدهم وليس من يشد ازرهم بالاضافة الى انقسامهم على انفسهم في حرب اهلية انهكت قواهم وسهلت الطريق للنصارى للتغلب عليهم.

دخلت معركة غرناطة في ادق مراحلها لما اطل رجل اسمه «كريستوف كلمبس» جاء يعرض على الملكين الكاثوليكيين مشروعا ضخما: اكتشاف اراضي جديدة في اصقاع بعيدة تزيد في ثروة وقوة وعظمة ومجد وسؤدد الملكين.

ونظرا في الامر، الحالة لا تسمح لها بانفاق اموال هما باشد الحاجة اليها في حرب غرناطة التي استنزفت مواردهما وادت بالملكة ايزابيل الى رهن حلاها ومجوهراتها لسد النفقات

الباهظة التي تتطلبها المعركة. غير انهما اجّلا النظر في القضية حتى انتهاء احتلال مملكة غرناطة الاسلامية.

والى ان يتحقق الغرض ينزل كلمبس ضيفا على الملكين الكاثوليكيين، يعيش على نفقتهما حتى يحين الحين.

واقام كلمبس على هذه الحال بضعة اعوام يجري اتصالات مع رجالات قشتالة ويفتش عن الملاحين الذين سيرافقونه في هذه الرحلة او بالاحرى المغامرة المجهولة العواقب في بحر الظلمات الكثير الاهوال. تمنع النصارى القدامى وتردد اليهود ولاقت فكرته اقبالا بين النصارى الجدد من المسلمين المتنصرين، فتجندوا معه كما سنرى، في هذه المغامرة الكبرى. ما زال بحاجة الى رجال فسمحت له الملكة بتجنيد اشخاص محكوم عليهم بالاعدام فاخرجوا من السجن والتحقوا بقائد البحر حتى اكتمل العدد، مائة شخص ونيف.

وسندرس هذه الامور كلها بالتفصيل.

مقــدمة

اشتغل العرب في كافة العلوم ومنها علم الجغرافية الذي يعتمد على الرحلات والمشاهدة ثم دراسة ابحاث السابقين ثم الخروج بنتائج هذه الدراسات والابحاث.

وقد خرج العرب من رحلاتهم بدراسات ادت الى اكتشافات بحرية ظنها الباحثون من اكتشاف علماء غربيين اوروبيين ثم تبين انها من اعمال علماء عرب فقد صححوا الكثير من نظريات بطليموس وجمعوا ما بين علم الفلك والرياضة والجغرافية.

نذكر باختصار بعض الجغرافيين العرب

ابن حوقل:

ولد في بغداد في النصف الاول من القرن العاشر الميلادي وزار بلدانا عديدة وصادف الاصطخرى والّف كتابا عنوانه «المسالك والممالك».

المقدسي:

يعرف بالمقدسي لانه ولد في بيت المقدس، له كتاب عنوانه «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» الفه بمدينة شيراز بفارس سنة ٩٨٥ م وهو في عامه الاربعين

رسم المقدسي للدول التي زارها خرائط ملوّنة استخدم فيها الرموز وطرق التعبير الاصطلاحي كي يمكن فهمها على الوجه الصحيح... ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وبحارها المالحة بالخضرة وانهارها المعروفة بالزروقة وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب الوصف الى الافهام.

المسعودي :

ابو الحسن علي بن الحسين ولد في بغداد انه من كتّاب القرن الرابع الهجري امضى ربيع حياته في الرحلات الكثيرة فوصل الى الهند وزار اصقاعا كما وصل الى سيلان والصين وزنجبار ومدغسكر توفي بالفسطاط سنة ٩٥٧/٣٤٦.

تحدث عن البحار فقال ان بحر الصين والهند وفارس واليمن متصلة مياهها غير منفصلة الا ان هيجانها وركودها يختلفان لاختلاف مهاب الريح وابان ثوراتها.

«فبحر فارس تكثر امواجه ويصعب ركوبه عند لين بحر الهند واستقامة ركوبه وقلة امواجه ، ويلين بحر فارس وتقل امواجه ويسهل ركوبه عند ارتجاج بحر الهند واضطراب امواجه وظلمته. فاول ما تبتدىء صعوبة بحر فارس عند دخول الشمس السنبلة وقرب الاستواء الخريفي ، ولا يزال كذلك تكثر امواجه كل يوم الى ان تصير الشمس في برج الحوت ، فاشد ما يكون ذلك في آخر الخريف عند كون الشمس في القوس ، ثم يلين الى ان تعود الشمس الى السنبلة واهدأ ما يكون في آخر الربيع عند كون الشمس في الجوزاء. وبحر الهند لا يزال كذلك الى ان تصير الشمس في السنبلة فيركب حينئذ واهدأ ما يكون عند كون الشمس في القوس وبحر فارس يركب في سائر السنة من عمان الى سيران وهو مائة وستون فرسخا ومن سيراف الى البصرة مائة واربعون فرسخا.

وليس بعد بلاد الصين مما يلي البحر ممالك تعرف ولا بلاد توصف الا بلاد السيلي وجزائرها ولم يصل اليها من الغرباء احد من العراق ولا غيره ، واهلها مهادنون لاهل الصين وملوكها والهدايا بينهم لا تكاد تنقطع وقد قيل انهم تشعبوا من ولد عامور فسكنوا هناك.

وبحر المغرب له اخبار عجيبة فيما قرب منه من عمائر السودان واقاصي ارض المغرب. وقد ذكر ذوو العناية بشأن اخبار العالم ان ارض الحبشة وسائر السودان كلها مسيرة سبع سنين وان ارض مصر جزء واحد من ستين جزءا من الارض كلها ، والارض كلها مسيرة خمسمائة عام ، ثلث عمران مسكون وثلث برى غير مسكون وثلث بحار»

المسعودي : «مروج الذهب»
الجزء الاول ، تحقيق شارل بلاّ.

ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه :

اعتنق جده الاسلام وكان ابوه سنة ٨١٦ واليا على طبرستان. نشأ في بغداد حيث درس الموسيقى والادب على اسحق الموصلي المتوفي سنة ٨٤٩ م وتولى بعد ذلك البريد بنواحي الجبل وكان يكتب في سامراء بين سني ٨٤٤ و ٨٤٨ موظفا في ديوان البريد المركزي. له :

١ – كتاب المسالك والممالك: كتاب رسمي عن الطرق مع معلومات دقيقة عن المحطات ومراحل البريد وجباية كل اقليم.

وقد شدد ابو الفرج الاصبهاني النكير على ابن خرداذبه، كذلك حاف عليه المسعودي حيفا شديدا وقد اثنى المسعودي على كتابه في تاريخ الامم الماضية قبل مجيء الاسلام.

٢ – كتاب اللهو والملاهي

٣ – حديث عن اصل الموسيقى وفن الغناء والنغم القاه في مجلس الخليفة المعتمد.

٤ – طبقات المغنين، وقد ذكره ابو العلاء في رسالة الغفران.

ابو علي احمد بن عمر بن رسته:

كتب في اصفهان بعد سنة ٩٢٢ موسوعة عنوانها: «الاعلاق النفيسة» يتناول الجزء السابع منها الجغرافية وهو يبدأ بفصل من عجائب الفلك يقول فيه: «ان الارض تقف في مركز الفلك على مثال الكرة»، ويتحدث بعد ذلك عن حركة الفلك وعن اقدار اجرام الكواكب وابعاد بعضها عن بعض.

ابو زيد احمد بن سهل البلخي:

ولد ببلخ بقرية تدعى شامستيان وكان ابوه معلما للصبيان، ذهب الى العراق ليتفقه في مذهب الامامية وهناك خلبه الكندى بالعلوم المحضة توفي سنة ٩٣٤ عن سبعة وثمانين عاما.

وضع كتاب الاشكال او صور الاقاليم وهو في اساسه كتاب خرائط وقد الفه صاحبه في بلخ فاسس بذلك المدرسة القديمة للجغرافية العربية.

كتاب المسالك والممالك الذي صنفه محمد الفارسي الاصطخرى في حدود سنة ٩٥١ ليس سوى نسخة موسعة من كتاب البلخي.

وكتاب البلخي هو ايضا الاساس الذي اقام عليه ابو القاسم بن حوقل النصيبي في حدود سنة ٩٧٧ كتاب «صورة الارض».

(بروكلمان: تاريخ الادب العربي – الجزء الرابع – دار المعارف).

البيروني :

ولد ابو الريحان البيروني سنة ٩٧٣/٣٦٢ في قرية من ضواحي مدينة «كاث» عاصمة خوارزم.

وله فضل كبير على علم الجغرافية فهو اول من وضع اصول الرسم على سطح الكرة فقد جاء في كتابه الآثار الباقية من القرون الخالية» فصل خاص في تسطيح الكرة ولم يعرف ان احدا كتب في ذلك قبله وهذا له اثر كبير في تطور الجغرافية ورسم الخرائط.

قياس دوائر العرض :

من الضروريات الهامة للملاحة وانشاء الخرائط الدقيقة تحديد مواقع البلدان اي خطوط الطول والعرض، كذلك ايجاد الالات اللازمة لذلك فان البيروني جاء بفكرة جديدة قريبة من طرق البحث الحديثة في مؤلفه : «القانون المسعودي لتطبيق الطريقة المتبعة بالنسبة للنجوم الواقعة حول القطب في شأن الشمس وقد جاء تحديده لخط عرض «غزنة» بهذه الطريقة دقيقا كما اوجد عروض كثير من البلدان في مؤلفاته.

ولايجاد خطوط الطول اشار البيروني الى استخدام خسوف القمر برصد وقته في مكانين احداهما معلوم الطول. ثم تكلم عن الاسباب في عدم التمكن من الاستعانة بكسوف الشمس او حجب القمر للنجوم.

وثمة طريقة اخرى لا تعتمد على الخسوف ولكنها تحتاج الى معرفة عرضي المكانين حيث يرصد فيها وقت عبور القمر لاتجاه الشمال والجنوب في ليلة معينة.

احمد بن محمد الرازي :

يعتبر احمد بن محمد الرازي ابا للجغرافية والتاريخ في الاندلس. فحدد موقع شبه الجزيرة فقال انه في الاقليم الرابع.

الورّاق ابو عبد الله محمد بن يوسف :

معاصر للرازي يعد في طليعة جغرافي المغرب والاندلس، اصله من وادي الحجارة، اتصل بالحكم المستنصر الاموي والجو العلمي الذي يحيط به. فيوسف الوراق كان احد اعلام المدرسة الجغرافية التي ازدهرت على عهد الحكم الثاني المستنصر برعايته.

ومن معاصري الرازي يهودي من اهل طرطوشة اسمه ابراهيم بن يعقوب الطرطوشي وهو تاجر في جلب الرقيق الاوروبي الى الاندلس.

وقد اورد له البكرى رسالة يصف فيها رحلة الى شرقي اوروبة وكيف عبر البحر الادرياتيك ووصل الى بلاد الصقالبة.

البكري :

هو عبد الله بن عبد العزيز بن عمرو البكرى نسبة الى بكر بن وائل وشهرته ابو عبيد البكرى.

ولد حوالي سنة ٤٠٥/١٠١٤ في مدينة شلطيش وتوفى في قرطبة او اشبيلية سنة ٤٨٧/١٠٩٤.

تيسر له في قرطبة ان يلتقي باقطاب العلم والمعرفة ويعتبر البكرى من اولئك الذين جمعوا المعارف المتنوعة. تجول البكرى في عدة مدن اندلسية مثل قرطبة والمرية واشبيلية.

له مؤلفات عديدة، احصي له اثنا عشر كتابا اما في الجغرافية فله مؤلفان هما كتاب معجم ما استعجم، وكتاب المسالك والممالك والاثنان مطبوعان.

وللبكرى لمحات يكشف بها عن حقائق سبق بها زمانه بكثير مثلا قوله : «واقيانس البحر المحيط لا يدري ما وراءه غربا الى اقصى عمران الصين، والشمس اذا غابت في اقصى الصين طلعت في الجزائر الخالدات وبالضد. وهذه هي الفكرة التي جعلت كلمبس ما هو في تاريخ البشر، وكانما اخذه ابو عبيد البكرى بيده وقاده الى ما وقع عليه من فتح عظيم، كما يقول الدكتور مؤنس. وليس من قبل المصادفة البحتة ان يكون ابو عبيد الله من ابناء اونبة على اميال قليلة من الرابطة، وفيها الدير الذي لجأ اليه كلمبس وسهّل له رهبانه مقابلة ايزابيل الكاثوليكية، ولا هو من قبيل المصادفة ان يكون ابو عبيد البكرى قد كتب هذه السطور في اشبيلية البلد الذي عاش فيه كلمبس زمنا وتعلم من اهله وعلمائه وملاحيه الشيء الكثير بل انه لا تبدو لنا مصادفة ان يكون خروج مراكب كلمبس الى العالم الجديد من ميناء «سان لوكار» اقرب بلد الى اونبة والمسافة بينهما بضعة كيلومترات. (مؤنس : الجغرافية والجغرافيون ص ١٣٤).

والبكرى يعرف ان الخارج من غرب اوروبة يصل الى شواطىء الصين بالخبر الذي يرويه عن بحر الظلمات او البحر الاخضر او المحيط وقد خاطر بنفسه فتى من اهل الاندلس يسمى

خشخاش وكان من فتيان قرطبة في جماعة من احداثها ، فركبوا مراكب استعدوها ودخلوا هذا البحر وغابوا مدة ثم عادوا بغنائم واسعة واخبار مشهورة.

وخبر الفتية المغررين الذين غابوا ثلاثة وثلاثين يوما في هذا المحيط. اعتمد على ما كتبه ابراهيم بن يعقوب التاجر اليهودي النخّاس الذي ينتمي الى بلاد الاندلس. مؤلفاته : كتاب المسالك والممالك. وكتاب : «معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع.

لم يقصر الجغرافيون الاندلسيون عن اخوانهم في المشرق العربي بهذا المضمار ، فاول ما سار فيه قاسم بن اصبغ فقد نقل الى العربية عن اللاتينية كتاب «هروشيوش» وهو الكتاب الوحيد الذي نقله العرب عن اللاتينية.

ولد قاسم بن اصبغ في شهر تشرين الثاني سنة ٨٥٩ في بلدة «بيانة» من اعمال قرطبة. اشترك معه بترجمة الكتاب عن اللاتينية قاضي النصارى الوليد بن خيزران او حفص بن البر (الفاره).

وقد استفاد من هذا الكتاب استفادة كبرى ابن خلدون في تاريخه.

الشريف الادريسي :

يعتبر اول عالم جغرافي متخصص فاق بطليموس اذ انه انصرف بكليته الى هذا العلم ورفع الجغرافية الى مصاف العلوم الكبرى.

وليس بين جغرافي العرب من طارت شهرته مثل الشريف الادريسي فقد عنى كل بلد بمَا نشره في كتابه «نزهة المشتاق» وترجمته الى احدى اللغات الحية ، وتخصص في الدراسات الادريسية كثير من الباحثين الغربيين.

ولد في سبتة سنة ١١٠٠/٤٩٣ وتجول في المشرق سنة ١١١٦/٥١٠ واتم كتابه سنة ١١٥٣ وتوفي سنة ١١٦٤.

سار الادريسي في طريق جديد هو الطريق الذي وصل بالجغرافية الى ما هي عليه اليوم. فقرر اولا ان يرسم صورة شاملة للارض حتى يسير على خطة واضحة في عمله. ثم قسّم هذه الخريطة الى اقسام صغيرة ومضى يبحث في المعلومات الموجودة على كل قسم ويحققها بسوال من يعرفونها ومقارنة اقوال بعضهم ببعض واستخراج شيء يمكنه الاطمئنان اليه.

والادريسي بعد ان قرأ ما قرأ بدأ يرتسم في ذهنه تصور جديد لجغرافية الارض ، كما يقول

«مؤنس». تصور عام يشمل الارض كلها، وليس حوض المتوسط كما عند بطليموس او عالم الاسلام كما عند معظم جغرافي العرب في ذلك الحين ولا يخلط بين الحقيقة والاسطورة، بل تصور جغرافي علمي خالص وبناء على هذا التصور رسم منهجه، منهج مشاهدة وقياس ومقارنة وربط بين الاجزاء بعضها ببعض تمّ عمل الادريسي على الشكل التالي:

١ – اعتمد على خريطة بطليموس لانها تشمل الارض كلها على عهد بطليموس طبعا

٢ – قسّم محيط الكرة طولا الى عشرة اجزاء متساوية تبدأ من قطب الكرة الاعلى وتنتهي عند قطبها الاسفل، اتخذ الخط الرئيسي المار بالجزر الخالدات.

٣ – اتخذ الادريسي خطوط العرض المعروفة. قسم المسافة بين خط الاستواء والقطب الشمالي الى تسعين قسما وسمّى كل قسم درجة.

٤ – اكمل خريطة بطليموس باضافة الجزر البريطانية وبلاد شمالي اوروبة حتى فنلندة وشمال روسية وبلاد «لبلند»، ووضع ذلك كله في الاقليم السابع.

٥ – ثم حوّل الخريطة الكروية الى خريطة مسطحة مثلما فعل «مركاتور» في اواسط القرن السادس عشر.

٦ – نقل لوح الترسيم على كرة ارضية مسطحة او كروية.

٧ – الّف كتابا يشرح هذه الخريطة.

المدرسة التي سار الادريسي في طريقها ووصل بعملها الى قمته هي مدرسة ابي القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة، وابي العباس المروزي توفي سنة ٨٧٧ واحمد بن احمد السرخسي توفي سنة ٨٨٩ واحمد بن ابي يعقوب بن واضح اليعقوبي توفي سنة ٨٩٧ وهؤلاء اعتمدوا في بناء صلب كتبهم على اقوال الرحالة والتجار واهل البلاد وقوائم الخراج ووثائق الدولة.

اختار الادريسي اقوال المقدسي عندما يقول «فاما الارض فانها كرة موضوعة جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة، والنسيم حول الارض وهو جاذب لها من جميع جوانبها الى الفلك، وبنية الخلق على الارض ان النسيم جادب لما في ابدانهم من الخفة والارض جاذبة لما في ابدانهم من الثقل لان الارض بمنزلة الحجر الذي يجذب الحديد والارض مقسومة بقسمين بينهما خط الاستواء وهو من المشرق الى المغرب وهذا طول الارض وهو اكبر خط في كرة الارض كما ان منطقة البروج اكبر خط في الفلك».

ويقول الادريسي في فاتحة «نزهة المشتاق»:

«الارض مستقرة في جوف الفلك، وذلك لسرعة الفلك وجميع المخلوقات على ظهرها والنسيم جاذب لما في ابدانهم من الخفة، والارض جاذبة لما في ابدانهم من الثقل بمنزلة المغنطيس الذي يجذب الحديد. والارض مقسومة بقسمين بينهما خط الاستواء وهو من المشرق الى المغرب وهذا هو اطول خط في الارض، كما ان منطقة البروج اكبر خط في الفلك»

ويضيف الادريسي: «ومع ان الارض كرة هي غير صادقة الاستدارة، منها منخفض ومنها مرتفع، والبحر محيط بنصف الارض احاطة متصلة دائر بها كالمنطقة لا يظهر منها الا نصفها وهو ما دارت عليه الشمس في قوس النهار مثل بيضة مغرقة في ماء انكشف منها ما انكشف وانغمر ما انغمر».

والخلاصة ان الادريسي يمثل القمة التي وصل اليها العلم الجغرافي في الشرق والغرب على السواء، فقد اخذ من علم اليونان خلاصة ما فيه واخذ عن مدرسة المسالكيين فكرة عمل الخرائط والاطالس واعتبارها اساس الجغرافية وطوّر هذه الناحية من اطلس الاسلام الى اطلس العالم، وذلك هو تجديده الاكبر فهو اول جغرافي في التاريخ نظر هذه النظرة العامة وسما الى مفهوم عالمي للعلم الجغرافي وحقّ له بذلك ان يوصف بانه اعظم جغرافي ظهر في الدنيا الى مطالع العصر الحديث.

ابو حامد الغرناطي:

ولد في غرناطة سنة ٤٧٣/١٠٨٠، غادر الاندلس حوالي سنة ٥٠٠/١١٠٦ وليس في كتابه ما يشير الى عودته الى وطنه.

لم يصل الينا من كتبه سوى كتاب «تحفة الالباب ونخبة الاعجاب» و«المغرب عن بعض عجائب المغرب».

في الباب الثالث من كتاب «تحفة الالباب ونخبة الاعجاب» صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار وما في جزائرها من النفط والنار، فيتحدث عن البحر المحيط ويعرف ببحر الظلمات لا تدخله السفن، وبحر الهند خليج منه وبحر الصين خليج منه وبحر القلزم (البحر الاحمر) خليج منه وبحر فارس خليج منه.

وينتقل الى بحر الخزر وهو بحر عرفه وركب مياهه ويقف طويلا عند منطقة باكو وهي منطقة البترول.

ويقول كرتشكوفسكي عنه: «من المستحيل تجاهل الغرناطي في تاريخ الادب الجغرافي

فهو قد اكتسب شهرة عريضة لدى جمهرة القراء لان المنهج الذي ابتدعه في الجمع بين معطيات واقعية دقيقة وضروب من العجائب مختلفة قد راق كثيرا للاجيال التالية وقد اتسعت قراءة مصنفه واستنساخه بصورة ملحوظة».

وقد حقق «سيزار دبلير» لابي حامد مخطوطا في المكتبة التابعة لاكاديمية التاريخ بمدريد، يصف فيه ابو حامد رحلاته الى البلاد الاوروبية الاسيوية.

ويقول انه نزل عند احد الامراء وقرأ عليه الامير كتاب المقنع للمحاملي في الفقه وكان هذا الامير يعرف اربع عشرة لغة منها العربية والفارسية والتركية ويقول ابو حامد:

«واضافتني اخت هذا الامير يوما، فقالت لاخيها: اسال هذا الرجل، فاني اكون مع زوجي واحتلم، فهل يجب علي الغسل؟ فتعجبت منها وقلت لها: قد سالت امرأة من الانصار رسول الله صلعم، عن مثل هذا فقال: اذا رات الماء تغتسل وقال رسول الله: نعم النساء نساء الانصار لم يمنعهن الحياء ان يتفقهن في الدين».

ثم يصف بلاد البلغار فيقول: «وبلغار ايضا مدينة عظيمة جميعها مبنية بخشب الصنوبر وسورها من خشب البلوط وحولها من الامم ما لا نهاية له وهي خارجة من الاقاليم السبعة فاذا طال النهار كان طوله عشرون ساعة والليل اربع ساعات واذا كان الشتاء طال الليل عشرين ساعة والنهار اربع ساعات.

ويوجد في ارضهم من عظام قوم عاد، السن الواحد عرضه شبران وطوله اربعة اشبار ورأسه مثل القبة... انتقل الى بلاد الصقالبة فيقول: «ولما دخلت الى بلاد الصقالبة خرجت من بلغار وركبت سفينة في نهر الصقالبة ماؤه اسود مثل ماء بحر الظلمات، كانه الحبر وهو مع ذلك حلو طيّب صاف ليس فيه سمك وفيه الحيات السود الكبار بعضها على بعض اكثر من السمك لا تؤذي احدا.

ورأيت في بلغار رجلا من نسل العاديين طوله اكثر من سبعة اذرع كنت اصل الى حقوه، ياخذ الفرس المذبوح فيكسر عظامه ويقطع جلده واعصابه في لحظة واحدة بسرعة ولا اقدر ان اقطعه بالفاس بتلك السرعة وكان يقاتل بالخشبة العظيمة الطويلة من خشب البلوط الذي لا يقدر رجل قوي ان يرفع تلك الخشبة تكون في يده كالعصاة في يد احدنا.

علي بن سعيد:

وهذا جغرافي اندلسي آخر يهمنا منه وصفه للبحر الابيض يقول عنه:

«ومخرج بحر الروم المتصاعد الى الشام هو ساحل الاندلس الغربي بمكان يقال له «الخضراء» ما بين طنجة من ارض المغرب وبين الاندلس فيكون مقدار عرضه هناك كما زعموا ثمانية عشر ميلا وهذا عرض جزيرة طريف الى قصر مصمودة بالقرب من سبتة. هناك قنطرة يزعم الناس ان الاسكندر بناها ليعبر عليها

من بر الاندلس الى بر العدوة ، ويعرف هذا الموضع بالزقاق وهو صعب المجاز لانه مجمع البحرين لا تزال الامواج تتطاول فيه والماء يدور وطول هذا الزقاق الذي عرضه ثمانية عشر ميلا مضاعف ذلك الى ميناء سبتة ومن هناك يأخذ البحر في الاتساع الى ثمانمائة ميل وازيد ومنتهاه مدينة صور من الشام وفيه عدد عظيم من الجزائر».

وقد استفاد ابن سعيد من جميع الجغرافيين الذين سبقوه ومنهم ابن فاطمة من اهل القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.

ويدل كلام ابن فاطمة على علم دقيق باحوال افريقية واهلها وما يلي الحزام الصحراوي جنوبا فهو من اهل السودان الغربي طاف في رحلاته بالسواحل الافريقية كلها حتى وصل الى الصومال والحبشة واوغل داخل القارة ورأى منابع النيل ، وقد عرف ابن سعيد قيمة نص بن فاطمة فقبس منه فقرات طوالا عن افريقية ، فاذا ذكرنا ان اقدم معلوماتنا الجديرة بالثقة عن هذه النواحي الافريقية ترجع الى ابي عبيد البكرى القرن الحادي عشر الميلادي ثم يكملها الادريسي القرن الثاني عشر ثم ابن فاطمة النصف الثاني من نفس القرن برواية ابن سعيد النصف الاول من القرن الثالث عشر ثم ابن خلدون ، القرن الخامس عشر تبيّنّا ان اربعة من هؤلاء مؤرخون جغرافيون اندلسيون او من اصول اندلسية وانهم تعاونوا على اختلاف العصور التي عاشوا فيها على ان يقدموا سلسلة معقولة مترابطة من المعلومات الجغرافية والتاريخية عن بلاد كان مجرد دخول الغريب اليها مغامرة لا تؤمن عواقبها فكيف بجمع المعلومات والربط بينها وسياقها ذلك المساق اللطيف الذي نجد نماذج ممتازة منه ، كما يقول مؤنس في «الجغرافية والجغرافيون».

والذي يستوقف النظر هو دقة ابن سعيد في توقيع المدن والمعالم الجغرافية بالنسبة لخطوط الطول والعرض التي سار عليها ، فسواء ارسمت خطوط الطول بالنسبة لخط يمر بالجزائر الخالدات او بالخط الذي يمر بقبة ارين او بالخط المار بغنرنيتش فان العبرة الحقيقية انما هي في سلامة تطبيق هذا الاساس بعد ذلك وفي تيسره لنا معرفة مواقع المواضع بعضها بالنسبة لبعض.

الحميرى :

الروض المعطار :

اننا امام معجم جغرافي مرتب على الحروف كاحسن ما تكون معاجم الجغرافية ولا يقلل

من سلامة هذا الحكم ان معظم الكلام فيه نقل عن الادريسي او البكرى. ان الرجل قدّم لنا مادة جغرافية صحيحة دسمة عن المواضع التي اختارها لمعجمه. انه لم يقتصر على المدن والاقطار بل شمل بعض المحيطات والبحار والجزر واورد في هذه المواد معلومات جغرافية تدل على فهم وتصور علمين صحيحين. ومن امثلة ذلك كلامه عن «اقيانس» والمراد به البحر العظيم: «من العسير علينا تصور ذلك البحر المحيط او اقيانس الذي كان يدور بالارض وتتشعب منه بحارها ولكن كتاب الجغرافية لابي بكر الزهرى يقرّب لنا هذا المفهوم بعض الشيء، فهو يقسم الماء المحيط باليابس من الارض الى طوقين: الطوق الازرق وهو الدائر بجميع اجزاء الارض وهو صفة البحر المعروف ببحر الظلمة، والطوق الاخضر وهو صفة البحر المحيط بالارض واجزائها، وعلى هذا يكون اليابس محاطا ببحر كبير دائر حوله هو المعروف بالطوق الازرق، وهذا الطوق المحيط باليابس جزء من الارض نفسها وهو الذي يتفرع منه البحار التي تخلل اليابس كالبحر الابيض وبحر الهند وبحر الصين، فقد كانت هذه البحار عندهم اشبه بخلجان تتفرع من بحر الظلمة وهو الطوق الازرق هذا، ويحيط بهذا الطوق الازرق بحر واسع واشمل وهو المعروف بالطوق الاخضر وهو البحر الكبير الذي يحيط بكرة الارض من الجهة الاخرى كما يحيط الماء في طبق باسفل كرة وضعت فيه، وهو مجرد تشبيه لان ذلك الغلاف المائي المحيط بالجهة الاخرى من الارض شبيه بغلاف الثلج الذي يغطي القطب الجنوبي مثلا. والتقسيم الى نطاق ازرق ونطاق اخضر انما هو تقسيم بالنسبة للقرب من شواطىء اليابس والبعد عنها، فالمياه القريبة من اليابس زرقاء والبعيدة عنه خضراء».

واقيانوس او الطوق او البحر الاخضر كان المجهول الاكبر في نظر الجغرافيين جميعا خلال العصور القديمة والوسطى ما بين مسلمين وغير مسلمين. ويصوّر لنا الادريسي موقف الحيرة والرهبة الذي وقفه العقل البشري من هذا المجهول الاكبر الى ايامه. قال في كلامه عن الاندلس:

«وسميت» جزيرة الاندلس «بجزيرة لانها شكل مثلث وتضيق من ناحية شرق الاندلس حتى تكوّن بين البحر الشامي والبحر المظلم المحيط بالاندلس خمسة ايام، وراسها العريض نحو من سبعة عشر يوما، وهذا الراس هو في اقصى المغرب في نهاية انتهاء المعمور من الارض محصور في البحر المظلم ولا يعلم احد ما خلف هذا البحر العظيم ولا وقف منه بشر على خبر صحيح لصعوبة عبوره واظلامه وتعاظم موجه وكثرة اهواله وتسلط دوابه وهيجان رياحه».

اما التصور الشعبي وهو قائم على حكايات الملاحين والسفّار فلا يعطي عن هذا المحيط هذه الصورة الرهيبة بل يرسمها في صورة شاعرية نسجها الخيال الساذج على اساس بعيد من تجارب حقيقية وهذه الصورة نجدها عند محمد بن عبد المنعم الحميرى في كلامه عن قادش

وصنمها الذي كان موضعا لاساطير وحكايات وتخيلات عند اهل الاندلس وقد رأينا بعضها عند ابي بكر الزهرى ونورد فيما يلي فقرة الروض المعطار:

«ويزعم اهل جزيرة قادش انهم لن يزالوا يسمعون ان الراكب في هذا البحر ان الجّ فيه وغاب عنه صنم قادش بدا له صنم ثان مثله فاذا وصلوا اليه وجاوزوه حتى يغيب عليه بدا له صنم ثالث فاذا تجاوزوا سبعة اصنام صاروا في بلاد الهند، وهذا مستفيض عندهم، معروف جار على السنتهم ولم يزل ياخذه آخرهم عن اولهم».

ابن جبير:

ولد في بلنسية او شاطبة في ١٠ ربيع الاول سنة ٣١/٥٤٠ اغسطس آب ١١٤٥ في بيت عربي اندلسي يرجع نسبه الى رجل من رجال طلعة بلج بن بشر القشيرى وتوصل لان يكون كاتبا لابي سعد بن عبد المؤمن في دولة الموحدين بالاندلس.

غادر ابن جبير غرناطة في رحلته الاولى سنة ١١٨٣ في صحبة صديق له من المشتغلين بالطب يسمى احمد بن حسان كان يعمل معه في الكتابة في الديوان الموحدى، استغرقت رحلة ابن جبير من غرناطة الى جدة خمسة اشهر هجرية وستة وعشرين يوما. ثم توجه الى دمشق واستطاع الوصول الى عكا حيث اكترى مكانا في سفينة جنوبية كان قصدها مدينة مسينة بجزيرة صقلية، يصفها ابن جبير بالضخامة والعظمة ومقارنة بين وصفه السفينة التي عبر عليها من عيذاب الى جدّة ووصفه لتلك الشفينة الجنوية توضح البون الشاسع بين صناعة السفن وفنون البحر عند المسلمين والنصارى في اواخر ذلك القرن الهجري.

قال في وصفه السفينة التي نقلته من عيذاب الى جدة:

... والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني ملفقة الانشاء ولا يستعمل فيها مسمار البتة انما هي مخيطة بامراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه الى ان يتخيط ويفتلون منه امراسا يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل، فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن او بدهن الخروع او بدهن القِرْش وهو احسنها، وهذا القرش (بكسر القاف وتسكين الراء حوت عظيم في البحر يبتلع الغرقى فيه. ومقصدهم في ذهن الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسماري. وعود هذه الجلاب من شرعها المنسوجة من خوص شجر المقل (بضم الميم وتسكين القاف)، مجموعها متناسب في اختلال البنية ووهنها. فسبحان مسخرها على تلك الحال، والمسلم فيها لا اله الا سواه.

ولاهل «عيذاب» في الحجاج احكام الطواغيت، وذلك انهم يشحنون بهم الجلاب

حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كانها اقفاص الدجاج المملؤة يحمل اهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء حتى يستوفي صاحب الجلبة منهم ثمنها في طريق واحدة ولا يبالي بمَا يصنع البحر بها بعد ذلك ويقولون: «علينا بالالواح وعلى الحجاج بالارواح». وهذا مثل متعارف بينهم».

وقال في وصفه السفينة التي استقلها من عكا الى مسينة:

«وصعدنا الى المركب وهو سفينة من السفن الكبار، بمنة الله على المسلمين زود بالماء والزاد، وحاز المسلمون مواضعهم بالانفراد عن الافرنج وصعده من النصارى المعروفين بالبلغاريين، وهم حجاج بيت المقدس، عالم لا يحصى ينتهي الى ازيد من الفي انسان... وقل الزاد بايدي الناس ولكن هم في هذا المركب بمنة الله في مدينة جامعة المرافق، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد من الخبز والماء ومن جميع الفواكه والادم كالرمان والسفرجل والبطيخ السندى والكمثرى والشاه بلوط والجوز والحمص والباقلاء نيّا ومطبوخا، والبصل والثوم والتين والجبن والحوت وغير ذلك مما يطول ذكره. عاينا جميع ذلك يباع». (رحلة ابن جبير، صفحة ٣٠٣-٣٠٤)

ووصل ابن جبير الى مسينة يوم السبت ٢ رمضان ١٨/٥٨٠ دسمبر كانون الاول ١١٨٤، بعد اهوال اشرف معها على الموت، آخرها ان تحطمت السفينة في مدخل مسينة وانتقل ابن جبير ومن معه الى البر في زوارق اقبل بها نواتية من الشواطىء. واقام في ذلك البلد عشرة ايام ووصف لنا بركان «اتنا» اصدق وصف:

ويحدثنا عن الملك «غليالم» فيقول عنه: «وشان ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب وكلهم او اكثرهم كاتم ايمانه متمسك بشريعة الاسلام، وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم في احواله والمهم من اشغاله حتى ان الناظر في مطبخته رجل من المسلمين، وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كبيرة هم اهل دولته والمرتسمون بخاصته وعليهم يلوح رونق مملكته لانهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة وما منهم الا من له الحاشية والخول والاتباع.

ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الانيقة وله بمسينة قصر ابيض كالحمامة مطل على ساحل البحر، وهو كثير الاتخاذ للفتيان والجوارى، وليس في ملوك النصارى اترف في الملك ولا انعم وهو يتشبه بالانغماس بالنعيم وترتيب قوانينه ووضع اساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم ابهة الملك واظهار زينته بملوك المسلمين. وملكه عظيم جدا وله الاطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى انه متى ذكر له طبيب او منجم اجتاز ببلاده، امر بامساكه وادر له ارزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه، والله يعيذ المسلمين من الفتنة به بمنه، وسنه نحو الثلاثين سنة ومن عجيب شانه المتحدث به انه يقرأ

ويكتب بالعربية وعلامته على ما اعلمنا به احد خدمته المختصين به «الحمد لله حقّ حمده». وكانت علامة ابيه «الحمد لله شكرا لانعمه».

واما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن ومن اعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى بن فتيان، الطراز، وهو يطرز بالذهب في طراز الملك: ان الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله ولهن في فعل الخير امور عجيبة. واعلمنا انه كان في هذه الجزيرة زلزال مرجفة ذعر لها هذا المشرك، فكان يتطلّع من قصره فلا يسمع الا ذاكرا الله ورسوله من نسائه وفتيانه وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم: ليذكر كل واحد منكم معبوده ومن يدين به تسكينا لهم.

واما فتيانه الذين هم عيون دولته واهل عمالته في ملكه فهم مسلمون وما منهم الا من يصوم الاشهر تطوعا وتاجرا ويتصدق تقربا الى الله وتزلفا ويفتك الاسرى ويربي الاصاغر منهم ويزوجهم ويحسن اليهم ويفعل الخير ما استطاع، وهذا كله صنع من الله عز وجلّ لمسلمي هذه الجزيرة وسر من اسرار الله به. لقينا منهم بمسينة فتي اسمه عبد المسيح من وجوههم، احتفل في كرامتنا وبرنا وباح لنا بسره المكنون بعد مراقبة منه مجلسه، فسالنا عن مكة وعن مشاهدها المعظمة ومشاهد الشام، فاخبرناه وهو يذوب شوقا وتحرقا.

ولهذا الملك بمسينة المذكورة دار صنعة البحر تحتوى من الاساطيل على ما لا يحصى عدد مراكبه وله بالمدينة مثل ذلك».

ويصف البركان فيقول: «وابصرنا عن يميننا في البحر تسع جزر قد قامت جبالا مرتفعة تخرج منها النار دائما وابصرنا الدخان صاعدا منها ويظهر بالليل نارا حمراء ذات السن تتصاعد في الجو وهو البركان المشهور خبره واعلمنا ان خروجها من منافس في الجبلين المذكورين يصعد منهما نفس بخارى بقوة شديدة تكون منه النار وربمّا قذف فيها الحجر الكبير فتلقى به في الساعة الى الهواء بقوة ذلك النفس وتمنعه من الاستقرار والانتهاء الى القعر وهذا من اعجب المسموعات الصحيحة».

واما الجبل الشامخ الذي بالجزيرة المعروف بجبل النار فشانه ايضا عجيب وذلك ان نارا تخرج منه في بعض السنين كالسيل العرمرم فلا تمر بشيء الا احرقته».

ويقول ابن جبير صاحب الرحلة الشهيرة:

البحر مر المذاق صعب   لا جعلت حاجتي اليه

اليس ماء ونحن طين؟   فما عسى صبرنا عليه؟

لاجل الوصول الى معلومات ادق من المعلومات التي وصل اليها البيروني والادريسي كان لا بد من وسائل وادوات احسن وادق مما كان عندهم فان مراكب تلك العصور لم تكن

تستطيع عبور البحار الا على الاخطار التي وصفها ابن جبير في رحلته الصغيرة نسبيا فقد كانت سفنا صغارا غير متقنة الصنع يتسرب اليها الماء بسهولة وباستمرار ولا تقدر ان تقطع بامان الا رحلة الاسبوع في بحر ساكن كصفيحة المرآة فان سفن التجارة كان يبنيها في العالم العربي افراد لا تصل رؤوس اموالهم الى ان تعمر من السفن اكثر مما عمرت ومعرضة للعطب من قبل العواصف والانواء ، وان بعض السفن التي تجري في البحر الاحمر كانت تبنى لرحلة واحدة وكان صاحبها يحسب حسابه على ان يسترد تكاليف بنائها في هذه الرحلة الواحدة. ونتج عن ذلك ان التجارة البحرية ظلت محدودة حجما ومدى ، بل اخذت تتضاءل مع استمرار ضعف الحكومات وعجزها عن القيام بمسؤولياتها حيال شعوبها وطمعها المتزايد باموال الرعية.

وكانت النتيجة من كل هذا ان تجارة البحر المتوسط خرجت من ايدي المسلمين وقد تعودنا ان نربط بين ضياع تجارة البحر المتوسط من ايدي المسلمين واضمحلال اساطيل الدول الاسلامية فيه وهذا غير صحيح لان الذين انتزعوا سيادة طرق البحر من ايدي المسلمين لم يكونوا اقوى منهم سياسيا وعسكريا. ودولة الاردمانيين التي قامت في صقلية في القرن الحادي عشر الميلادي لم تكن اقوى من دولة الفاطميين والايوبيين والمرابطين والموحدين ، وكذلك الجمهوريات الايطالية التي ورثت عن المسلمين مياه ذلك البحر لم تكن تضاهي تلك الدول الاسلامية قوة ولكنها دول جديدة للحكم في نظرها مفهوم آخر. فدولة الاردمانيين في صقلية دولة قوم اذكياء رضي الناس عنهم فخدمهم العرب والبيزنطيون في الجزيرة ولم يتدخل هؤلاء الملوك في عقائد الناس وثقافتهم وشؤونهم الخاصة الا بالقدر الذي اضطرت اليه روح العصر ، فسعد الناس بظلهم وانتفعوا هم بهم ونشطت التجارة وانتظمت الملاحة.

واما الجمهوريات الايطالية فكانت عبارة عن جماعات من التجار والملاحين تشتري من امراء نواحيها حرية العمل في مدينتها ومساحة ضيقة من الارض حولها مقابل ضريبة سنوية تؤديها لاولئك الحكام. وما يكاد الاتفاق يتم حتى تتحول موانىء اولئك التجار الى مراكز كبرى للتجارة والنشاط البحري فتقوم فيها دور الصناعة والمخازن والاسواق والمصارف وتبنى السفن وتمضي في كل سبيل وينشىء التجار واهل الصناعة والمال مجلسا للحكم مهمته الرئيسية حماية الاموال والمتاجر والسفن وحفظ حقوق البحار والملاحين ، فتربو الثروات

ويثرى البلد وينشىء اهله القصور الفخمة والمخازن الضخمة والحصون والاسوار ووسائل الدفاع والاساطيل المحاربة لتعقب قراصنة البحر.

ارتقى فن بناء السفن بفضل وجود رؤوس الاموال القادرة على انشائها، فقامت سفن متينة تخوض البحر والسفر في رحلات بعيدة والصمود في وجه العواصف والامواج، يقودها ربابنة وملاحون ماهرون جابوا البحار الواسعة وجمعوا معلومات دقيقة وادلوا بها الى رجال مهروا في رسم الخرائط في تلك الموانىء الايطالية مثل «جنوى» «وبيزة» «واملفي» وموانىء الجزر الشرقيات فنشأت الخرائط المرفئية.

فحركة الكشوف الجغرافية في حقيقتها ليست سوى نتيجة مباشرة لتقدم فنون الملاحة وادواتها واتساع المعلومات الجغرافية. وعندما نقول ان «كريستفورو كلومبو» اكتشف العالم الجديد ننسى انه ما كان يستطيع الوصول الى شيء من هذا لولا العلم الذي تجمع بين يديه عن الارض وما فيها، واساس الجزء الرئيسي من هذا العلم عربي ولولا الحاكم الذي فهم كلامه ولمح احتمالات الثروة والقوة فافرغ عليه الاموال وحشد له الملاحين المهرة ومكنّ له الصمود في البحر ثلاثة اشهر سويّا حتى يصل الى الشاطىء الموعود، ولا يشوب ذلك انه كان يحسب انه وصل الى شاطىء الهند او الصين كما قرأ عند ابي عبيد البكرى، فقد كان اسعد خطأ في التاريخ وهو كذلك خطأ قام على صواب كبير ونقول انه لو لم يكن مجرد مصادفة ان الشريف الادريسي لم يجد مكانا يعمل فيه ويبدع الا في بلاط الاردمانيين وابن جبير في رحلته الكبرى من المغرب الى المشرق ذهابا وايابا على سفن جنوية (الجغرافية والجغرافيون: الدكتور مؤنس).

الخرائط البحرية:

انها خرائط عملية استعملها اهل البحر في رحلاتهم وقد عرف الملاحون العرب هذا النوع من الخرائط فيما يتصل ببحار آسية والبحر المتوسط ويقول المقدسي عن المحيط الهندي:

«اما انا فسرت فيه نحو الفي فرسخ ودرت على الجزيرة العربية من القلزم الى عبدان، سوى ما توهّت بنا المراكب الى جزائره ولججه، وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشأوا من ربانيين ووكلاء وتجار ورايتهم من ابصر الناس به وبمراسيه ورياحه وجزائره فسالتهم عنه وعن اسبابه وحدوده ورايت معهم دفاتر في ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بمّا فيها». (المقدسي: احسن التقاسيم، ص ١٠ و ٥٥).

وكان الاعتقاد السائد ان الخرائط البحرية الايطالية هي النواة الاولى المعروفة للخريطة

البحرية. حددت جنوى مكانا لنشأة هذه الخرائط ونسب ابتكارها الى امير البحر بندتو زكريا (١٢٦١–١٢٩٧).

ان نظرية الاصل الايطالي لهذا الفن لم تثبت بعد تماما، كما يقول «فرنيت في مقاله: هل هناك اصل اسباني – عربي لفن الخرائط البحرية؟» فابحاث فنتير الالماني قلبت الاوضاع راسا على عقب بعد ان درس المسألة مؤكدا ان الميورقيين كانوا اساتذة للجنويين.

اول اشارة الى خريطة بحرية في نص اوروبي ظهرت في كتاب «ملحمة القديس لويس» باللاتينية لغليوم دى ناجيش الذي يقول انه في سنة ١٢٧٠ اثبت القديس لويس التاسع الفرنسي في خريطة، المكان الذي كان فيه بعرض البحر وهو في طريقه الى تونس.

ان الشرق الاوسط كان حلقة اتصال بين الشرق والغرب ونقطة التقاء السياسة والحضارة مدة قرون طويلة وكان هذا الملتقى خاضعا في العصور الوسطى لنفوذ العرب الذين تنسب اليهم الاختراعات العلمية التي ادخلوها الى اوروبة بعد تشبعهم بالحضارة الهندية والايرانية والاغريقية. كانت الفكرة السائدة ان العرب ليست لهم خبرة بالبحر ولكن الكتاب الاول الذي نحتفظ به بلغتهم هو القرآن، لا يمل من التأكيد ان جميع الفوائد التي تحصل عليها قريش من التجارة البحرية، ترجع الى الله وحده الذي يرسل الرياح عندما يشاء وبيده هياج البحر وسكونه.

ومهما يكن من امر فان المسلمين سيطروا بعد نصف قرن من الهجرة على سواحل لبنان وفارس صاحبة القوة البحرية الهائلة في العصر الساساني، فبلاد فارس ولبنان اعطيا الاسلام اوائل ملاحيه العظام، هزموا الاساطيل البيزنطية عدة مرار في البحر المتوسط وجعلوا من هذا البحر الذي ازعج عمر بن الخطاب من قبل والذي لعنه رسول الله في حديث له، ومن المحيط الهندي ميدانا لتحركات السفن العربية فالبحران اللذان ورد ذكرهما في القرآن الكريم سيطر عليهما العرب تماما. ومنذ اوائل القرن الثامن الى اواخر القرن الحادي عشر كان العرب وحدهم الذين يمخرون بسفنهم عباب البحر المتوسط والمحيط الهندي من اقصاهما الى اقصاهما، وكونهم جابوا البحرين قضية لا جدال فيها، وفي البحر الاول لم يكتف العرب باحتلال جزره الرئيسية مثل الجزر الشرقيات وصقلية ومالطة... فقط بل انتهت الاساطيل الاموية والفاطمية في منازعاتها وسيطرت سيطرة كاملة على البحر وقواعده مثل بجاية وطرطوشة وتونس وطرابلس والاسكندرية فضلا عن قواعد صقلية فليس بمستغرب في مثل

هذه الاحوال ان تظهر بشكل غير عادي جمهرة من القراصنة المسلمين ويغلب على الظن انهم اسبان في سواحل جنوبي فرنسة وتصل غاراتهم حتى سويسرة ولمباردية وتتعرض ابولية وقلبرية بل رومة نفسها للنهب مما حمل نابولي و «امالفي» «وغايتة» من المدن الايطالية الى عقد تحالف مع المسلمين عند القيام بمشاريع بحرية ولم تسلم «بيشة» رغم قوتها البحرية من التعرض للنهب مرتين في سنتي ١٠٠٤ و ١٠١١ ، والواقع انه حتى احتلال النورمان لصقلية لم تستطع اي دولة ساحلية العيش بأمان دون ان تتعرض لغارة اسلامية سواء من اساطيل الخلافة الاموية او من «مجاهد» العامرى صاحب دانية بعد ذلك ١٠١٤ - ١٠٤٤ ، ثم من اساطيل بني غانية ، وللتخلص من اعتداءات هؤلاء القراصنة اتحدت برشلونة وبيشة في احتلال مدينة بلما بميورقة سنة ١١١٤ ولو ان ثمرة هذا الاحتلال وقتية الا انها كانت بمثابة النواة لاساطيل تلك المدينتين وبداية السيادة النصرانية على الجزء الغربي من البحر المتوسط .

يمكن القول ان الرحلات الاسلامية عبر المتوسط والمحيط الهندي في القرنين التاسع والعاشر كانت عديدة ويكفي ان نسوق البرهان التالي لازالة هذا الشك :

اسر ابن رماحس في عرض البحر اربعة من المعلمين اليهود الذين ارسلتهم اكادمية سورات في الهند لجلب اعانات اقتصادية من يهود الاندلس .

وفي القرن التاسع كان المسلمون واليهود يذهبون الى براغ لشراء الرقيق والقصدير والقندس ثم يعودون عن طريق نهر الرون وقطلونية الى ثغر بجانة حيث يخصى الرقيق ويباع كخصيان بسعر مرتفع سواء في الاندلس او في المشرق .

كان البحر الطريق العادي الذي سلكه الحجاج الى البيت الحرام ، واعتاد هؤلاء الحجاج استغلال هذه الرحلة ليتاجروا ويحصلوا على فوائد جمة . وكان ميناء الاسكندرية هو المرسى الطبيعي الكبير لنزول المسافرين . اما اذا واصلوا السفر نحو المحيط الهندي فانهم في هذه الحالة يسيرون بحرا حتى ميناء الفرما ومنه يعبرون الصحراء الى القلزم (السويس) في سبعة ايام ثم يبحرون من جديد نحو مسقط في عمان لمواصلة السفر على ظهراى مركب من مراكب الخط البحري المنتظم «سيراف كانتون» .

ويقول فرنيت ايضا : «ولدينا عن هذه الدورة الملاحية الاخيرة في المحيط الهندي كثير من الوثائق والفضل الاكبر الى الكتب المسماة بالعجائب التي تدور حوادثها احيانا في الهند واحيانا اخرى عن الصين.

ولعل هذا الطريق هو الذي سلكه الشيخ القادسي الذي طاف كثيرا في بحر الصين مستخفيا خلال القرن العاشر، وقد ادى تغير مفاجىء في اتجاه الرياح الى ابتعاد السفينة التي كان يختفي فيها هذا الشيخ عن ساحل كنتون فاتجهت نحو الجنوب وانتقلت حالة الجو من سيء الى اسوأ وبعد ثلاثة ايام رأى المسافرون خلال العاصفة ليلا ان الافق المتجهين نحوه يبدو وقد امتلأ نارا مخيفة فتوجهوا الى ربان المركب طالبين منه، وقد يئسوا من الحياة، قلب المركب في البحر والظلمة مفضلين الموت غرقا قبل ان يموتوا حرقا وقبل ان يرى بعضهم البعض ويسمع ما تفعل النار فيه، فاجابهم الربان:

«اعلموا انه قد جرى على المسافرين والتجار احوال هذا اسهلها وارحمها ونحن معشر الربابنة علينا العهود والمواثيق الا نعرض سفينة الى العطب وهي باقية لم يجر عليها قدر ونحن معشر ربابنة السفن لا نطلعها الا وآجالنا واعمارنا معنا فيها فنعيش سلامتها ونموت بعطبها فاصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر الذي يصرفنا كيف يشاء».

ويقول ابو زهر البرجاطي احد ملاحي سيراف ان الركاب لما ايسوا من الربان ضجوا بالبكاء والعويل وصار الربان اذا امر مناديه ان ينادي رجاله بجذب حبل او ارخائه ليصلح شان المركب فلا تسمع الرجال ذلك من دوى البحر وحسن تلاطم الامواج وهدير الرياح في القلوع والشرع والحبال وضجيج الخلائق فاشرف المركب على التلف.

وكان في المغرب شيخ مسلم من اهل قادش من الاندلس قد طلع الى المركب في ازدحام الناس عند طلوعهم ليلة السفر ولم يشعر به ربان المركب. وكان في زاوية من المركب مهجورة وهو مختف فيها خوف ان يعلم به فيؤنب ويوبخ، فلما رأى ما نزل بالناس وما هم عليه من الاخطار بانفسهم ومركبهم خرج اليهم وسالهم عما حدث فاجابوه قائلين:

الست معنا في المركب؟ اما ترى هذا البحر وامواجه وظلمة الهواء الذي لم نر معها نهارا ولا شمسا ولا قمرا ولا نجوما نهتدى بها؟ وقد دخلنا تحت سهيل واستحكمت البحار والرياح علينا واشد ما علينا هذا الحريق الذي نجرى اليه وقد ملأ الافق والغرق اهون علينا من الحريق. وقد سألنا الربان ان يقلب المركب بنا في البحر والظلمة لئلا يرى واحد منا صاحبه ونموت غرقا ولا نموت حرقا فيرى بعضنا البعض ونسمع ما تفعل النار فيه.

فقال: «اوصلوني الى الربان».

فاطلعوه عليه، فسلّم عليه بالهندية فرد عليه واخذه العجب من وجوده وقال له: من

انت؟ امن التجار ام من اتباعهم؟ فلا نعرفك في رجال المركب.

قال له: ما انا من التجار ولا من اتباعهم.

قال له: فمن اطلعك وما بضاعتك؟

قال له: اما من اطلعني فانا طلعت في جمهور الناس ليلة الاقلاع وآويت الى مكان في المركب.

قال له: ومن اين تأكل ومن اين تشرب؟

قال: كان ملاح المركب يضع الطعام قريبا مني صحفة ارز بسمن وكاس ماء لملائكة المركب فكنت اتقوت بذلك واما بضاعتي فقربة عجوة.

قال: فتعجب الربان منه واشتغل الناس في سماع حديثه عما كانوا فيه من الضجيج، واصلح الرجال ادوات المركب ومشى فيهم مناد بتدبير القلاع فاهتدى المركب.

فقال الشيخ: «يا ربان ما لهؤلاء القوم كانوا يبكون ويعولون؟».

قال له: اما ترى ما نزل بهم من هول البحر والرياح والظلمة واشد من ذلك ما نحن مدفوعون اليه في هذه النار التي ملأت الافق واني لقد ركبت هذا البحر وانا دون البلوغ مع ابي وكان قد اذهب عمره في ركوبه وها انذا اليوم قد أربيت على ثمانين سنة فما سمعت بمن سلك هذا المكان ولا من اخبر عنه.

فقال: يا ربان، لا باس عليك ولا خوف، انكم ستنجون بقدرة الله. هذه جزيرة يحيط بها ويكنفها جبال تنكسر عليها امواج البحار المحيطة بالارض فتنظر في الليل نار هائلة مرجفة يخافها الجاهل فاذا طلعت الشمس ذهب ذلك المرأى وعاد ماء، وهذه النار ترى من بلد الاندلس وقد عبرت عليها مرة هذه الثانية.

ويبدو ان الركاب نزلوا في هذه الارض الجديدة او هذه الجزيرة حيث مكثوا بعض الوقت الى ان زالت التقلبات الجوية ثم عادوا الى الهند.

والخريطة البحرية كانت معروفة لدى ربابنة المحيط الهندي ويؤيد ذلك ما قاله الجغرافي المقدسي المتوفي سنة ٩٨٩ في مقدمة كتابه:

«لم نر في الاسلام الا بحرين، احدهما يخرج من نحو مشارق الشتاء بين الصين وبلدان السودان فاذا بلغ مملكة الاسلام دار على جزيرة العرب كما مثلناه، وله خلجان كثيرة وشعب عدة وقد اختلف الناس في

وصفه والمصورون في تمثيله، فمنهم من جعله شبه طيلسان، يدور ببلد الصين والحبشة وطرف بالقلزم وطرف بعبدان».

وابو زيد المتوفي سنة ٩٣٤ جعله شبه طائر منقاره بالقلزم وعنقه بالعراق وذنبه بين الحبشة والصين. ورايته ممثلا على ورقة في خزانة امير خرسان، وعلى كرباسة عند ابي القاسم بن الانماطي بنيسابور وفي خزانة عضد الدولة والصاحب. واذا كل مثال يخالف الآخر واذا في بعضهن خلجان وشعب لا اعرفها واما انا فسرت منه نحو الفي فرسخ ودرت على الجزيرة من القلزم الى عابدان سوى ما توّهت بنا المراكب الى جزائره ولججه وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشأوا من ربابنيين ووكلاء وتجار ورايتهم من ابصر الناس به وبمراسيه ورياحه وجزائره، فسالتهم عنه وعن اسبابه وحدوده، ورايت معهم دفاتر في ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بمّا فيها، فعلقت من ذلك قدرا صالحا بعد ما ميزت وتدبرت ثم قابلته بالصور التي ذكرت.

وبينا انا يوما جالس مع ابي علي بن حازم انظر في البحر ونحن بساحل عدن اذ قال لي:

«ما لي اراك مفكرا؟

قلت: «ايد الله الشيخ، قد حار عقلي في هذا البحر لكثرة الاختلاف فيه، والشيخ اليوم من اعلم الناس به لانه امام التجار ومراكبه ابدًا تسافر الى اقاصيه، فان راى ان يصفه لي اعتمد عليها وارجع من الشك اليها فقال: على الخبير سقطت. ثم مسح الرمل بكفه ورسم البحر عليه، لا طيلسان ولا طير، وجعل له معارج متلسنة وشعابًا عدة».

ثم قال:

«هذه صفة هذا البحر، لا صورة ولا غيرها وانا اصوره ساذجا وادع الشعب والخلجان الا شعبة «ويلة» لشهرتها وشدة الحاجة الى معرفتها وكثرة الاسفار فيها فادع ما اختلفوا فيه وارسم ما اتفقوا عليه».

ويستمر المقدسي في وصفه للبحر معينا الاماكن الهامة فيه ونظام المد والجزر حتى يصل الى بحر هركان وهو المسمى الآن بخليج بنغال. ثم يذكر ان المحيط الهندي بحر قد شمله الله بعنايته فمنحه مواسم منتظمة اتاحت وجود طريق ملاحي منتظم فيه، وهذا على العكس من البحر المتوسط الذي انزل الله عليه لعنته وجعل طقسه قلبا. ولا يمدنا المقدسي الا بقليل من المعلومات عن هذا البحر المتوسط ولعل ذلك يرجع الى انه يعوزه رواية ثابتة.

ونفس الامر يمكن ان يقال عن كتاب الاصطخرى (ت ٩٥٠) وشانه في ذلك شان كتاب المقدسي او ابن حوقل الذي اقتبس معلوماته من مصدر سابق اعني كتاب ابي زيد البلخي وقد انتقلت التجارة الاسلامية في زمن هذا الاخير من سيراف الى عمان ثم انتقلت في المرحلة الاخيرة الى عدن التي تعد اليوم اهم ميناء في جنوب شبه الجزيرة العربية.

وتبرهن لنا الاشارات السابقة على ان ملاحي المحيط الهندي في اواسط القرن العاشر كانوا يسافرون بواسطة او بمعاونة كتاب المسالك والخرائط البحرية التي وان كانت وقتئذ بدائية ناقصه فانها تحسنت بعد ذلك في سنة ١٠٠٩/٤٠٠ بواسطة المعلم او مستعلم المراكب جوازير بن يوسف الاريكي الذي وضع اسس المسالك البحرية العربية بعد ان قام برحلة في مركب الهندي «دَبَوْكَارَه» التي سنسميها فيما بعد «رهنماش» ، بعد ان ادخلت عليها تحسينات عدة وتردد صداها في مخطوط مجهول في القرن الرابع عشر حتى وصل آخر الامر الى حوزة ابن ماجد ربان رحلة بشكو دى غاما.

ومن هنا نرى ان ملاحي المحيط الهندي قاموا برحلاتهم ومعهم كتب المسالك البحرية قبل ان يعرفها اخوانهم الاوروبيون بعدة قرون. كما يلاحظ ايضا ان المقدسي عندما اشار الى الخريطة البحرية فرّق بينها وبين الخرائط الفنية التي يعدها علماء اليابسة لتقديمها للملوك والامراء...

والى جانب النصوص السابقة يمكننا ان نضيف اخرى اكثر قيمة للباحث الغربي على الاقل: يقول الرحّالة مركو بولو المتوفي سنة ١٣٢٤ : «ان جزيرة سيلان ذات مساحة كبيرة اذ يبلغ محيطها ٣٦٠٠ ميل حسبما هو مبين في خريطة العالم لملاحي هذا البحر. واشارة ماركو بولو الى خريطة العالم لملاحي المحيط الهندي قبل ١٢٩٥ والمعروف انه وصل اوروبة في هذا العام. فمن العدل ان نقول ان خرائط المحيط الهندي سابقة لاى خريطة اوروبية معروفة الى اليوم بما في ذلك خرائط «بيشة» والمغرب. PIZA

وفي هذه الفترة تقريبا كانت رحلة الجنوى بوسكاريللو «الذي ارسله «ارغون» خان فارس سنة ١٢٨٩ الى فليب الرابع الجميل ملك فرنسة مقترحا عقد تحالف معه. وبعد رحيل الرسول المذكور اراد ارغون ان يعرف الطريق الذي سلكه وفي اي بقعة من العالم هو، وعندئذ تبادل قطب الدين الشيرازى (١٣١١) خريطة وحقق رغبة الخان.

وكان العرب يجرون في المحيط الاطلسي بكثرة وذلك سوال لمصلحة تجارية او للحصول على معلومات ذات قيمة علمية ، ولا ينبغي ان ننسى في هذا الصدد العرب وهم يحذون حذو النظام البطليموسي قد اتخذوا من احدى جزر المحيط الاطلسي مكانا لبداية او اصل خطوط الطول ولتكوين جداول للابعاد الاحداثية ، وكانوا بحاجة على الاقل الى معرفة المسافة التي تفصل جزيرة الاصل هذه عن السواحل الغربية لافريقية وذلك لتحويلها بعد ذلك الى درجات تسمح لهم بزيادة خطوط الطول المختلفة. اي الجزر كانت هذه الجزيرة؟

كانت اقصى جزر كناريا س غربا اي جزيرة الحديد ١٨ درجة غرب غرينتش وهذا لا يمنع من احتمال كونها احدى جزر الراس الاخضر ٢٨ غربا ، او جزر الازور ٢٧ — ٢٨ درجة غربا اذ ان جداول القرن التاسع والعاشر تشير على الاقل نظريا الى بعض جزر واراضي جنوب مدار السرطان. وهذه المعلومات تعزى بلا شك الى بعض الرحلات البحرية على طول سواحلها.

يجدر بنا ان نشير الى رحلة بحرية قام بها رحالة غير معروف يسمى «ابن فاطمة» تجاوز فيها الراس الابيض ، ولدينا عن هذه الرحالة الذي طاف بقسم كبير من اوروبة انباء استبقاها لنا ابن سعيد واوردها لنا ابو الفداء المتوفي سنة ١٢٢١ ، واهم من ذلك خريطة العالم المحفوظة في الاسكوريال مخطوط رقم ١٦٣٦ وهي الآن مجهولة المؤلف وان كان الغزيرى ينسبها الى ابن الزيات ومهما يكن من شيء فالخريطة ترجع الى ما قبل ١١٩٨ وتصور ما كان يعرفه العرب في ذلك الحين من المحيط الاطلسي وهي مبسطة جدا وتمتاز بانها تصور لاول مرة خليج غينيا في ساحله الشمالي ، اما الساحل الجنوبي فهو خيالي يرجع بلا شك الى تحريفات الاساطير القديمة.

ويظهر ان القرن الرابع عشر قد اختتم دورة الملاحة العربية الكبرى في المحيط الاطلسي بالرحلتين المنكوبتين اللتين قام بهما محمد المنسوب الى «غاو» في طريق اميركا ، وشرع في رحلته الثانية حوالي سنة ١٣٠٧ وانتهت باختفاء اسطول حاكم «مانديغو» صاحب المشروع وتنسب الى هذه الفترة الاخيرة مؤلفات محمد بن قاسم النويرى ١٣٧٣ وهي غنية بالمعلومات عن الملاحين العرب ورحلاتهم...

ويرجع الى تلك الفترة تعميم جهاز على جانب عظيم من الاهمية في تاريخ الملاحة وهو البوصلة جهاز ضروري لتتبع الخرائط البحرية.

الصينيون هم اول من عرف ميزات حجر المغناطيس فانهم يعتقدون ان البوصلة كانت من اختراع اجنبي ، هندى ، فارسي عربي ، جاوى ويخبرنا «تشويو» الذي عاش حوالي سنة ١١٠٠ ان اول استعمال للبوصلة كان في بحر الصين على مركب متجه من سومطرة الى كانتون ، ونستنتج من هذا الخبران العرب عرفوا البوصلة في القرن الحادي عشر ولكنهم احتفظوا بسر تركيبها الذي كان يسمح لهم بمزاولة التجارة البحرية دون مراعاة مصلحة منافسيهم.

ويتوسع ران في تعيين الاسماء التي استعملها العرب لتحديد النقط الرئيسية في القرن الحادي عشر منتهيا الى ان المسلمين في اواسط ذلك القرن استعملوا بوصلة من الشحم. قد يكون مصيبا في كلامه الا انه من الثابت ان النصوص لم تشر الى البوصلة حتى الثلث الاول من القرن الثالث عشر وذلك عندما اشار محمد الوافي في كتابه «جوامع الحكايات» الى ان ربانا فقد طريقه في الخليج الفارسي اثناء عاصفة هوجاء ولم ينقذه ولم يرشده الى معرفة الطريق الا ابرة على شكل سمكة.

فنرى ان استعمال البوصلة في الملاحة كان شائعا في القرن الثالث عشر سواء كان في المحيط الهندي او البحر المتوسط. وادى استعمال البوصلة الى تأمين سلامة الرحلات البحرية وادخال تحسينات في تصميم الخرائط البحرية بطريقة يسهل بها حل مشكلة خط السير فامكن بذلك قيادة المركب في سرعة وسهولة. والمعروف اليوم ان مركاتور هو الذي حل هذه المشكلة في اواسط القرن السادس عشر.

والايطاليون يعتقدون ان ذلك التصميم يرجع الى «تسكنللي» TOSCANELLI ١٤٨٢ العالم الفلورنسي العليم في وصف الكون وتركيبه، وكان لافكاره تاثير على «كلمبو COLOMBO.

اذا، الخريطة الفارسية التي ترجع الى القرن الرابع عشر تمثل ابتكارا عبقريا، والذي لا شك فيه ان حفيظا ومستوفيا ١٣٤٩/٧٥٠ قد وضعا خرائط من هذا النوع وخريطة ثانيهما اي المستوفي تعد تطورا كاملا لذلك النوع من رسم الخرائط، وخريطته عن ايران في منتهى الدقة كما يمكن ان يقدر ذلك فيما يختص بخطوط العرض وان كان يعوزها بعض الدقة في خطوط الطول التي يبدأ تعدادها على وجه التقريب من خط طول ٣٤.

ونقل الخريطة المسطحة المربعة الى الغرب يمكن ان يكون قد تمّ على يد «سانودو مارينو»، عاش في القرن الرابع عشر، او «نيقولو دا كونتي» وهو احد الذين استقى عنهم توسكنللي او على يد آخر من المسافرين الكثيرين سواء كانوا تجارا او سفراء ممن غادروا الشرق الادنى في عصر تيمورلنك.

استعمل الادريسي الخرائط البحرية واستخدم البوصلة في تحديد الاتجاه وهذا يعني ناحية جديدة من نواحي امتيازه وسبقه على عصره فانه من المعروف ان ميلاد الجغرافية الحديثة وعلم الخرائط المصاحب لها لم يتيسرا الا عندما صرف الناس النظر عن آراء الاغريق

وتصورات النظريين في هيئة الارض واوصافها وعولوا على معلومات الملاحين واهل الرحلات المستمدة من الخبرة والممارسة الواقعية بفضل اعتمادهم على البوصلة وغيرها من ادوات القياس بدلا عن التعويل على النجوم وافلاكها وسموتها اي عندما تنبه الناس الى ان الجغرافية ليست علما نظريا ثانويا يقوم على مذاهب وتصورات وانما هي علم عملي اساسي لا بد ان يقوم على الحقائق الثابتة بالمشاهدة والخبرة والقياس والدراسة.

من هنا كان اتجاه الادريسي الى سوال الملاحين والرحالين والتجار واهل الاسفار وحرصه على القياس والتحقيق واستخدام الآلات.

ان اقدم خريطة صحيحة للبحر المتوسط خريطة عربية، ففي المكتبة الامبروزية في ميلانو خريطة لذلك البحر تسمى بالخريطة المغربية يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر الميلادي وهي اقدم من الخريطة المعروفة البيشية فان تسمية هذه الخريطة بالمغربية يدل على انها من صنع مغربي عربي وقد اقترح باحث اسباني تسميتها «بالخريطة العربية الاسبانية او الاندلسية»، وايا كانت تسميتها فهي عربية الاصل وقد صنعت على نفس الاساس الذي صنع به الادريسي خريطته وهي بالفعل تشبهها الى حد كبير مما ياذن لنا ان نضع الادريسي على راس القافلة التي انشأت علم الجغرافية الحديث وخرائطه.

وتجلي هذا التجديد الادريسي الشامل كلما امعنا النظر في ذلك الجزء الذي كتبه عن اسبانية الشمالية وبقية نواحي اوروبة.

الفصل الأول

أشبونة

مدينة على طريق العساكر، قديمة على سيف البحر تتكسر امواجه في اسوارها، وسورها رائق البنيان بديع الشان، وبابها الغربي قد عقدت عليه حنايا فوق حنايا على عمد من رخام مثبتة على حجارة من رخام وهو اكبر ابوابها. ولها باب غربي ايضا يعرف بباب الخوخة مشرف على سرح فسيح يشقه جدولا ماء يصبان في البحر. ولها باب قبلي يسمى باب البحر تدخل أمواج البحر فيه عند مده وترتفع في سوره ثلاث قيم وباب شرقي يعرف بباب الحمة والحمة على مقربة منه ومن البحر بمائين: ماء حار وماء بارد فاذا مدّ البحر واراهما. وباب شرقي ايضاً يعرف بباب «المقبرة». والمدينة في ذاتها حسنة ممتدة مع النهر لها سور وقصبة منيعة. والاشبونة على نحر البحر المظلم وعلى ضفة البحر من جنوبه قبالة مدينة الاشبونة حصن المعدن ويسمى بذلك لان عند هيجان البحر يقذف بالذهب التبر هناك. فاذا كان الشتاء قصد الى هذا الحصن اهل تلك البلاد فيخدمون المعدن الذي به الى انقضاء الشتاء. وهو من عجائب الأرض.

هكذا وصف الحميري مدينة اشبونة في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي.

قصدها «كلمبس» الملاح وفي الحال وجد فيها اصدقاء من اهل البحر قاسوا ويلاته واهواله. اجتماعهم في مقهى مندش MENDES.

وسأل أحدهم صديقه الجالس بقربه: هل تعرف شيئًا عن «بدره قوريّة؟» يا انريق.

– امس وصل قادمًا من المرفأ المقدس.

وبادر كريستفرو كلمبه بالسؤال : ومن هو بدره قوريّة؟ PEDRO CORRIA

– اجبْه انت يا «فشكه» VASCO

– لا أدري اذا ما كانت معلوماتي عنه تضيف شيئا على معلوماتك.

– قورية هو صاحب «المرفأ المقدّس» الجزيرة المكتشفة منذ فترة صغيرة، انه ملاح ماهر جريء لا يهاب الموت ولا يخاف الفوت، يلذّ سماعه وهو يروي قصص البحار والرحلات الطوال يسامر بها رجال البحر في ساعاتهم الطويلة لا تنقضي، فاني أبحرت معه حتى المرفأ المقدّس.

وسأل كلمبس عن مكانه حتى عثر عليه وعرض خدماته فأجابه بدره قوريّة :

– انت ايها الجنوى اكثر من ملاح واقل من قبطان وليس لك نصيب في خدمتي وفي مراكبي.

– عفوًا، سيدي، اذا اصررت في طلبي، اني مستعد للقيام بأي خدمة او بأي مهمة توكل اليّ لقاء كسرة رغيف وكوز ماء، ولا تندم اذا قبلتني في خدمتك، اعرف مسالك مجهولة. ايها السيد قورية تستفيد مني في امور كثيرة.

وقبله «بدره قورية» في خدمته بعد هذا الالحاح اللجوج، وما طال الامر حتى أصبح صديقه الحميم رغم ان احاديثهما لا تخلو من نقاش حادّ حامي الوطيس.

ووجد قورية انه بحاجة الى هذا الرجل الغريب الذي، عندما يتكلّم، تحسبه من جملة الانبياء الذين ينذرون ويهددون ويغفرون للناس ذلاتهم.

وأصبح الصديقان عديلين اذ ان كلمبس تزوج «فليبة» اخت زوجة قورية.

زواج بدون حب وغرام، انه من هذا النوع من الزواج الذي تمليه المصلحة دون ان يكون للغرام مكان فيه. حب هادئ وادع محبب للنفس، حب مخلص ومستمر.

وكثرت الرحلات البحرية في الجزر الافريقية الحارة.

جزيرة المرفأ المقدّس :

جزيرة حديثة العهد بالاكتشاف في الربع الاخير من القرن الخامس عشر، الواقعة في

المحيط الاطلسي تجاه الشواطئ البرتغالية. جزيرة حالمة هادئة أبعد جزيرة في المحيط قريبة من جزيرة مديرة MADEIRA.

اتّخذ كلمبس هذه الجزيرة مسكنًا له قرب زوجته «فيليبة» FILIPA العريقة الحسب والنسب وطفله دياغه الذي انجبه منها.

حياة وادعة يعتريها الملل والضجر. لم يسكن الجزيرة بمطلق ارادته. زوجته فيلبة ورثتها عن ابيها وشاءت الاقامة فيها الى جانب زوجها. بعيدة عن ضوضاء المدينة وصخبها يملكان عزبة كان والد فليبة «بريش تريلله» PERES يربي فيها الأرانب.

وكثيرًا ما كان يتنزّه على شواطئ هذه الجزيرة ويسرح الطرف في هذا المحيط، بحر الظلمات، كما سماه العرب، وسمع وقرأ ما كتبوه عنه وكم من مرة راودته نفسه بركوب هذا الاقيانس مثلما فعل قبله الفتية المغرورون في القرن الحادي عشر الميلادي لما كانت اشبونة في ايدي العرب لانهم شاءوا معرفة ما فيه والى اين انتهاؤه ولهم باشبونة موضع بقرب الحمة منسوب اليهم يعرف بدرب المغررين. وذلك ان ثمانية رجال كلهم ابناء عمّ اجتمعوا فابتنوا مركبًا وادخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر. ثم دخلوا البحر في أول طاروس الريح الشرقية فجروا فيها نحوًا أحد عشر يومًا فوصلوا الى بحر غليظ الأمواج كدر الروائح كثير التروش قليل الضوء فايقنوا بالتلف. فردّوا قلعهم في اليد الاخرى وجروا في البحر من ناحية الجنوب اثني عشر يومًا فخرجوا الى جزيرة الغنم وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل، وهي سارحة لا ناظر لها ولا راعي.

قصدوا الجزيرة ونزلوها فوجدوا عين ماء جارية عليها شجرة تين برى، فأخذوا من ذلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومها مرة لا يقدر احد على اكلها، فاخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب اثني عشر يوما الى ان لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها الى عمارة وحرث فقصدوا اليها ليروا ما فيها فما كان الا غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق فأخذوا وحملوا في مركبهم الى مدينة على ضفة البحر فأنزلوا في دار فرأوا بها رجالاً شقرا زعرا وشعورهم سبطة وهم طوال القدود لنسائهم جمال عجيب.

اعتقلوا في بيت ثلاثة ايام ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلّم باللسان العربي فسألهم عن حالهم وفيم جاءوا واين بلادهم؟ فأخبروه كل خبرهم فوعدهم خيرًا وأعلمهم انه ترجمان.

فلما كان في اليوم التالي من ذلك اليوم احضروا بين يدي الملك فسألهم عما سألهم عنه الترجمان فأخبروه بمَا اخبر به الترجمان بالأمس وانهم اقتحموا البحر ليروا ما فيه من العجائب وليقفوا على نهايته.

فلما علم الملك ذلك ضحك وقال للترجمان: «اخبر القوم ان ابي أمر قومًا من عبيده يركبون هذا البحر وانهم جروا في عرضه شهرًا الى ان انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير فائدة تجدى».

ثم وعدهم خيرًا وصرفوا الى موضع حبسهم الى ان بدأ جرى الريح الغربية فعمّر بهم زورقًا وعصبت اعينهم وجرى بهم في البحر برهة من الدهر. قال القوم قدرنا انه جرى بنا ثلاثة ايام بلياليها حتى جاء بنا الى البر فأخرجنا وكتفنا الى خلف وتركنا بالساحل الى ان تضاحى النهار وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حالة من شدة الكتاف حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس، فصحنا بجملتنا، فاقبل القوم الينا فوجدونا بتلك الحال السيئة فحلوا وثاقنا وسألونا فاخبرناهم بخبرنا وكانوا برابر. فقال لنا أحدهم: «اتعلمون كم بينكم وبين بلدكم؟ فقلنا: لا. فقال: مسيرة شهرين. فقال زعيم القوم: واأسفي. وسمي المكان الى اليوم «اسفي» وهو المرسى الذي في أقصى المغرب.

تلك قصة الفتية المغررين التي طالما سمعها وسمع غيرها مثل قصة خشخاش من فتيان قرطبة في جماعة من احداثها فركبوا مراكب استعدوها ودخلوا هذا البحر وغابوا فيه مدّة ثم أتوا بغنائم واسعة واخبار مشهورة[1].

وما من مرة يجري الحديث أمامه عن الملاحة حتى يهزه الحنين الى خوض غمار البحار وقد اعتاد عليه منذ نعومة اظفاره. وعندما يضمه مجلس يسأل الحاضرين ويستفهم عما شاهدوه والغرائب التي عاينوها في رحلاتهم في هذا المحيط الذي لا يدرك له آخر وقد أسهب الحميري في وصفه واعطاه العرب أسماء عديدة: لبلابة، البحر المحيط، بحر المغرب، البحر الغربي، بحر الظلمات وهو البحر الذي لا يعلم احد ما خلفه وفيه الجزائر الخالدات ولم يقف احد منه على خبر صحيح لصعوبة عبوره واظلامه وتعاظم موجه وكثرة أهواله وتسلّط دوابه وهيجان رياحه، وفيه جزائر كثيرة معمورة وخالية، وليس يركبه احد من الناس ملججًا، وانما يمرّ عليه بطول الساحل ولا يفارقه. وامواج هذا البحر تندفع مغلقة ولا ينكسر ماؤها ولو انكسر

(١) الحميرى: الروض المعطار ص ٥٠٩

موجه ما قدر احد على سلوكه. وكان اهل المغرب الأقصى من الأمم السالفة يغيرون على أهل الأندلس فيضرون فيهم كل الأضرار، واهل الأندلس أيضاً يكايدونهم ويحاربونهم جهد الطاقة، الى ان كان زمن الاسكندر ووصل الى اهل الاندلس فاعلموه بما هو عليه من التناكر مع اهل السوس. فاحضر الفعلة والمهندسين وقصد مكان الزقاق، وكان أرضاً جافة فأمر المهندسين بوزن الأرض ووزن سطوح ماء البحرين، فوجدوا البحر الكبير يشف علوه على البحر الشامي بيسير فرفعوا البلاد التي على الساحل من بحر الشام ونقلها من اخفض الى أرفع، ثم أمر ان تحفر الأرض التي بين طنجة وبلاد الاندلس فحفرت حتى وصل الحفر الى الجبال التي في أسفل الأرض، وبنى عليها رصيفاً بالحجر والجير افراغاً. وكان طول البناء اثني عشر ميلاوهو الذي كان بين البحرين من المسافة والبعد. وبنى رصيفاً آخر يقابله من ناحية طنجة وكان بين الرصيفين سعة سبعة اميال فقط.

فلما اكمل الرصيفين ودخل البحر الشامي فاض ماؤه وهلكت مدن كثيرة كانت على الشطين معًا وغرق اهلها وطغى الماء على الرصيفين نحو احدى عشرة قامة، فاما الرصيف الذي يلي بلاد الاندلس فانه يظهر في أوقات صفاء البحر من جهة الموضع المسمى بالصفيحة ظهورًا بيّنًا طوله على خط مستقيم وقد عاين المسافرون ذلك وجرّوا مع طوله بطول الزقاق، واهل الموضع يسمونه «القنطرة».

واما الرصيف الثاني الذي في بلاد طنجة فان الماء حمله في صدره واحتفر ما خلفه من الأرض وما استقرّ ذلك منه حتى وصل الى الجبال من كلتا الناحيتين. وطول هذا الزقاق اثنا عشر ميلا، وعلى طرفه من جهة المغرب جزيرة طريف، وعرض البحر بين سبتة والخضراء ثمانية عشر ميلا، وهذا البحر في كل يوم وليلة يجزر مرتين ويمتلئ مرتين دائمًا.

وانما يركب من هذا البحر ما يلي المغرب والشمال وذلك من اقصى بلاد السودان الى برطانية الجزيرة العظمى التي في اقصى الشمال، وفي هذا البحر ست جزائر مقابل بلاد السودان تسمّى الخالدات وليس شيء من البحار كلّها يتّصل بالبحر الحبشي، واما سائرها فمتّصلة، وهي من بحر واحد، الا ان بحر الخزرقد اختلف فيه هل يتّصل ببحر اقيانس أو لا؟ قالوا: والصحيح انه لا يتّصل بشيء من هذه البحار[1].

هذا كله سمعه «كلمبس» او قرأه في الكتب.

---

(١) الحميري: الروض المعطار ص ٥٠٩

استرعى انتباهه ما سمعه من أحدهم اسمه «مرتين بِجَنْت» من ربابنة أسطول ملك البرتغال، اخبره انه بينما كان يمخر البحر بسفينته على بعد اربعمائة وخمسين فرسخا من رأس شَنْت بِجَنت أبصر والتقط من البحر خشبة محفورة بفن لم تستعمل آلة حديدية في حفرها. وبمَا ان البحر يعصف من الغرب، ظنّ ان هذه الخشبة ضربتها الأمواج في احدى جزر هذا المحيط حتى وصلت اليهم.

دهش كل الدهشة من هذه القصة وظلّت عالقة في دماغه تراوده من حين الى آخر.

ومرّة أخرى اخبره عديله «بطره قورية» المتزوج اخت امرأته انه شاهد لوحة تشبه هذه بالقرب من جزيرة «المرفأ المقدّس»، كما شاهد قصبًا ضخمًا لم يعهد به من قبل، تستوعب العقدة منه زقاقًا من الخمر اي ما يزيد على لترين ماء. وقد اثبت له هذه القصة ملك البرتغال نفسه اذ شاهدها بذاته.

واخبره سكان جزر الازورانه عندما تهب عاصفة غربية او شمالية غربية تحمل الأمواج جذوعًا من شجر الصنوبر تقذفها على الشاطئ في جزيرة «غراسيوسة» وفيّال حيث لا يوجد اي نوع من هذا الصنوبر.

وقال له بعضهم: انه في جزيرة «الزهور» من مجموعة جزر الازور، قذف البحر جثمانين، وجهاهما عريضان جدًّا يختلفان عن وجوه النصارى.

وسمع ايضاً قصة «صنم قادش»، ويزعم اهل جزيرة قادش انهم لن يزالوا يسمعون ان الراكب في بحر الظلمات ان الجّ فيه وغاب عنه صنم قادش بدا له صنم ثان مثله، فاذا وصلوا اليه وجاوزوه حتى يغيب عنهم بدا صنم ثالث، فاذا تجاوزوا سبعة اصنام صاروا في بلاد الهند (الروض المعطار ص ٤٤٩).

وغير ذلك من الروايات والأساطير لم يشكّ في صحتها. الى ان كان ذات يوم يقلب الطرف في الأفق البعيد أبصر سفينة تلعب فيها الرياح وتتقاذفها الأمواج حتى رمتها على شواطئ جزيرة «المرفأ المقدّس» بعد ان ارتطمت بالصخور، فارتاع لما شاهد ونادى امرأته «فليبة» لترى المشهد فاقبلت مهرولة واذا هما يبصران اربعة رجال تقذفهم الأمواج الى الشاطئ، ولم يميّزوا ما اذا كانوا في قيد الحياة او جثثًا لفظها البحر. فهبّ مسرعًا وربط البغل على العجلة ورافقته زوجته فاذا هما امام اربعة أشخاص على آخر رمق من حياتهم قد برّح بهم الجوع وانهكهم العياء فنقلاهم بسرعة الى المنزل وسألهم كرستفورو عن حالهم فلم يقووا

على الإجابة ، ولم يلبث أحدهم أن فارق الحياة وعقبه الثاني والثالث ، وبقي الرابع فأعاناه بمَا تيسّر لهما من وسائل العلاج ، وفتح عينيه بجهد وتمتم : اين انا؟

– انت في أمان ، لا تَخْشَ شرًّا.

وجاءت فلبية بكأس من الحليب وسقته اياها شيئًا فشيئًا فردّت روحه اليه ولكن التعب أضرّ به فأطبق عينيه وتركاه يستريح وغلب عليه النعاس.

وخفّفا عنه ثيابه المبللة بالماء وعثرا على رق مطوى مودع في كيس جلد ملصق على جسده ، يحافظ عليه كانه كنز ثمين فأراحاه منه وتركاه بجانبه.

وطالت هجعته وهما يتفقدانه من حين الى حين.

واستيقظ مرتعشاً وتلمّست يداه حزامه فما عثر على كيس الجلد وبانت الحيرة في عينيه ، وطمأنه كلمبس قائلاً : انه مطروح بالقرب منك.

فارتاحت نفسه وشعر بضعف شديد لا يقوى معه على الاداء.

وتنهّد عن قلب مكلوم وجسد يتألم ، واستجمع ما بقي له من قوى وشرع يروي قصته بصوت خافت أقرب الى حشرجة منه الى صوت انسان يتمتّع بكامل قواه الجسدية.

الهنشه شانشس : ALONSO SANCHEZ

اسمي «الهنشه شانشس» من مدينة «اونبة» HUELVA التابعة لامارة لبلة.

كنت أملك مركبًا صغيرًا جبت به البحار انقل البضائع من اسبانية الى الجزر الخالدات حيث أبيعها بأثمان راجحة ثم اقفل عائدًا من تلك الجزر مثقلاً بالفواكه والخضار أبيعها بجزيرة مديرة ومن هناك انتقل الى اسبانية شاحنًا السكر والمقددات والفواكه.

قبل عام ، كان مرتين الهنشه الملقّب بالشرشور في رومة قصدها برحلة تجارية مع أحد أولاده أرياس عرفت بواسطته ان أباه له صديق في الكرسي الرسولي عند البابا انشونسيوس السابع يرسم الخرائط وصور العالم فاطلع الأب والابن على وجود أراضي بعيدة يجب اكتشافها. ولكن لسبب ما ماطل في تحقيق المشروع.

عزمت على تنفيذه ، أعددت العدّة اللازمة لتحقيق هذه المهمة وأسفت كل الأسف لأن مرتين الهنشه لم يتمكن من مرافقتي في رحلتي في السفينة الشراعية الصغيرة فوهت على

البحارة البالغ عددهم سبعة عشر رجلاً اني قاصد الجزر الخالدات في رحلة عادية مثل بقية الرحلات التي اعتدت القيام بها، لكي لا يدبّ الهلع في نفوسهم اذا علموا اني سالك في بحر الظلمات الى اكتشاف أراضي جديدة، ولم يقف سوى عريف الملاحين واحد أنسبائي على مقصدي فشاركاني بدون تردّد. وكتمنا السرّ.

جرت الرحلة في أواسط سنة ١٤٨١.

وراجت الإشاعة ان مركبًا شراعيًّا محمّلاً بالبضائع غادر احد المرافئ الاسبانية متوجّهًا الى بلاد الفلندر أو الجزر البريطانية.

وصلنا الى بحر «سرغازوس» واشتدّت علينا العاصفة طيلة أسبوع ثم واصلنا رحلتنا في اتّجاه الغرب ولم يعد من الممكن التمويه على الملاحين وجهة سيرنا. وعنّت لعريف الملاحين ان يقول لهم انهم لا يقصدون بلاد الهند بل يبحثون عن الاطلنطيد التي لا يجب ان تكون بعيدة عن مكانهم اكثر من بضعة اميال.

وهبّت علينا من جديد عاصفة حملتنا الى شواطئ جزيرة «كيسكاية»، فظننا انفسننا اننا في فردوس أرضي، وتنفّسنا الصعداء بعد هول تلك العاصفة الهوجاء التي استمرّت ثمانية وعشرين يومًا لم نعرف فيها طعم الراحة ولم نستلذ شرابا ولا مأكلاً ولا نعلم اين نحن ولا الى اين صائرون؟، ووجدنا أنفسنا عاجزين عن مكافحة هذه العاصفة فاستسلمنا لها لتحملنا الى حيث تشاء. وان مركبًا معرّضاً لعاصفة يمكن ان يقطع بكل سهولة مائة فرسخ بين ليلة وضحاها. قطعنا الف نرسخ في عشرين يومًا حتى وصلنا الى جزيرة(١) سكانها من أجمل الناس شكلاً رجالهم واناثهم.

أقبل إلينا رئيس القبيلة اسمه «كونابه»، في زورق له ستون مجدافًا ويرافقه عشر نساء ما رأت عيني أجمل منهن، صعدوا جميعًا الى المركب ووزع النساء ثمار الأرض على الرئيس وجماعته.

وتمكّنت بقوّة الله من لجم شبق رجالي عن هؤلاء النسوة اللواتي لا يستر اجسادهن سوى

(١) يظن المؤرخ «غرسيلاسو دي لافيغا» انها جزيرة «شانتو دومنقه» بينما يقول لاس كاساس المؤرخ الكبير للعالم الجديد:

ولمّا وصلنا الى جزيرة «كوبا» اخبرنا الهنود هناك انهم منذ مدة قريبة وصل الى جزيرتهم اناس بيض صفر الوجوه ذو لحى مثل لحانا، منذ سنوات قليلة. و«لاس كاساس» رافق كلمبس في رحلته الى العالم الجديد.

اكليل من الزهر على رؤوسهن وبعض الحلى الذهبية في أنوفهن أو سلاسل في خصورهن.

وبادلناهن هدايا زهيدة الثمن ولكنها راقت في أنظار النساء فافلتن بهجتهن بها. ثم أولمنا وليمة على الطريقة الاسبانية على وعد منا في ان نتوجّه مع الصباح الى بيت رئيس القبيلة، مبادلة للإكرام الذي شاهده من هؤلاء الغرباء على ظهر المركب الشراعي، أصحاب الوجوه البيض واللحاء الطويلة.

نزلنا الى البرّ في اليوم التالي وجلنا في تلك الجزيرة وأعطيناها اسم «الجزيرة الاسبانولية»، بينما اسمها الحقيقي في لغة سكانها «قشقاية» وقست علو الشمس فادا هي على ١٨ درجة عرض شمالاً و٧٠ طول غربًا وبالتالي الف فرسخ من مرفأ «بالش» PALOS في اسبانية.

وعند انتهاء الوليمة حضرنا لعبة رياضية يتضارب فيها فريقان من الرجال بعصي طويلة، لا يملكون اسلحة معدنية لحسن الحظ والا لارتكبت مذابح، وبالفعل لا يوجد حديد في تلك الجزر.

وتوصّلنا أخيرًا الى إيقاف هذه اللعبة الرياضية التي أدمت رؤوس الرجال إذ إن الضربات توجّه الى الرأس. وحزن رئيس القبيلة وسكّانها لأن اللعبة تسليهم كثيرًا. وعند نهاية الحفلة دهشنا لما رأينا أن خدّام «كونابه» يقدّمون له لفائف مصنوعة من ورق نبات جاف مفتول فتلاً جيدًا، ويحرقون هذه اللفافة بأحد طرفيها ويمجون بالطرف الآخر بملء رئتيهم ثم يقذفون الدخان من أفواههم أو من خراشيم أنوفهم ويخلق عند رئيس القبيلة وجلسائه نوعًا من النشوة واللذة.

ثم علمنا ان ذلك النوع من النبات يسمى «كويبا» وهو شبه بري ينتج بكثرة في تلك الجزيرة والكثيرون منهم يتناولونه على الطريقة التي ذكرناها أو يعلكونه وغيرهم يطحنونه عندما تجف أوراقه ويستنشقونها ويجدون بذلك لذة عظمى فينتشون منه ولا سيّما بعد ان مارسوا تمارين عنيفة في الرقص أو لعب الكرة، فهذا التخدير الذي يجدونه في تناول هذا النوع من النبات يجلب لهم الراحة.

ولقد اعتادوا على أن يتخمروا بالبخار المتصاعد من قدر يغلون فيها عشبة يابسة.

وعندما يريدون التنبؤ يأكلون من هذه العشبة المسمّاة «كويبا»، مطحونة او بدون طحن او يتنشئون بخارها فيفقدون رشدهم وتظهر لهم الرؤيا ويغيبون في عالم غير هذا العالم.

واتّفقوا على أنهم في غد سيحضرون وليمة جديدة ويتعرفون على الملكة «اناكونة» ANACONA .

وتقدّمت في معرفة لغة القوم تقدّمًا ملحوظًا ونسيبي كذلك تعلّمنا الكلمات الضرورية للتعبير عن أفكارنا مثل : الصديق ، الله ، الذهب ، الملك ، رسم الجزيرة المآكل والمشارب ، وما شاكلها.

وجاء اليوم الموعود والمضروب للتعرّف على الملكة. حضرت متكّئة على محفة يحملها رجال ذو سواعد أشداء ، في موكب على شكل تطواف يرافقها مائة جارية من أجمل النساء مختارات بين عذارى القبيلة ، فأصيب الاسبان بالخبل أمام هذا الجمال الصارخ الالهي ، وبالحقيقة كانت الملكة تشبه الالهة.

انها امرأة ذات جمال فاضح ، فاقت جميع بنات جنسها عرف عنها انها شاعرة نظمت قصائد يتغنّى بها أبناء جنسها في رقصاتهم.. رخيمة الكلام حسنة القوام ، فهي قضيب الريحان ، لها ثغر كاقحوان وخد كشقائق النعمان ، ومعاطف كالأغصان ذات قدّ معتدل وجسم متجدّل وعينان كحلاوان ، ولها شفتان حمراوان ، «وفي صدرها حقان خلتهما كافورتين علاهما ند» وبطن لطيف وفخذان ملتفّان وأرداف تموج ، وقدمان لطيفان.

اما وصيفاتها فسبحان من خلقهن يشبهن العذارى اللواتي كرّسن ذواتهن لخدمة الالهة ، يتحدّين ببراءة النظرات الجشعة التي يصوّبها الجنس الخشن الى أجسادهن النابضة بالحياة ، ونهودهن المترجرجة على صدورهن كأنها حقوق مليئة بالعنبر والندّ لا شيء يحبسهن سوى تلك الشرايين غير المنظورة نسجها وعطرها النسيم الذي يداعبها. هذه عرائس الغاب يقترين من الملاحين وكأنهنّ يجهلن الأسرار العميقة المختبئة في صميم الحياة.

انتهت وليمة الطعام وبدت حركة من الملكة تدعو الحاضرين الى تشكيل حلقات الرقص على شرف الغرباء.

جماعات جماعات ، اخذ الرجال بايدي النساء او عقدوا أذرعهم باذرعهن يدورون ملبين اشارات وحركات مرشٍ يرقص منفردًا.

آلاتهم الموسيقية عبارة عن دفوف مصنوعة من خشب رقيق ومغلّف بجلود ومشدودة شدًّا محكمًا ، وجنوك وأبواق من عظام الحيوانات البرية والبحرية ، وشبابات مصنوعة من القصب النابت على شواطئ الانهر.

وأدركت الملكة ببديهيتها وغريزتها وحدسها الفائدة الكبرى التي يجنيها شعبها من هؤلاء الغرباء الذين تختلف ثقافتهم المتفوّقة بكثير على ثقافة ابناء رعاياها ، وتحاول جهد طاقتها فهم ما يقولون وتسعى بدورها الى حملهم على تعليم رعاياها ، والزواج بنسائهم كي ينتج جيل جديد متفوّق.

وما كاد ينتهي الاحتفال حتى وصلت الى أسماع الزعيم «كاونابه» ان الجزيرة التي يحكمها اخو زوجته قد تعرّضت لغزو «الكريب» «CARIBE» ووقع عليها السلب والنهب.

شاء «كاونابه» «CAONABO» مدّ يد المساعدة لنسيبه وتبرّعت لمرافقته فأنزلته في المركب وتوجّهنا قاصدين العدو.

وحدست الملكة وكانت صادقة في حدسها ان مجرد حضور «العصفور السماوي» اي مركبنا ، يخلق الرعب في صدور أكلة لحوم البشر ويولون الأدبار ويتخلّون عن غنائمهم وأسلابهم بمَا فيها السبايا الكثيرات من العذارى اللواتي خطفوهن لكي يشبعوا نهمهم الجنسي ، وعن كثير من الغلمان لكي يذبحوهم ويتغذّوا بلحمانهم.

استقبل أهالي الجزيرة المغزوة الملاحين بعلامات الشكر والامتنان وعرفان الجميل. وتزوّج عريف الملاحين على طريقة أهل البلاد بوصيفة الملكة ، اسمها كوكو ، جارية ذات جمال بارع.

وتمكنت الملكة من افهامي انها تزوجت الملك كاونابه القبيح الصورة ، أصله من «الكريب» اكلة لحوم البشر ، ضحت بجمالها لكي تنقذ عشيرتها منه ، شاء مهاجمتها كما صنع مواطنوه الآن فرأت ان تسلّم له ذاتها. وشاءت ان تبرهن عن مواهبها الشعرية فاسمعتنا قصيدتين عن السلام والحب وعن المحبين السعداء ،غنّتها جوقة من العذارى فنزلت في نفسي منزلاً لم تنزله امرأة قبلها...

غرام اناكونة :

وشعرت الملكة انها تميل الى هؤلاء النصارى منذ ان راتهم وتحدثت معهم وبادلتها شعورا بشعور وخلفت رقة العاطفة المتقاسمة جاذبية وانعطافا بحيث ان الواحد لا يقوى على مفارقة الآخر ، فهي في كل حديث جديد معي تكتسب معلومات جديدة تطبقها وتاتي بالنفع الجزيل على قبيلتها ادبيا وماديا ، وانا من جهتي لم احظ بدليل ومرشد في هذه الجزيرة قادر

مثلها على ارضاء رغباتي في معرفة ميزات تلك البلاد التي اكتشفتها ، فوجدنا انفسنا اننا غير قادرين على مفارقة الواحد الآخر.

وتمكنت المحبة في قلبينا ووجدنا ذاتنا في احد الايام تحت ظل نخلة قريبة من الشاطىء على فراش من زهور فالربيع لا يفارق ذلك المكان الذي اتخذته الملكة موئلا للاستراحة.

كانت متشحة برداء من القطن ، الوانه فاتحة ، شبيه بتلك الاوشحة التي تتزين بها سيدات رومة. وزان راسها تاج لمّاع واشرق على ذراعيها اساور برّاقة من الذهب الخالص والتف حول فخذيها المستديرين اكاليل من الزهر وصل عبيرها الى انني فاعترني نشوة كادت تفقدني حواسي.

شئت الاستزادة من المعرفة عن احوال اكلة لحوم البشر الذين اعتدوا على القبيلة ولبت الملكة رغبتي سعيدة في اطلاعي على كل ما ارغب معرفته. وشرعت تروى لي حكايتها وانا مصغ اليها كل الاصغاء.

ولما وصل عند هذا الحديث من كلامه ارسل زفرة كما لو ان قصته قد هدت حيله واعيته عن مواصلة النطق. واسترد انفاسه ثم استانف كلامه وكلمبس وفليبة مصغيان اليه بملء آذانهما.

قالت الملكة : انا اخت زعيم قبيلة واقعة في اجمل بقعة من جزيرتنا «كويسكاية» ، حبتها الطبيعة بكل سحر يغرى المخيلة ويشبعها بالاوهام البرّاقة وانا ملكة سعيدة معززة مكرمة محبوبة يحترمني رعاياى ، وسلاحي في كل هذا محبتي لهم وحرصي على راحتهم وسلامتهم. بادلتهم حبا بحب وعطفا بعطف ، وفضّلت ان اكون محبوبة على ان اكون مخدومة.

وتوافرت لي في جزيرتي كوسكاية جميع الوسائل التي يتطلبها مخلوق لكي يصبح سعيدا. وابتسمت لنا الحياة وابتسمنا لها ولم نجد حاجة في الانتقال من فردوسنا الارضي هذا الذي يسد لنا حاجاتنا كلها ، الى جزيرة اخرى قد لا تتوافر لنا فيها رفاهية العيش مثلما توافرت لنا على الارض التي ابصرنا فيها النور. غير ان بحبوحة العيش هذه التي جلبت لنا سعادتنا بلتنا بشقائنا في الوقت ذاته اذ اصبحنا هدفا لمطامع جميع الذين يحدقون بنا ولا سيّما ابناء الكريب ، اكلة لحوم البشر.

تعرضنا للاعتداءات المتكررة ، ضراوة جيراننا اشبه شيء بوحشية الحيوانات الكاسرة.

سكان هذه الجزر مقاتلون لا يعتريهم كلل ولا ملل ، عادتهم صيد الآدميين لارضاء همجية غرائزهم ، بينما نحن شعب مسالم كما تبيّن لك .

وغلب علي التاثر لهذا الوصف الذي يؤكد صراحة وصدق ما عاينته عند الشاطىء حيث اكلة لحوم البشر غنموا الكثيرين من الرجال والنساء لاشباع نهمهم وارضاء غرائزهم الجنسية . وسالت الملكة عن موقع الجزيرة التي يعيش فيها اكلة لحوم البشر ، فارشدتني اليها بدقة ، فوعدت حبيبتي الملكة اناكونة اني سامحو اثر هؤلاء الاشرار الطغاة .

اعددت الحملة وسط ابتهاج رجال القبيلة وحماسهم لما دروا مقصدى وهبوا لمساعدتي فاخترت من بينهم عشرين مقاتلا وزودتهم بالاسلحة التي يحسنون استعمالها كالحراب والسهام وركبنا عدة زوارق ، ولم نعبأ بالعاصفة التي هبت فابحرنا رافعين الاشرعة وقاصدين الجزيرة الملعونة مصممين انزال قصاص رهيب بسكانها الذين هم اشرّ من الوحوش الكاسرة .

ولكن لم يستجب لنا القدر فما كاد يطلع الصباح ونشرع في مهاجمة الجزيرة حتى هبّت عاصفة هوجاء لا تبقي ولا تذر فالقتنا عند الصخور ومزقت اشرعتنا ، ولحسن حظ الملاحين تسمرت السفينة ولم يلحق اذى براكبيها ومكثت على هذه الحال طيلة ما تبقى من تلك الليلة وقسما من النهار التالي . وشاهدنا سكان الجزيرة الذين تجمعوا على الشاطىء يهددون ويتوعدون ويهزون الرماح والسهام كما لو انهم مستعدون لبيع حياتهم غالية فلما اذا حاولنا النزول الى البر ، فقد زال عنهم السحر والساحر لانهم وجدوا ان هذا الطائر العظيم الجثة الذي ظنوه سقط من السماء قد غرق نصفه في البحر بين الصخور ويا ويل البحارة والرجال الذين اخترناهم لقتال سكان الكريب .

وادركت خطورة موقفي فكل موجة تتكسر على اخشاب السفينة المتآكلة المتهرئة يرتجف لها قلبي . ودخلت المياه الى العنابر وغطتها واتلفت الماكولات والمياه الصالحة للشرب . واذا ظللنا جامدين في امكنتنا تعرضنا لخطر الجوع . وحاولنا النزول مستعملين الزوارق وعملنا هذا كان مخاطرة غير محدودة فعدد مقاتلي الجزيرة لا يقل عن ثلاثة آلاف بينما مقاتلونا لا يزيد على ثلاثين . كما ان تصليح المركب في تلك الظروف المعاكسة ودون مساعدة اهل الجزيرة امر قريب من المستحيل ، فوجدنا من الأصلح لنا التخلّي عن المركب وركوب الزوارق والعودة الى الجزيرة .

وتمثلت لنا صعوبة جديدة فاذا ما شعر اكلة لحوم البشر ان الرجال الصفر الوجوه غادروا

المركب الهابط من السماء فارقهم الخوف وهاجمونا وعندئذ تتغلب الكثرة على الشجاعة.

وساعدني الحظ هذه المرة فقد ادركت ان اكلة لحوم البشر اي رجال الكريب لا يقاتلون ليلا، فانتظرت حتى اذا ما جنّ الظلام بادرت الى الفرار في الزوارق. وبالفعل ما كادت الشمس تتوارى وراء الافق حتى شاهدنا رجال الكريب يغادرون الشواطىء فهب الملاحون الى الزوارق يملأونها بمَا هو ضروري ضرورة قصوى وسهل النقل وخاصة الادوات الحديدية والفوانيس والبنادق والبارود، وكان الاياب سهلا لان العاصفة سكتت وراق البحر كالزيت.

تلك كانت النهاية التاعسة لذلك المركب الشراعي الذي اتيح له ان يعبر للمرة الاولى بحر الظلمات وحطامه شاهد على مغامرته فلم يغص في قاع البحر بل ظل ثابتا على الصخور.

وعند عودتنا الى الجزيرة بتلك الخيبة المشينة والكارثة التي حلت بالمركب بذل السكان كل ما في وسعهم للتخفيف من هولها وسعوا لدرء الفتق فجمعوا الالواح لبناء مركب آخر، فاوكلت المهمة الى «نسترامه» الخبير بشؤون المراكب وانصرفت الى زيارة القرى المجاورة، وشاهدت منظرا تقشعر له الابدان. حضرت ماتم احد زعماء تلك القبائل، شاءوا ان يدفنوا معه خليلاته الاربع اذ انهن لم يحتملن فراقه ففضلن الدفن مع جثته على الحياة بدونه ولكني تمكنت بعد جهد جهيد من الحيلولة دون تنفيذ قصدهن.

العادة السائدة تقضي بان تدفن مع الميت نساؤه مثلما كان يفعل الغاليون والجرمن وسكان ضفاف نهر الهندوس وبلاد الدنمرك ومدغشقر واليابان.

انه الحب الاعمى الذي يتخطى القبور، انها الانثى الوفية ترافق الذكر الى العالم المجهول، انه الحب العنيف الجارف الذي يعبث بالاخطار ويجود بالنفس، والجود بالنفس اقصى غاية الجود.

ولما حان موعد الفراق، توجه الى الشاطىء جميع اعضاء القبيلة لتوديعنا نظرا لما نالوه منا من المنافع: علمناهم امورا كثيرة كانوا يجهلونها وهي ضرورية لهم في حياتهم اليومية، مثل صناعة المراكب الشراعية وتحسين مساكنهم لتكون مريحة، وزراعة الحنطة المجهولة تماما عندهم، وبقية المزروعات، وبناء المنازل بدل السكنى في المغاور وعلمناهم طرقا جديدة في النسيج والحياكة وصناعة المفروشات وغيرها وغيرها.

كان الوداع حارا صادقا مؤلما لا سيّمَا الملكة التي اعتادت معاشرتي واعتدت معاشرتها

وانفلتت من عينها دمعة وانفلتت من عيني دمعة وودت لو بقيت عندها طول العمر وودت لو بقيت عندها طول العمر.

سلكنا وجهة شمالية لان تيار الخليج سلك ناحية الغرب وما كدنا نصل الى جزيرة «مديرة» حتى هبت علينا عاصفة اودت بالسفينة وتلاعبت بنا الامواج ولاقينا الاهوال اثناء الاياب ومات اكثرنا وطالت رحلتنا اكثر من المتوقع ونفذ من عندنا الزاد والماء لاننا تهنا عن الطريق وحملتنا في عودتنا عاصفة مثل العاصفة التي حملتنا في ذهابنا.

ولما وصل في حديثه الى هذا الحد ادركه ضيق شديد وشعر ان ساعته قد دنت ففتح الكيس واخرج منه الخارطة وقال لكلمبس COLOMBO :«هذه خارطة كنت قد اعددتها في رحلتي ورجوت استعمالها في عودتي الى تلك الجزر وقد ذكرت عليها اسماء الاماكن التي شاهدتها، انها سرى الدفين في صدرى ولا اشأ حمله معي الى القبر، فعرفاناً بالجميل الذي طوقت به عنقي باستضافتك لي اسلمك اياها عسى تستفيد منها.

تناول كلمبس الخارطة وتاملها وبانت الدهشة في عينيه، ان عالما جديدا يطل عليه.

والآن ايتوني بكاهن اعترف له بخطاياي لكي الاقي ربي بقلب طاهر ونفس تائبة.

وانفتحت عينا كلمبس واسعتين وارتعش لما سمع الفونسه شانشس يطلب كاهنا للاعتراف. وتساءل: وماذا يكون اذا عن له ان يكشف للكاهن ما كشف لي؟ واذا الكاهن تورط وروى ما سمع من هذا الملاح بحجة انه لم يسمعها في الاعتراف؟

هل ياتيه بالكاهن للاعتراف بخطاياه وبمَا ليست خطاياه ويظنها خطاياه؟

لا انها مخاطرة ينكشف السر الذي يجب ان يظل وقفا عليّ دون الجميع.

وقرر المماطلة في استدعاء الكاهن، ولما استدعى الكاهن بعد فوات الاوان كان الفونسه شانشس قد اسلم الروح. فقرت عينا كلمبس، السر سيبقى دفينا.

ويقول المؤرخ الاب ماريانا الذي عاش قريبا من تلك الحقبة من التاريخ ما يلي:

«كان يعيش في تلك الجزيرة (المرفأ المقدس «كريستوفرو كولومبو، جنوى الاصل، مشهور في فن الملاحة، رجل ذو قلب كبير وافكار سامية. استضاف في منزله الريّس، صاحب مركب تحطم على الصخور، وبمَا انه توفّي سريعا ترك له مذكراته وملاحظاته ومشاهداته التي اقتبسها في تلك الرحلة النائية الى جزر بعيدة.

وبناء على ذلك وعلى المعلومات التي تلقاها من تسكنللي استخلص كولومبو او (كولون) ان في القسم الآخر من العالم المعروف توجد اراضي واسعة.

يوحنا الثاني ملك البرتغال:

وجاءت سنة ١٤٧٠ عيّن الفونسه الخامس البرتغالي ابنه، ولي العهد، رئيسًا للرحلات البحرية والمستعمرات. فبنى هذا الأمير اسطولاً ضخمًا، فقد شغلت فكره وراودت دماغه زمنا طويلا قضية الذهاب الى الشرق الاقصى عن طريق الغرب.

فالملاحون البرتغاليون المخلصون للتقاليد البحرية الموروثة عن الامير انريق الملاح لم يتحولوا عن طريقهم على الشواطىء الافريقية اوكما يسمونها «الغينية» على امل ان يدوروا، كما فعلوا فيما بعد، حول راس الرجاء الصالح لكي يصلوا الى بلاد الهند، تلك الاراضي التي حلموا بها. ولكن، بمّا ان الارض مستديرة لماذا لا يتوجهون الى بلاد الهند عن طريق الغرب، فان احد كهنة لشبونة اطلع الامير دون جوان البرتغالي ان هذه النظرية كانت موضوع مناقشة مع احد علماء الحساب والفيزياء المعروف في فلورنسة اسمه «تسكانللي» يعتقد بوجود طريق من الغرب تؤدي الى الهند وهي اقصر واقل خطرا من طريق المشرق. فطلب الامير جوان من الراهب لكي يكتب الى تسكنللي طالبا منه تقريرا بشان هذا المخطط.

وفي ٢٥ حزيران ١٤٧٤ ردّ تسكنللي على الراهب البرتغالي وارسل له خريطة. جاء في هذا الرد «هذه خريطة صنعتها بيدي صوّرت فيها شطآنكم والجزر التي تمرون بها في انجاز رحلتكم نحو الغرب الى الاماكن التي ترغبون الوصول اليها، ورسمت لكم المسافة الى القطب وخط الاعتدالين اللذين يجب الاخذ بهما بعين الاعتبار، وكم من الفراسخ يجب ان تقطعوا لكي تصلوا الى تلك الاراضي الخصبة الغنية بجميع انواع الافاويه والحجار الكريمة، ولا تعجبوا اذا سميت الغرب بلد الافاويه اذ ان الآخرين اعتادوا ان يسموا الشرق هكذا لان الذي يسافر الى الشرق من القطب الجنوبي يصل الى تلك المناطق الغربية ومن يسافر اليها من القطب الشمالي يجدها في الشرق:

لم يلاق مشروعه اذنا صاغية في البرتغال ولم يكترثوا له بقليل او كثير، وقال العلماء والبحارة المحيطون بالامير جوان: «ما هو حسن ليس بجديد وما هو جديد ليس بحسن».

يمكن اختصار الافكار التي صدرت عن تسكنللي على النحو التالي:

١ – الارض مستديرة وهذا امر واضح عند الجميع.

٢ – القارة المعروفة من اشبونة حتى الشواطىء الهندية عن طريق الشرق تعد ٢٣٠ درجة من محيط دائرة الارض. وكان العلماء البرتغاليون يدركون جيدا ان هذا الرقم خاطىء ارتكبه الجغرافي مارينو الصورى ثم اصلحه بطليموس ولكنه لم يصلحه تماما وضرب تسكنللي عرض الحائط بنظرية بطليموس وازداد الخطأ من ٢٢٠ درجة الى ٢٣٠ درجة.

٣ – لم يبق اذا سوى ١٣٠ درجة من البحر للتوجه الى الهند، ويعرفون في اشبونة ان هذا الرقم غير صحيح ولكنهم لم يدركوا مبلغ الخطأ.

٤ – طول الدرجة الارضية ٦٢,٥ ميلا وبهذا تكون المسافة من شاطىء الاطلسي الى الشاطىء الآخر في الشرق: ٦٢,٥×١٣٠ درجة = ٨١٢٥ ميلا، وهذا مما يضحك له البرتغاليون لان ٦٢,٥ ميلا للدرجة قليل.

٥ – من الراس الاخضر الى شواطىء آسية تعتبر المسافة ثلث مسافة الكرة الارضية اي ١٢٠ درجة.

٦ – على الطريق الغربية تقع جزر «انتي» وشيبانغه CIPANGO، والمسافة بينهما خمسون درجة، وهذه النقطة الاخيرة في مخطط تسكنللي جديرة بالاعتبار وبالاهتمام والتفكير.

الخلاصة ان مستشاري الامير جوان او يوحنا البرتغالي رفضوا المشروع الذي تقدم به تسكنللي فاودع في المحفوظات الملكية بحيث ان اي انسان كان يقدر على الوصول اليه.

اصبح الامير جوان ملكا على البرتغال بعد وفاة ابيه الفونسه الخامس، صوّروه رجلا كبيرا الجثة مستطيل الوجه، ذو لحية جميلة، شعره كستنائي، بلغ من العمر سبعة وثلاثين عاما لما وصل الى الحكم، وخطه الشيب، له نظرات ثاقبة وانف اقنى ووجه بشوش، يحلم بمشاريع كبيرة.

هذا هو الملك الذي عرض عليه كلمبس مشروعه اولا وثانيا وثالثا طيلة اعوام ولم يتوصل الى اقناعه بصحة نظريته شرع في الكلام معه منذ سنة ١٤٧٨ وهو امير اذ انه تبوأ سدة الملك سنة ١٤٨١ ولكن اباه كان قد سلمه مقاليد وزارة البحرية منذ سنة ١٤٧١، ومنذ ذلك

الحين وكلمبس يجوب المكتبات وخاصة مكتبة البلاط وينتقل من مرفأ اشبونة الى «مرفأ شانته» PUERTO SANTO او المرفأ المقدس او الى موانىء في الغينيا لكي يقيس طول الدرجة. ثم يعود الى البلاط مشحونا بالاخبار والقصص والاساطير والروايات والمشاريع عن جزر شاهدها في ظلام الليل والواح من حطام مراكب قذفها البحر الى الشاطىء وهي تختلف عما يعرف من الخشب والالواح وآراء جديدة عن قياس دائرة خط الطول وعن الخوارط التي يرسمها اخوه لكي يبيعها للملاحين، والاسطرلابات والجداول الفلكية ويعود بها الى البلاط للحديث عنها مع الامير ولي العهد بحماسة واقتناع فيهما حرارة اكثر مما فيهما نور.

واستمرت الحال على هذا المنوال اعواما حتى كان ما كان من خبر الملاح «الفونسه شانتشس» الذي ترك في يد كلمبس وثيقة لا تقدر قيمتها، ونشأت عنده فكرة في كشف سره لملك البرتغال يوحنا الثاني غير انه تذكر اقوال احدى الغجريات لما قرأت له طالعه وقالت: صن سرك يا كرستفره، لا تبعه ولا تبع ذاتك.

وسهّل له عديله بدره قورية الدخول الى القصر وقال له:

– لم تخبرني عن السبب في مقابلة الملك. احترم تحفظك ولكن اعلم اني الى جانبك في السراء والضراء وفي كل مشروع تسعى الى تحقيقه.

* * *

– يعجبني فيك ايها الجنوي طلاقة لسانك وثقتك بنفسك.

– مولاي كل ما تلوته على مسامعك صدق مثل نور الشمس المشرقة علينا.

– لنتحقق من ذلك. اني احملك

وهزت يد الملك جريسا ودخل احد الخدم:

– هل وصل «فليا ريال» UILLAREAL

– سأسال عن ذلك يا مولاي الملك.

وتوارى الخادم برهة ثم عاد يقول:

– اجل، يا سيدي الملك، انه في القصر.

– لبات اليّ.

وبقي الملك وحيدا مع كلمبس الذي ساءل نفسه: من يكون فليا ريال؟

– بمَ تفكّر ايها الجنوى.

– بلا شيء، يا سيدي، اني سعيد بوجودي في حضرة جلالتكم.

– انك تحسن التمليق.

– ليس تمليقا يا صاحب الجلالة، انها الحقيقة الصارخة العارية.

واقبل فليا ريال حاني الراس وتكاد جبهته تلامس الحضيض.

– هو انت «يا فليا ريال»، امامك ملاح اجنبي من جنوى، يدعي انه جاب البحار كلها وانه في احدى رحلاته هبت عليه عاصفة القته في جزيرة «ثول» THOLE على شواطئها الغربية، ويؤكد انه توجد اراضي في اطراف الغرب. هل سمعت شيئا من هذا؟

– في اقاصي الغرب من جزيرة «ثول» وعلى الضبط في الشمال الغربي منها توجد اراضي غمرتها الثلوج صيفا وشتاء ولا تصلح لشيء.

فرد عليه كريستفرو كلمبو قائلا:

– على ما سمعت من اقوال اهالي ثول انها اراضي غنية ومسكونة وفيها الكروم والغابات والبحار الغنية بالاسماك والسهول تسرح فيها الحيوانات من كافة الانواع ويتحدثون بلغة شبيهة بلغة النورمان.

– ما رايك، يا فليا ريال؟

– قد يكون على حق يا صاحب الجلالة، ولكنه يبالغ، ومع ذلك فعندكم علماء يمكن تشكيل لجنة منهم تدرس المسألة.

وتشكلت اللجنة فعلا لكي تدرس القضية من جميع وجوهها وتقدم تقريرا بالنتيجة التي يتوصلون اليها. ومرّ شهر على الحادث واستدعي الجنوى للمثول امام الملك جوان الثاني.

– حفظك الله، ايها الجنوى، اصدرت اللجنة قرارها.

– وماذا يقول:

– ليس من احد بين اعضائها يثق بصدق ما تدعيه.

– يمكن التثبت من صدق كلامي بالسفر الى جزيرة «ثول»[1] ومنها متابعة السير نحو الغرب.

وردّ عليه فليا ريال قائلا:

– الا ترى ان على الملك ان يعير مستشاريه انتباهه في الدرجة الاولى؟

– بلا شك، وآسف لما جرى وآمل ان يكون حظ المستشارين من الاصابة اكثر مما هو في هذه القضية التي يخطئونني فيها.

– صبرا ايها الملاح صبرا، انه لمن مصلحتي ومصلحتك ان تكون على صواب.

– شكرا، سيدي، حفظك المولى.

– استودعك الله ايها الجنوى.

وخرج كريستوفره كلمبو من حضرة ملك البرتغال مهزوما حزينا.

وبعد خروجه قال القند فليا ريال: اظن ان الجنوى على صواب فيما يدعيه.

فقال له الملك: قد يكون ذلك ايها القند، اني احترم نظريتك ولكن ثلاثة آخرين قالوا عكس ذلك والتقرير على العموم ليس لصالح الجنوى، وعلى الملك ان يتحقق من قضية في غاية الاهمية مثل هذه كثيرة التكاليف.

– وما انتم صانعون يا صاحب الجلالة؟

– ارسال مركب للتحقق من صحة دعواك ودعواه. مركب استكشافي دون سلاح ولا يرفع علم البرتغال، يذهب، يشاهد يحقق يرجع ويخبر.

– انه الحل الافضل.

– فليتوجه اي قبطان من قادة اسطولنا بسفينة شراعية.

– هل اطلع الجنوى على هذه الفكرة؟

– لا.

– ولكن اذا شاهد تلك الاصقاع كما يزعم فهو اجدر من سواه بقيادة السفينة.

---

(١) انها جزيرة اسلندة قال البيهقي انها في الاقليم السابع ويسميها «تولي»

– ومن يضمن لي ان هذا الرجل يحسن تسيير دفة مركب؟ والرحلة طويلة وهو اجنبي ومن يضمن طاعة الملاحين له؟

– وهذا ايضا صحيح.

– ثم الم تسمع شروطه انه يطلب العشر من جميع ما يكتشفه: ذهب فضة حجار كريمة معادن افاويه، انها شروط لم يتقدم بها احد قبله مني.

– علمت انه متزوج من امرأة شريفة ومعروفة لدى مطران اشبونة.

وكل هذه الامور لا تبرر المطالب التي تقدم بها كلمبس.

وحدس الجنوى انه يضيع وقته عند ملك البرتغال يوحنا الثاني الذي اعمى الله قلبه وسدّ عليه جميع حواسه. فقرر مغادرة البرتغال بعد وفاة امرأته فليبة التي انتقلت الى رحمة ربها، فوجد في وفاتها نعمة هبطت عليه من السماء كي تجعله يتصرف بحرية دون ان يعيقه عامل انساني وعائلي. غير انها تركت له طفلا صغيرا لا يدري ما سيكون من امره.

ماذا يصنع والى اين يتوجه؟ الى انكلترة؟ الى فرنسة؟ ويعلم علم اليقين ان الدولتين ليستا على مقدرة كافية بعلم الفلك، ولكن فليجرب حظه معها، مرافئها كثيرة واساطيلها لا باس بها.

هناك دولة ثالثة هي قشتالة، لها قواعد بحرية كثيرة وعلى معرفة واسعة بعلم الفلك الموروث عن العرب، ولكنها في هذا الوقت مشتبكة بحرب ضروس مع مملكة غرناطة هذا المعقل الوحيد الباقي بايدي المسلمين في شبه الجزيرة الابرية وتنوى الاستيلاء عليه.

وساءل نفسه هل ينجح في قشتالة بعد فشله في البرتغال؟ هل يقنع الملكين الكاثوليكيين بنظريته وهو لا يملك البراهين الدامغة، هل يلوح باوراق ووثائق وخراط تسكنللي التي رفضها البرتغاليون؟

وفي ذات يوم ولج الى المكان حيث خارطة تسكنللي وهو يحمل في يمينه كتابا عنوانه:

HISTORIA RERUM UBIQUE GESTARUM

مؤلفه البابا بيوس الثاني (١٤٥٨–١٤٦٤) فاخرج الوثيقة من مكمنها ونسخها على صفحة بيضاء من كتابه، وحمله حذره المفطور عليه ان يهمل في نسخه المعلومات الجوهرية مثل نقطة الانطلاق وغيرها وخرج من المكمن حاملا كنزا لا تقدر قيمته، يحتاج اليه في مهمته

بقشتالة مع علمه بخيانته ملك البرتغال، ولكن التاريخ يصفح عنه. يعلم جيدا انه لا يحق له امتلاك تلك الوثائق التي تخص التاج البرتغالي. بذل كل ما في وسعه لاقناع ملك البرتغال ولم يفلح، فهل يصغي اليه الملكان الكاثوليكيان ايزابيل وفرننده؟

خرج فارا من البرتغال بعد ان اختلس نسخة عن وثائق تسكنللي التي يعتبرها التاج البرتغالي سرية للغاية.

الفصل الثاني

دير الرابطة

هوذا مرفأ «بَالُس» PALOS الواقع على المحيط الاطلسي، يستقبل البواخر من اشبونة وجنوى والمشرق الاسباني ومرافئ شمالي افريقية. وما كنا نتوقف عنده، انه من جملة المرافئ ليس فيه ما يميّزه عن سواه، الا انه في هذه المرة نزل فيه رجل قادم من اشبونة، قامته تميل الى الطول، مستطيل الوجه، اقنى الانف، اسدل شعرًا وخطه الشيب، لم يدرك الاربعين من عمره، كستنائي العينين نسج حولها كر الاعوام تجاعيد خفيفة، ينتعل جزمة من الجلد، وجرابات حمر في رجليه ومعطف من القماش الثمين على كتفيه، وجبة من الحرير الازرق، وقد مسك بيد طفل لا يزيد عمره على اربعة أعوام.

دنا من احدهم مستخبرًا: هل من مركب مسافر الى اونبة؟

ورفع الرجل ناظريه عن شبكته وقال: اني احملك في زورقي، اذا شئت.

– كم البدل؟

– لا شيء ايها الرجل اني قاصد المدينة واحملك في طريقي، وكذلك هذا الطفل لا شكّ انه ولدك.

– اجل انه ولدي، هل المسافة طويلة.

– لا، علينا ان نسلك النهر الاحمر، حتى نبلغ الى دير الرهبان الفرنسيسكان و...

فقاطعه قائلاً: عفوًا، ذكرت دير رهبان.



كلمبس وتوقيعه

– نعم انه دير الرابطة لا يبعد اكثر من فرسخ ونصف.

– اكون شاكرًا لك جزيل الشكر اذا تركتني عند هذا الدير.

– حبًّا وكرامة.

وبعد ساعتين كان كريستفرو كلمبو يقرع باب الدير الرابض على تلة تحيط به الاشجار الباسقة وقرع البوابة من جديد، فاقبل راهب يفتح له وسأله عن سبب لجاجته.

فاعتذر كلومبو وقال: وصل الى سمعي ان في هذا الدير مؤلفات الفيلسوف رامون لول الميروقي فهل في وسعي الاطّلاع عليها؟

– انتظر قليلاً حتى استشير المسؤول عن المكتبة. ما اسمك؟

– «كريستفرو كلمبه»، اني قادم من اشبونة.

– لا يستدلّ من لهجتك انك برتغالي.

– لست برتغاليًا، اني اجنبي عن قشتالة وعن البرتغال.

ولم يشأ الراهب الاستزادة

واقبل المسؤول: بلغني انك تريد الاطلاع على محتويات مكتبتنا.

– يهمني منها كتاب لرامون لول يتحدث فيه عن البحر المحيط وبلاد الهند وغير ذلك.

– اضع بين يديك ما تحويه مكتبتنا من مؤلفات هذا الفيلسوف الميروقي علّك تجد فيها مأربك.

ووافاه بمجموعة من الكتب، فجلس يتصفّحها وشعر أن راهبًا يتأمّله بانتباه وهو في الوقت نفسه منكبّ على قراءة كتاب استطلع من عنوانه ان يعرف انه للقديس توما الاكويني وهو احد مجلّدات «الخلاصة اللاهوتية» يتحدث عن الخلق.

واقترب الراهب منه، انه في العقد السادس من عمره مهيب الطلعة بادره بالسؤال:

– هل وجدت ما تصبو اليه نفسك؟

فأجابه كلمبوس: اني ملاح يا أبت، والملاحون يهتمّون بالاكتشافات وكلّ ما له علاقة بالتجارة والبحار ولا سيَّمَا تجارة الافاويه من بلاد الهند المشهورة بأنواع التوابل والبهارات والأفاويه على اختلاف أنواعها.

– سمعتك تقول انك قادم من البرتغال.

– اجل من اشبونة، من بلاط الملك يوحنا الثاني.

– من اشبونة؟ انها مدينة جميلة، عاصمة الملاحين وعلماء الكواكب والنجوم.

– كلّهم جهلة اعمى الله عقولهم وقلوبهم.

ودهش الراهب وقال: وما تقصد بذلك؟

– ان الأرض مستديرة ويمكن الذهاب الى الهند بالابحار من الغرب، منذ عامين أحاول تفسير هذه الفكرة للجنة من العلماء والحسابيين ولم يتوصّلوا الى فهمها.

– هل عثرت على النص الذي تبحث عنه.

– لا، ووقتي قصير علي أن أبلغ أونبة قبل قدوم الليل.

– يمكنك المبيت في هذا الدير، وبهذا يتاح لك مواصلة البحث والتفتيش عما تطلب من النصوص.

– شكرًا لكم يا أبت، ولكن ولدي الصغير الذي تركته يلعب في فناء الدير.

– يبقى معك ونحن نهتمّ بأمره.

فلم يصدّق كلمبو أنه يسمع مثل هذا الكلام الذي نزل على قلبه بردًا وسلامًا فقد وجد حلاً لمشكلة ابنه. وشاء تقبيل يد الراهب الذي ولا شكّ يتبوأ مرتبة عالية في هذا الدير لكي يخاطبه بمثل ما خاطبه...

فمنعه الراهب تواضعًا وقال له: اعرّفك باسمي انا القس انطونيو مرشانه MARCHENA والآن هيّا بنا، جاء وقت العشاء، وغدًا نستأنف الحديث، ليلتك سعيدة.

نام ليلته مطمئنّ البال، حملاً ثقيلاً أُزيح عن كاهله، هل يفتحها الله في وجهه على أيدي هؤلاء الرهبان الفرنسيسكان؟

ولما أصبح الصباح توجّه الى الكنيسة لاستماع القداس مع الرهبان، انه يريد أن يظهر بمظهر الورع المتعبّد.

واجتمع بالأب مرشانه انه من العلماء يستحبّ الحديث معهم والأخذ والعطاء والمناقشة

والجدل، فاستأنفا حديث الأمس استهلّه كلمبوس قائلاً:

– لا يغيب عن معلوماتكم، أبت المحترم، انه منذ سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك سنة ١٤٥٣ أصبح من الصعب على ملوك النصرانية الوصول الى آسية عن طريق البحر المتوسط بعدما أصبح هذا البحر كلّه في أيدي الأتراك، لأجل الوصول على الأفاويه من سمطرة وسيلان وغيرهما من الأراضي الآسيوية وهذه الأفاويه ضرورية لحفظ اللحوم من الفساد، أو لأعداد العطور والأصباغ والمساحيق التي اعتاد عليها ابناء الغرب بعد أن عرفوها عند المسلمين في حروبهم الصليبية معهم، فراح الغربيون يبحثون عن طريق آخر قد يكون أطول ولكنه أأمن، يدورون حول القارة الافريقية. فاذا كانت الأرض كرة مستديرة، وهذا هو الصحيح الثابت فيمكن سلوك طريق المحيط الاطلسي والمسافة قد تكون أقصر.

– هل عثرت على مطلوبك عند رامون لول؟

مؤلّفات لول ضخمة ويهمّني منها علم الفلك وله مقالة فيه، يقول في مقدّمتها انه شاء بكتابة هذه المقالة عن علم الفلك ان يقصي الملوك والعظماء عن علم النجوم ولكن على ما يبدو لي انه لم يوفق كل التوفيق فخرج كتابه عن علم النجوم، وترك معلومات جغرافية كثيرة مثلاً طريقة استعمال البوصلة وقد تعلّمها من رحلاته العديدة واتّصالاته المكثّفة بالعرب في تونس وفي غيرها، وميورقة التي عاش فيها حقبة طويلة تعتبر نقطة اتّصال بين افريقية واوروبة ولا شكّ أنه استفاد الكثير من المسافرين في كلا الاتّجاهين وازدهرت الملاحة من جرّاء هذه الرحلات المتواصلة، والميورقيون اول من نزل في الجزر الخالدات في اوائل القرن الرابع عشر، فان جقمة فرير توجه في ١٠ آب ١٣٤٦ بمركبه لاكتشاف نهر الذهب على الشاطئ الغربي الافريقي وان جقمة فرير قبل ان يتوجّه الى ساقية الذهب شاهد الجزر الخالدات كما ان القطالانيين توجّهوا مرّات عديدة الى هذه الجزر.

وهذه الرحلات الطويلة في عرض البحر كانت موفقة اذ ان السفن مزوّدة بالاسطرلاب والبوصلة والتقاويم ونحن نعلم ان التقاويم العربية الأولى نقلت الى البرتغالية والقطالانية في القرن الرابع عشر ولا شك ان هذه التقاويم اثرت تأثيرًا كبيرًا على الملاحة في البرتغال آنذاك والتقويم البرتغالي ترجم عن تقويم لاتيني وهذا بدوره ترجم عن تقويم عربي في مدينة طرطوشة.

ودهش الأب مرشانة من سعة اطّلاع هذا الملاح الجنوى ولم يشأ ان يظهر أمامه بمظهر

المتخلّف عنه علمًا وهو من رجال الاكليرس الذين احتكروا العلوم في القرون الوسطى ، بينما كلمبو علماني فقال له : أتعلم ان أول من حاول معرفة قياس الارض هو «اراتوشنيس» ، فقد الّف كتابًا في الهندسة يتكلّم فيه عن قياس الأرض.

انه أرَاتُوسْثَنيس البرقاوي ولد حوالي سنة ٢٧٣ قبل المسيح في مدينة برقة وتلقّى علومه في أثينة ثم انتقل الى الاسكندرية وقضى فيها بقية حياته.

وتتلخّص طريقة الحصول على هذا التقدير في حساب المسافة بين نقطتين تقعان على خط الزوال الواحد ، فاذا كان الفرق بين درجتي عرض المكانين معروفًا أصبح من اليسير حساب طول الدرجة الواحدة وبالتالي معرفة خط الزوال كله ، ولا أقول ٣٦٠ درجة لأن اراتوسثنيس قسّم دائرة كبيرة الى ستين جزءا. وكان هبارخوس أوّل من قسّم الدائرة الى ٣٦٠ درجة.

ولم يكن تقدير أراتوسثنيس هو الأول من نوعه فان أرسطو قدّر محيط الكرة الأرضية بأربعمائة الف ستاديون وارشمدس بثمانمائة الف ، اما اراتوسثنيس فانه قدره بمائتين واثنين وخمسين الفًا ، وليست هذه القياسات كلّها دقيقة بل تقريبية.

استخدم اراتوسثنيس في اسوان جهازا يسمى «الغنومون» ، لكي يحدّد درجات العرض فوجد ان ليس للغنومون ظلّ على الاطلاق في أسوان في يوم الانقلاب الصيفي ٢١ حزيران (يونيو) ، فاستنتج ان أسوان تقع على مدار السرطان. وكان اراتوسثنيس يعتقد ان أسوان مثل الاسكندرية تقعان على طول خطّ واحد. ولما كان الفرق العرضي بينهما هو ٧,١٢ درجات (١/٥٠ من محيط الدائرة) ، وكانت المسافة بينهما تصل الى خمسة آلاف ستاديون فيكون طول محيط الدائرة ٢٥٠ الف ستاديون ، وصحح هذه النتيجة فجعلها ٢٥٢ الف ستاديون.

لم تكن افتراضات ارتوشنيس دقيقة تمامًا فهناك فرق يبلغ ٣,٤٠ درجات بين خطي الطول للمدينتين اما الفرق بين خطي العرض فيبلغ ٧,٧ درجات وليس ٧,١٢ درجات ، يضاف الى ذلك ان مسافة الخمسة آلاف ستاديون التي تفصل بين المدينتين كانت تقريبية قاسها احد المقياسيين المدربين على السير بخطوات منتظمة متساوية.

واذا قابلنا التقدير على انه ٢٥٢ الف ستاديون ، الاسخونيوس الواحد يساوي ٤٠ ستاديون والاسخونيوس عند علماء الآثار المصرية يساوي ١٢٠٠٠ ذراع والذراع المصري يساوي ٠,٥٢٥ من المتر فيكون تقدير اراتسثنيس لمحيط الارض ٦٣٠٠ اسخونيوس او

٣٩٦٩٠ كيلومترًا وهذه النتيجة تقرب من الواقع بصورة لا يصدّقها العقل (٤٠١٢٠ كيلومترًا ، فالخطأ لا يكاد يجاوز ١ ٪ الاستاديون في قياس اراتوشنيس يساوي ١٥٧,٥ مترًا والاستاديون البطليمي يساوي ٢١٠ أمتار.

لم يرسم اراتوشنيس خريطة على أساس شبكة فلكية خطوط طول ، بل استعان ببعض علامات مميزة «سفراجس» معناها الخاتم او شكل معيّن كما يقصد اراتسثنيس ، فاسبانيا تشبه بجلد الثور وايطاليا بساق وقدم وسردينية بأثر القدم البشرية.

والخلاصة ان اراتوسثنيس كان يعرف الجغرافية البشرية معرفة جيدة. ان معلوماته عن الجغرافية الوصفية ضئيلة ومع ذلك فهو اول من جمع كل الحقائق والأساليب العلمية التي سبقت عصره وهو قبل هذا وذاك أول جغرافي رياضي وأول من جعل كروية الأرض في شكل واضح المعالم. ففتح كولبس عينيه الواسعتين تجاه هذه المعارف الواسعة ، انه أمام عالم كبير مطلع على دقائق الأمور ، وتساءل في نفسه هل هو أحد العلماء العرب المدجنين الذين مكثوا في الاندلس ولم يشأوا العبور الى افريقية بعد سقوط لبلة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٥٧) وهي ثغر بحري كبير على شاطئ المحيط الاطلسي مدينة عتيقة الطراز وأقدم معالمها الاثرية كنيسة القديس بطرس وقد بنيت عقب سقوط المدينة بأيدي النصارى ، مكان المسجد الجامع ثم جدّدت في القرن الخامس عشر وما زال طراز الجامع ظاهرًا في قبّتها التي على يمين المدخل ، ثم في عقدها الوسطي ، ويوجد في كل من جانبيها الشرقي والغربي نافذة مستديرة عملت على هيئة نوافذ الجامع وان بابها يقع في الجنوب ممّا يدل على انه صنع مكان محراب الجامع.

اما كنيستها الكبرى وهي المسمّاة بكنيسة الرحمة فهي أيضاً قديمة ترجع الى القرن الخامس عشر ويبدو الطراز الاسلامي في عقدها وفي قبّتها التي تحاكي قبة الجامع.

ويوجد اثر اندلسي في متحف اونبة وهو عبارة عن لوحة من الفخار بيضاوية الشكل وهي شاهد قبر نقش على وجهه بالخط النسخ ما يلي:

«الحمد لله وحده. توفي الشاب الطالب المرحوم ابو عبدالله محمد بن الشيخ الفقيه الأجل أبو عبدالله محمد بن سعيد بن علي الجبلي ، رحمه الله وبرد ثراه ، عند الزوال من يوم الاثنين الرابع عشر لذي القعدة سنة احدى عشرة وثماني مائة (١٤٠٨-١٤٠٩).

ونقش على وجهها الآخر زخارف حول شجرة الحياة.

سقطت اونبة في يد الملك الفونسه العاشر الحكيم سنة ١٢٥٧/٦٥٥ بعد سقوط اشبيلية بتسعة أعوام. وكان الامير الموحدي السيّد ابو عبدالله الذي سقطت على يده اشبيلية اشترط ان يعوض عنها بأونبة و«لبلة» و«شلوقة» و«حصن القصر» وهي كلّها تقع غربي اشبيلية، ثم عاد النصارى فاستولوا على هذه البلاد جميعها خلال بضعة أعوام...

جالت في خاطره كل هذه المعلومات عن تاريخ اونبة القريبة من دير الرابطة ولم يشأ مكاشفة الأب مرشانة بمَا يدور في خلده.

وقطع هذا الصمت الأب مرشانة قائلاً:

– اذا كان من ملوك او أمراء يرغبون في اكتشاف أراضي جديدة عبر المحيط الاطلسي فلن يكونوا غير ملك البرتغال يوحنا الثاني المولع بالاكتشافات وصاحبي الجلالة ملكي اسبانية لانه اي ملك سواهم في الوقت الحاضر قادر على تنظيم رحلات بحرية اكتشافية؟ ملك فرنسة؟ او ملك الانكليز؟، ليس لديهما مراكب قوية ولا ملاحون خبيرون في الملاحة بعرض البحر، جل ما يحسنون هو الملاحة بالقرب من الشواطئ والتخوم واذا كان عندهم ملاح معروف فهو اما اسباني او برتغالي او فلورنسي او جنوي. هل عندهم عالم فلكي او منجّم؟ هل هناك من عالم فلكي خارج قشتالة او البرتغال او مملكة غرناطة الاسلامية، واذا كان ملك البرتغال طرح قضيتك بين ايدي الفلكيين وعلماء النجوم فما ذلك الا لانه وجدها تستحقّ الاهتمام. هل أريتهم الكتب التي تحملها ولم تتمكّن من اقناعهم.

– انهم، ابت، يقاومون مشيئة الله لا مشيئتي لان القضية ليست قضيتي، الله اختارني انا عبده الحثير لكي اكتشف هذه الطريق وانقذهم من الحاجز الذي وضعه الأتراك.

انا لم اطلب من ملك البرتغال سوى ثلاثة مراكب صغيرة لكي اكتشف الطريق الغربية ان الله اوحى لنا عرض المحيط في كتبه المقدسة: سبعمائة وخمسون فرسخًا لا غير. الوف من الأعوام مرّت على الوحي الالهي وانا وحدي احسن قراءة الكتب المقدّسة، هذا أشعيا يقول ويل لأرض الصنج ذي الجناحين التي في عبر انهار كوش الباعثة رسلاً في قوارب البردى على وجه المياه. امضوا ايها الرسل السراع الى امة طوال جرد الى شعب هائل، منذ كان فما بعد الى امة اعجمية الأصوات شديدة الوطء تقطع الانهار أرضها». (نبوّة اشعيا الفصل الثامن عشر).

تلك هي كلمات اشعيا واشعيا نبي، اوحى الي بها لمّا كنت في حالة مرض عضال اشرفت

فيه على الموت سنة ٤٧٦ ولم ادرك الخامسة والعشرين من عمري ثم ردّت روحي الي وبدأت عمرًا جديدًا ، وسرحت بي المخيلة الى عوالم لا عهد لي بها ، فقصدتها بين وقع السيوف وطعن القنا وضجيج المدافع وانا سابح بين الامواج أصارعها وتصارعني ، وسمعت صوتًا داخليًّا يناديني : «ماذا صنعت في شبابك؟ أتظن اني انقذتك من نول الحياكة في موطنك ومن خمارات «سفونة» لكي تقضي بقية عمرك سابحًا فوق البحار مثل القرصان الطريد الشريد ، يهاجم المراكب المسالمة. أتظن اني لهذا اعطيتك ذهنًا حيًّا واريحية ويدا لكي ترسم الارض والبحار ، وعقلاً ثاقبًا لتدرك معاني الفضاء الرحب والكواكب السيارة والفلك الدوار والليل والنهار؟ متى ترفع ذاتك الى مستوى نفسك وتشاهد سموّها فهي اعلى من جميع المنائر. استيقظ يا كريستفورو كلمبه ، استيقظ وسر في خدمتي».

وسمعت الصوت وتركت المجداف عندما بلغت الشاطئ وقد انهكني التعب الجسدي ولكن نفسي منتعشة ، فجثوت ورفعت عيني الى الرقيع الازرق الفسيح الذي ارتحلت عنه الشمس آنذاك ووعدت الله اني اكون له خادمًا.

خلقت للمعالي وها اني عشت شبابي واسرع خطاي نحو النضوج حان الأوان لتقييم الخمسة والعشرين عامًا مضت من عمري. ماذا اصنع؟

وجهت خطايَ الى البرتغال سنة ١٤٧٦ لان البرتغال هي نهاية العالم. بعد البرتغال سماء وماء. انها النافذة المفتوحة على المجهول تنادي الرجل لكي ينقذها من جحيم العدم. هذا الصوت الصاعد من اعماق الضمير الانساني يسمع في البرتغال اكثر منه في اي بلد آخر لان البرتغال نقطة التلاقي بين فراغ المجهول وبحبوحة الارض التي تنظر الى هذا المجهول في كل امسية تختفي فيها الشمس في الافق المغلق على الانسان.

وذهل الأب مرشانة مصغيًا الى أقوال هذا الرجل الغريب متطلبًا المزيد من التعرّف على ماضي حياته.

– لا شك انك وجدت ضالّتك المنشودة في البرتغال.

– كان البرتغاليون قد جابوا المحيط الاطلسي واكتشفوا جزيرة «مديرة القمر» في الربع الأول من هذا القرن ثم اكتشفوا رأس بوجادور الرهيب ووصلوا الى مدار السرطان المتاخم للمنطقة الحارة. وقبل سقوط القسطنطينية بأعوام قليلة في ايدي الأتراك وصل البرتغاليون الى

شواطئ السنغال وبلغوا الرأس الأخضر امام ذهول ودهشة السكان الاصلاء الذين تساءلوا عما اذا كان مركبهم سمكة كبيرة او طائرًا او شبحًا.

لولب الحركة الاكتشافية هذه هو الامير انريق ابن الملك يوحنا الاول البرتغالي، أسس القاعدة البحرية في كنيسة الغراب سنة ١٤٣٨، وما الهدف من ذلك؟ يبغي امرين: طريق الهند بدورة حول القارة الافريقية واستثمار المناطق الغربية من المحيط باحثًا عن جزر وأراضي ثابتة تحدث عنها بطليموس الذي تعرف عليه العرب اولاً ثم نقلوا معارفه الى العالم الغربي بواسطة خيراردو الكريموني في طليطلة، فالامير انريق البرتغالي يجسّد مصير البرتغال القائم باشباع النهم نحو المجهول هذا الجوع الشره الذي يعذب الرغبة في المعرفة بالتأمل في عظمة المحيط من تلك الشرفة التاريخية التي هي البرتغال في القرن الخامس عشر.

ادركت اشبونة اوجَها في ذلك العهد بعد أن توسّعت المدن والمرافئ الاوروبية الشمالية التي وجدت في مرفأ اشبونة محطة للنزول والاستراحة والتزويد بالوقود والمؤن للبواخر التي تقصد انكلتره من البحر المتوسط أو مرافئ بلاد الفلاندر، وكانت اشبونة مدينة ساحرة رغم انها لم ترفق بسحرها آنذاك أشجار النخيل التي جلبتها من مستعمراتها الجديدة.

– هل خيّب أمالك الملك يوحنا الثاني البرتغالي؟

– قصتي طويلة معه، ذكرت لك أبت المحترم، اشبونة التي يعجب بها الزائر. مدينة مرفئية في الدرجة الأولى فاحت بالروائح على اختلاف أنواعها ودرجاتها. جوّها المشحون برائحة الملح البحرية، دكاكينها، مخازنها، مستودعاتها، اقبية الخمور فيها، الأسماك المجففة، الأدهان، الشحم، المسك، جوز الطيب والقرفة امتزجت رائحة هذه الافاويه برائحة البغال والدواب والثيران والخيول التي تجرّ العجلات والناس من مسلمين ويهود ونصارى اجتمعوا فيها من كافة أقطارهم. مدينة الثقافة والعلم اذ انها تعد ما يقرب من اربعين مكتبة تباع فيها الكتب بمختلف اللغات القديمة والحديثة، انها المدينة التي جمعت كل ما كانت تطمح اليه نفسي: علم الأرض وعلم الفلك.

عثرت في احدى هذه المكتبات على اخي «برتلمي» BARTOLOME الذي سبقني الى البرتغال ووجدته يبيع الاسطرلابات والبوصلات والساعات الرملية. وتمكّن اخي اكثر مني من الاطّلاع على الكتب البحرية واكتسب منها معارف نظرية في فن الملاحة، اخي يجيد الخط أحسن مني فانصرفت هناك الى العمل في احدى المكتبات لبيع الكتب المطبوعة والمكتوبة باليد وشرعت اصوّر الخرائط البحرية واعيش منها.

اطّلعت على خرائط عديدة من نصرانية ويهودية واسلامية ، شاهدت خريطة الادريسي التي اعدها هذا المسلم للملك روجار الثاني في صقلية ، وهي فريدة في نوعها اضاف اليها الادريسي أمورًا كثيرة ليست موجودة عند بطليموس ، فاستفاد منها الصقليون في القرن الثاني عشر وما بعده واستفاد منها ايضاً الجنويون ومنهم انتقلت الى القطلانيين ومن هؤلاء الى البرتغال.

– عندي من ذلك بعض الخبر يا ولدي ، فانا من «مرشانة» وهي بلدة كثر فيها المدجنون اي المسلمون الذين ظلّوا تحت الحكم النصراني بعد ان سقطت بلدتهم بأيدي المسيحيين ، بعضهم تنصر والبعض الآخر حافظ على دين اجداده المسلمين وقد تعلمت منهم الكثير فيمَا يعود الى النجوم والكواكب والافلاك والطبّ والصيدلة والجغرافية. فقد علمت ان جغرافية بطليموس نقلت الى العربية اولاً وثانيًا وثالثًا وربّمَا اكثر، نقلها الكندي ثم نقلها ثابت بن قرّة الى العربية نقلاً جيّدًا ويقال انها نقلت أيضاً الى السرياني في القرن التاسع الميلادي بينما لم تنقل الى اللاتينية الا مؤخرًا اي في ١٤١٥.

– اذا كانت لديك معارف اوسع عن الادريسي احب الاطّلاع عليها.

– حبًّا وكرامة. عاش في القرن الثاني عشر الميلادي. استدعاه رجار الثاني ملك صقلية ليؤلّف له كتبًا في الجغرافية لانه عرف من امر الادريسي شيئًا قبل ان يدعوه للعمل معه ، اكرم نزله وبالغ في تعظيمه ويسرّ له طريق العمل ، وبدأ الادريسي يعمل صورة الأرض على الفضة. فلما فرغ منه كافأه مكافأة جزيلة والحّ عليه في الاستمرار بالعمل معه فاستجاب. ورتّب له الملك كفاية لا تكون الا للملوك. وكان يجيء اليه راكبًا بغلة فاذا صار عنده تنحى عن مجلسه فيأتي فيجلسان معًا.

فالادريسي كما نرى لم يكن عالمًا يخدم ملكًا بعمله فحسب بل كان صديقًا له أثيرًا لديه يجلسان معًا ويتحدّثان في طريقة العمل ويتشاوران فيما يعرض لهما من المشاكل ، فان روجار الثاني كان شديد الاهتمام بهذه العلوم التي برع فيها الادريسي وهي الجغرافية والطب والنبات والحساب والفلك. وقد وجد عند الادريسي فوق ما يطلب من هذه العلوم كلّها فزاد قدره عنده وانس به واتّصلت بين الرجلين صداقة.

عرف الادريسي النتائج الرياضية والجغرافية التي وصل اليها العلماء ، واستخدمها استخدامًا صحيحًا ، انه خير من استخدم جغرافية بطليموس من العرب وغير العرب في

ايامه، بل انه صحّحها وأضاف اليها في كثير من المواضع وعمل صورة الأرض على قطع صغيرة من الفضة ثم ضمّ بعضها الى بعض في شكل دائرة او كرة ونقل بعد ذلك رسم كل قطعة الى «لوح الترسيم» كما يقول ليعمل الخرائط اللازمة لكتابه، ثم يحسب المسافات والأبعاد ويستعمل البركار وغيره من أدوات الرسم في القياس وتحديد المواقع، وقد حذق في استخدام الاسطرلاب والصفيحة وما اليها من أدوات القياس الفلكية – بالإضافة الى معرفته بالزيوج وقدرته على الانتفاع بها وتصويب تقديراتها.

أحبّ روجار ان يعرف كيفيات بلاده وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها مع معرفة غيرها من البلاد في الأقاليم السبعة التي اتّفق عليها المتكلمون وما لكل اقليم منها من قسم بلاد تحتوي عليه ويرجع اليه ويعد منه، فاحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم عليه واخذ معهم فيه فلم يجد عندهم علمًا اكثر ممّا في الكتب. فلما رأهم على مثل هذه الحال بعث الى سائر بلاده فاحضر العارفين بها المتجوّلين فيها فسألهم عنها جمعًا وأفرادًا، فما اتفق فيه قولهم وصحّ في جمعه نقلهم اثبته وابقاه وما اختلفوا فيه الغاه وأقام في ذلك خمس عشرة سنة لا يخلي نفسه في كل وقت من النظر في ذلك والكشف عنه والبحث في تحقيقه الى ان تم له فيه ما يريده.

كان بطليموس يتصوّر الارض مسطّحة وقد رسم خريطته على هذا الأساس، فكان على الادريسي ان يعدل أقوال بعضهم ببعض واستخراج شيء يمكنه الاطمئنان اليه. وقد بنى الادريسي جغرافيته على مفهومات علمية صحيحة مثل كروية الارض وخط الاستواء والأقاليم المناخية التي تتدرج من ذلك الخط الى القطب واستطراق البحار الكبرى بعضها الى بعض وتعادل منسوب الماء فيها، والبحر وأثره في المناخ والجبال.

كروية الارض عنده ثابتة فهو لا يعرض نظريات اخرى في صورة الأرض. وخط الاستواء عنده مفهوم حغرافي ثابت يبني عليه تقسيمه للأرض الى اقاليم، ويتّخذ الخط المارّ بالجزائر الخالدات ويثبت عنده. ومن هنا فان بعض النتائج لا بل جلّها الذي وصل اليه صحيحة سابقة لعصره بمراحل رغم ما تبين من خطأ بعضها كاعتقاده بثبات الأرض وسط قبّة الفلك ودوران الكواكب حولها وقوله بان هناك جبلاً عظيمًا محيطًا بالأرض كلّها يسمّى جبل قاف.

– هذا ما حدا بي للمجيء الى اشبونة لان الجوّ فيها يساعد بكل معنى الكلمة على الاكتساب وتنفيذ المغامرات البحرية والاطّلاع على ما كتبه اليونان والعرب واليهود

والنصارى وعلى التعرّف على ما يقوله الملاحون النصارى والمسلمون الذين تغصّ بهم اشبونة فكانت اتّصالاتي مستمرّة بهم.

ليس من احد في اشبونة الا يعطي رأيه عن الغينية والبحار الساخنة والزنوج والعصافير المتنوّعة الأجناس مثل الببغاء، اخبار متناقلة عن الرحالة والكتب المقدّسة والخوارط والوثائق كلّها تساعد على نشوء المغامرات ووضع المشاريع والشطح بالآمال، كل هذا يضطرم في اشبونة.

تيارات ثلاثة تهيمن: الكتب المقدّسة وآباء الكنيسة.

التيار العلمي المتجلي بالتراث الموروث عن اليونان والعرب والتيار السياحيّ. رحلات بنيمين التطيلي والفارس طفور وماركو باولو وهو اشهرهم وابن حامد الغرناطي وابن بطوطة.

ويتساءل الناس: هل الأرض كلّها مسكونة؟ وهل البحار الجنوبية تغلي مياهها؟ هل من مخلوقات بشرية بعين واحدة ورجل واحدة وذنب؟ اين هي الجزائر التي تحكمها النساء؟ على اي مسافة من الشواطئ الغربية تقع الشواطئ الآسيوية؟ وكم هو طول خط الاستواء وما هي المسافة بين اوروبة وآسية عن طريق المحيط الاطلسي؟

لم يدهش الراهب مرشانة مما سمعه من كلمبس، ووجده قريب التصديق، قد تكون المسافة أقلّ أو اكثر ببضعة مئات من الأميال وهذا لا يؤثر بشيء.

وفي هذه الاثناء قرع ناقوس الدير يدعو الرهبان الى تناول طعام الغذاء، فلملم كلمبس اوراقه وخرائطه وجعلها في حقيبته وخرج برفقة الراهب.

وبعد صلاة العشاء توجّه رئيس الدير الى غرفة كلمبس فوجده يكتب ملاحظات وتعليقات وشروحًا على كتاب لول ففاتحه بالكلام:

– كل يومي وانا افكر في كلامك والمسافة التي تفصل شواطئ المحيط الاطلسي الغربي عن شواطئه الشرقية، سبعمائة وخمسون فرسخًا ليست بالمسافة التي يخشى منها الملاحون أهوال البحار وعواصفها، والى اي الجزر ترغب الوصول؟

– الى اليابان التي يقول عنها ماركو بولو انها من اغنى الجزر في المحيط حتى ان سكانها يزخرفون بيوتهم ومعابدهم بالذهب والفضة.

– واليابان هذه تقع فقط على ٧٥٠ فرسخًا من جزيرة الحديد؟

– نعم.

وفتح كلمبس صندوقًا واخرج منه ملفًا حل عقدته ونشره على الصندوق انه جلد غنم رسمت عليه خريطة العالم، ليست مثل الخرائط التي يستعملها الملاحون بل مفصلة بدقة وملوّنة تظهر فيها اوروبة وتتسلل فيها الانهربلون اخضر، وتظهر فيها الفيلة وافراس البحر وحيوانات ذات قرن واحد وعرائس البحر ذات اذناب كاذناب السمك وشعور طويلة مسترسلة على ظهورهن وصدور بارزة تستهوي الملاحين. والممالك الاسلامية ايضاً مصوّرة على هذه الخريطة: سلاطين جالسون وقد تمنطقوا بالخناجر والسيوف في ايديهم وجمال اشبه بالخيول، ثم اسماء الممالك الغارقة في بحر الظلمات، وجزر عديدة لا حدّ لها ولا حصر وفي اطراف هذا البحر اليابان وقطاي المعروفة منذ القديم.

– ومن وضع هذا التصميم؟

– انا واخي برتولمي.

– وكم مضى عليك من الوقت في هذه الصنعة؟

– سبعة اعوام، ستة قضيتها في الدرس والبحث والتنقيب في الكتب المقدّسة والاسفار الدينية، والكتب اليونانية والعربية والترجمات الكثيرة المسيحية وعام واحد قضيته بالنقاش مع البلاط البرتغالي الذي لم يشأ تصديقي بل اعتبر كلامي من الترهات، ومع ذلك فلم يتسرّب اليأس الى نفسي بل غادرت اخي في اشبونة يكافح ويناضل في هذا السبيل، وانتم رهبان الفرنسيسكان، تستطيعون التوجّه الى تلك الأراضي للتبشير بالديانة النصرانية دون ان تتعرّضوا للاضطهاد من قبل الاتراك أو غيرهم من الشعوب الوثنية.

وتركه الراهب متمنيًا له ليلة سعيدة، ويعيد في ذهنه الكلمات الاخيرة من حيث التبشير بالانجيل في تلك الاراضي النائية التي لم يصل اليها صوت الحق والحياة.

وغرق كلمبس بالتفكير مستلقيا على ظهره مستعرضا في مخيلته تلك الاعوام السبعة التي قضاها في البرتغال ولم يدرك ماربه.

وصل الى البرتغال سنة ١٤٧٦ وله من العمر خمسة وعشرون عاما، اصبح يجيد اللاتينية، فقرأ جميع تلك الترجمات التي اخرجت من العربية الى اللاتينية وخاصة تلك التي تتعلق بعلم الفلك، وما اكثر الكتب اللاتينية المنقولة عن علماء الفلك العرب، الفرغاني والبتاني وثابت بن قرة والزرقالي، وكذلك بطليموس اليوناني نقلت مؤلفاته من العربية الى اللاتينية.

وقرأ سنكا الفيلسوف الاسباني الروماني وبقيت عالقة في ذهنه تلك القصيدة التي يتنبأ بها ويقول: في الاعوام المتاخرة يحلحل الاقيانس الرباطات التي تقيد الاشياء وتنفتح ارض كبيرة ويظهر ملاّح مثل ذلك الذي قاد «جاسون» لاكتشاف عالم جديد، وعند ذلك لن تعود جزيرة «تول» آخر الارض».

ما زالت هذه الكلمات تراود خاطره حتى ظن في نفسه ان سنكا يقصده.

ومرت في مخيلته حادثة زواجه وهو في التاسعة والعشرين من عمره من «فلبية» «منيز برسترله» من اشراف البرتغال من جهة ابيها وامها والدها برتلماوس عيّن حاكما على جزيرة «المرفأ المقدس» المكتشفة حديثا على عهد الملاح الامير انريق. توفي برتلمي هذا سنة ١٤٥٨ وترك لزوجته لقب حاكمة على الجزيرة المذكورة. ولما تزوج فلبية كان اخوها يحكم هذه الجزيرة. وتم الزواج في اشبونة حيث ولد دياغه سنة ١٤٨٠.

ثم كيف توجه الى تلك الجزيرة وتعرف على المحيط الاطلسي وعلى رياحه وتياراته وظروف الملاحة فيه، ثم اتصالاته بالملاحين من نصارى ومسلمين يسالهم ويستعلم منهم عن حالات البحور التي مروا بها. واهم ما في ذلك انه عرف من احد الملاحين المسلمين ان المحيط الهندي يتصل بالمحيط الاطلسي جنوب القارة الافريقية والبرهان على ذلك كما يقول الملاح المسلم، العثور على الواح مراكب مخروزة عند مضيق جبل طارق ومصدرها المحيط الهندي وليس المحيط الاطلسي لان المراكب في هذا الاخير تسمّر بالحديد ولا تخاط [1].

كل هذه الافكار مرت في ذاكرته وزادته اقتناعا بصدق نظريته. واستيقظ في اليوم التالي واستانف الحديث مع الاب مرشانة ومكث في دير الرابطة كل شهر نيسان سنة ١٤٨٥ شغل مع ابنه دياغه احدى غرف الدير.

وفي هذه الاثناء تعرف على راهب اخر اسمه «جوان بريش» لا يقل علما ومعرفة عن الاب مرشانة وتبادل معه الآراء حول الاميال والفراسخ ونظرية بطليموس التي وصلت الى الغرب عن طريق العرب الذين كان لهم نظريتهم الخاصة في كل هذه العلوم ومنهم البيروني ووجد كلمبس ان الاب «جوان بريش» او «فارس» يعرف الكثير عن هذا العالم العربي البيروني فاحب الاطلاع على نظرية هذا المسلم الشرقي الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي توفي سنة ١٠٤٨.

---

(١) وهذه الفكرة مأخوذة من البيروني عند دراسة تضاريس الأرض ومسالك البحار.

البيروني هو اول من تكلم عن الطريقة الارضية في الحساب لتحديد خطوط الطول فانه بعد ان حدد بدقة اقصر مسافة طويلة بين نقطتين وخط عرض كل منهما قام بحساب الفروق في خطوط الطول من النتائج التي حصل عليها وقد اتبع هذه الطريقة في تصحيح الارقام القديمة عن البعد الواقع في خطوط الطول بين الاسكندرية وغزنة.

كما ان هذا البيروني سجل ما يزيد على ستمائة بلد ومكان مصححا اخطاء الاقدمين اذ انه لاحظ اختلافا في اختيار مبدأ قياس خطوط الطول كاهل الهند والصين وفارس بدأوا من جهة المشرق، اما المصريون والقدماء والاغريق والروم بدأوا من جهة المغرب، ثم اختلفوا فيما بينهم فاخذ بعضهم البداية من ساحل المحيط الاطلسي وبعضهم من الجزر الخالدات على بعد عشر درجات من الشاطىء ونتج عن ذلك اخطاء في كثير من النتائج تفاداها البيروني في جداوله بمقارنة المسافات وفروق الاطوال الناتجة بالطرق الفلكية.

كما ان البيروني قام بعمل خريطة مستديرة للعالم في كتابه «التفهيم لاوائل صناعة التنجيم» لبيان موضع البحار وكذلك في مؤلفه الآخر «الاثار الباقية من القرون الخالية».

ابتكر طريقة لتصميم خرائط السماء والارض.

له ايضا مبتكرات في كيفية نقل صور الارض الكروية الى الورق المسطح.

وناقش البيروني المواضع الجغرافية التي تكلم عنها بطليموس وخاصة فيما يتعلق بخطوط الطول والعرض للمواقع المختلفة من الارض، وفي رأي البيروني ان تلك المؤلفات الجغرافية كان اساس مرجعها الشائعات التي سرت حينئذ من البلدان المجاورة، كما انه كان من العسير ارتياد تلك المناطق ودخولها لاختلاف الجنس والاديان فيها فمثلا كان الرومان ياسرون الغرباء والاجانب ويتخذونهم عبيدا واليهود اعتقدوا انهم يتقربون الى الله بقتل وغدر الجماعات الاخرى.

ويشير البيروني الى بعض الاماكن التي جعلها بطليموس بجغرافيته في الغرب في حين ان مكانها الصحيح هو الشرق والعكس ايضا صحيح وتعزى تلك الاخطاء التي وقع فيها بطليموس الى انه لم يشاهدها عيانا. وشرح البيروني وجهة نظره في اتصال المحيط الهندي بالمحيط الاطلسي وذلك خلال منافذ في الجبال على الساحل الجنوبي لافريقية.

وقال ان هناك براهين قاطعة على هذا الاتصال وان كان احد لم يستطع بعد اثبات ذلك بالعيان. ولايجاد خطوط الطول اشار البيروني الى استخدام خسوف القمر برصد وقت حدوثه في مكانين احدهما معلوم الطول.

وطريقة اخرى لا تعتمد على الخسوف ولكنها تحتاج الى معرفة عرضي المكانين حيث يرصد فيها وقت عبور القمر لاتجاه الشمال والجنوب في ليلة معينة وبعد اجراء بعض التصحيحات ينتج فرق الطول بين البلدين واذا استطعنا معرفة المسافة بين البلدين وعرضيهما فانه يمكن حساب فرق الطول.

انها معلومات جديدة يقف عليها كلمبس من الاب جوان فارس الذي سأله:

– هل تعرف احدا يقدمك الى الملكين الكاثوليكيين؟

– الله كلي القدرة الموجود في كل مكان يوصلني الى البلاط.

– انا قادر على ذلك اعرف الراهب الطلبيري المرشد الروحي للملكة ايزابيل الكاثوليكية، رجل عالم وفطن قلّ امثاله ربطتني به صداقة في «بلد الوليد»، اعطيك رسالة تفتح امامك طريق الوصول اليه.

واخذ الدواة والريشة وكتب ما يلي:

اخي في الرب يسوع: الاب جوان فارس من دير الرابطة يطلب من المحترم هرننده الطلبيري ان يعرض مسالة على من يراهم اجدر من سواهم بدراستها. حامل كتابي يستزيدك ايضاحا.

وشاع في الاوساط القريبة من الدير ان رجلا غريبا استضافه الدير واستضاف ابنه الصغير، ينوي القيام برحلة يخاطر بحياته لم يسبقه اليها احد. وكان طبيب الدير غرسية فرنندس مهتم بعلم الفلك، ولكن العالم الفلكي الحقيقي هو الاب مرشانة.

وجد كلمبس ذاته بين اناس يتفاهم معهم ومستعدون لمساعدته بقدر ما تسمح لهم ظروفهم.

استرعى انتباه كلمبس رجل رزح تحت عبء السنين يتردد الى الدير في كل صباح لاستماع القداس، والصلاة مع الرهبان، وبلغ حب التطفل به الى الاطلاع على حاله، بعد ان سمعه يروي قصصا عجيبة غريبة، لا شك ان هذا العجوز قد جاب اقطارا بعيدة في حياته الطويلة.

ودنا منه كلمبس وحياه ببشاشة فرد له التحية بافضل منها وافتتح معه الحديث وسمع قصته فتذكر شبابه لما كان يخوض البحار ولا يبالي بالاخطار وكاد يطفر الدمع من عينيه.

– ما بك يا عماه؟

– وقفت على مشروعك يا ولدي وارى انك على صواب ويا ليتني ارجع الى شبابي لارافقك.

فازداد تطفل كلمبس وشاء معرفة قصة الرجل كاملة.

– وهل انت يا عماه على علم بشؤون البحار؟

– اسمع يا بني، اني عشت فوق المياه اكثر مما عشت فوق الارض اليابسة وقاسيت من اهوال البحار ما لم يقاسه احد قبلي. اعلم يا ولدي، اسمي «بطره فلشكه». كان ذلك على عهد الامير انريق الملاح البرتغالي قمنا برحلة بحرية بمركب برتغالي فما كدنا نبلغ جزيرة «فيال» وبعد ان سرنا اكثر من مائة وخمسين فرسخا تسوقنا ريح شمالية غربية القتنا في جزيرة «الزهور»، ارشدتنا اليها طيور برية تطير نحوها لتبيت فيها.

ولا تسل عن دهشة كلمبس وابتهاجه الذي لم يقو على كبته وشاء الاستزادة من الشيخ الفاني، لان هذه القصة تشبه قصصا اخرى سمعها فثبت اعتقاده بصحة نظريته. ولازم ذلك الشيخ يسمع منه ما جرى له في رحلاته البحرية.

وعمل كلمبس الفكرة هل يتوجه راسا الى الملكة ايزابيل الكاثوليكية بالرسالة الموجهة الى المطران الطلبيري ام يقصد احد الاشراف في مملكة قشتالة وما اكثرهم في ذلك الحين؟ وسمع من طبيب الدير غرسية فرنندس يتحدث عن صاحب شذونة وهو اغنى من الملكة لا سيّمَا في هذا الوقت الذي يعاني فيه الملكان الكاثوليكيان من ضيقة مالية شديدة، حرب غرناطة تستنزف اموالها ورجالها، انهما رازحين تحت ديونٍ طائلة والملكة رهنت جميع حلاها وكل ما تملك لكي تنفقه في هذه الحرب الصليبية.

طلب رسالة من طبيب الدير الى صاحب شذونة وقصده انه يملك ثروة طائلة وعقارات تمتد حتى مرفأ شلوقة فاذا شاء هذا الرجل تمكن من تمويل المشروع دون ان يؤثر ذلك على ثروته الضخمة.

صاحب شذونة:

– على الباب رجل ينتظر مقابلتكم ويقول انه يحمل رسالة من غرسية هرنندس من مدينة «بالش».

– من غرسيه هرنندس؟

– هذا ما قال لي.

– نعم، نعم، غرسية هرنندس الطبيب في دير الرابطة اذا لم تخدعني ذاكرتي. دعه يدخل. وقصر صاحب شذونة في ذلك الوقت افخم من قصور الملكين الكاثوليكيين واغنى ولكن هذا لا يعني ان ساكنيه يعيشون بفخفخة وابهة تضاهيان ابهة الملوك في المشرق، على العكس انهم يعيشون في شظف العيش وتقشفه...

والقاعة التي انتظر فيها وصول كلمبس لاستقباله شبه مظلمة، فالشمس قاربت المغيب في تلك الايام من الخريف، يبين للناظر في ذلك الجو الشاحب مائدة صنعت من خشب السنديان.

تقدم ايها الزائر، قيل لي انك راغب في رؤيتي.

– لقد رايتني، ماذا تشتهي اكثر من ذلك؟

– احمل اليكم رسالة من الطبيب غرسيه هرنندس من بالش.

وناوله الرسالة، وفضها وتوجه الى النافذة وادار ظهره لكلمبس لكي يقرأها على الضوء الداخل من النافذة.

– لا ارى الداعي الى كتابة هذه الرسالة.

– اعرفكم سيدي باسمي، انا كريستفوروكلمبو الجنوى الاصل يطلب منكم صاحبها ان تساعدوني في مشاريعي.

– لا ادري ما هو الدور المطلوب مني تمثيله في كل هذا؟

– النطاسي غرسيه يطلب منك امرين اولها دعم قضيتي عند الملكة ايزابيل وثانيهما هذا الدعم غير مطلوب منكم الا اذا رفضت الملكة الاصغاء الي.

اخذ الدوق يرى في كل هذا ما يثير التشوق فيه والرغبة في حب الاطلاع.

– وما هي فكرتك التي ترمي الى طرحها على الملكة صاحبة الجلالة؟

– بكلمات وجيزة: اذا ابحرت من الغرب اصل الى قطاي وشبنغو في الشرق قبل البرتغاليين.

– ارى ان الوصول الى اليابان ممكن من الشرق مثلما هو ممكن من الغرب.

– الطريق الاقرب هي الطريق التي اطلب من الملكة ان تساعدني على سلوكها فهي اقصر الطرق

– لا تريد مني ان اقول للملكة : هناك طريق اقرب الى اليابان ، ثم اتسول من الملكة السفن والاموال لهذا الغرض فيصبح الطريق الاقصر الاطول...

فحمي غضب كلمبس وقال :

– لا شك انك فارس مشهود له بالبطولة ولكن السماء حرمتك من هبة القريحة الوقادة...

– من اجاز لك ايها الغريب ان تشتم احد اشراف قشتالة؟

– الحقيقة يا سيدي ، لا تخشى احدا.

وساد الصمت برهة وبهت الدوق من جرأة هذا الغريب ومن صراحته غير المعهودة ، فلم يخاطبه احد بمثل هذه اللهجة.

– اذا حجبت عني مساعدتك فغيرك مستعد لاسدائها لي.

– عليك ان تخفف من غلوائك وتليّن عريكتك.

– قد تكون على صواب يا سيدي الدوق ، ولكن اسمح لي بالانصراف.

وخرج من عند الدوق ، انها اول عثرة ، اساء التصرف مع دوق شذونة الذي يظن نفسه بمرتبة لا تقل عن رتبة الملوك.

وتراجع كلمبس متثاقلا على ذاته وقد غمرته موجة من اليأس وشعر كأن غرابا اسحم ينشر جناحيه فوق راسه. وبلغ الى فناء الدار حيث الخدم والحجاب فلم يكترث له احد منهم...

لسبب اجهله وتجهلونه لم يحصل اتفاق بين الطرفين فخرج هذا الدوق متنحيا عن المسرح التاريخي واهمل اسمه مع ان الظرف ساعده لكي يرصع جبينه بتاج الاكتشاف مدى الدهور لو انه اصغى الى اقوال ذلك الغريب الحالم ، الازرق العينين الاحمر الشعر ، الحاد المزاج.

وتحامل كلمبس على نفسه وخرج من حضرة ذلك الدوق الحريص على امواله الطائلة حرص الارملة على الدرهم.

خرج من القصر يجر اذيال الخيبة والفشل ويتعثر بها وغلّفه صمت الليل بكفن اسود.

لم يرقد تلك الليلة في دير الرابطة وفاجأه انبلاج الفجر في الطريق يسير على غير هدى وتراءت له المصاعب مجسمة في مخيلته.

وصل الى الدير وصادفه الاب مرشانة وتمثل سيماء الحزن والفشل في محياه فعزاه بكلمات مشجعة. وانزوى كلمبس في زنزانته وارتمى على فراشه وخيم الصمت الرهيب في هذه الغرفة الصغيرة المطلة على فناء الدير وفي وسط هذا الفناء بئر عميقة القعر مظلمة

رقد كرستفرو وراودته الاحلام: مراكب شراعية، وملوك واناس جلودهم سمر، واستيقظ من نومه مذعورا لقد طرق الباب انه الاب مرشانة بادره بالكلام:

– هل شاهدت الدوقة؟

– كلا، تحادثت مع الدوق.

– انه رجل كل الرجل هل تعلم ماذا جرى له في مدينة الحمة من اعمال غرناطة؟

– كلا، ولكن اتصوره حدثا خطيرا وقع له في تلك المدينة.

– كان هذا الدوق على خلاف منذ اعوام مع صاحب قادش، منافسات على النفوذ والجاه، وامور مثل هذه، انت تعلم انها تجري بين الاعيان والاشراف.

منذ ثلاثة اعوام غزا صاحب قادش مدينة الحمة الواقعة في وسط مملكة غرناطة واستولى عليها انها مخاطرة وليس المخاطر محمودا ولو سلم. ووجد ذاته معزولا عن النصارى وطوقه المسلمون وشددوا عليه الحصار وكاد يقع بين ايديهم.

وصلت الانباء الى صاحب شذونة فجمع رجاله وهبّ لنجدته وتغلب على جنود السلطان ابي الحسن وانقذ المدينة المحصورة ودخل اليها وصاحب قادش غريب عن كل ما جرى ولم يعلم ان عدوه اللدود انقذه من الخطر المحدق به.

وتقابل الرجلان وقال دوق شذونة: لا صداقة ولا عداوة بيننا تحول دون خدمة الله التي يمليها عليّ شرفي وواجبي.

فاكبر المركيز شهامة عدوه الدوق وصافحه وقبّل سيفه المضرج بالدماء. ولكز الدوق صاحب قادش جواده بالمهماز وعاد ادراجه على راس فرسانه[1].

سمع كلمبس هذه القصة عن دوق شذونة وندم على سوء تصرفه معه، ولكن عزى نفسه، اذا فشل عند هذا الدوق فقد ينجح عند دوق آخر وما اكثرهم في اسبانيا في ذلك الوقت. لماذا لا يجرب حظه عند دوق «مدينة سالم» وهو لا يقل شهرة وجاها وحسبا ونسبا

(١) سيمون الحايك: ثريا الرومية، الفصل المتعلق بسقوط الحمة بغرناطة.

عن صاحب شذونة الذي هو ابن غير شرعي لاحد الاشراف بينما صاحب مدينة سالم واسمه «لويس ذو العرف» يتحدر بخط مباشر من فرع سلالة ملوك قشتالة من ابن الفونسه العاشر البكر توفي ذلك الامير «لويس ذو العرف» وهو فتى فجاء عمه شانجه واستولى على الحكم باسم شانجه الرابع بعد ان ثار على ابيه الملك الفونسه العاشر الحكيم في خبر طويل وحرم اولاد ابن اخيه من الملك ، فدوق مدينة سالم له كامل الحق في المطالبة بعرش قشتالة وبالتالي في منافسة الملكة ايزابيل الكاثوليكية عليه ولكنه لم يحرك اصبعا في هذا الاتجاه طيلة حياته ، همه بالنساء وهمهن به.

توجه اليه كلمبس والهب ذهنه بمشروعه فاصغى اليه صاحب مدينة سالم واكرم مثواه واستضافه من خريف سنة ١٤٨٤ الى اوائل سنة ١٤٨٦.

كان يقيم هذا الدوق في مدينة شانته مرية البحرية المعروفة باسم «مرفأ سانتا مريه». استمع الى كلمبس باهتمام كامل واعطى الاوامر لبناء ثلاثة مراكب حسب طلب كلمبس نفسه ، وفعلاً تمّ صنع هذه المراكب الثلاثة.

وغمرت السعادة هذا الرجل الغريب الذي كفاه صاحب «مدينة سالم» كل ما تصبو اليه نفسه من اكل وشرب واقامة وتحقيق امال. ماذا؟ الم يهبه الدوق اربعة الاف دينار لبناء المراكب الثلاثة التي اصبحت جاهزة للسفر مزودة بالمؤونة لمدة عام كامل.

وهزه الزهو والفخار لهذه الحفاوة والاكرام والاعتبار من قبل صاحب مدينة سالم الذي لا يضاهيه في الحسب والنسب الا ملكة قشتالة ايزابيل الكاثوليكية المالكة حاليا ، وقد يكون هو احق منها بالسلطة لو انه عمد الى المطالبة بحقه ولكن كما قلنا شغلته النساء عن طلب الملك. كما شغلن اباه الذي بدل ان يطالب الملكة ايزابيل عاش حياته من اخلص الناس للتاج القشتالي.

وفجأة شبت في ذهن كلمبس فكرة نغصت عليه هناء عيشه. هذا الدوق غير قادر على تحقيق جميع آمال كلمبس ، يقدر هذا الدوق على تعيينه حاكما على الاراضي التي يكتشفها ولكن لا يحق له اعطاءه لقب «امير البحر» اميرال.

وهنا مجال طويل لطرح عدة اسئلة دون التمكن من الاجابة عليها اجابة قاطعة ، لماذا لم يتحقق حلم كلمبس على يد صاحب مدينة سالم ، من هو المسؤول عن ذلك؟ كلمبس؟ دوق مدينة سالم؟ الاثنان معا؟

هل شعر الدوق ان الملكين الكاثوليكيين لن يرضيا عن تصرفه فيما لو موّل المشروع الذي هو في الدرجة الاولى من صلاحية الملكة والملك دون سواهما من الرعايا؟ هل يتعدى على حقوقهما بهذه الطريقة التي تعتبر عصيانا وتمردا وهو الذي طوال حياته لم تبدر منه اي بادرة يشتم منها منافسة الملكين في سلطانهما وصلاحياتهما؟

قرر امرا في نفسه، يكتب الى الملكة ايزابيل يوصيها خيرا بكلمبس. وبث في روع هذا الغريب انه من الافضل له ان تتبنى السلطة العليا هذا المشروع الضخم.

اقتنع كلمبس وخرج من عند الدوق صاحب مدينة سالم راضيا وحاملا رسالة الى ملكة قشتالة.



الملكان الكاثوليكيان ايزابيل وفرننده

الفصل الثالث

في قرطبة

طريق طويلة تقطع الاراضي الاندلسية من البحر المحيط حتى قرطبة عاصمة الخلافة الاموية سابقا والآن تحولت الى عاصمة الاندلس الاسباني في ذلك العهد، عهد استرداد مملكة غرناطة المعقل الوحيد الباقي بايدي العرب في شبه الجزيرة الابرية. ولم يفت كلمبس ان الملكين الكاثوليكيين في حرب ضروس مع المسلمين في ذلك الحين. ورثوا عن العرب حروب الصائفة. سبحان الله كيف تتقلب الاحوال، كان العرب في الماضي يشنون الصائفات على النصارى عند حلول فصل الربيع فتنطلق الجحافل الاندلسية من قرطبة كما تنطلق الجحافل الاسبانية منها على الحصون الاسلامية، حصنا حصنا. ابتدأت هذه الحرب الغرناطية منذ سنة ١٤٨٢ ونحن الآن في ربيع ١٤٨٥، القوات الاسبانية تتجمع في قرطبة ايذانا بالتحرك الى معقل من المعاقل الاسلامية الباقية، وقد اختار الملكان هذه المرة مدينة مالقة الثغر المفتوح الذي تتدفق منه المساعدات الافريقية وغير الافريقية على مسلمي غرناطة.

قضى الملكان الكاثوليكيان ايزابيل وفرناندو ذلك الشتاء يبعثان الرسائل الى اعيان البلاد يحثونهم على الجهاد، على الحرب الصليبية ضد المسلمين ويخصون كل واحد منهم بمَا يجب ان يقدمه من سلاح وعتاد ومؤونة ورجال والسلطات الدينية والمدنية مفروضة عليها هذه الحرب لانهائها باسرع ما يكون للانصراف بعدها الى قضايا اخرى تهم الدولتين القشتالية والاراغونية وخاصة الاراغونية لان حرب غرناطة ليست حربها، انها حرب قشتالة فاراغون مهتمة بشؤون البحر المتوسط الشرقي، الانظار متوجهة نحو صقلية وسردينية والامارات الايطالية.

خصص يوم معلوم للحضور الى قرطبة بالعدة والعدد، يوم مشهود في عاصمة الخلافة الاموية. اقبل دوق مدينة شذونة واونبة وصاحب مدينة سالم وصاحب قادش، والكردنال مندوسة، واقبل ايضا اشراف من فرنسة وبريطانية وجرمانية، لا يريدون ان تفوتهم هذه الحرب الصليبية التي بشر بها البابا سكستوس الرابع (١٤٧١-١٤٨٤). كل شيء يصغر ويقل تجاه حرب المسلمين، فات الزمن على ايام الملك الرنق الرابع (١٤٥٤-١٤٧٤) عندما كانت مملكة قشتالة تكتفي بفرض الجزية على ملوك غرناطة او انها تشن عليهم من حين الى آخر غارات لا تجدي نفعا، يبادلهم المسلمون بغارات اعنف واشرس للسلب والنهب دون ان تؤثر هذه الغارات على الهدنة الموقعة بين الطرفين.

عاش الرنك حياة تفاهم ووئام وسلام ومودة مع سلاطين غرناطة، يتزيا بازياء المسلمين ويتخذ عاداتهم، الاحوال تغيرت والاشخاص تبدلوا والظروف تقلبت. الملكان الكاثوليكيان لا يرضيان بالجزية التي تقدم لها في وقتها يريدان الارض، يريدان طرد المسلم نهائيا من هذه البلاد التي احتلها اكثر من ثمانية قرون، لقد حان له ان يغادرها ويردها لاصحابها الاسبان الذين اخذت منهم. وكلمبس يعلم حق العلم ان ايزابيل وفرناندو مصممان على استعادة الارض، ارض الاجداد، فهل يجد سبيلا لكي يدس مشروعه الاكتشافي بين المشاريع الاكتشافية التي يحققها الملكان الكاثوليكيان؟ الا يعملان على كسب اراضي جديدة ويضحيان لاجلها بالمال والرجال والراحة وهناء النفس؟ هو سيسلطها على اراضي لا اول لها ولا آخر باقل ما امكن من التضحيات، يكفيه القليل من المال وثلاث سفن صغيرة... فهل يجد اذنا صاغية في قشتالة او بالاحرى في قرطبة بعد ان سد ملك البرتغال يوحنا الثاني اذنيه عن الاصغاء اليه؟

هذا ما كان يخاطب به نفسه وهو في طريقه الى قرطبة راكبا بغلة اوصلته الى عاصمة الخلافة فدخل اليها من باب اشبيلية وهو احد ابوابها الغربية، في يوم بارد من ايام كانون الثاني ١٤٨٦. الشمس عادت الى الاشراق بعد ايام من الامطار المتواصلة. ولاحت له بيوتها البيض وابراجها المذهبة وشوارعها الضيقة المتلوية الغاصة بالناس، عمال يشتغلون بالجلود، سمر الوجوه وآخرون ينسجون الحرير وفلاحون يسوقون الدواب والعجول. هذا مصارع ثيران بزناره الاحمر، وهذه سيدة راكبة بغلة صغيرة غبراء وهذا فارس يمتطي حصانا اشهب وتلمع خوذته على راسه، ووشاحه الاحمر المطرز بخيوط ذهبية يغطي كتفيه وينسدل على ظهر جواده، رجال مسلحون بنادقهم على اكتافهم وهذا متسول يطلب صدقة

وهذا يهودي بلحيته الطويلة، وهذا من المدجنين قد وضع طيلسانا على راسه وغفيرة حمراء، وهذا فقيه قد ارخى ذؤابة اسدلها من تحت الاذن اليسرى، وكلمبس لا يلوي على احد حتى وجد ذاته امام المسجد الكاتدرائية ولم يعبأ بمَا شاهد من عظمة البناء بل حث بغلته الى اليسار وتابع طريقه حتى بلغ الى القصر فترجل عن ظهر بلغته وربطها الى جذع شجرة وتوجه الى القصر وسال عن الملكين الكاثوليكيين.

نظر اليه الحراس بعين الاستغراب، مستخفين به لما ابصروا لباسه الرث وسمعوا اللهجة الغريبة ولغته الاسبانية الركيكة التي يتكلمها بسرعة وبصوت خافت مضطرب، وهموا بطرده فابرز لهم كتابا موجها الى جلالتيهما من دوق مدينة سالم. لقد تغير الموقف، فاقتادوه الى صاحب الخزانة «الهنسه كنتنيلة» فاستمع اليه: انه يبغي اطلاع الملكين الكاثوليكيين على مخطط ياتي بالنفع الكبير للنصرانية وهو مشروع لا يناقشه الا مع جلالتهما.

فقال الدون الهنشه: في هذه الحالة عليك ان تنتظر عودتهما الى قرطبة.

– ومتى يعود جلالتهما؟

– لا ادري ولكن ليس قبل ثلاثة اشهر. ولكن بمَا انك قادم من قبل صاحب مدينة سالم تنزل ضيفاً على نفقة الخزينة.

وفكّر كلمبس، انتظار ثلاثة اشهر، ما اطول الانتظار ولكن بمَا ان الاقامة على نفقة الخزينة فلا باس بالانتظار.

واستفاد من هذه الاقامة المفروضة عليه في عاصمة الخلافة[١].

ودخل ذات يوم احدى الحانات ومدّ الحديث مع صاحب الحانة مستطلعا رايه في الاحداث الجارية، فكشف له صاحب الحانة صدره وقال له:

– منذ اعوام قليلة لم يكن يخطر في بال احد من عامة الناس ان الملكين قادران على توحيد كلمة الاشراف لقتال المسلم، واليوم تجدنا جميعا مجندين في هذه الحرب الصليبية. اقول لك الجميع بدون استثناء. كانت الحالة تختلف تماما على عهد الملك انريق، والعيش اسوأ ممّا هو عليه الآن. بالنسبة الى المسلمين، كان يخطر في بال مولاي الحسن ان يشن غارة على الحدود والنصارى بدورهم يشنون غارة وهو امر معقول، ومقبول بين فئتين مختلفتين

---

(١) حتى اليوم ما زالوا يطلقون على قرطبة اسم او لقب «مدينة الخلافة»

مذهبيا ، ولكن هذه الغارات لا تستمر اكثر من بضعة ايام ثم تعود الحالة الى سابق عهدها. اما اليوم فينخرط في صفوف الجند جميع الرجال القادرين على حمل السلاح اعتبارا من شهر آذار حتى مطلع الخريف. عليهم ان يلبوا النداء لمقاتلة اعداء الدين ، حتى ولا الطاعون قادر على اعفاء الناس من الاشتراك في هذه الحرب المستمرة منذ سنة ١٤٨٢ .

وتدخلت امرأة صاحب الحانة فقالت : اضطر اهالي اشبيلية الذين عمهم الوباء الوبيل الى دفع مليون مرابطية لقاء تخلفهم عن التطوع.

فرد عليها زوجها قائلا : الحرب لا تخاض بدون تكاليف : يقتضي لها المجانيق والذخيرة والمؤن. فقالت المرأة : اثقلوا كاهلنا بالضرائب ولا ندري متى نتخلص منها.

وغادرت المجلس فقال زوجها لكلمبس : لا تعبأ بمَا تقوله زوجتي واذهب الى محاربة المسلم تربح الغفران الكامل عن خطاياك ، فقد منحه قداسة البابا من يشارك في هذه الحرب الصليبية ، ويدفعون لك اجورا مغرية.

وتوقف الحديث عند هذا الحد. وشاق كلمبس التعرف على ما يجري في قرطبة فخرج الى ساحة المسجد الكاتدرائية وهي عبارة عن فناء مستطيل يعرف بفناء النرنج ، اندلسي الطراز والمظهر زرعت فيها اشجار البرتقال والتوت والليمون الحامض ، يحيط به من الشمال والغرب عدة اديار ومعابد ذات اعمدة وعقود على الطراز القوطي والعربي. اقمشة من الخيش مدت من شجرة الى شجرة ليستظل تحتها اناس ينتظرون دورهم لمعالجة اضراسهم واسنانهم ، خزف ثمار خضار مقصبات تجمع فوقها الذباب ، حشائش واعشاب عطرية ، قادرة على شفاء الامراض التي يعجز الاطباء عن شفائها ، عشرات المسلمين المدجنين جلسوا القرفصاء امام اكوام من القباقيب والبوابيج والاحذية على اختلاف انواعها ، حقائب من الجلد متنوعة الاحجام والمقاييس ، سجادات ، بسط.

وجلس تحت شجرة برتقال بائع يعرض زيت العظاء ويُعدّ الدواء امام الحاضرين وينادي على بضاعته.

– لا بثلاثين ولا بعشرين ابيع هذا المرهن الذي يشفي الحروق والجرب ، خمس مرابطيات فقط.

وشاء مشاهدة هذا المسجد المتحول الى كاتدرائية ، سمع بذكره وشاقه مشاهدته عيانا ومن له غير المدجنين الذين ساعدوا على ادخال التجديدات عليه بعد سقوط قرطبة بايدي النصارى سنة ١٢٣٦ على عهد الملك فرنانده الثالث.

ودنا من احدهم وقد جمع حوله العقاقير وعرف من قيافته انه من المسلمين المدجنين الذين ظلوا في قرطبة بعد استسلامها الى الملك فرناندو الثالث. وشرع معه بالحديث بلهجة اسبانية قريبة من لهجة المسلم المدجن وطلب مرافقته الى داخل المسجد – الكاتدرائية ليكون دليله. فلبّى المدجن طلبه بطيبة خاطر.

ولمّا امسيا في الداخل شرع يروي له قصة هذا المسجد من اولها الى آخرها، فقاده اولا الى القسم الذي بناه عبد الرحمن الداخل «صقر قريش» سنة ٧٨٦ م، فجلب اليه الاعمدة والرخام المموه من اربونة واشبيلية والقسطنطينية وتوفي قبل اتمامه فاتمه ابنه هشام الاول وانشأ به منارته الاولى.

جاء عبد الرحمن الاوسط وزاد فيه بهوين جديدين من ناحية القبلة المواجهة لنهر وادي الكبير. جاء الامير محمد بن عبد الرحمن وانشأ مقصورة تعتبر الاولى من نوعها في الاندلس.

ثم جاء الامير عبدالله ابن الامير محمد وانشأ الساباط الموصل من القصر الى الجامع وهو عبارة عن ممر مسقوف بُنِيَ فوق عقد يفضي من القصر الى مقربة من المحراب.

جاء عبد الرحمن الناصر لدين الله فجدد واجهة الجامع وهدم منارته القديمة وانشأ مكانه منارة ارفع وافخم مربعة الواجهات لها اربعة عشر شباكاذات عقود ولها سلّمان وفي اعلاها ثلاث تفاحات: اثنتان من ذهب والثالثة من فضة تخطف الابصار ببريقها عندما تصوب عليها الشمس اشعتها.

جاء الحكم المستنصر فبنى المحراب الثالث وعمل له قبة فخمة زخرفت بفسيفساء بديعة. استقدم الحكم من القسطنطينية خبيرا باعمال الفسيفساء وارسل اليه القيصر منها قدرا كبيرا. وبنى الحكم المستنصر ايضا مقصورة جديدة بها قبة على الطراز البيزنطي، وبنى دارا للصدقة الى جانب المسجد واخرى للوعّاظ وعمال الجامع.

واخيرا جاء المنصور بن ابي عامر الحاجب فزاد فيه من ناحيته الشرقية فاقام بحذاء الجامع من الشمال الى جنوبه جناحا جديدا تكاد تعدل مساحته البناء الاصلي فتضاعف حجمه وبلغ عدد السواري فيه ما بين صغيرة وكبيرة الفا واربعمائة وسبع عشرة سارية، وبلغت ثرياته مائتين وثمانين.

فاصغى كلمبس باهتمام الى هذا الوصف من فم المسلم وهو لا يكاد يلتفت اليه، بل انظاره عالقة في سقف الجامع، في حناياه في جدرانه في سواريه وعبقرية المهندسين اذ انهم

كيف ركبوا سواري رفيعة لا يزيد قطر الواحدة منها على خمسة وعشرين سنتمترا سقفا ارتفاعه نحو تسعة امتار ولكي يتوصل الى هذا الارتفاع يجب استنباط طريقة، فالسواري الواقفة ليس لها هذا العلو فوضع المهندس العربي عمودا فوق عمود وقوسا فوق قوس.

انه ابتكار هندسي لم يتكرر.

وفكّر كلمبس في نفسه كيف تمّ لهذا العريف البارع هذا الصنع؟

لا شك انه رسم الصورة وقدّر الارتفاعات وتصور هيئة الجامع بعد الفراغ منه فلم يعجبه. الارتفاع لا يناسب المساحة، انه منخفض، فما العمل؟ والسواري موجودة لا يستطيع زيادة في طولها فهي من الرخام، فخطر في باله ان يعقد الاقواس والحنايا بينها ثم يركب سواري اخرى فوق السواري القائمة ثم يعقد حنايا ثانية يركب عليها السقف.

ان هذا العريف جريء ودقيق في حساباته لم يتقلده مهندس آخر في بناء المساجد ولذا فمسجد قرطبة وحيد في نوعه.

وبالحقيقة انه ثلاثة مساجد لا مسجد واحد.

وتابع المسلم المدجن كلامه قائلا: ان ابواب المسجد المؤدية الى ساحة البرتقال التي جئنا منها قد سدت ولم يبق منها سوى الباب الذي دخلنا منه، ولذا نجد ذواتنا في مكان مظلم مع انه في الماضي لم يكن كذلك لان العريف راعى في بنائه مشكلة الضوء. جاء النصارى وسدوا ثلاثة عشر بابا من ابوابه بالحجارة.

ترى ان هذا الجامع قد تحول الى كنيسة او كاتدرائية.

وقاده المسلم الى المحراب الذي هو عبارة عن مقصورة مضلعة فيها عقود زخرفية وافريز كتبت عليها الآيتان ١٠٢ و١٠٣ من سورة آل عمران: بسم الله الرحمن الرحيم: يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتون الا وانتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألّف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون.

وتلاها المدجن بتقوى وخشوع دهش لها كلمبس وشاء معرفة فحواها ففسرها له باللغة الرومانسية السائدة آنذاك.

حوّل الظافرون النصارى هذا المسجد الى كاتدرائية وحولوا مئذنته الى برج الاجراس وانشأوا في داخله الكنيسة العظمى من زيادة عبد الرحمن الاوسط وجزء من زيادة المنصور

بن ابي عامر بعد ان ازالوا ثمانين سارية وقوسا والسقف الذي فوقها.

وجد كلمبس ذاته امام عظمة وجمال الفن المعماري العربي، كما تعرف من ذي قبل على علومهم الفلكية والهندسية وتفوقهم في جميع هذه الفنون والمعارف.

وخطرت له فكرة: لماذا لا يتخذ منهم رفاقا في رحلته المقبلة في اكتشاف عوالم جديدة؟ ومنذ ذلك الحين وهذه الفكرة تراود دماغه.

* * *

نزل كلمبس في فندق صاحبته مليئة الجسم عظيمة الثديين، بشوشة الوجه، تخطت سن الشباب وتوغلت في الاربعين ولكنها ما زالت تحتفظ بمسحة من الجمال.

– اهلا بك، يا سيدي، وسهلا لن تجد في قرطبة غرفة اشرح من هذه الغرفة ولا انظف منها.

ودفعت الباب برجلها وهرعت الى النافذة تفتحها.

– والاكل ايضا سيرضيك: لحم الخروف والارنب والماعز، والحلويات حدث عنها ولا حرج، لن تجدها عند الراهبات انفسهن. اما بقية نزلاء الفندق فهم من خيرة الناس، تجار رجال من الاكليروس العلماني سيدات شريفات. هل ستمكث طويلا في قرطبة؟

– ثلاثة اشهر على ادنى حد اي حتى منتصف الربيع.

– هل جئت بقصد التجارة؟

– جئت لزيارة شخص كبير في القصر.

– اني قادرة على مساعدتك لاني اعرف الكثيرين من سكانه حتى وصيفة السيدة بيتريس عبيديةBOBADILLA، قل لي مع من تريد الكلام وانا مرشدتك الى بغيتك.

– مع صاحبة الجلالة الملكة ايزابيل الكاثوليكية دون سواها.

كانت الساعة العاشرة صباحا لما اقبل كرستفرو كلمبو الى القصر الملكي يطلب مواجهة المرشد الروحي لصاحبة الجلالة المطران الطلبيري، اني احمل رسالة له من دير الرابطة في اونبة.

فقاده الخادم الى قاعة الانتظار. وطال انتظاره الى ان اقبل الخادم مرة ثانية يقوده الى قاعة الاستقبال فاذا هو امام شيخ مهيب الطلعة انه المطران الطلبيري الذي مد له يده ليقبلها فقبلها وسلمه الرسالة من المحترم الراهب مرشانة، ففضها المطران وقرأها.

– يقول لي صديقي القديم انك جئت الى قشتالة لتعرض على جلالة الملكة مشروعا يتعلق بالبحار واكتشاف اراضي جديدة.

– وهو كذلك يا سيدنا المطران، حدثت الاب مرشانة طيلة اسبوع في هذه القضية لاقنعه بوجهة نظري ومشروعي والمكاسب المتأتية منه لجلالتها وللديانة النصرانية بالعموم.

– وما هي هذه الطريق الجديدة التي تريد ان تسلكها؟

فاوضح له كلمبس باختصار انها الطريق من الغرب عبر اقيانوس ثم قال متوسلا:

– ارغب اليك ايها الحبر المفضال ان تساعدني في نيل بغيتي عند صاحبة الجلالة. فاني احمل اليها رسالة من دير الرابطة.

– هاتها اني اسلمها اليها عند قدومها الى قرطبة.

مر شهر على هذه الزيارة لمّا استدعاه ذات يوم ليهمس في اذنه انه خاطب جلالتها بشأنه وطلبت ان تعرض مشروعك بصورة رسمية اي خطية وترفعه الى مجلس الشورى.

– ان جلالتها لا تستطيع رفض مشروعي.

– لم ترفضه ولكن طلبت عرضه بصورة رسمية كما هي العادة الجارية ولا ارى في مشروعك ما يوجب تغيير العرف.

– هل شرحت سيادتكم لجلالتها وبينت لها المكاسب التي تجنيها من الوصول الى بلاد الهند عن طريق بحر الظلمات والمجد الذي تكسبه قشتالة والانفس الكثيرة التي تربحها للكنيسة؟

– ذكرت لها كل هذا واكثر فلم يبق عليك الا ان تتصرف كما طلبت منك.

ومدّ له يده ليقبلها دلالة على انتهاء المقابلة.

قضى الملكان الكاثوليكيان شتاء سنة ١٤٨٥ في «قلعة النهر» بدار قدمها لهما الكردنال «مندوسة» MENDOZA ليدبرا من هناك شؤون المملكة التي اصبحت مترامية الاطراف بعد انضمام مملكة اراغون اليها، والصائفة ضد غرناطة انتهت بحلول فصل الشتاء وحتى الربيع لا صائفة جديدة.

اتيح لكلمبس ان يتعرف على الكثير من الشخصيات الكبيرة في قرطبة ومن بينها العالم الدومنيكي الكبير الراهب دياغه الداسي مدرس اللاهوت في جامعة سلمنقة ابعدته الملكة عن مكان تدريسه لكي تعينه مربيا لابنها الامير جوان.

اهتم هذا العالم اللاهوتي منذ اللحظة الاولى بشؤون الهند واخبارها ، ففي الليالي الطويلة يستلذ سماع اخبار الفرسان والابطال ورجلاه ممتدتان قرب المدفأ وكانون الفحم الشاعل من ورائه لمكافحة البرد ، هذا الراهب الدومنيكي يصغي باهتمام كلي الى الروايات والقصص التي تجود بها مخيلة الملاّح الجنوي ، والوصف الشيق لأراضي الخان الاكبر، الملك الاسيوي الراغب في التعرف على الديانة المسيحية.

وكان ١٥ كانون الاول ١٤٨٥ يوم ميلاد ابنة الملكين الكاثوليكيين الخامسة اعطوها اسم كاترين فاحاط بها الاساقفة والاعيان لكي يشهدوا على ميلادها ومجيئها الى هذا العالم الارضي ولم تتوجع الملكة من المخاض بل عضت على شفتيها لما مزقت الطفلة احشاءها.

جرت الاحتفالات واولمت الولائم ، ودارت الالعاب والمباريات ولعبة السيف والالعاب البهلوانية. شاهد كلمبس كل هذه الاحتفالات وقلبه يتمزق لطول الانتظار، قد تفوت الفرصة ويسبقه احد المغامرين ويكتشف الاراضي التي يمني نفسه بالوصول اليها.

واخيرا بشره الراهب دياغه الداسي انه سيحظى قريبا جدا بمقابلة الملكة ، جاء رسول من قلعة النهر يقول المقابلة ستكون في ٢٠ كانون الثاني فعليه ان يعد معدات السفر.

وكان ذلك اليوم ٢٠ كانون الثاني سنة ١٤٨٦ غائما قاتما باردا فالتف كلمبس بعباءته البرتغالية الموشاة بالمخمل في ذيلها وعند كميها. اجتاز كلمبس شوارع قلعة النهر والسماء قاتمة تهدد بسقوط الثلج.

وصل الى القصر وذكر اسمه للحاجب فوجد اسمه بين اسماء الذين يحظون ذلك اليوم في مقابلة الملكة ، ورافقه احدهم يرشده الى مكان الانتظار.

تقدم الملاح الجنوى بخطى ثابتة متابطا خارطة ملفوفة بعناية والملكة ايزابيل جالسة وسط القاعة وقد لفت شعرها بكوفية وكشفت عن صدرها وقد زيّن عنقها سلسلة ذهبية مرصعة بحجارة كريمة.

ونادى مناد وبيده خارطة العالم فطوى ركبته اليسارية لكي يقبل يد الملكة وتراجع القهقرى وانظاره معلقة بالملكة دون ان يدير لها ظهره كما اوصاه صاحب التشريفات وخاطبها قائلا :

ايتها الملكة العظيمة : انا خادمك المطيع الحقير جئت لادعوك بنعمة الله الى كسب عظيم لا يتصوره عقل مخلوق : الوصول الى جزر اليابان والهند وبلاد الخان الاكبر الذي طلب منذ

اعوام من الاب الاقدس بابا رومة ان يبعث له حكماء لاهوتيين يعلمونه وحاشيته الديانة المسيحية فلم يسمع له قداسته. انا كريستوفرو كلومبو اتوسل لجلالتك بصفتك كاثوليكية ومحبة للديانة المسيحية وعدوة لديانة الاسلام ولجميع الهرطقات وعبدة الاصنام الا تتركي هذه الشعوب راسبة في ظلام الجهل والوثنية فتدبري الطريقة في ارشاد هذه الشعوب الى الديانة الحقيقية والايمان الكاثوليكي كما اوصانا الله بالتبشير بالانجيل بين جميع الامم.

وتوقف كلمبس قليلا لكي يتبين تاثير كلامه على الحاضرين فلاح له في عيني الملكة الخضراوين بريق من الاهتمام والاصغاء الكامل الى حديثه.

— طريق جديدة نحو الافاويه، يا صاحبة الجلالة، تثير غيرة الجنوبيين والبندقيين والبرتغاليين المتشبثين بارسال سفنهم الى الشواطىء الافريقية والدوران حول هذه القارة للوصول الى الهند. ولكن عن طريق الغرب نستطيع الوصول الى تلك البلدان فاذا وافقت جلالتك على طلبي وضعت بين يديك مفتاح الافاويه من الفلفل وجوز الطيب والمسك واللآلىء والذهب والحجارة الكريمة لان الله تبارك وتعالى ارشدني الى امكنتها، الى مناجم الملك سليمان الحكيم والى اراضي ترابها من الذهب وقصورها ومعابدها مبنية بهذا المعدن الكريم كل هذا اضعه تحت قدميك.

ثم نشر خارطة العالم ونهض وتقدم نحو الملكة ايزابيل وشاء صاحب التشريفات منعه من الدنو من جلالتها ولكن عندما ابصرها قد احنت راسها الى الامام لتشاهد خارطة العالم تراجع الى مكانه.

هذه هي جزيرة اليابان التي تحدث عنها ماركو بولو وانا ابغي الوصول اليها. هنا في القسم الجنوبي منها ارض ترشيش الذي استخرج منها اصحاب الملك سليمان الذهب لبناء هيكله. اضع هذه الثروات تحت تصرف جلالتك لكي تنهي الحرب التي تشنينها على غرناطة.

وسالت الملكة ايزابيل: لماذا وضعت هنا الفردوس الارضي؟

— لان الله خلقه في هذا الخليج، وهنا اكل ابوانا آدم وحواء الثمرة المحرمة.

وتحركت الستائر وراء الحاضرين واحنت الملكة راسها قائلة:

مولاي جلالة الملك.

فقال الملك فرناندو: ايها الجنوى لا تتهم الملك بالتطفل لانه استمع الى اقوالك من وراء

الستار فسيدتي الملكة صاحبة الجلالة لها حارس وفي مخلص امين. ايها الاجنبي سمعتك تذكر امورا غريبة.

– اعتقد يا صاحب الجلالة، ان قشتالة تودّ الخروج ظافرة من هذه المنافسة بينها وبين البرتغال على اكتشاف اراضي جديدة.

فردّت الملكة قائلة: غرناطة بالدرجة الاولى.

والتفت الملك الى الخارطة وقال: ما هذه اليابسة التي نشاهدها في اطراف المحيط؟

– انها الهند يا جلالة الملك، اغنى بلاد الله فبينما الآخرون يفتشون عن طريق يصلون منها الى تلك الاراضي وجدت الطريق انا عبدكم الحقير. ولا احتاج الى اكثر من ثلاثين يوما لكي اصل الى هذه البلاد وثلاثة مراكب ومؤونة تكفي مائة رجل مدة سنة كاملة. وما قيمة ثلاثة مراكب مقابل الثروات الطائلة التي ساضعها بين يدي جلالتكما؟

– انت قادر للذهاب الى تلك المناطق اذا كانت صورة الارض على الشكل الذي وضعته، واذا كان الامر يختلف؟

فلم يحر كلمبس جوابا ولف الخارطة وتقهقر دون ان يولي ظهره للملكين الكاثوليكيين وعاد للركوع على السجادة وقال:

– الارض مستديرة وهذا امر معلوم لدى الخاص والعام مثلها هما القمر والشمس والقبة الزرقاء وجميع الكواكب والنجوم وبمَا ان الارض مستديرة فليس لها اول ولا آخر فسيان الذهاب الى الهند من الشرق او من الغرب او من اي بقعة كانت من الكرة الارضية.

وكان الملك فرنانده مديرا ظهره للنافذة ويميز حركات الجنوى حركة حركة ثم التفت الى الملكة قائلا:

– اصنعوا ما يحلو لكم، ولكن وجهة نظري تقول بعدم خلق مشاكل في الوقت الحاضر مع ملك البرتغال يوحنا الثاني فنحن في حرب طويلة مع مسلمي غرناطة.

المشروع واضح بحد ذاته عندما يشرحه صاحبه بحماس واقتناع ولكنه غامض عندما ينطفىء الحماس في صوت كلمبس وتكف عيناه الزرقاوان عن ارسال بريقهما الغريب. فالتفسيرات التي قدمها الجنوى لا تعني بالنسبة للملكين الكاثوليكيين اكثر ما عنته لملك البرتغال رغم حدة تصوراته وجودة منطقه في حديثه عن الدرجات وعن خطوط الطول وخطوط العرض والخوارط البحرية، كل هذا ترك بعض الاثر في نفس الملكة ولكنها لا

تملك الخبرة الكافية والمقدرة اللازمة والعلم الضروري للتحقق من صحة ما يزعم هذا الملاح الجنوى، فقررت رفع القضية الى لجنة من الخبراء.

وهذا معناه التأجيل والتمديد والانتظار ولكن لا باس بذلك فلا يعني ان المشروع مرفوض من اصله بل لا بد من دراسته واعتبر كلمبس ان لقاءه الاول مع الملكين الكاثولكيين يعد انتصارا فرديا في قشتالة ماذا ينتظر من اول مقابلة؟ بشأن مشروع مثل مشروعه غامض الوجوه مشكوك به في الوصول الى نتائج مرضية.

* * *

كلفت الملكة المطران هرننده الطلبيري مرشدها الروحي بتشكيل اللجنة من علماء فلك وبحارة ولاهوتيين، وتمنى في اعماق نفسه لو عفته الملكة من هذه المهمة المجهولة العواقب، اولا حرب غرناطة وبعدها يرى ما يكون.

اين يجد هؤلاء العلماء الفلكيين؟ ما اسهل ذلك، اسبانية في ذلك العهد تعتبر من اهم مراكز العلم في اوروبة على اختلاف انواعه بشهادة الصديق والعدو فمنذ مائتي سنة وعلماء النصرانية من كافة انحاء اوروبة يوجهون انظارهم الى اسبانية لكي ينهلوا منها علوم الاقدمين كما نقلها العرب الى لغتهم ثم جاؤوا بها الى اسبانية واضافوا اليها الكثير من عندياتهم لان الرومان لم يهتموا بالثقافة اليونانية فكان على العرب ان يقوموا بهذا الدور.

قدم علماء الغرب الى اسبانيا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وعثروا فيها على ما يشبع نهمهم العلمي اذ وجدوا كل ما كتبه اليونان والفرس والهنود والعرب انفسهم من علوم في كافة فروع المعرفة من حساب وهندسة وفلسفة ورياضيات وعلوم الهيئة وجغرافية، كل هذه العلوم موجودة في اسبانية باللغة العربية، فنقلوها الى اللاتينية بمساعدة المستعربين واليهود والعرب ايضا جاؤوا من انكلترة وايرلندا، وفرنسة والمانية والبلقان وايطالية ونقلوا هذه الثقافة العالمية المكتوبة باللغة العربية العلمية الى لغة علمية اخرى في ذلك العهد. لا حاجة بي الى تكرار ما جاء في كتابي «تعربت... وتغربت» او نقل الحضارة العربية الى الغرب فهو يذكر الناقلين واسماء الكتب ومؤلفيها.

انتشرت هذه الترجمات انتشارا كبيرا في اوروبة وعليها قامت نهضتها، وبقي في اسبانية قسم هام من هذه العلوم الفلكية وخاصة في جامعة سلمنقة التي كانت اولى من تبنى نظرية كوبرنيك ونشرت الجداول الفلكية التي نظمت على عهد الملك الفونسه العاشر الحكيم.

لا يصعب على المطران الطلبيري ان يشكل اللجنة العلمية المطلوبة، وصودف انه في

اواخر شباط سنة ١٤٨٦ قدم الى مدريد الاب المحترم المرشاني في مهمة وقبل عودته الى الرابطة شاء المرور بقرطبة للسلام على صديقه المطران الطلبيري وتوديعه فبادره هذا الاخير قائلا :

– جئت للكلام مع جلالتها وها انت عائد الى ديرك في الرابطة وانتهى الامر بالنسبة اليك بينما اوكل الي تشكيل لجنة لدراسة مشروع كلمبس الذي اوصيتني به في ساعة مشؤومة. اذا كنت واثقا منه فلماذا لا تشكل انت اللجنة فخبرتك واسعة في علم الهيئة.

– دع عنك ذلك يا سيادة المطران، الملكة عينتك وعليك بالطاعة.

– مثلما عينتني كانت قادرة ان تعينك ايضا.

– الله لم يشأ ذلك فانا لم اخلق لبهرجات الدنيا وزخارفها.

– اتظن ايها المحترم اني خلقت لذلك؟ منذ سبعة اعوام وانا اعيش في البلاط وعندما استيقظ في الصباح، اخال لاول وهلة اني ما زلت في زنزانتي في ديري العزيز على قلبي «البرده» PARDO .

* * *

– يبدو لي انك غير واثق من صحة ما يدعي كريستوفرو كلومبو.

– لا اراه مناسبا في الوقت الحاضر.

– ان كلمبس لا يطلب اكثر من مليوني مرابطية لاستئجار ثلاثة مراكب.

– القضية ليست في هذا المبلغ وان كان باهظا بالنسبة للخزينة في الوقت الحاضر فهي لا تعرف من اين تجبي المال لسد النفقات الباهظة التي تتطلبها هذه الحرب. امور كثيرة تتطلب اهتمام الملكة، فالاشراف من جهة، هذا ضد ذاك، واراغون الراغبة في السيطرة على البحر المتوسط الشرقي والمشاكل مستمرة مع الجنويين ومشاكلنا ايضا مع الكرسي الرسولي.

– عندي من هذه الامور بعض الخبر، وصلت الينا الاوامر بالاسهام في سياسة البحر المتوسط بارسال خمسة مراكب الى ايطالية وبالطبع رفضوا الانصياع للاوامر، اراغون اراغون، وقشتالة قشتالة، ليس علينا ان نقوم بمشروع جديد قبل انجاز المشروع القديم، لا يجب فتح الباب قبل اغلاق النافذة.

– اوعزت الي الملكة تشكيل اللجنة وساشكلها انت تعرفني، سابحث عن اشهر علماء الهيئة وعن اعلم اللاهوتيين وامهر الملاحين فاذا حكموا ان الرحلة ممكنة بالبحر من الغرب اطلع

جلالتها على النتيجة. اما اذا وجدوا في الرحلة حماقة او عملا جنونيا، وهذا ما آمل ان يحصل لا احرك انملي لمساعدة كلمبس بل اشكر الله لانه لم يشأ ان تتخلى قشتالة عن مهمتها في الاستيلاء على ما تبقى للمسلمين في شبه الجزيرة الابرية لان وجود غرناطة بايدي المسلمين خطر دائم على اسبانية وعلى اوروبة. اتتصور ما يمكن ان تقدمه غرناطة من مساعدة للاتراك فيما لو قرروا مهاجمة اوروبة؟

– رحلة كلمبس ليست ممكنة فحسب بل مضمونة، الاجنبي يعرف الى اين يتوجه.

– وانت ايضا تؤمن بان الله اوحى اليه؟

– ان الله سبحانه وتعالى له طرق كثيرة للكلام مع مخلوقاته.

* * *

عقدت اللجنة المشكلة اجتماعا للاستماع الى كلمبس وتحادث اعضاؤها معه بشأن الذهاب الى الشرق عن طريق المحيط الاطلسي الغربي واتفق الجميع على ان تلك الرحلة مستحيلة التحقيق.

ماذا قال كلمبس معطيا الحجج على صحة ادعائه؟ تكلم عن الرحلات التي انجزها ماركو بولو، وعما جاء في سفر اشعيا النبي وما تحدث عنه تسكنللي ولكنه لم يكشف الخارطة للجنة لانه شديد الحذر رغم وجوده قشتالة بامان يخشى شرا ظل ضميره يونجه على الطريقة التي اختلس بها الخارطة من عند ملك البرتغال، ولا يعلم ما اذا درى بالاختلاس وهناك الطامة الكبرى، قد يسعى الى قتله باي وسيلة لا سيّمَا وانه غادر البرتغال خلسة. لم يتجاسر ان يفشي سر الخارطة امام اللجنة من علماء فلكيين فقد يدفعهم الفضول الى السوال عن مصدرها وكيف وصلت الى يده. كما انه لم يأتي على ذكر الفونسه شانشس الملاح الذي ترك له معلومات خطيرة للغاية عن السفر في المحيط الاطلسي قبل ان يفارق الحياة في بيته ذاك سر لن يفشه لاحد مهما كانت منزلته منه ومحبته له...

نهج كلمبس تجاه اللجنة منهجا مغمورا بالحذر والتكتم وهذا لا يرضى عنه الطلبيري، فتصرفات هذا الغريب توقع السامع في ريبة، فهذا التحفظ الشديد من جانبه ليس مما يتفق وخصال الطلبيري، باطنه مثل ظاهره لا غش فيه ولا خداع وليس كما قال الشاعر العربي:

«باطني مثل ظاهري مستعار   ليت حالي يكون بالمقلوب».

وموقف كلمبس هذا جعله يفشل امام اللجنة التي تراسها الطلبيري الذي لم يشعر

بالارتياح تجاه هذا الغريب الذي يضمر سرا هاما لا يريد البوح به. واللجنة العلمية ايضا لم تظهر الارتياح امام رجل يقدم براهين واهية ضعيفة لا تثبت امام اي حجة ومع ذلك فهو متشبث كل التشبث بصحة نظريته لا يثنيه عنها ثان. ذلك لانه سمع شاهد عيان يتحدث عن تلك الاراضي انه الفونسه شانشه...

ثم انه لا يريهم اي خارطة يستعملها في هذه الرحلة الطويلة المحفوفة بالاخطار. الخوارط تعرض على الملكات الواسعات الخيال مثل الملكة ايزابيل ولا تكشف للملاحين وعلماء الهيئة المبصرين ذوي الاذهان النيّرة الوقادة. ومع كل هذه السلبيات فاللجنة لم تصرف الغريب نهائيًّا، لان الملكة بحدسها متيقنة من صحة ما يدعي هذا الاجنبي. ولكن لا بد من الانتظار.

وشاءت الاقدار ان يدخل الى البلاط راهب اسمه «دياغه الداسي» من المرتدين واصبح في وقت قصير من الشخصيات البارزة في بلاط قشتالة سنة ١٤٨٦. عيّن مربيا للامير خوان ولي العهد.

ترقى هذا الراهب بسرعة حتى اصبح رئيس اساقفة اشبيلية وفي الوقت نفسه يخلف «تركمادة» TORQUEMADA الشهير في رئاسة محكمة التفتيش.

ساعد هذا الراهب كلمبس على ان يستلم راتبا من الدولة وصل الى ما يقرب من عشرة الاف مرابطية في سنة ١٤٨٧، فالوثائق في هذا التاريخ تثبت ذلك وان كريستوفرو كلمبو اصبح يحمل اسم «كريستوبال» CRISTOBAL «كلون» COLON على الاقل في الوثائق الرسمية. واستمر الدفع حتى حزيران ١٤٨٨.

الفصل الرابع

بيتريس

ليس احد مثل بيتريس اكتشف النواحي الخفية التي يتزين بها كريستفرو كلومبو.

دخلت في حياته في احد الايام عندما دقت نواقيس الكنيسة في قرطبة تدعو جماعة المؤمنين الى تلاوة السبحة في امسية من امسيات عيد الفصح المجيد.

وجرى اللقاء على الشكل التالي : في ساحة المعبد تقدم موكب حافل من المؤمنين بعضهم حفاة وبعضهم يزحفون على ركبهم ، ووقف الكاهن في الساحة متشحا بثياب التقديس والشعب تجمع حوله في انحاء الساحة من رجال ونساء وصبيان يرتلون الشكر باصوات تشق الفضاء وتعكر صمت النسيم ، والنور المنصب عليهم كانه آت من عند الخالق الديّان.

وكريستوفرو من جملة الحاضرين وشاهدها بقربه من جملة الواقفين ، اخفت رأسها بمنديل اسود من تلك المناديل التي تنسجها النساء في قرطبة وبلاد الاندلس على العموم ، لتفت اليها لما سمع رنة صوتها ترتل آيات الشكر فوصلت الى اذنه رخيمة فاهتزت لها جوانحه.

ومنذ ذلك اليوم شعر انه يميل الى صاحبة هذا الصوت الذي خرق شغاف قلبه ، انه صوت فيه رنة من الحرارة ، وتبودلت النظرات وشاء مخاطبتها ، وتردد ، لم يجسر قد ترده خائبا وخشى ان يكون لقاؤهما هذا عابرا.

وافترقا على غير موعد وعلى غير كلام تاركين للقدر ان يقول كلمته ، ولكن النظرات افصح من اي كلام.

مرت على الحادثة ايام وشبح تلك الفتاة ماثل امام عيني كلمبس الى ان كان كريستوفرو

واقفا ذات يوم والى جانبه «براردى الفلورنسي» ، تاجر الرقيق من جملة المتفرجين لمشاهدة موكب الملك فرنانده القادم الى قرطبة ظافرا ، استولى على لوشة بعد فشله الذريع امامها في المرة الاولى . ثم تبعها «بمكلين» «ومنتفريد» خرج الامير جوان ولي العهد من المدينة متجاوزا الاسوار لمقابلة والده وقد حفّ به رجال البلاط والقضاة والحكام وممثلو مختلف الهيئات الرسمية في قرطبة ، والشعب تجمع على حافتي الطريق التي سيمر عليها الموكب والناس يصفقون لولي العهد ويدعون له بالعمر الطويل.

وشاهدوا موكب الملك فرنانده يتقدم صفوفا طويلة من الاسرى النصارى ، استفكهم من المسلمين. اجتاز الملك فرنانده الباب الرئيسي في السور وتوجه الى الكنيسة — الجامع حيث ينتظره الاساقفة بلباسهم الحبروي والصلبان مرفوعة فترجل جلالته وقبّل الارض ودخل المعبد في تطواف حافل.

ظل كلمبس في الشارع مع بقية عامة الشعب مع انه لو شاء الدخول الى المعبد الذي ظل يحمل اسم المسجد لضمهم هذا البناء الاسلامي الفخم ، وشط به الخيال انه في يوم من الايام سيعاين مشهدا مثل هذا وسيكون هو المحتفى به عاد ظافرا من اكتشاف عظيم ، واستيقظ من تفكيره على صوت امرأة على مقربة منه فالتفت فاذا هي المرأة التي سهلت له وجود نزل ياوي اليه فقالت له :

— علينا الآن بالتوجه الى مدخل القصر لمشاهدة الاستقبال الذي اعدته الملكة ايزابيل لزوجها العائد من الحرب ظافرا. ولكن الاجمل من هذا كله ما سياتي غدا : المهرجان الذي سيجري على شواطىء نهر وادي الكبير فلا يجب ان نضيعه.

وبالفعل جميع اهل قرطبة تجمعوا في اليوم التالي على الضفة اليمنى من نهر وادي الكبير ، هنا شعراء متجولون وناقرو الدفوف ومرقصو السعادين والمعزى والمغنون ، وهناك امتدت اكشاك للبيع جمعت من كل نوع وجنس اصناف الحلوى والمقليات والمشويات وهناك تشكلت حلقات الرقص على انغام الآلات الموسيقية الصادحة وارتفعت الضحكات والقهقهات والجلبات في جو مفعم بالحبور ، انه شعب يفرح لفرح ملكه عسى ان تنتهي هذه الحرب التي طالت اكثر من المتوقع وبذلت فيها التضحيات الجسام وما زالت تبذل بدون حساب.

وتخلص كلمبو من هذا الازدحام والغبار المتصاعد والروائح الكريهة من العرق المتصبب

من الناس . واذا به يبصر صبية تعارك وتصارع محاولة الخروج من هذا الازدحام الكبير فعاد ادراجه وشق طريقا واخذ الفتاة بذراعها وحامى عنها بذراعه الاخرى وخرجا معا .

— ربي والهي ظننت ان انفاسي ستخرج مني بين هذه الجموع المتراصة ولا ادري كيف اشكرك يا سيدي على حسن صنيعك معي .

تمتمت الفتاة هذه الكلمات خجلة مضطربة ، وتاملها في حيائها واضطرابها ، سمراء البشرة اسنانها منتظمة حسنة تقاسيم الوجه قريبة من القلب والروح لا تزيد على العشرين من سنها وهو قد دخل في السادسة والثلاثين وامعن فيها النظر فاذا هي صاحبته . وقبل ان يفوه بكلمة قالت الفتاة :

— علي ان ادخل المنزل فلا شك ان عمتي قلقة علي تبحث عني .

وسارعت في الركض .

— انتظري قليلا قولي لي على الاقل ما اسمك ؟

— بيتريس

وولت مسرعة لا تلوي على شيء

فوقف كلمبس حائرا تجاه هذا التصرف وعاد الى صديقه الفلورنسي «براردي» «BERARDI» تاجر الرقيق ، وهذه الصداقة ادخلته في الجو الذي يعيش فيه الجنويون والبندقيون والفلورنسيون بقرطبة .

فتوجه معه الى الخمارة التي يتردد اليها كلمبس ويقضي فيها الساعات الطوال في الحديث عن تجارة الرقيق والرحلات البحرية والاخبار والاساطير وكافة الشؤون الخاصة والعامة والصعوبات التي يعانيها التجار في الوصول الى الافاويه بعد ان استولى الاتراك على القسطنطينية وتوسعت رقعة ممتلكاتهم في البحر المتوسط الشرقي والجنوبي والشمالي ، وعن الاكتشافات البرتغالية الجديدة على الشواطىء الافريقية .

وتشكّى براردي من كساد سوق الرقيق ومن صعوبة الحصول عليه فالافريقيون السود عندما يبصرون المراكب الشراعية تقترب من سواحلهم يولون الادبار في الاوغال والادغال ، كما ان حرب غرناطة غمرت اسواق قشتالة بالرقيق من المسلمين وبالتالي فلا سبيل لبيع العبيد السود في هذه البلاد .

وتكلم احد الحاضرين اسمع لذريق «ارانة» : اني افضل العبد المسلم العجوز على عبدين اسودين فتيين، فهو انشط منهما...

وعائلة ارانس ARANAS هذه من الشمال من بلاد البشكنس، هبطت الى الجنوب لمحاربة المسلمين الى جانب الملك فرنانده الثالث القديس، واستقرت في قرطبة بعد الاستيلاء عليها ونزوح عدد كبير من سكانها العرب، وبعد قرنين على وجود هذه العائلة في عاصمة الامويين السابقة تكاثرت وبرز منها من برز وبقي منها ما بقي على حاله ومنها من نال حظا وافرا من الثروة ومنها من عاش فقيرا.

ولذريق هذا مزارع مثقّف سخي الكف صادف كلمبس مرارا عديدة في تلك الخمارة ولكن فقط في هذه المرة غادرا الخمارة معا، وقرطبة في شهر تموز وآب تشتد فيها الحرارة. وسار الاثنان في شوارع ضيقة حتى بلغا دارًا بطابقين زينتها الزهور المزروعة في اواني الفخار المصفوفة عند النوافذ.

وتوقف لذريق عند المدخل قائلا: «وصلت، هنا اعيش وهذه الدار دارك ولكن لماذا لا تدخل معي وتنعم بطراوة منزلي انه انظف منزل في قرطبة بفضل زوجتي «قنسطنسة» CONSTANZA

ولم يتردد كلمبس في الدخول وتبين ان صاحب البيت لم يبالغ في نظافة بيته وحسن ترتيبه.

وتراخى لذريق ارنة RODRIGO ARANA متثاقلا على اريكة ومدّ رجليه واسند راسه الى الجدار وطلب من كريستوفرو ان يحذو حذوه.

ونادى امرأته فاطلت فقال لها: هاتي لنا الخمر من برميل خشب البلوط واحضري لنا ايضا جبنا وبعض الحلوى التي تحسنين صنعها، لكي يتذوقها هذا الصديق.

فهرولت المرأة لترجع بجميع ما طلب منها زوجها على طبق.

– تريد السفر الى الهند عن طريق جديدة لم يعرفها احد، براردي مهتم جدا بهذه الرحلة وتلمع عيناه عندما يسمعك تتحدث عن مناجم الملك سليمان.

لم يصغ اليه كلمبس فقد ابصر على مدخل الدار بيتريس تحمل قصعة في يدها فتقدمت من مجلس الرجلين وعندما شاهدت كلمبس توقفت وقد ارتسمت الدهشة في عينيها، وتركت القصعة على المائدة، وبدون ان تلتفت الى الرجل ولت مسرعة ولم ترجع...

ومنذ تلك الامسية اعتاد كلمبس على مرافقة لذريق ارانة رغبة منه في مشاهدة الفتاة ولكن قلما تظهر الا عندما تهم لحاجة تطلبها منها عمتها فتتقدم الى حلقة الاجتماع منخفضة الراس يعلو وجهها الحياء.

لم تساعده الظروف على مكالمتها ولم يجد السبيل الى الوصول اليها واستراق نظرة منها مع انها مقيمة في الدار ولكن لا يعلم شيئا عنها، واعيته الحيل ولم يجسر على مكاشفة صديقه بمّا يدور في خلده، ودهش من هذا الاهتمام الغريب الذي يبديه نحو هذه الغريبة عنه ودخلت في حياته من غير قصد منها وبدون استئذان وعجب من نفسه كيف سمح لها ان تلج اليها. عاش طوال عمره لم تتحرك فيه رغبة نحو النساء، اجل تزوج في البرتغال ورزق ولدا قد احتضنه رهبان الدير وزواجه لم يأت عن حب جارف يعاود الكثيرين فلا ياوون على الصبر عليه فيطلبون الوصال كما قال الشاعر:

«كأن فوادي ليس يشفي غليله   سوى ان يرى الروحين يمتزجان».

حبه وزواجه من فليبة البرتغالية لمصلحة. وقد جاء استحياء من ولي نعمته، فليبة امرأة شريفة الحسب والنسب قد تساعده على ادراك مطالبه في ريق شبابه يملأ الطموح قلبه ويتشوق بكل قواه الى نيل المعالي، وظن ان زواجه يوصله الى مرامه، وها هو الآن وبعد عشرة اعوام ما يزال في مكانه يعرض مشاريعه على الملوك والعظماء وليس من احد يكترث له قد يكون غالى في الطلب وقدّر منزلته اكثر من قدرها الحقيقي. شاء ان يعلل نفسه بالحب ويلهيها عن طلب المعالي وصادف في طريقه هذه الانثى التي لم تسع لاغرائه ولم تفسح له مجالا للامل في الوصول اليها وامتلاكها ولم تستخدم اي نوع من الاغراء الذي تستخدمه المرأة لاصطياد الذكر وايقاعه في اشراكها، ومع ذلك يشعر بميل نحو هذه الطفلة التي لم تبلغ العشرين من عمرها وشعر بحاجته اليها، الى عطفها وحنانها فهما يشجعانه على المضي في الطريق التي خطها لنفسه. ومن يعلم قد يكون هذا الحب فاتحة عهد جديد وبادرة خير ونجاح وتوفيق لم يتعرف عليها حتى الآن. نفسه الشاعرة تشد به الى هذه الصبية الساذجة المحاطة بضباب كثيف من الاسرار. ولماذا هذا الخجل وكبت العاطفة؟ التي تنتابه بتواتر؟ لماذا لا يكاشف صديقه بسره الدفين؟ لا، عليه ان يسلك جانب الفطنة والرزانة.

مرّ شهر على تعارفه بلذريق ارانه، فتذرع بالجرأة وساله عن بيتريس.

— بيتريس مسكينة، تزوجت امها احد المشكوك في اصلهم تعاطى مهنة الملاحين وتوفي

وترك لزوجته ابنة تعيشان في فقر مدقع لم يخلف لهما سوى كرمين يقعان بضواحي قرطبة، دخلهما ضئيل، وصاحب الخمارة التي نتردد اليها طامع في توسيع املاكه وكرومه حدثته نفسه انه يوما ما سيحصل على هذين الكرمين فاسدل اكناف رعايته على الام والبنت يستدعيهما من وقت الى آخر لتنظيف الخمارة او الخدمة في ايام المعارض والاعياد الدينية والمدنية وقدوم الملكين الكاثوليكيين الى قرطبة.

وما طالت ان توفيت الام وبقيت البنت وحدها لا نصير لها ولا معين وقد برز نهداها وظهرت انوثتها فحلت محل امها في الخمارة، فكان مجرد حضورها يبعث المرح والانبساط عند الحاضرين حتى ولو انهم من رجال الاكليروس والعلمانيين القادمين من الارياف الى قرطبة لقضاء حاجاتهم، يبسمون عندما يتحدثون مع هذه الفتاة السخية بالكلام والحركات اللينة اللطيفة، ولكن عندما تبدو من احدهم اشارة او تصرف جريء تحسمه بحزم.

تخدم الرجال مثلما يامر الله، اي عندما يدنون منها بنية سليمة بقصد الزواج دون سواه، وقد تتسامح مع احدهم اذا حلا في عينيها وما دامت شابة حقّ لها ان تلهو وتبتسم والكلام والدعابة ولكن لا شيء من اللمس ولا الجرأة الفاضحة في النطق. خفيفة الحركة لطيفة الظل نظيفة الجسد واللباس رغم فقرها، حبيبة الزهور والعطور فلا تخلو من زهرة تزين صدرها او شعرها، واقصى رغباتها التمكن من شراء العطور مثلما تفعل سيدات قرطبة اللواتي يتوجهن الى حي المسلمين في المدينة لشرائها لانهم تفردوا بصنعها.

واقنعت زوجتي قنسطنسة بان تنقذها من تلك الخمارة حيث الرجال المستعدون دائما لان يفوهوا بكلمات نابية او يشتم منها رائحة الجنس او ياتون بحركات جريئة تضطر معها هذه الفتاة الى مقاومتها ودفعها عنها بغضب. لا سيّمَا وان هذه الفتاة تربطنا بها قربى فادخلتها زوجتي البيت تساعدها في شؤونه وقد رويتُ على مسمعها القصص التي رَويتَها لنا قصصَ الفردوس الارضي والهند وما شاكلها من البلاد التي قلما سمعنا بها واصغتا الي بلهفة وتودان لو تسمعها منك في جلسة سمر.

فاشرق محيا كلمبس لما سمع من صديقه انه سيجمعه ببيتريس واضطرب قليلا وحاول اخفاء هذا الاضطراب الذي لم يلحظه «ارانة»، وهو من هذا النوع من الاضطراب والرعشة التي تخالج العاشق عندما يؤتى امامه على ذكر من يهوى.

واطلع لذريق المرأتين على قدوم الغريب ومعه خرائطه وسيريهما اماكن لم يسمع بها احد.

فسرت بيتريس وحدست في ظنها ان هذا الغريب سيدخل في حياتها لسعادتها او لشقوتها او للاثنين معا، ومع ذلك داخلها سرور وراحت تعد الساعات التي تفصلها عن هذا اللقاء المحبوب وقضت نهارها تستعد له من تصفيف شعر وادهان ومساحيق وعطور تستعملها كما توحي لها غريزتها لكي تحسن في وجه الرجل كما قال الشاعر الذي يقصد الطبيعة:

«تجملت بعد حياء وخفر تجمل الانثى تصدت للذكر».

واعد لهم متكأ في فناء الدار تحت دالية نشرت عليهم ظلها الظليل، ضم كلمبس وارانه وانريق ابنه المتزوج ولكنه يعيش بعيدا عنه مع عائلته وجرّاح شاب يطلق عليه اسم جوان.

شرع كلمبس يروي لهم الاقاصيص العجيبة الغريبة التي لم يسمعوا بها في حياتهم. قصص سمعها من الملاحين او قرأها في الكتب فحدثهم عن بلاد الثلج الذي لا يفارقها ابدا فقال:

ويتخذ الناس لارجلهم الواحا ينحتونها طول كل لوح باع وعرض شبر مقدم ذلك اللوح ومؤخرته مرتفعان عن الارض وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي فيه رجله، وفيه ثقب قد شدوا فيه سيورا من جلد قوية يشدونها على ارجلهم ويقرن بين اللوحين اللذين بين رجليه بشندال طويل مثل عنان الفرس يمسكه في يده الشمال وفي يده اليمنى عصا بطول الرجل وفي اسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل راس انسان خفيفة يعتمد على تلك العصى على الثلج ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح في السفينة فيذهب على ذلك الثلج بسرعة ولولا تلك الحيلة لم يتمكن احد ان يمشي هناك البتة لان الثلج على الارض مثل الرمل لا يتلبد البتة واي حيوان مشى عليه يغوص في ذلك الثلج فيموت فيه الا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والارنب فانه يمشي عليه بخفة وسرعة.

وقال لهم يوجد على بحر الظلمات ولاية تعرف «بيورا» يكون النهار عندهم في الصيف طويلا جدا حتى كما انهم تقول التجار؛ الشمس لا تغيب عندهم مقدار اربعين يوما وفي الشتاء ايضا يكون الليل طويلا مثل ذلك وتقول التجار ان الظلمات قريبة منهم وان اهل يورا يذهبون الى تلك الظلمة ويدخلون فيها بالمشاعل فيجدون شجرة عظيمة مثل القربة الكبيرة وعليها حيوان عظيم يقولون انه طير ويحملون معهم امتعة فيجعل تاجر ماله على حدة ويعلم عليه علامة ثم يعودون بعد ذلك فيجدون امتعة تصلح لبلادهم يجد كل انسان عند تجارته من تلك الامتعة شيئا ان رضي اخذه وان ابى اخذ متاعه وترك غيره ولا يتعدى ولا يدرون من اولئك الذين يشترون منهم تلك الامتعة.

واهل يورا ليس عندهم حرب ولا دواب ولا مواش الا اشجار عظيمة وغياض يكثر فيها العسل ويكثر عندهم السمور جدا فياكلون لحمه والتجار يحملون اليهم هذه السيوف وعظام البقر وعظام الغنم وياخذون اثمانها جلود السمور ولهم في ذلك ربح كثير.

ثم كل ادمي يكون هناك يحتاج الى سيف يلقيه في بحر الظلمات ، فاذا القوا السيوف اخرج الله لهم في البحر سمكة مثل الجبل العظيم يطردها سمكة اخرى اكبر منها اضعافا فتفر الصغرى من الكبرى فتقرب من البر وتصير في موضع لا يمكنها الرجوع الى البحر فتبقى هناك والسمكة الكبرى لا يمكنها الوصول الى السمكة الصغرى فترجع الى البحر ويدخل اهل «يورا» الى البحر في السفن ويقطعون من جوانبها وليس عند السمكة من ذلك حس ولا تتحرك فيملئون بيوتهم من لحمها ويصعدون على ظهرها وهي كالجبل العظيم وتبقى عندهم مدة يقطعون منها : كل من القى في البحر سيفا اخذ من السمكة نصيبا وربما يكثر ماء البحر وتخف تلك السمكة فترجع الى البحر وقد ملأت مائة الف بيت واكثر من لحمها.

وحدث ان سمكة من تلك السمك في بعض السنين ثقبوا اذنها وجعلوا فيه حبالا وجروا تلك السمكة فانفتح اذنها وخرج من داخلها جارية تشبه الادمية بيضاء حمراء الخدين سوداء الشعر عجزاء من احسن النساء فاخذها اهل «يورا» واخرجوها الى البر وتلك الصورة تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح وقد خلق الله لها في وسطها مثل جلد ابيض كالثوب الصفيق القوى من وسطها الى ركبتها تستر عورتها كانه ازار مشدود على وسطها يستر عورتها فامسكوها حتى ماتت عندهم.

(ابو حامد الغرناطي)

وانتقل بهم الى الكلام عن الصقالبة فقال : «بلادهم واسعة كثيرة العسل والحنطة والشعير والتفاح الكبير الذي لا شيء احسن منه. يتعاملون بينهم بجلود السنجاب القديم الذي لا شعر له ولا ينتفع به في شيء ابدا ولا يصلح لشيء البتة. وللصقالبة سياسات عظيمة اذا تعرض احد بجارية غيره او ولده او دابته او تعدى باي شيء من التعدي اخذ من المعتدي جملة من المال فان لم يكن له بيع اولاده وبناته وزوجته في تلك الجناية ، فان لم يكن له اهل ولا اولاد بيع هو فلا يزال عبدا يخدم من يكون عنده حتى يموت او يؤدي ما اعطي في ثمنه.

وولاية خوارزم مائة فرسخ فيها مدائن وقرى ورساتيق وحصون كثيرة وفيها فاكهة وانواع من البطيخ اطيب واعذب من السكر والشهد. ويكون نوع هذا البطيخ اخضر الجسم داخله احمر مثل العقيق حلو شديد الحلاوة ترفع في البيوت طوال الشتاء وتباع في الاسواق ،

وكذلك انواع من العنب مثل التمر الاحمر والابيض ترفع في الشتاء وهو رخيص وكذلك التفاح والكمثرى والرمان يزينون الدكاكين في كل وقت خصوصاً في زمان الربيع يخيل للانسان انها الآن قطعت من البستان.

وتوقف عن الكلام فساله دياغه ارنه: لماذا لا تحدثهم عن الهند البلاد التي ترغب في السفر اليها وماذا تعرف عنها؟

فتنهد كلمبس واستعرض في ذاكرته ما يعرف عن الهند وقد قرأ عنها الكثير.

«اول ملك على الهند هو البرهمن الاكبر والملك الاعظم ظهرت في ايامه الحكمة وتقدمت العلماء واستخرجوا الحديد من المعادن وضربت في ايامه السيوف والخناجر وكثير من انواع المقاتل، وشيدت الهياكل ورصعت بالجواهر المشرقة وصوّر فيها الافلاك والبروج الثني عشر والكواكب وبيّن بالصورة كيفية العوالم وافعال الكواكب في هذا العالم واحداثها الاشخاص الحيوانية من الناطقة وبيّن حال المدبر الاعظم وهو الشمس واثبت في كتابه براهين جميع ذلك وقرّب الى عقول العوام فهمه. وغرس في نفوس الخواص دراية واشار الى المبدأ المعطي سائر الموجودات فانقادت له الهند واخصبت بلادها واراهم وجه مصالح الدنيا. وجمع الحكماء فاحدثوا في ايامه كتاب السند هند وتفسيره: دهر الدهور، ومنه تفرعت الكتب ككتاب الارجبهر، والمجسطي ومن المجسطي كتاب بطليموس ثم عمل منها بعد ذلك الزيجات واحدثوا التسعة احرف المحيطة بالحساب الهندي وكان اول من تكلم في اوج الشمس وذكر انه يقيم في كل برج ثلاثة الاف سنة ويقطع الفلك في ستة وثلاثين الف سنة.

وطلب دياغه ارانه المزيد.

فقال كلمبس والهند كثيرة الاستعمال لما يجهز اليهم من العاج في نصل الخناجر وفي قوائم سيوفها. والاغلب في استعمال الهند للعاج اتخاذها منه الشطرنج والنرد. والشطرنج قد صوروه اشكالا على صور الحيوانات من الناطقين وغيرهم. كل قطعة من الشطرنج كالشبر في عرض ذلك، فاذا لعبوا بها فانما يقوم الواحد منهم قائما فينقلها في بيوتها. والاغلب عليهم القمار في لعبهم بالشطرنج والنرد على الثياب والجواهر وربما انفد الواحد منهم ما معه فلعب في قطع عضو من اعضاء جسمه، وهو ان يجعلوا بحضرتهم قدرا من النحاس صغيرة على نار فحم فيها دهن لهم احمر فيغلي ذلك الدهن المدمل للجراح والماسك لسيلان الدم. فاذا لعب في اصبع من اصابعه وقمر قطعها بذلك الخنجر وهو مثل النار ثم غمس يده في ذلك الدهن فكواها ثم عاد الى لعبه فان توجه عليه اللعب ابان اصبعا ثانية وربمَا توجه عليه اللعب في قطع الاصابع

والكف ثم الذراع والزند وسائر الاطراف وكل ذلك يستعمل فيه الكي بذلك الدهن وهو دهن عجيب يعمل من اخلاط وعقاقير بارض الهند عجيب.

والهند تتخذ الفيلة في بلادها وتتناتج في ارضها وليس فيها وحشية وانما هي حربية ومستعملة كاستعمال البقر واكثرها تأوى الى المروج والغياض كالجواميس في ارض الاسلام. والفيلة تهرب من المواقع التي يكون فيها الكركدن فلا ترعى في موضع تشم فيه رائحته ويعمر الفيل بارض الزنج نحو من اربعمائة سنة.

وفي ارض الهند آفة عظيمة من نوع من الحيوان يعرف بالزبرق وهو دابة اصغر من الفهد احمر ذو زغب وعينين براقتين سريع الوثبة يبلغ في وثبته الثلاثين ذراعا واكثر من ذلك فاذا اشرف على الفيلة رشش عليها بوله بذنبه فيحرقها، وربمَا لحق الانسان فاتي عليه. وفي الهند من اذا اشرفت عليه هذه الدابة تعلق باكبر ما يكون من شجر الساج وهو اطول من النخل واكبر من شجر الجوز تكنّ الشجرة منها الخلق الكثير من الناس وغيرهم من الحيوان فاذا تعلق الانسان باعلى تلك الشجرة وعجز هذا الحيوان عن ادراكه لطأ الارض ووثب الى اعلى الشجرة فان لم يلحق الانسان في وثبته رشش من بوله الى اعلى الشجرة والا وضع راسه بالارض وصاح صياحا عظيما فيخرج من فيه قطع دم ويموت من ساعته، واي موضع من الشجرة سقط عليه من بوله احرقه وان اصاب الانسان شيء من بوله اتلفه وكذلك سائر الحيوان.

وملوك الهند تدخر في خزائنها هذه الدابة ومداكيرها ومواضع من اعضائها وهو السم القاتل من ساعته ومنه ما يسقى به السلاح فيتلف من فوره.

والفيل يهرب من السنانير ولا يقف لها البتة اذا ابصرها... والفيلة لا تنتج ولا تتوالد الا بارض الزنج والهند والزنج تتخذ من جلود الفيلة الدرق وكذلك الهند، وخرطومه انفه وبه يوصل الطعام والشراب الى جوفه وبه يقاتل ويضرب وبه يصيح وليس صوت الفيل على مقدار عظم جسمه وكبر خلقه.

اما بحر الهند والصين في قعره اللؤلؤ وفي جباله الجواهر ومعادن الذهب والفضة والرصاص وفي افواه دوابه العاج، ومن منابته الابنوس والخيزران والقنا والعود واشجار الكافور والقرنفل والصندل وانواع الافاويه والطيب والعنبر.

(مروج الذهب – المسعودي، جزء ٢ ص ١٣٨ – ١٣٩)
تحقيق شارل بلاّ.

وساله دياغه ارانه من جديد: اتريد ان تشاهد بعينك كل هذه العجائب والغرائب التي قرأت عنها وسمعتها؟ اني راغب في مرافقتك في رحلتك هذه اذا شئت.

– وانا ايضا، استطيع ان اقدم لك خدمات جليلة اذا سمحت لي بالسفر معك.

وكان المتكلم هذه المرة جوان الجرّاح، من جملة الحاضرين.

وتلت هذه الزيارة زيارات اخرى.

واقبل ذات يوم وسأل عن لذريق فقيل له انه غائب فقال: انتظره لاني جئت بكتاب مطبوع لكي يقرأه وجلس بجانب المائدة ومد عليها خريطة فدنت منها بيتريس وابصرت عليها صور القديسين والناس والحيوانات والاشجار والانهار على القماش، انها خريطة من جملة الخرائط تهدي الملاحين في رحلاتهم الطويلة في البحار، ووجدت بيتريس في هذه الخارطة التي صوّرتها يد كلمبس نزهة للروح فانها مثل الكثيرات من بنات جنسها تقرأ ببطء وتكتب بصعوبة مشوهة الكلمات بصورة فاضحة، والآن انفتح امام عينيها عالم جديد.

وتابعت باهتمام متزايد هذا الرسم الكبير الذي يمثل العالم المعروف في ذلك الحين، وشعرت بحاجتها الى التامل في هذه الصورة الكبيرة التي تبين امام عينيها. انها تتعلم وتتثقف من هذه المناظر الماثلة على الخارطة وتوسع مخيلتها ومداركها ومعلوماتها عن تلك القارة الاسيوية المجللة بالاسرار وذلك العالم السحري المنطوي على خمسة آلاف مدينة كبيرة وتسعة الاف بلدة ودسكرة وقصبة وقرية، حسب تفسير كلمبس.

وعندما يتخلف عن الحضور لسبب ما، كأن يدعوه احد رجال البلاط لتناول الطعام معه او يسعى لبيع خوارطه في اسواق قرطبة تشعر كأن شيئا ضاع منها وتغضب لادنى هفوة تبدو من الآخرين وتفارقها البسمة والمرح وتنزوي عن الناس لا تريد الكلام مع احد.

وفي هذه الاثناء وصل دياغه وبرفقته لذريق فوجدا الخارطة منشورة على المائدة فشرعا يتاملان بها ويستفسران من كلمبس عن المواضع التي يجهلانها وماذا تعني؟

وفسّر لهم ما عسر عليهم فهمه وشاهدوا بيت المقدس على الخارطة فتبادر الى ذهن دياغه ارانة السؤال عن الملك سليمان وعن الاساطير التي حيكت حول شخصه فلم ير كلمبس بدا الا بالاستجابة الى طلبهم والحديث عن سليمان الحكيم كما عرفه في التوراة وفي الاساطير التي قرأها عنه في الف ليلة وليلة وقصص الجان وغيرها.

يروي عن سليمان الحكيم انه كان يسير من طبرية في فلسطين الى اصطخر في بلاد فارس

في غدوة وعشوة والمسافة لا تقل عن الفي ميل.

ويقال عن سليمان ايضا انه قال للريح: تيامني او تياسري فسارت الى ارض فيها قصر ابيض فسارع من كان مع سليمان فدخلوا القصر فاذا ليس فيه احد يسالونه عن حال القصر وعن بانيه واذا على القصر نسر واقع. فقال سليمان للنسر: من بنى هذا القصر؟ فقال النسر: «يا نبي الله، لا ادري من بناه وانا عليه منذ ثمانمائة عام هكذا اصبته.

سليمان وصيدون:

ويقال كان صيدون ساحرا وكانت الجن تطيف به وتعمل له العجائب، وكان له في وسط جزيرة مجلس من ذهب على عمد من رفيع الجوهر تشرف على جميع الجزيرة، فدلّ بعض الجن سليمان عليه فغزاه وخرب الجزيرة وقتله وقتل اكثر اهلها لانهم كانوا يعبدونه واسر منهم خلقا فآمنوا واسر ابنة صيدون ولم يكن على وجه الارض اجمل منها وجها ولا اكمل حسنا وظرفا فاصطفاها لنفسه وتزوجها. وكانت تديم البكاء لمفارقة ابيها فقال لها سليمان: ما لي اراك باكية؟ وانا خير لك من ابيك وملكي اجل من ملكه؟

قالت: اجل ولكن اذا ذكرت كوني مع ابي وانسي به هاج ذلك علي حزنا ووجدا فلو امرت الشياطين ان يصوروا لي صورته لعلي اذا رايتها سلوت عنه.

فامر الشياطين فعملوا لها صورة في مجلس مثل المجلس الذي كان فيه، وكان الشيطان يصحب اباها وهو الذي اشار عليها بذلك. فكان ذلك المجلس والصورة في مقاصيرها التي صنعها لها سليمان وقد غرس لها فيها بدائع الاشجار وفجّر فيها الانهار في قني من ذهب وفضة مطوقة باصناف الجوهر. فعمدت الى صورة ابيها فالبستها اصناف الحرير والثياب المنسوجة بالذهب وجعلت على راسه اكليلا من الجوهر النفيس والبسته تاجا منظوما بالجوهر الفاخر الملون وجعلت حوله مساند الديباج المذهّب ونثرت عليه سحيق المسك واوقدت بين يديه دخن العنبر وضروب الطيب وفرشت بحذائه على بعد منه اصناف الافاويه والرياحين. وكانت تدخل عليه بكرة وعشية فتسجد له مع وصائفها وخدمها كما كانت تصنع لابيها. وكان قد دخل في هذا الصنم شيطان فخاطب المرأة بلسان ابيها يقول:

«قد احسنت فيما فعلت، وما فقدت بك شيئا».

فاتصل امرها بآصف بن برخيا وكان كاتب سليمان ومن اهله وهو الذي كان عنده علم

الكتاب وهو الذي احضر عرش بلقيس ، وكان عَلِمَ موضع المرأة من قلب سليمان وحبه لها ، فلم يدر كيف يتوصل لتعريفه بمَا احدثت عنده ، الى ان اتجه له ذلك فقال : «يا نبي الله ، اني قد كبرت ولا آمن الموت وقد اردت ان اقوم مقاما اذكر فيه الانبياء واثني عليهم ، فتامر باحضار الناس ووجوه بني اسرائيل.

فاجابه سليمان الى ذلك فقام آصاف على المنبر فخطب ، فحمد الله تعالى واثنى عليه واقبل يذكر الانبياء نبيا نبيا ويثني عليه في صغره وفي كبره الى ان بلغ سليمان فاثنى عليه في صغره ولم يذكره في كبره ، فاستدعاه سليمان وسأله لماذا لم يذكره في كبره؟ فقال له :

وبِمَ استحللت ان اثني عليك في ايامك وغير الله يعبد في دارك منذ اربعين يوما؟

فارتاع لذلك سليمان وقام فعاقب المرأة وكسر الصنم وهرب شيطانه فظفر به وسجنه ، وفتن سليمان بذلك واخذ الجن خاتمه وخرج من ملكه وكان يطوف في بني اسرائيل فينكرونه.

ثم رد الله تعالى عليه ملكه وخاتمه بعد اربعين يوما وهي مدة الايام التي سجدت المرأة فيها للصنم ثم ان المرأة تابت وصح ايمانها وذكروا ان اسمها جرادة.

(الروض المعطار – الحميري ص ٣٧٣ تحقيق احسان عباس).

وطاب لبيتريس سماع هذه القصص والروايات عن سليمان الحكيم الذي بنى المعبد العظيم في بيت المقدس من الاموال التي جاءت اليه من الهند. وشعرت في قرارة نفسها انها تميل الى هذا الرجل اول رجل دخل في حياتها ، ووجدت فيه السند الذي تحتاج اليه ، انه ابوها واخوها الاكبر والرجل الذي تفتش عنه في اعماق ضميرها اللاواعي. وصارت تنمو هذه الافكار وتخرج من عالم الغباوة الى عالم المعرفة ، واعتادت عليها على طول التكرار والترداد فصارت تتلهف لرؤيته والاجتماع به وتقلق عندما يتأخر مجيئه بعض الوقت وتتحين الفرص للاجتماع به على حدة بعيدا عن عيون الناس ولا تتوافر لها الفرصة فعمتها ساهرة يقظة عليها لا تفارقها فهي اتبع لها من ظلها وكانها درت ان ميلا في كريستفرو الملاّح يشد به الى هذه الفتاة الطرية العود ، ووجدت ايضا ان هذا الميل يلاقي مرتعا خصبا عند قريبتها ، وخشيت على هذه القريبة ان تزل بها القدم فتصير الى ما لا يحمد عقباه لا سيّمَا وان ليس ما يجمع بين هذا الرجل وهذه الفتاة. انه مغامر طموح يسمو الى المعالي فهل يعقل ان يخلص المودة طويلا لهذه الفتاة التي لا حول لها ولا طول ولا يشفع بها سوى شبابها الغض وطراوتها وجمالها ، وتمنت في اعماق ضميرها لو ان هذا الرجل الغريب يتزوج بيتريس كما جاء في شرع الله ولكن هيهات ، هيهات...

وفي احد الايام تطوع كريستفرو لمساعدة بيتريس في نشر الغسيل ليجف في الشمس، فتصدت له قنسطنسة CONSTANZA قائلة: ليست قريبتي بحاجة الى مساعدة، تعودت منذ نعومة اظفارها على هذا العمل، دون يد اخرى تمد اليها.

فخجل كلمبس وراى في هذا الامتناع اهانة له، وبيتريس من جهتها احمرت وجنتاها وودت لو تتيح لها الفرصة للاجتماع بالغريب بمنأى عن العيون.

الى متى يستمر هذا الحرمان وليس في اليد حيلة لبلوغ المارب وعيون عمتها لها بالمرصاد؟

سعت الى غرفته بشجاعة اظهرتها دائما في صد الايدي الجريئة الممتدة الى بعض اجزاء جسدها. لا تخشى من كرستفرو شرا، انه مهذب في تصرفاته حيالها يحدثها بهدوء وبثقة شبه ابوية يبررها الفرق في السن بينهما.

وهو بدوره اخذ يشعر بحاجته الى حضور هذه الفتاة المعجبة به اعجابا صامتا اخرس، انها تمثل في عزلته الكسيحة تلك الحيوية المنعشة التي تحملها كل امرأة وتنفثها فيما حواليها.

احس كلمبوس بحيوية جديدة تدب في مفاصله، وايمانه يقوى بحسن العاقبة ستجتمع اللجنة قريبا، وتمثّل الظفر القريب فاعضاء اللجنة عارفون بنوايا الملكين الكاثوليكيين المهتمين بالمشروع، كما انه يعتمد على الكثيرين من رجال البلاط يؤيدونه.

وعشية الاجتماع اظهرت المسكينة تخوفا اكثر من تخوف كلمبس وارهقته بالاسئلة عن اعضاء اللجنة وميزاتهم واخلاقهم وعاداتهم ومعارفهم واطلاعهم وخشيت منهم سوء العاقبة.

بينما كلمبس متفائل كل التفاؤل فقد اعتبر القضية مفروغا منها وشرع يفرض شروطه: لا يسلك الطريق الى آسية ما لم ينل لقب «امير البحر» اميرال وما لم يعينوه نائب ملك على الاراضي التي يكتشفها ولا تقع تحت سلطة الخان الاكبر وما لم يعطوه ثلث الذهب والحجارة الكريمة والافاويه التي يعثر عليها ويجلبها من تلك البلدان.

وتناسى حضور بيتريس، في هذه الشطحات الرؤيوية وهو يزرع ارض الغرفة ذهابا وايابا وفجأة استيقظ من حلمه واحب مكافأة هذه الفتاة عندما يصبح نائب ملك سيرفع قدرها وينتشلها من حالتها الوضيعة الراسبة بها ويجعلها سيدة كريمة لا تقل قدرا ورفعة عن السيدات اللواتي يحطن بالملكة، وسيزينها بالجواهر والحلى من راسها الى اخمص قدميها.

وكانه عاد الى حالته الطبيعية وادرك موقفه الحاضر وموقفها فقال:

– لا يا بيتريس انت تبقين هنا وتتزوجين باحد الشبان من هذا البلد وانت شابة تعرفنا على بعضنا بعد فوات الاوان.

وكأن السماء شاءت اخيرا ان تستجيب نداءها وتهرع الى نجدتها. اصيبت عمتها بوعكة شديدة الزمتها الفراش، وجاء المعلم جوان الجرّاح لعيادتها ووصف لها الادوية التي كان يصفها الطبيب الجرّاح الكبير الذي عاش في قرطبة قبل اربعة قرون: ابو القاسم الزهراوي(١).

وصف لها دهن الورد بعد ان مزجه مع الخل وسكب على راس المريضة ليسكن لها صداعها العارض من وهج الشمس ومن حرارة الحمى.

ووجد ان الحمى تفارقها يوما وتعود اليها وتشعر بالعطش الشديد والسهر والكرب وجفاف اللسان ومرارة، وتبتدىء النوبة بقشعريرة فعلم انها حمى الغب فوصف لها الادوية واولها الفصد بتمهل واخراج دم يسير ثم اوصاهم ان تشرب في الايام الاولى السكنجبين وشراب النيلوفر ومعه حليب بزر قثاء ثم شراب بنفسج مع شراب الاجاص وبزر قطونا وتفاح او نقوع حامض او تمر هندي ممروس في ماء حار وماء اليقطين وتليين الطبيعة في كل يوم مجلسين بالحقن اللينة. واذا افرط العطش فحليب بزر البقلة او مع بزر يقطين، فان كان هناك غثيان وقيء فنقوع التمر الهندي يصفي من غير ان يمرس على سكر او ترنجبين او نقوع من تمر هندي اربعين درهما، عناب: عشرين حبة، نيلوفر خمس زهرات او شراب التمر الهندي المصفى او شراب الثراسيا.

اما الاغذية يجب ان تؤخر يومين او ثلاثة ثم يستعكل ماء الشعير او حليب لباب الخبز المنقوع في ماء بارد او سويق الا ان ترى ضعفا في النبض فتكون مرقة الفرّوج واجبة وقد لا يدرك الضعف فيغذي بماء الشعير بلا فرّوج، فاذا انتهى المرض او قارب المنتهى فتغذي بامراق الفراريج، فاذا خفت الحمى ونهضت الشهوة فمزورة حب الرمان او اجاص او زرباج او ليمونة او ملوخية او بقلة يانية، وليطحن ذلك بدهن اللوز الحلو ويحمض بالخل او بماء الليمون ان لم يكن سعال ولا ينبغي ان تغذى في يوم النوبة ولا على اعتقال في الطبيعة.

وطال العلاج والعلة باقية، تتحسن حالة المريضة ثم لا تلبث ان تعود الى النكسة

(١) هو ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي اشهر الجراحين في القرون الوسطى على الاطلاق توفي بقرطبة بعد سنة ١٠٠٩.

وبيـتريس لا تفارقها ليلا ولا نهارا ، تسهر عليها سهرها على اعز مخلوق لديها ونسيت او تناست الغريب الذي لم يكف عن زيارتهم ، وجوان الجرّاح ايضا ولكن المريضة قد بلغت من الكبر عتيا ولم يعد ينجع فيها نطس الاطباء وطالت علتها ومن طالت علته كان القبر مثواه.

وفجأة تحسنت حالة المريضة وطلبت اكلا وشربا مع انه كان مضى عليها زمن لا تستسيغ الطعام والشرب وظنوا انها عادت اليها صحتها وقريبا تغادر الفراش وتعود الى نشاطها رغم شيخوختها. وجلس العوّاد حولها ومن جملتهم «الغريب» فالقت عليه المريضة نظرة شاحبة ونظرة اخرى على بيتريس كانها تريد ان تقول لها خلقتما الواحد للآخر.

وتفرق الناس عنها ونامت ليلة هادئة للمرة الاولى منذ زمان بعيد وبيتريس ايضا عرفت عيناها الرقاد في تلك الليلة ولم تسهر الى جانب عمتها مثل بقية الليالي.

واستيقظت في اليوم التالي على ضوء النهار المشرق ، بحالة طبيعية وشاءت النهوض لانها احست بنشاطها يعود اليها ، وخرجت الى زريبة الحيوانات تتفقدها والمزروعات حول البيت واطعمت الدجاج واخذت البيض وعادت الى الدار وجلست تستريح كأن هذه الحركة اتعبتها ، وشعرت بانزعاج خفيف فاستلقت على سريرها واحست بثقل في اجفانها واغمضتها ، وكانت الاغماضة الاخيرة ، فتحسن صحتها المفاجيء لم يكن سوى يقظة الموت ، انها الومضة الاخيرة من السراج الذي يشح فيه الزيت وانطفأت حياتها بين دهشة الحاضرين وحزنهم عليها وتساؤلهم كيف انهم ظنوها برأت من دائها.

واقبل المعزون ومن جملتهم «الغريب» ، دنا من بيتريس واخذها بين ذراعيه فالقت راسها على صدره وانفلتت الدموع من عينيها ، جمعها موت عمتها ، وكم يجمع الموت من قلوب وكم يفرّق من قلوب.

وخلا لهما الجو بعد وفاة العمة ، صباحها مغازلة ومساؤهما عناق وقبل ، فارق بيتريس ذاك التحفظ وفارق كلمبو ذلك التردد.

وفي ذات يوم شاء مغادرة الدار فتوسلت اليه : لا تغادر بهذه السرعة فليس من احد يهتم بي فلامس شعرها واذا بها تدني شفتيها من خده ووجد الموقف يزداد خطورة وجاءت القبلة وتلتها قبلات متواترة وشعر الغريب ان جسد الفتاة يلتصق به اكثر فاكثر.

— الخطر محدق بنا يا بيتريس في هذا الموقف الذي نحن فيه.

– واي خطر تعني؟

– قد لا اقوى على كبت عواطفي وشهواتي فتنفجر وتكون العاقبة وخيمة.

فلم تعبأ بمَا يقول او لم تفهم مقصده والتصقت به اكثر فاكثر وتحولت القبلات الرقيقة الناعمة الى قبلات عنيفة صاخبة يتبادلانها.

ووقع الغريب في التجربة: الخلوة الانتظار الطويل، هذه الفتاة البريئة المتشوقة الى الوصال الملبية نداء جسدها المتمرد عليها، فاخذ ذقنها بيده وقبلها بعنف على شفتيها وضمها اليه بشدة وتراخت مفاصلها بين يديه فهي طائعة راضخة سخية في عطائها، تهب وتسترد الهبة مضاعفة ويقابلها بالبذل والعطاء.

واستطابا هذه الحالة والفرصة سانحة في كل وقت فليس من رقيب او عذول ولا رادع ولا زاجر.

يرافقها الى مزود البقر لتحلب البقرة ويرافقها الى حظيرة الدجاج لترش لها الحبوب وتجمع البيض التي باضته ويتلذذان بمشاهدة هذه الطيور الداجنة تنقر الحبوب بنهم لا مزيد عليه ويتاملان الديك كيف يطعم الدجاج ولا ينافسها على الاكل كما تفعل الدجاجة مع رفيقتها اذ تنقرها عندما ترى انها تسارع اكثر منها في نقر الحبوب بينما الديك ارفق باناثه او باناثه من الانثى برفيقتها. ولم يخل هذا المنظر من مغزى وعبرة لمن يتامل هذا المشهد الذي يدل على علو نفس وتضحية بحب الذات.

ولم يفتهما مشهد هذا الديك ينتقل من دجاجة الى دجاجة يرضيها جنسيا، انه منظر مثير حقا، يقفان امامه جامدين يتبادلان النظرات وعيونهما يشع فيها بريق غريب وتدب في جسديهما رعشة كأنهما يريدان الاقتداء بهذا الطائر الداجن فيستلقيان على الحشيش او القش ويتداعبان ويتهارشان ويستجيبان لنداء جسديهما اللجوج.

وكثيرا ما تعود بيتريس الى البيت وقد نسيت ان تنفض عنها الغبار او القش العالق على ثيابها، فلا تخشى ان يفضحها، ليست هيّابة، انها تحب هذا الغريب ولمست منه المبادلة بالحب وما ضرها ان يتناولها الناس بالسنتهم، كل شيء مسموح مع الحب، انها تجاهر بحبها على رؤوس الاشهاد اذا اقتضى الامر.

انعقاد اللجنة :

وانعقدت اللجنة التي شكلها الطلبيري لتستمع الى اقوال «كلمبو» ، انها جلسة سرية لم يقدم خلالها اي برهان علمي يثبت صحة قوله ، قد تكون تعوزه البراهين او لا يريد كشفها خشية ان تعلن على رؤوس الاشهاد ويسبقه بعضهم الى الاكتشاف... ومن بعض ما قال في هذه الجلسة : اني متوجه الى اراضي لم تطأها قدم انسان من عالمنا الغربي هذا انها على بعد سبعمائة فرسخ وربما قال من الجزر الخالدات انها اطراف بلاد الخان الاكبر، اعلم هذا علم اليقين والله الذي يسمعني من عليائه شاهد على صحة ما اقول.

وخالج الشك اعضاء اللجنة انه كلام رجل مقتنع كل الاقتناع من ان الاكتشاف امر واقع لا يحتاج الى برهان او دليل ، فمن اين له هذا الاقتناع؟

وعادت الى اذهان اعضاء اللجنة الاشاعة السائدة بين الناس وهي ان ملاحا اسمه الفونسه سانتشس من اونبة التقطه كلمبو على آخر رمق من الحياة وكشف له اسرار خطيرة عن المحيط الاقيانوس وسلمه خارطة على جانب كبير من الاهمية يحتفظ بها كلمبو سرا لا يفشيه لاحد.

وصرفته اللجنة على امل استدعائه في مناسبة اخرى لمواصلة بحث القضية. كما قررت اطلاع الملكة ايزابيل على الواقع وهو ان البراهين التي قدمها اذا صح القول انها براهين، ليست مقنعة.

لم تفكر بيتريس طيلة ذلك النهار بشيء آخر سوى في نتيجة هذه الجلسة وما عسى ان تقرره اللجنة ، ولم تنتظر من كلمبو ان ياتي الى بيتها لاطلاعها عليها بل توجهت الى نزله ، وهي معروفة في النزل ، وعندما علمت ان كلمبو في غرفته صعدت اليها خفية وبمنأى عن انظار النسوة اللواتي لا يغفرن لها جرأتها على الدخول الى غرفة رجل غريب لا يمت اليها بصلة.

وصلت ووجدت هذا الغريب غارقا في تفكير وسيماء الكآبة مرتسمة على وجهه وعلامات التعب والارهاق بادية على محياه ، عيناه منفتحتان اكثر من اللازم وقد اغرورقتا بالدموع ، اضمحل ذلك الحلم الذي طالما راود مخيلته فاحنى راسه لما ابصرها وقد تملكته دهشة لجرأتها في القدوم اليه.

انها تشارك هذا الرجل في آلامه وفي حزنه وشعرت برغبة في الاجهاش بالبكاء فهذا

الرجل الذي تبصره امامها لم يعد ذلك الرجل الواثق من نفسه الحاسب ان الدنيا ملك يديه، بل رجلا اجهده العياء يائسا من عدالة البشر، كل شيء ضاع من يديه فلا عز ولا جاه ولا ثروة ولا القاب انهار كل هذا وتبدد كما تبدد الريح الغمام وعاد كالرجل العادي مثل بقية الرجال بلباسه الرث وموقفه الذليل.

فتقدمت منه بخطى ثابتة فنهض من مكانه لاستقبالها فالقت ذراعيها على كتفيه مطوقة اياه بحنان الام وعطف الحبيبة كانها تريد ان تقول له: لا تخش شرا انا بقربك لاهبك حبي كانها بذلك تبث في صدره قليلا من العزاء يعوضه على فشله.

وقبلته على فمه قبلة عنيفة صادقة اودعتها كل ما في صدرها من حنان.

ولحظت بيتريس ميل هذا الغريب الى الافاويه والعطور والازهار فزينت صدرها وجيدها بزهرة في كل مرة تذهب للقائه او ياتي للقائها، وظن نفسه انه ما زال يدور حول الدير في ليشبونة حيث تعرف على فلبية لما كان شابا وتزوج بها، فالهوى والشباب عادا اليه لما ظن انهما وليا لغير رجعة ولكن الفتوة عاودته بعد ان وخطه الشيب، انه بحاجة الى يد رفيقة حنونة عطوفة تشد به للنهوض اذا كبا في جولته وخارت قواه.

فالساعات التي لا يرى فيها بيتريس يعتبرها خالية خاوية لا معنى لها في عرفه، انه بحاجة الى اكثر من حب عابر ينقضي بانقضاء الشهوة. علاقته بهذه الفتاة علاقة خطبة مثل بقية الخطبات بين فتى وفتاة، محادثات طويلة نزهات قبلات خاطفة جريئة في بعض الاحيان تتقبلها بجفاء ونفور وصد عابر لا يطول اكثر من دقيقة وتعود المياه الى مجاريها بين الحبيبين.

ويعتبر كلمبس ذاته سعيدا في هذا الموقف الذي ينقصه الكمال والوصول الى النهاية، ولكنه يخشى ان يخسرها الى الابد، ولكن تعود الذكريات صارخة معيدة تلك المغامرات التي عاشها في شبابه بعد كل رحلة ورحلة، وتذمر من توقفها عند حد معين لا تتخطاه في علاقاتها معه وتردد في مسمعه:

«انا ما تشتهيه مني لا يكون الا بعد الزواج».

ثم تزفه قبلة على فمه حارة انطوت على ما يجيش في صدرها من عاطفة مكبوتة ثم تنفلت من ذراعيه عندما تحس انهما يضطربان بنار الشهوة الجموح.

وتوزعت اللقاءات بينهما: حماس متبادل وفتور وخلاف ومصالحة ودموع وابتسامات.

وعلى صفاء العاشقين سحابة وعلى سلام الصاحبين غبار

اني اعرفك يا كريستوفرو، هادىء في الظاهر عينان ذابلتان ناعمتان كلمات موزونة مصاغة على احسن ما يكون مثل كلمات واعظ في المعبد، ووراء هذا الاطمئنان الظاهر عبقرية شيطانية. لا تحزن ولا تضطرب انا احبك كما انت اهوى الرجال الاقوياء الارادة يوحون الاحترام وانت ستصبح صاحب سلطة ونفوذ عندما تحكم تلك الاراضي الشاسعة ومن يدري؟ قد يجلسك الخان الاكبر الذي تطيل الحديث عنه عن يمينه وتصبح مثل كردينال اسبانية في بلاط الملكين الكاثوليكيين. لا تنسني وانت في عظمتك ومجدك.

وتشرد مخيلة هذه الصبية الغرة في تصوير المستقبل انها اوسع خيالاً من صاحبة جرة الحليب وتقول: امامي وقت طويل لكي اصبح سيدة وقورة مثل الملكة ايزابيل التي قيل عنها ان تتكلم اللاتينية ومنهم من يدعي ان بين وصيفاتها من يجدن اللاتينية احسن من سيدتهن ويتحدثنها مع الاحبار والعلماء الاجانب. انا لا احسن سوى لغة واحدة والشكر لله ولكن هناك في بلاد الخان عندما يحف بي الخدم من مسلمين واوثان واركب على ظهر الفيل في الهودج والبس البرفير والارجوان واتزين بالعقود والخلاخل والبخانق، وامامي وورائي الخدم المسلمون في طاعتي احاول عندئذ الظهور بمظهر امرأة عاشت حياتها في الترف والنعمة والجاه، كم اتمنى ان اصبح امرأتك، امرأة نائب ملك حسب شرع الله ووصايا الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المقدسة.

هذا ما كان يراود مخيلة بيتريس عندما تخلو بحبيبها، فيزفها القبلات ويحاول ابقاءها اطول ما امكن بين ذراعيه ولكنها تتملص منه وتواصل الحديث معه عن بعد.

ومرت الايام وحبها ينمو مع الزمن، واضطربت نفسها عندما تبادر الى ذهنها ان رجلها قد يتركها الى غير رجعة او يتناساها عندما يصل الى ذروة المجد وغلبت عليها وساوسها ولازمتها الفكرة المشؤومة قد يتخلى عنها حبيبها وما يكون مصيرها بعده؟

وطردت من ذاكرتها هذا الافتراض البغيض.

وبينما هي راسبة تصوراتها وتخيلاتها اذا بها تبصر الغريب يقف في باب منزلها وفي سيمائه بهجة وفي عينيه خبر:

– على ما يبدو ان البلاط اهتم جديا بقضيتي فهذا المطران الطلبيري يكتب لي داعيا اياي للتوجه الى سلمنقة لكي اعرض القضية امام لجنة من العلماء والخبراء والملاحين.

فتراخت بيتريس امام هذا النبأ القاصم، لقد وقع ما تخشاه، الفرقة وقد تطول الى ما لا

حد له. ثم تمالكت قواها وخاطبته وهي تترجرج في الاداء: ليس صدقا، قل لي انك كاذب.

– لا يا بيتريس، هي الحقيقة العارية، علي ان اذهب الواجب يدعوني ومستقبلي مرهون على هذه الرحلة.

– ومتى ترجع؟

– لا ادري ولكن باسرع وقت ممكن.

– وانا ماذا اصنع بعيدة عنك لا اقوى على فراقك، احبك حبا يعذبني.

والتفت يداها حول عنقه وقربت فمها من فمه فاخذ راسها بين يديه ثم تاملها ورأى بعينيها ورأت بعينيه ما لا يراه كافة الناس وكانت قبلة طويلة كانهما العاشقان الوحيدان على الارض.

– انني متيقنة من عدم عودتك.

– انت مخطئة في ظنك يا بيتريس ساعود.

– ربمَا ولكن لن تجدني هنا.

– اطلب من الله من كل قلبي الا يجري شيء من هذا.

– المهم انهم في سلمنقة يعطونك الحق.

– بيتريس اتمنى لو انك تلجين في قلبي ولو برهة لتدركي كم أتألم واتعذب وكم يحبك قلبي.

– ايها الغريب القريب اذا كان حبك لي يثنيك عن عزمك فانا اول من يلعنه، والله وحده يعلم كم اقدر هذا الحب، اعلم اني امثّل في حياتك اكثر من نزوة عارضة، لست الزهرة التي تقطف على الطريق بل انا حديقة تعطر انفك دائما باعبق العطور ومؤل تلجأ اليه وخدر يحقق احلامك.

– انت لي كل شيء في هذه الحياة يا بيتريس.

– واتمنى ان اظل كذلك طيلة حياتي في كل مرة يبسم لك القدر او يعبس تذكّر انني احببتك بكل جوارحي وعندما تدرك اهدافك تحت راية قشتالة تذكر ان في قرطبة قلبا يحن اليك.

– ما اسعدني بقربك ايتها الحبيبة.

– وهذا لسان حالي وان ابصرتني دامعة العينين كئيبة الفواد، اشعر وكأن جسدي يتمزق اربا اربا عندما يدور في خلدي ان غدا سيفرقنا فلا مرحبا بغد ولا اهلا به ان كان تفريق الاحبة في غد.

ثم اعود الى ذاتي والملم افكاري ومشاعري فتهدأ خواطري لما اعلم ان العالم ملك حبيبي.

– بل ملكي وملكك ايضا.

– نفسي تحدثني بان لقاءنا بعد اليوم امر عسير ولكن احب ان تحفظ في صدرك لقاءنا الاول مكتوبا باحرف نارية. اعتقد اني اضرمت في صدرك حافزا يشد بك الى الامام فلا تطردني من ذاكرتك.

– انت تهذين يا بيتريس، كيف انساك.

– عندما ترتأي الى علياء مجدك ستنسى امورا كثيرة. اذكرني في رحلاتك الطويلة ولياليك الحالكة وفي الاهوال التي يخبئها لك البحر، كنت لك الطريق، وعاصفة من حب وحلما جميلا. تذكر امسياتنا وليالي غرامنا وغدواتنا وروحاتنا وخلجات قلبينا ولهفتنا الى الموعد وحرارة قبلاتنا.

– ليل العاشقين يمر سراعا.

وتساقطت الدمعات على خديها كانها براعم شفافة ندية، هذه ساعة الوداع والفراق. وارتعشت نفسها عندما بادر الى ذهنها ان رجلها قد يتركها الى غير رجعة او ينساها عندما يصل الى ذروة المجد، وغلبت عليها وساوسها ولازمتها الفكرة: قد يتخلى عني.

وتشجعت وقالت له:

– متى ستذهب؟

– غدا صباحا، قد كان بوسع المطران ان يختار مدينة اقرب.

وسألت الفتاة وفي عينيها دمعتان وشيكتا الانحدار: ومتى اراك من جديد.

– ساعود اليك غنيا ذا حول وطول، اضع النضار بين يديك واجعلك اسعد امرأة على الأرض، تحسدك النساء ويهمسن في آذان بعضهن البعض عندما تخطرين امامهن: هذه امرأة دون كريستوبال، وساعرف كيف انتقم من هؤلاء العلماء الذين سامثل امامهم وكاني مجرم ماثل امام القضاء، ماذا يعلمون عن جغرافية العالم؟

وتكلم وتكلم بدون توقف كأن فيضا من النطق داهمه وبيتريس مصغية اليه وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

– وانا ماذا اصنع؟ لا اقوى على احتمال فراقك وبعادك عني.

– كوني شجاعة وانتظريني.

– لا، اريد السفر معك لاكون دائما قربك.

– الى سلمنقة؟

– او الى السماء او الى الجحيم، الى حيث تذهب.

– عليك بالبقاء في قرطبة، ساعود بحقك ساعود.

– لا اظنني قادرة على البقاء في هذا المكان بدونك وكل حجر وكل شجرة وكل زاوية تذكرني بك.

وهبت نسمة طرية تحركت لها اغصان الشجر.

– لا بد من الذهاب وانت تعلمين هذا علم اليقين لا تخزني المسافات لا تقدر ان تفرّق بين قلبين راسخين في الحب، سيكون خيالك نصب عيني.

وخيم صمت مهيب.

ولمس في صوتها شجوا عميقا ونبرة الم صاعدة من اعماق نفسها وقالت له:

ارى ان الكلمات في هذا الموقف لا تفيد شيئا، في قلبينا عجيج مثل عجيج امواج البحر الصاخبة المتكسرة على الشاطىء وكأن العالم حولنا يرتج منذرا بزلزال.

واخذ صدرها يرتفع وينخفض مثل الامواج عند هبوب العاصفة وشعرت بثقل نهديها على صدرها وبحثت يدها الغضة الطرية عن يد كريستوفرو واشتهت ان تضع فمها على فمه وتلصق صدرها بصدره ويضمها اليه وتضمّه اليها.

– جميلة هذه الامسية يا بيتريس.

– اجل ولكنها تنضح بالحزن والاسى.

وظلت يدها نائمة على صدره، انها صرخة توسل واسترحام.

– سلمنقة ليست في اطراف العالم، ساعود.

– هذا ما اتمناه من كل جوارحي.

واخذ الضوء يتلاشى قليلا قليلا على غير رغبة منه.

– الا تشعر ايها الحبيب ان هذه الساعة مليئة بالحياة بحد ذاتها؟

فتجمعت كومة من الانبساط في صدره ولم يدهش فقد حدس في ظنه بداية هذا المشهد.

ولمس في عينيها طراوة مشرقة تنفثها بوميض غريب.

وامتدت يده الى قميصها وفك ازرارها فاندلق نهدان اضطرب لهما كيانه وتسابقت نبضات مشاعره لا تتوقف.

وتعارف لسانهما بقبلة.

واستسلمت بيتريس طائعة وهي شعلة حب وعيناها مغمضتان.

– اغلق ذراعيك حول خصري بلطف ومص فمي بفمك كما يمتص الطفل ثدى امه. شدني اليك كما اشدك اليّ. باركك الله لانك انعمت علي بهذا الحب.

ومرّ فوق راسهما عصفور برهانا على ان العالم لم ينته.

ولوّحت ايدي في الفضاء علامة التوديع، والضياء الآتي من بعيد اصطدم بدمعة.

ثم جاء المساء، المساء المقدس المنطفىء ضياؤه.

الفصل الخامس

سلمنقة

سلمنقة من اوائل المدن الاسبانية التي فقدها العرب فلم تمكث في ايديهم سوى نصف قرن ، ثم استردها النصارى سنة ٧٥٧ في اوائل عهد عبد الرحمن الداخل (صقر قريش).

تقع على الضفة اليمنى لنهر التورمس احد روافد نهر دويره.

جامعتها الشهيرة نافست جامعة غرناطة الاسلامية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

وسلمنقة مدينة عظيمة تحتفظ بطابع تاريخي ترتسم عليه ملامح المدينة القديمة مدينة العصور الوسطى وتصبغ عليها صروحها التاريخية المتعددة حلة الوقار والنبل والسحر وما يزال الكثير من خططها وشوارعها وميادينها على حالتها التي كانت عليها منذ قرون ، وساحتها الكبرى من اكبر واروع ساحات المدن الاوروبية وهي عبارة عن مربع شاسع يبلغ طوله نحو مائة متر وتحيط به من جوانبه الاربعة عقود حجرية جميلة وله مداخل عديدة من شوارع المدينة الرئيسية ، كلها معقود وتتصل به وتقع من حوله شوارع قديمة ذات عقود وضيقة مسقفة على نظام القيسرية الاوروبية ، وترجع هذه الساحة الى اكثر من ثلاثة قرون وقد انشأت لكي تتسع لعشرين الف شخص لمشاهدة مصارعة الثيران.

ليس في المدينة شيء يذكرنا بماضيها الاندلسي القصير وان كانت خططها وشوارعها المعقودة تبدو متأثرة بطراز المدن الاندلسية في العصور الوسطى.

وتجمع معظم صروح سلمنقة التاريخية في منطقة واحدة ، فالجامعة والكاتدرائية وغيرها من الكنائس التاريخية والقصر المسمى «دار الاصداف».

وجامعة سلمنقة بلا ريب هي اعرق واشهر صروحها الاثرية وهي اقدم الجامعات الاسبانية في اوائل القرن الثالث عشر في عصر الفونسه التاسع ملك ليون واغدق عليها الملك الفونسه العاشر الحكيم، (١٢٥٢–١٢٨٢) رعايته، وانفق اموالا عظيمة في سبيل تدعيمها وتوسيع نطاق الدراسة فيها.

وصدر مرسوم البابا اسكندر الرابع (١٢٥٤ – ١٢٦١) باعتبارها من معاهد الدراسات العامة على شاكلة جامعة بولونية وباريس واكسفورد يومئذ وقد ذاعت شهرتها وهرع اليها الطلاب من كل فج وبلغ عددهم نحو خمسة عشر الف طالب.

وما زالت سلمنقة تحتفظ بصروحها التاريخية التي ترجع الى القرن الخامس عشر الذي نحن بصدده، وهي عدة صروح متقاربة مبنية من الحجر الصلد، ولها عقود وابهاء فخمة وبها الكثير من الزخارف المعمارية من طراز عصر الانبعاث، ولجامعة سلمنقة مكتبة قديمة نفيسة تحتوي على ما يزيد على الف مخطوط ومائة الف مجلد.

وتقع كاتدرائية سلمنقة فوق مرتفع يشرف على الميدان الذي تشرف عليه الجامعة وبالحقيقة ليست كاتدرائية واحدة بل كاتدرائيتين: الكتدرائية القديمة والكاتدرائية الجديدة، وهما عظيمتا الحجم من الفن القوطي، شاهقتا الارتفاع كثيرتا التنسيق والزخارف يظهر فيها الفن المدجن باحدى غرفها وهو نوع من الفن العربي استعمله المدجنون المسلمون الذين عاشوا في ظل النصارى.

ومن الآثار «دار الاصداف» وهي ترجع الى عصر الملكين الكاثوليكيين ايزابيل وفرننده اي اواخر القرن الخامس عشر، وقد سمّيت كذلك لما تزدان به واجهتها من الاصداف المدببة.

سكنها عدد كبير من المدجنين والموركسيين اي المسلمين المتنصرين بعد سقوط غرناطة ١٤٩٢، والاحصائيات الرسمية عن الموركسيين الذين طردوا من اسبانيا في اوائل القرن السابع عشر تشير الى ان عددهم في سلمنقة كان ٩٥٨ والعائلات ٢٢٠ (لخبير: الظروف الاجتماعية عند موركسكي اسبانية ١٩٥٧) وهو باللغة الاسبانية.

هذه هي المدينة التي قصدها «كريستفرو كلمبو» ليمثل امام اللجنة العلمية التي شكلها المطران الطلبيري.

وبعد مشاقات طويلة واهوال الطريق بلغ كريستفرو كلمبو سلمنقة ودهش من الحركة

العلمية التي تسود فيها ، طلاب في كل مكان يجوبون الشوارع والساحات العامة والحانات يتجادلون في امور علمية متزودين بكتبهم واوراقهم . ابصر كلمبو جامعات كثيرة في البرتغال وايطالية وفرنسة ولكنه لم يشاهد مثل هذه الحركة العلمية الناشطة.

ولا عجب في ذلك فمنذ القرن الثاني عشر وطلاب العلم يتوافدون الى الاندلس النصرانية للاستفادة من العلوم العربية التي يملكها العرب في الاندلس ، فجاءوا من كافة الانحاء الاوروبية في طلب العلم العربي ينقلونه الى لغتهم العلمية اللاتينية في ذلك العهد عن لغة علمية اخرى هي اللغة العربية.

فبعد سقوط طليطلة في ايدي النصارى سنة ١٠٨٥ جرى الاتصال بالثقافة العربية اذ ان طليطلة تزخر في ذلك الحين بالمكتبات العربية ، كما ان قسما هاما من مكتبة الحَكَم المستنصر وصل الى طليطلة وبيع بالمزاد العلني بعد تدمير مدينة الزهراء القريبة من قرطبة.

ادرك الفرنج الفرق الشاسع بين حضارتهم الهزيلة والحضارة العربية الغنية فاقبلوا عليها ينهلون منها وفي طليعتهم رجال الاكليروس القادرون على تلقي هذه الحضارة اذ ان عامة الشعب تجهل القراءة والكتابة حتى الاشراف انفسهم ، فالاكليروس قبل غيره ادرك تقدم العرب في كافة النواحي لما قاسوا ما عندهم مع ما لمسوه عند العرب وبان الفرق الشاسع .

اقبل رهبان دير كلوني من فرنسة بناء على دعوة امرأة الفونسه السادس الفرنسية لابدال الطقس الكنسي المستعرب السائد في اسبانية آنذاك بالطقس الروماني. اقبل هؤلاء الرهبان ومن جملتهم الراهب ريموندو الذي اصبح رئيس اساقفة طليطلة وبالتالي رئيس كنيسة اسبانية جمعاء.

وشعر الذين حوله من اكليروس انه راغب في الاطلاع على العلوم العربية وخاصة الفلسفة ، فلبوا رغبته وفي طليعة هؤلاء «دومنقه غندشلبه» ويوحنا الاسباني الذي اصبح فيما بعد رئيس اساقفة طليطلة.

ومنذ ذلك الحين شرع الاوروبيون يتواردون على طليطلة وغيرها من المدن الاسبانية ، فاقبلوا من ايرلندة وانكلترة وفرنسة وبلجكة والمانية والبلقان وايطالية.

قدم من شمالي ايطالية احد العلماء اسمه «جيرارده الكريموني» ، باحثا عن كتاب المجسطي لبطليموس ، المنقول الى العربية ، لانه علم بوجود هذا الكتاب في طليطلة ، قدم اليها في منتصف القرن الثاني عشر وعثر على الكتاب المطلوب. وكم كانت دهشته عظيمة لما شاهد

الحركة العلمية العربية السائدة في طليطلة فاقبل على دراسة هذه اللغة مستعينا باحد المستعربين، اسمه غالب، فاقترن هذا الاسم باسم جيرارده الكريموني كما اقترن اسم غندشلبه المترجم باسم يوحنا الاسباني.

استعان الكريموني اولا بغالب في درس اللغة العربية وترجمة كتبها الى اللاتينية فنقل ما يقرب من تسعين كتابا عربيًا في مختلف فنون المعرفة. جرى كل هذا في طليطلة التي قصدها لقضاء بضعة اشهر فقط لنقل كتاب المجسطي، فاكمل حياته فيها.

اخذت هذه الكتب المنقولة الى اللاتينية تنتشر في اوروبة وعليها قامت الثقافة الغربية.

جاء الى طليطلة «هرمان الدلماسي» «واديلار الباثي الانكليزي» «وهو غوسانتاليا» «وروبرت اوف تشستير»، «وردولفو البلجيكي» من «بروج» «وافلاطون التيفولتيني» «وهرمان الالماني».

ودخلنا في القرن الثالث عشر وطليطلة وغيرها من المدن الاسبانية المستردة من العرب ما زالت مطمح الانظار لا سيّمَا وان ملكها الآن هو الفونسه العاشر الحكيم، شغف بالعلم والمعرفة، فنالت طليطلة على عهده شهرة كبيرة في اوروبة لم تشرفها كثيرا في نظر الاوروبيين آنذاك اذ شاع في ذلك العهد ان من اراد ان يتعلم السحر واشكاله فليتوجه الى طليطلة لان عقلية القرون الوسطى الاوروبية لم تكن قادرة على استيعاب العلم وقدرته وما يمكن ان ياتيه بمنافع للانسان، فنسبوا كل شفاء عجيب في نظرهم وكل اختراع علمي الى السحر والى اعمال الشيطان لان ادراكهم محدود ومعارفهم معدومة، فاذاً تسمية طليطلة بمدينة السحر شرف لها لا مذمة كما قال الشاعر العربي:

«واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي باني كامل»

واذا تميز القرن الثاني عشر بالترجمة من العربية الى اللاتينية في طليطلة وقطلونية وطرازونة، فالقرن الثالث عشر تميز بالنقل من العربية الى الرومنسية اي اللغة الاسبانية الناشئة.

في العهد الاول تميز الاسقف ريمونده بحماية المترجمين ورعايتهم، اما في العهد الثاني لهذه الترجمات في طليطلة فقد تميز الملك الفونسه العاشر الحكيم الراغب في لقب ملك الامبراطورية الرومانية المقدسة تحت ظل بابا رومة.

جمع هذا الملك حوله عددا ضخما من اليهود والمسلمين والنصارى اكثرهم لا ينتسب الى

الاكليروس، وبالتالي معرفتهم باللغة اللاتينية ضعيفة فنقلوا العلوم العربية الى اللغة الرومنسية التي يتكلمها ابناء البلاد فيكون هذا الملك القشتالي الحكيم قد انزل العلم من عليائه وجعله في متناول الجميع بعد ان كان وقفا على طائفة قليلة جدا من البشر، واذا كانت الترجمات توقفت عند اللغة الرومنسية دون ان تتخطى الى اللغة اللاتينية كما كان يجري في السابق فما ذاك الا بتحريض من مستشاري الملك ومترجميه اليهود، رغبة منهم في اضعاف اللغة اللاتينية لغة الكنيسة الرومانية البابوية، انتقاما منها للاضطهادات التي تلحق اليهود بسببها.

والملك الفونسه نفسه اشتغل ايضا في التأليف فنسبت اليه مؤلفات قد لا تكون من انتاجه مثل الجداول الفلكية التي راجت في القرون الوسطى المتأخرة وتحمل اسم الفونسه وهي بالحقيقة من اعداد علماء الفلك في طليطلة على عهد العرب مثل «الزرقاله» «والبطروجي» «والصفار» «وجابر بن افلح» وغيرهم.

وتغير وجه الثقافة في اوروبة تغيرا كاملا بعد ظهور الترجمات كما قال ارنست رينان في كتابه: «ابن رشد والرشدية»، تلقحت الثقافة الغربية بعناصر جديدة حيوية من يونانية وعربية لم تالفها من ذي قبل فنتج عن ذلك مخلوق حضاري جديد انه وليد اجيال طويلة من الحضارات التي توالت على البحر المتوسط وانغرست ونبتت واثمرت وتغذت منها اوروبة.

لم يهتم الدارسون الاوروبيون بمصدر هذه الثقافة الواردة عليهم، المهم عندهم الاستفادة منها بقدر المستطاع. يقول المثل العربي: «كل العسل ولا تسل»، جاءت هذه الثقافة بثوب عربي اسلامي فالبسها الغربيون ثوبا لاتينيا ولكن ظلت بجوهرها على حالها فلا يمكن نسبتها الى شعب دون آخر انها وليدة شعوب كثيرة من فارسية وهندية ويونانية وعربية واشورية وبلبلية وكلدانية وفنيقية انها خلاصة جميع هذه الحضارات فلا فضل لحضارة على اخرى جميعها اسهمت في هذه الثقافة التي زجها العرب في الغرب.

انتشرت الترجمات في اوروبة انتشارا كبيرا لا سيّمَا بعد ان ظهرت الطباعة، فاستعان كل واحد من العلماء الغربيين بمَا خصه منها: الفلك الحساب، الطب، الصيدلة، الفلسفة وغيرهم اشتغل في الكيمياء بحثا عن اكسير الحياة او الحجر الفلسفي لتحويل المعادن الخسيسة الى ذهب او فضة. وصل تاثير الترجمات الى العالم الكبير «البرتوس» الذي قال عنه رينان انه مدين بكل شيء لابن سينا، ووصلت الترجمات ايضا الى توما الاكويني الذي قال عنه رينان ايضا: انه بصفته فيلسوفا مدين تقريبا بكل شيء لابن رشد».

ووصلت الترجمات ايضا الى «توماس انجليكوس» والى غليوم الباريسي «وبطرس الاسباني» «واسكندر الآلى» «ورامون مارتي»، «وفينسان دي بوفي» «وروجير بيكون» «وسيجر دي برابنت» «وهنري دي غانت» «وروبرت غروستيست» «وتوماس اليوركي» «وغوتييه دي بروج» «وبدره الاوفرنيي» «وريشار دي ميديافيلا» والى «دانتي» وغيرهم كثيرون.

لم تتفرد اسبانية بالترجمات من العربية الى اللاتينية بل جرت ترجمات اخرى في بلاد اوروبية مثل صقلية وسلنره حيث نشأت مدرسة طبية في القرن العاشر وازدهرت بفضل الترجمات الطبية العربية.

بنى الغربيون ثقافتهم على مخلفات العرب وتوزعت الثقافة على مختلف البلدان الاوروبية، لم يعد هناك ثقافة واحدة كما كانت على عهد العرب الذين حملوا وحدهم الثقافة العالمية طيلة قرون فخرج منهم الاطباء والصيادلة وعلماء الفلك والجغرافية بعدد لا يحد ولا يوصف. ولما توارى العرب عن مسرح الاحداث وشاء الغربيون ان يحلوا محلهم لم يتمكن شعب واحد من القيام بهذه المهمة فتوزعت فيما بينهم فاخذ الفرنسي قسما والالماني قسما والانكليزي تناول نصيبه والايطالي، بينما الاسباني لم يستفد منها الاستفادة المطلوبة منه لان هذه الحضارة استمرت عنده زمنا طويلا وقد وصلت اليه مكتوبة باللغات التي يفهمها: اي العربية واللاتينية والرومنسية، كان عليهم ان يواصلوا هذه النهضة العلمية الكبرى التي نشأت في بلادهم ويكونوا في طليعة البلدان الاوروبية في كل شيء كما كان العرب الاسبان في طليعة البلدان في اوروبة ولكن الاسبان لاسباب سياسية ودينية رفضوا هذه الثقافة لانها آتية من اناس لا يدينون بالنصرانية، وليس فقط لم يستفيدوا منها بل عملوا على اتلافها وابادتها فجمع الكردنال سيسنيروس في اوائل القرن السادس عشر الكتب العربية في ساحة «باب الرملة» بغرناطة واحرقها كما احرق قبله هولاكو مليون كتاب في الشرق العربي.

اليس من سخرية القدر الا يوجد في اسبانية سوى عدد قليل جدا من المخطوطات لا توازي واحد بالمائة من المخطوطات الموجودة عند دول لم تشعر بالحضور العربي على ارضها؟

وبمَا اننا نهتم بعلم الفلك والحساب وعلاقتهما بالجغرافية والاكتشافات والملاحة نذكر بعض المؤلفات في هذه المواد نقلت في القرون الوسطى من العربية الى اللاتينية.

- كتاب الآثار العلوية نقله جيراردو الكريموني من العربية الى اللاتينية.
- كتاب الحيل لارسطو ايضا نقله الكريموني الى اللاتينية من العربية.

– كتاب الاستقساط لارسطو والناقل هو الكريموني.
– اصول الهندسة لاقليدس نقله الكريموني.
– اصول الهندسة، شرح النيريزي نقله الكريموني.
– كتاب المعطيات وكتاب القسمة لاقليدس نقلها الكريموني من العربية الى اللاتينية.
– كتاب الاصول وكتاب الثقل والخفة نقل اديلار الباثي وصاحب الشرطة ببرشلونة.
– كتاب الكرة المتحركة، اطولوقس (اصلاح الكندي) ونقل الكريموني.
– كتاب تربيع الدائرة وكتاب المجسطي لبطليموس ترجمة الكريموني.
– في الغيوم والامطار للكندي نقل الكريموني.
– رسالة في القضاء على الكسوف للكندي الناقل مغفل.
– شرح الكلام عن ذات الحلق للكندي ايضا والناقل غير معروف.
– في حركة الفلك المؤلف ثابت بن قرة الناقل الكريموني.
– المدخل الى المجسطي، لثابت بن قرة والناقل الكريموني.
– عريب بن سعيد الكاتب: كتاب الانواء نقل جيراردو الكريموني.
– مقالة في الاسطرلاب، المؤلف «ما شاء الله» نقل يوحنا الاسباني.
– مقالة في كسوف القمر، ما شاء الله ونقل يوحنا الاسباني.
– مقالة في الرياح المؤلف «ما شاء الله» ونقل يوحنا الاسباني من العربية الى اللاتينية.
– الجداول الفلكية للخوارزمي ترجمة اديلار الباثي.
– مختصر السند هند، تأليف الخوارزمي والترجمة عبرية.
– كتاب النيريزي في شرح اقليدس، نقل الكريموني.
– كتاب في جوامع علم النجوم المؤلف الفرغاني ترجمة جيراردو الكريموني.
– كتاب المدخل الكبير المؤلف ابو معشر ترجمة يوحنا الاشبيلي وهرمانوس الالماني.
– كتاب هيئة الفلك: ابو معشر ترجمة يوحنا الاسباني.
– كتاب تولد الرياح، تأليف ابي معشر والناقل مغفل.

– كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين ارباع الافلاك، تأليف البتاني وترجمة بلاطون التبرتيني.

– كتاب العمل بالاسطرلاب تأليف ابن الصفار ترجمة الكريموني.

– جداول الزرقالي – تأليف الزرقالي وترجمة الكريموني.

– جابر ابن افلح، «كتاب الهيئة» ترجمة الكريموني.

– كتاب الهيئة، تأليف البتروجي ترجمة ميخائيل سكوت.

– كتاب البارع في احكام النجوم تأليف «ابن الرجال»، ترجمة جيديوس التبلديسي.

هذه هي اسماء بعض الكتب العربية التي نقلت الى اللاتينية في الحساب وعلم الهيئة وقد فاتتنا اسماء كثيرة من هذا النوع.

ويقول غرسية بليستير نقلا عن الطبيب البلجيكي كلينار ان الترجمات العربية كانت اصدق واوضح من تلك الترجمات اللاتينية التي جاءت متأخرة اي في عصر الانبعاث والمأخوذة مباشرة عن النصوص اليونانية، فالطبيب كلينار الذي قدم الى شبه الجزيرة الابرية في اوائل القرن السادس عشر توصل الى هذه النتيجة عندما قابل ترجمات «ليونسينوس» (١٤٢٨ – ١٥٢٤) استاذ الطب في جامعة فراره لجالينوس وغيره مثل ابقراط فوجد الاصل العربي لاصول ابقراط اوضح من ترجمة ليونيسينو الذي في كثير من المواضع لم يفهم المعنى المطلوب في الاصل كما فهمه المترجم العربي على حقيقته.

وقد اوصى المجمع المسكوني المنعقد في فيينا سنة ١٣١١ بانشاء كرسي لتدريس اللغة العربية في جامعات رومة وباريس وبولونية واكسفورد وسلمنكة الى جانب اللغتين الكلدانية والعبرية... وعملا بهذه التوصية طلب «سلايا» الطبيب والفلكي بترشيح هرنان نونيس الطليطلي بصفته عالما باللغة العربية لكي يشغل هذه الكرسي في جامعة سلمنقة.

فيقول هذا الطبيب والفلكي: ان جامعة سلمنقة في اشد الحاجة الى اللغة العربية ولا سيّمَا لتدريس الطب فيها وبمَا ان «هرنان نونيس» يعرف هذه اللغة معرفة جيدة فيجب منحه الكرسي العربية على الاقل، وظلت العربية تدرس في جامعة سلمنقة حتى سنة ١٥٥٤ بتأثير جامعة «قلعة النهر» التي اسسها الكردنال سيسنيروس الذي احرق الكتب العربية في ساحة باب الرملة بغرناطة ولم يشفق الا على ما يقرب من مائة كتاب في الطب والصيدلة احتفظ بها لتكون نواة لجامعته.

والطبيب البلجيكي «كلينار» الذي جئنا على ذكره يقول عن سلمنقة :

«حتى الآن لم اعثر على احد يحسن العربية بحيث يقدر ان يعلمها للاخرين ، صحيح انه يوجد اطباء يقرأون بطلاقة ابن سينا والاطباء العرب الآخرين ولكنهم لا يعرفون قواعد هذه اللغة اكثر من ملاحي زيلندة او سائقي عرباتنا في بلجكا».

(لويس غرسية بليستير: التاريخ الاجتماعي للطب باسبانية في القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر ص ٨٩).

هذا ما كانت عليه سلمنقة لما وصل اليها كرستفروكلمبو ليجري امتحانا امام لجنة شكلها لهذا الغرض المطران الطلبيري مرشد الملكة الروحي.

وصل الى دير القديس اسطفان التابع لرهبان عبد الاحد ووجد عندهم مأوى ينزل فيه بسبب الصداقة التي تربطه باحد الرهبان اسمه «دياغه دي ديسا».

ونال عطف جماعة الرهبان الموجودين في الدير نظرا لتقواه المصطنع او الحقيقي، وحضوره الصلوات ، فصار يأكل مع الرهبان ويحادثهم فاطلعوه على اسماء اعضاء اللجنة التي تنظر في قضيته. احدهم اسمه «لذريق مالدوناده» RODRIGO MALDONADO : عضو في مجلس الشورى الملكي.

عضو آخر مهنته ملاح.

عضو آخر عالم فلكي يدرس علم الفلك في جامعة شلمنقة ويعتبر من اهم علماء الفلك في ذلك العصر بمَا فيهم ابراهيم زكوت المولود في سلمنقة سنة ١٤٥٠ وتوفي في دمشق سنة ١٥١٠ درّس علم الفلك في جامعة شلمنقة وهو ما زال شابا لا يكاد يبلغ العشرين من سنه ، ثم انتقل الى جامعة سرقسطة وضع كتابا سنة ١٤٧٣ عندما كان في سلمنقة ، باللغة العبرية ثم نقل الى اللغة اللاتينية عنوانه «التقويم الدائم» وهو يبحث في علم الفلك وقد استخدم هذا الكتاب لخارطة ملاحة تسمح بالتوغل في عرض البحر. عندما وقع الطرد على اليهود التجأ الى البرتغال الى بلاط الملك يوحنا الثاني الذي جئنا على ذكره مرارا ، ولكن ما طال الامر ان طرد اليهود ايضا من البرتغال سنة ١٤٩٧ ، فتوجه الى تونس ومنها الى الشرق العربي ثم الى تركيا ، وتركيا في ذلك العهد كانت تسيطر على الشرق العربي ، وتوفي في دمشق حوالي سنة ١٥١٠.

وتضم اللجنة ايضا عالمًا لاهوتيًا وفيلسوفًا يجيد سبع لغات بمَا فيها اليونانية والعربية ،

وقد تفقه في العلوم العربية ولا يوجد في العالم المسيحي من يضاهيه في العلوم على اختلاف انواعها وفي اللاهوت والكتب المقدسة وستعطيني رايك فيه، عندما تتعرف عليه.

وافاض رئيس دير رهبان القديس اسطفان في الكلام عن هذا العالم اللاهوتي الذي لم يشأ ان يذكر اسمه – هناك امور لا يمكن التسامح بها اطلاقاً، جامعة سلمنقة انشأت لدراسة العلوم المقدسة: اللاهوت والحق القانوني والتاريخ المقدس، ويمكن التساهل معها في ان تدرّس العلوم الدنيوية مثل الطب وعلم الفلك واللغة على شرط ان يكون الاساتذة خاضعين في كل وقت لتعاليم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ومشبعين بخوف الله.

– هذا العالم مطلع على خفايا الامور وقد استقى معارفه من ينابيعها ومصادرها اي اليونان والعرب واليونان عرفوا في الغرب عندنا عن طريق العرب. مؤلفاتهم نقلت اولا من اليونانية الى العربية والسريانية ثم من العربية الى اللاتينية وهنا في شبه الجزيرة الابرية بالذات وخاصة في طليطلة، فهذا الذي سيجادلك عالم في الحساب وعارف في علم الكون يدرّس مادة علم الفلك في جامعة سلمنقة منذ سنوات، تلقى من المطران الطلبيرة دعوة للعضوية في اللجنة وقبل الدعوة بعد تردد لان الملكين الكاثوليكيين شاءا ان تكون اللجنة مشكلة من علماء في اللاهوت والادب والنجوم والبحار، وانا الرئيس لهذا الدير شئت في احد الايام حضور الدروس التي يقدمها في علم الفلك ودهشت لان معارفه لم تكن تخطر لي على بال انها موجودة عند مخلوق. وصادف في ذلك اليوم ان تحدث عن علم الهيئة ملخصا كل ما درس طيلة الفصل وهذه بعض المعلومات عن علم الهيئة كما سمعتها منه:

«علم الهيئة هو علم يبحث فيه عن ظواهر الاجرام السماوية ونواميس حركاتها المرئية الحقيقية ومقاديرها وابعادها وخصائصها الطبيعية فينقسم خمسة اقسام:

القسم الاول : «علم الهيئة الكروي» وهو الاستقصاء فيما يظهر عند رصد السماء من حركات الكواكب واوضاعها بعضها لبعض فيشتمل هذا القسم على قوانين الحركات المرئية اليومية والسنوية للكواكب واستخدامها لتقدير الزمان وتعيين المواضع السماوية واختلافات المنظر وانكسار الجو وانحراف الضوء وهذا القسم مبني خصوصا على حساب المثلثات الكروية وله علاقة بالجغرافية الرياضية.

القسم الثاني : «علم الهيئة النظري»: يعلّم كيفية تقويم مواضع الاجرام السماوية:

الكسوفات الشمسية والقمرية والاتصالات واستتار الكواكب بعضها لبعض.

القسم الثالث : «علم الميكانيا الفلكية» يبحث فيه عن علل الحركات الحقيقية وعن القوتين الجاذبة والطاردة عن المركز اللتين تؤثر بهما الاجرام الفلكية بعضها في بعض.

القسم الرابع : «علم الهيئة العملي»: وهو جزءان، جزء رصدى مشتمل على نظرية الآلات الراصدة وكيفية الارصاد وقياس الزمن. وجزء حسابي يعلم طرائق حساب الزيجات والتقاويم وغير ذلك. والجزء الرصدي من هذا القسم هو ما يسميه الفيلسوف الاندلسي الشهير ابو الوليد بن رشد المتوفي سنة ٥٩٥/١١٩٨، صناعة النجوم التجريبية فانه يسمي سائر اجزاء علوم الهيئة صناعة النجوم التعالمية اي المبنية على التعاليم وهي الرياضيات.

وقد قال الفيلسوف العربي ابو نصر الفارابي في كتابه احصاء العلوم: ان علم النجوم يشتمل على قسمين احدهما علم دلالات الكواكب على المستقبل.

والآخر العلم التعليمي وهذا القسم الثاني هو الذي يعد من العلوم، واما الاول فهو انما يعد من خواص النفس التي يتمكن بها الانسان من معرفة ما سيحدث في العالم قبل حصوله وذلك من نوع الفراسة والزجر والطرف بالحصى وغير ذلك...

فعلم النجوم التعليمي يبحث فيه عن الاجرام السماوية وعن الارض من ثلاثة وجوه:

الاول : يبحث فيه عن عدد تلك الاجرام واشكالها ووضع بعضها الى بعض وترتيبها في العالم ومقاديرها وابعادها عن الارض وان الارض ساكنة ما تتحرك عن موضعها ولا في موضعها.

الوجه الثاني : يبحث فيه عن حركات الاجرام السماوية وكم هي وانها كلها كروية وما منها عام لجميع الكواكب وما خاص لكل كوكب.

الوجه الثالث : يبحث فيه عن الارض والمعمور والخراب منها وقسمة المعمور بالاقاليم واحوال المساكن.

اخوان الصفاء الذين وصلت موسوعتهم الى الاندلس: يقولون في علم الهيئة:

معرفة تركيب الافلاك وكمية الكواكب واقسام البروج وابعادها وعظمها وحركاتها ومنها قسم هو معرفة حل الزيجات وعمل تقاويم واستخراج التواريخ.

ومنها قسم هو معرفة كيفية الاستدلال بدوران الفلك وطوالع البروج وحركات الكواكب على الكائنات قبل كونها تحت فلك القمر ويسمى هذا النوع علم الاحكام، فمن هذا الكلام ظاهر ان القسم الاول في هذا التقسيم هو العلم النظري والثاني العلمي والثالث احكام النجوم.

اما ابن سينا فيقول: علم الهيئة يعرف فيه حال اجزاء العالم في اشكالها واوضاع بعضها عند بعض ومقاديرها وابعاد ما بينها وحال الحركات التي للافلاك والتي للكواكب وتقدير الكرات والقطوع والدوائر التي بها تتم الحركات ومن فروع علم الهيئة عمل الزيجات والتقاويم.

هذا بعض ما سمعته من هذا العالم الفلكي الكبير بشأن علم الهيئة... وحضرت درسا له تحدث فيه عن كروية الارض:

كروية الارض:

جاء فيتاغورس في منتصف القرن السادس قبل الميلاد واثبت كروية الارض قائلا:

انه لا يوجد شكل هندسي اكمل من الكرة لكمال انتظام جميع اجزائها بالنسبة الى المركز وان الاجرام السماوية والارض منها لكونها في غاية الكمال لا تتصور الا ذات ذلك الشكل وفي القرن الرابع قبل الميلاد كان حكماء اليونان متفقين عليه.

ومن جملة حجج ارسطو: ان في خسوفات القمر الجزئية لا يرى ظل الارض على سطح القمر الا على شكل مستدير وهذه الحجة مهمة جدا.

واحتج القدماء ايضا بمَا يحصل للاشياء المرتفعة مثل الجبال والبروج الشاهقة وغير ذلك انها ترى قممها على مسافة لا يرى منها اسفلها.

وكذلك استدلوا على استدارة سطح البحر بمَا هو مشهور ان السفن المقبلة تظهر رؤوس سواريها قبل ما ترى قلوعها ثم تظهر القلوع قبل ظهور جرم السفينة، فاستنتجوا ان الارض كرة كاملة وانها مدورة بالكلية مضرّسة بالجزئية من جهة الجبال البارزة والوهاد الغائرة وان هذا التضريس لا يخرجها من الكروية لصغر الجبال وان شمخت بالنسبة الى عظمة الارض.

وقال في ذلك قاضي زاده الرومي في شرحه على ملخص الجغميني ومبروك البخاري في شرحه على حكمة العين: «ان نسبة ارتفاع اعظم الجبال الى قطر الارض كنسبة سبع عرض شعيرة الى الذراع المحتوي على اربع وعشرين اصبعا والاصبع عبارة عن ست شعيرات مضمومة بطون بعضها الى بعض».

ودروا ايضا ان ارتفاع اعظم الجبال فرسخان وثلث فرسخ وان قطر الارض على ما وجده العرب الفان ومائة واربعة وستون فرسخا فاذا اجرينا الحساب على هذا القول وجدنا:

$$\frac{٢,٣٣٣٣}{٢١٦٤} = ٠,٠٠١٠٧٨$$ (١)

والفرسخ عند فلكي العرب عبارة عن ٥٩١٩ مترا.

هناك ثلاثة اقوال في طول الدرجة من خط الاستواء عند العرب وجميعها مبنية على اصناف اغلاط في تحويل انواع «الاسطاديوم» الى الاميال العربية، احدهما من تحويل اراتسثنيس، اما الآخران الكثيران الرواج فاستخرجا من تقدير بطليموس المحوّل على طريقين خاطئين، فيبقى الكلام عن قياس رابع عربي الاصل قريب من الحقيقة جدير بالذكر لانه من اجّل آثار العرب في ميدان الفلكيات ومما يدل على شدة عنايتهم بترقية العلم المحض وعلى مهارتهم العجيبة في الارصاد اعني به قياس قوس من دائرة نصف النهار في ايام الخليفة المامون العباسي (١٩٨–٢١٨) هـ (٨١٣–٨٣٣ م).

روايتان: الاولى موجودة في الباب الثاني من كتاب الزيج الكبير الحاكمي لابن يونس المصري المتوفي سنة ١٠٠٩/٣٩٩.

ذكر سند بن علي في كلام وجدته له: ان المامون امره هو وخالد بن عبد الملك المروروذي ان يقيسا مقدار درجة من اعظم دائرة من دوائر سطح كرة الارض. قال فسرنا جميعا وامر علي بن عيسى الاسطرلابي وعلي بن البحتري بمثل ذلك فسارا الى ناحية اخرى.

قال سند بن علي: فسرت انا وخالد بن عبد الملك الى ما بين واسط وتدمر وقسنا هناك مقدار درجة من اعظم دائرة تمر بسطح كرة الارض فكان سبعة وخمسين ميلا. وقاس علي بن عيسى وعلي بن البحتري فوجدا مثل ذلك وورد الكتابان من الناحيتان في وقت واحد بقياسين متفقين.

(١) حساب القياسات الجديدة قدّر ارتفاع الجبل الأعظم حملايا ٨٨٠٠ متر بالتقريب ومقدار قطر الأرض ١٢٧٤٠ كيلومترًا فتكون نسبة الأول الى الثاني ٠٠٠٠٦٩/٠

وذكر احمد بن عبد الله المعروف بحبش في الكتاب الذي ذكر فيه ارصاد اصحاب الزيج الممتحن بدمشق وهو زيج شهيلر الفه جماعة من فلكي الخليفة المامون برئاسة يحيى بن ابي المنصور المنجم بناء على الارصاد العربية الجديدة الممتحنة ان المامون امر بان تقاس درجة من اعظم دائرة من دوائر بسيط كرة الارض. قال: فساروا لذلك في برية سنجار حتى اختلف ارتفاع النهار بين القياسين في يوم واحد بدرجة ثم قاسوا ما بين المكانين فكان ميلا وربع الميل وكل ميل اربعة آلاف ذراع بالذراع السوداء التي اتخذها المامون واقول وبالله التوفيق ان هذا القياس ليس بمطلق بل يحتاج مع اختلاف ارتفاعي نصف النهار بدرجة الى ان يكون القائسان جمعا في سطح دائرة واحد من دوائر نصف النهار. والسبيل الى ذلك بعد ان تختار للقياس مكانا معتدلا ضاحيا ان تستخرج خط نصف النهار في المكان الذي يبتدئ منه القياس ثم تتخذ حبلين دقيقين طول كل واحد منهما نحو خمسين ذراعا ثم نمرّ احدهما موازيا لخط نصف النهار الذي استخرجناه الى ان ينتهي ثم نضع طرف الحبل الآخر في وسطه ونمره راكبا عليه الى حيث بلغ ثم نرفع الحبل الاول ونضع ايضا طرفه في وسط الحبل الثاني ونمره راكبا عليه ثم نفعل ذلك دائما ليحفظ السمت وارتفاع نصف النهار يتغير دائما بين المكان الاول الذي استخرج فيه خط نصف النهار والمكان الثاني الذي انتهى اليه الذين يسيرون، حتى اذا كان بين ارتفاعي نصف النهار في يوم واحد درجة بآلتين صحيحتين تبين الدقيقة في كل واحدة منها قيس ما بين المكانين، فما كان من الاذرع فهو ذرع درجة واحدة من اوسع دائرة تمر ببسيط كرة الارض. وقد يمكن ان يحفظ السمت عوضا من الحبلين باشخاص ثلاثة تسير بعضها بعضا على سمت خط نصف النهار المستخرج وينقل اقربها من البصر متقدما ثم الذي يليه ثم الثالث دائما ان شاء الله تعالى.

وهناك رواية لابن خلكان ولكنها فاسدة، والصحيح انما هو ما يستخرج من زيج ابن يونس. وكتب غيره ان جماعة من الفلكيين قاسوا قوسا من خط نصف النهار في صحراوين من شمالي تدمر وبرية سنجار، ثم ان حاصلي العملين اختلفا فيما بين ٥٦ ميلا وربع الميل و ٥٧ ميلا، فاتخذ متوسطهما اي ٥٦,٦٦ تقريبا، ولا غرو في مثل هذا الاختلاف لما يعترض من الصعوبة الوافرة وعدم الاتقان لمن يريد قياس درجة من درجات خط نصف النهار بغير الآلات الرصدية الحديثة وذلك لعدم استواء الارض وامكان وقوع اغلاط خفيفة في اخذ ارتفاعات الشمس والنجوم ووضع الاوتاد وحفظ الخط المستقيم ثم لما يقع من الخطأ بسبب الاختلاف الناشىء في طول الحبال عن اختلاف الحرارة والرطوبة، والمحتمل ان الفلكيين

العرب كرروا كل القياسات الجزئية مرارا ليستخرجوا القدر المتوسط ويخففوا الخطأ الممكن وقوعه والا لحصل الفرق بين اعظم من ثلاثة ارباع بميل بكثير.

ان قياس العرب اول قياس حقيقي اجرى كله مباشرة مع كل ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة والصعوبة والمشقة واشتراك جماعة من الفلكيين والمسّاحين في العمل فلا بد لنا من اعداد ذلك القياس في اعمال العرب العلمية المجيدة الماثورة.

دهش «كلمبو» من كل هذه الايضاحات والتوضيحات مع انه كان قد تحادث مع الملاحين العرب في هذه الامور ولم يقدموا له كل هذه التفسيرات عن علمائهم لما كان في جنوى بلاده سمع بقصة الادريسي وروجار الصقلي الذي رغبه في الاقامة عنده وقال له : «انت من بيت الخلافة ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ومتى كنت عندي امنت على نفسك».

وكانت صقلية في ذلك الوقت لم تزل تحتفظ بالطابع الاسلامي والعربي وسكانها من المسلمين كثيرون ومعالم الحضارة العربية غالبة على مجتمعها حتى ملكها رجار كان يستظهر بعادات المسلمين في اللباس والهيئة وشارة الملك من الجنائب والحجاب والسلاحية والجندارية وخالف عادة الفرنج واكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج فاحبوه.

ومن المحقق ان روجار كان ملكا مستنيرا وعلى جانب من التسامح الذي يندر وجوده في ملوك عصره من النصارى وشاء رئيس الدير الاستذادة من المعرفة عن رنجار الصقلي الذي استضاف الادريسي ووجد كلمبس الفرصة مناسبة لان يظهر سعة اطلاعه لهذا الراهب الذي لم يخرج من ديره في سلمنقة.

كان ميزة روجار الصقلي الخاصة من بين سائر البلاطات النصرانية تقدير العلم والعلماء على اختلاف اديانهم واوطانهم، فعاش الادريسي في ظله باحثا وعاملا على تقدم العلم والمعرفة الانسانية والحضارة بمّا قام به من خدمات جلّى لعلم الجغرافية وصفة الارض وتقويم البلدان وبوضعه لاول خريطة عالمية صحيحة مبنية على الاصول العلمية والحقائق الفنية الثابتة لذلك العهد والتي لا تختلف اختلافا كبيرا عما هو ثابت.

وكان طيلة اقامته في صقلية موضع اعتبار كبير من صاحبها رجار ثم من ابنه غليوم بعده، ورتب له كفاية لا تكون الا للملوك. وكان يجيء اليه راكبا بغلة فاذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فياتي فيجلسان معا.

ولما استقر الادريسي ببلاط رجار كان اول ما عرضه هذا عليه رغبته في ان يؤلف له كتابا في وصف مملكته الواسعة وما هي عليه من الحضارة والعمران وذكر مسالكها وحدودها وموقعها من بقية الممالك مع وصف هذه الممالك ايضا وذكر ما يتعلق بها من ذلك على وجه التحقيق وتجنب المزاعم الباطلة والخرافات والاوهام ذاكرا انه لم يجد ما يشفي غليله من ذلك في كتب المؤلفين الجغرافيين من قدماء ومحدثين ولا من يجيب على اسئلته في هذا الصدد من العلماء الملتفين حوله والمرتسمين في بلاطه.

فلم يكن من الادريسي حينئذ الا ان شمّر ذيله للعمل على تحقيق هذه الرغبة لا سيّمَا وقد جال في اطراف آسية واوروبة وافريقية فعلى الاقل تكون عنده رغبة في تسجيل ما راى وما علم من احوال البلاد التي زارها.

اوحى الى رجار ان يبعث الى سائر اطراف مملكته فيحضر لديه كل من له علم بشيء من صفاتها واحوالها ولا سيّمَا من السفار المتجولين ثم يامر بتلقي ما يدلون به من معلومات في هذا الشان فما اتفق فيه قولهم وصح به خبرهم ونقلهم واثبت وسجل وما اختلفوا فيه الغي واهمل وكان الامر كذلك.

وكان لاجل ان يستعلم يقينا صحة ما اتفق عليه القوم المشار اليهم في خصوص مادة الاطوال والعروض المختلفة لاي بلد من البلدان يحضر ما سماه «لوح الترسيم» وهو تصميم جغرافي للكرة الارضية او هو عبارة ادق «مشروع خريطة العالم التي وضعها فيما بعد» فيمتحن عليه مواقع البلدان واحدا فواحدا بواسطة بركار من حديد مقارنا ما عنده من معلومات بمَا قرره المؤلفون في هذا العلم محققا بغاية العناية المواقع المذكورة ومرجحا بالاستناد الى النظر الصحيح بين الاقوال المتضاربة في بعض المسائل حتى يقف على حقيقتها.

وكان هذا هو الاصلاح العظيم الذي ادخله الادريسي على خريطة العالم فجعلها تقرب من وضعها العلمي الصحيح.

ولما وصل الى هذه النتيجة اراد ان يخلدها بوضع خريطة جامعة يرسمها على صفيحة من الفضة لا على صحيفة من الورق فتكون بمنجاة من عوامل التلف. وقد امر الملك رجار ان تفرغ له دائرة من الفضة الخالصة «عظيمة الجرم ضخمة الجسم» في وزن اربعمائة رطل رومي في كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهما. فلما كملت امر الفعلة ان ينقشوا فيها صور الاقاليم السبعة ببلادها واقطارها وسيفها وريفها وخلجانها وبحارها ومجاري مياهها ومواقع انهارها وعامرها وغامرها بين كل بلدين منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والاميال

المحدودة والمسافات المشهودة والمراسي المعروفة على نص ما يخرج اليهم ممثلا في «لوح الترسيم» ولا يغادرون منه شيئا وياتون به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه.

ولما انجز هذا العمل انصرف الادريسي الى انجاز كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وجاء هذا الكتاب بمثابة التفسير والشرح لخريطة العالم الجديدة وقد انتهى منه في سنة ١١٥٣/٥٤٨.

وتوفي رجار في ذلك العام نفسه فلم يتمتع طويلا بتحقيق امنيته ومع ذلك فلم يكن احد ينسى ما له من الفضل في وجود ذلك الكتاب حتى لقد سمي باسمه فقيل «كتاب روجار» «والكتاب الروجاري».

وقد بلغ وزن هذه الصفيحة الفضية مائة وخمسين كيلوغراما ومساحتها ثلاثة امتار ونصف طولا بمتر ونصف عرضا وثلاثة مليمترات سمكا.

ومع كونها بهذه المتانة فانها لم تعمر طويلا: سبعة اعوام فقط، اذ سطا عليها الثوار في سنة ٥٥٥ هـ واقتسموها اطرافا فذهبت الى حيث لم ينتفع بنقوشها احد، على حين بقيت اصولها من الاوراق العادية محتفظة بكنوزها القيمة حتى وصلت الينا سالمة.

ويقال ان الملك رجار تنازل للشريف الادريسي عن ذلك المبلغ الضخم الباقي من الفضة، واضاف الى ذلك مائة الف درهم اخرى ومركبا كان قد جاء اليه من برشلونة مشحونا بانواع الاجلاب الرومية فاعطاه كل ذلك جائزة له على خدمته العلمية العظيمة.

– وما هي البلدان التي وضعها الادريسي على خارطته؟

– كان الادريسي مثل بقية علماء العرب يرى ان الارض مكورة على شكل بيضة وانها منقسمة بواسطة خط الاستواء الى قسمين متساويين: شمالي وجنوبي، المعمور منها الشمالي فقط، اما الجنوبي فهو خلاء غير معمور لشدة الحرارة ولعدم وجود الماء فيه.

غير ان الفيلسوف العربي الكبير ابن رشد عارض الادريسي في هذه النظرية، وراى ان النصف الجنوبي من الكرة موافق للنصف الشمالي في الجو والطبيعة وانه ماهول بالسكان.

والخريطة الادريسية انما تمثل القسم المعمور من الكرة الارضية وهو النصف الشمالي منها ويشمل العالم القديم او مجموع القارات الثلاث التي هي آسية وافريقية واوروبة، وهذا التقسيم لم يكن معروفا في ايام الادريسي لان تقسيم العالم كان مبنيا على نظرية الاقاليم السبعة ولكن الادريسي حددها وقسمها بحسب درجات العرض، فجعل الاقليم الاول فيما بين صفر

و٢٣ درجة شمال خط الاستواء، والاقاليم الخمسة بعده كل واحد منها ست درجات، والاقليم السابع من ٥٤ درجة الى ٦٣ درجة وما بعد هذه الدرجة الاخيرة منطقة غير مسكونة لكونها كثيرة البرودة ومغمورة بالثلوج.

ولقد اضاف الادريسي الى القسم الشمالي من الكرة الارضية جزءا صغيرا من القسم الجنوبي حتى درجة ١٦ جنوب خط الاستواء، وهذا الجزء هو الذي تقع فيه منابع النيل.

اما الذي يذكر للادريسي بالاعجاب والفخر هو انه حاول بتقسيمه الارض الى الاقاليم السبعة اثبات درجات العرض وتحديدها وانه افلح في هذه المحاولة الى حد بعيد.

وقد ابتدأ كما اشرنا اليه باثبات درجات العرض من درجة ٢٨ الى درجة ٦٣ على التتابع والدرجات التي اثبتها توافق الدرجات الحقيقية تمام الموافقة في جميع البحار وفي معظم اليابسة حيث توافرت لديه الاسباب وامكنه اجراء المقاييس الصحيحة وفي بعض جهات قليلة من اليابسة حيث لم تتم له الاسباب تختلف الدرجات التي اثبتها عن الدرجات الحقيقية اختلافا قليلا، فمثلا وضع مدينة «كلمار» ببلاد اسوج عند درجة ست وخمسين وثلث بينما تقع عند درجة ست وخمسين ونصف وجعل الدنمرك ابتداء من ١/٢ ٥٤ الى ٥٨ والصحيح انها من درجة ٥٤ الى ١/٢ ٥٧، وجعل انكلترة من ٥٢–٥٨ بدلا من ٥٠–١/٢ ٥٨ وهذا بالطبع فرق ضئيل في جهات قليلة دعا اليها عدم توافر الاسباب والامكانات في ذلك العهد.

ولذلك لم يثبت درجات العرض الى درجة ٢٨ شمالا وانما اكتفى بوضع ارقام بجانب اسماء البلاد التي تقع في هذه المنطقة ذلك لم يثبت خطوط الطول وانما قسم كلا من الاقاليم السبعة الى عشرة اقسام متساوية من جهة الغرب الى جهة الشرق وهذا التقسيم وان لم يدل على درجات الطول فانه يسهل القيام بالمهمة ويعين على رسم الخريطة.

وافترقا على ان يجتمعا في مناسبة اخرى لمواصلة البحث في هذه الامور الجغرافية الهامة التي قد تفيد «كلمبو» عندما يمثل امام اللجنة التي تضم خيرة العلماء وقد تحدد اجتماعها بعد ايام قليلة.

وفعلا عقدت اللجنة جلسة للاستماع الى كلمبس حضرها المطران الطلبيري واثنا عشر عالما ولاهوتيا فقال كلمبس: «كما ان الله اوحى لموسى واختاره ليقود الشعب المختار الى ارض الميعاد هكذا اختارني واوكل الي مهمة خطيرة: افتح للعالم المسيحي طريقا جديدة الى

الافاويه، بعيدة عن الخطر التركي. عندما انظر الى ذاتي اجفل من تواضعي ولكن عندما افكر بالدعوة التي دعيت اليها يركبني العجب بعظمتي والرجاء في خالق الكل يسندني ولم تنقصني معونته واليه اسلم ذاتي لكي انفذ وصيته التي كرست حياتي لها. وهي الوصول عن طريق البحر اقيانس الى الهند الغنية، الى اراضي الخان الاكبر ملك الملوك كما سماه ماركو بولو الى اراضي «قطاي» «ومنزي» التي تنتظر قدومنا لكي تتخلى عن اوثانها وتعبد الاله الحقيقي الذي لا اله سواه.

انا عرضت على جلالتها اني اصل الى الملكة ايزابيل اني اصل الى طرشير واوفير في جزيرة سيبانغو الجميلة والكبيرة، وكان الملك سليمان يرسل اليها مراكبه ليشحنها بالذهب من مناجمها والى المرافىء التي كان يحمل منها القرفة والفلفل وجوز الطيب وكبش القرنفل وافاويه اخرى كثيرة ضرورية لتقديد اللحم وحفظه من الفساد، وهذه الطريق التي اذكرها على مسامعكم ليست برية بل بحرية غربية لا اعرف احدا سلكها حتى الآن.

فساله احد اعضاء اللجنة وهو ملاح ماهر جاب البحار في الطول والعرض: قلت من ناحية الغرب اي من بحر الظلمات.

– وهو كذلك ايها الملاحون والعلماء واللاهوتيون الاجلاء، بينما امراء المسيحية يحاربون الاسلام، وملك البرتغال يرسل سفنه في رحلات استكشافية لكي يجد ممرا الى الشرق عن طريق الشواطىء الافريقية، وضع الله في عقلي معرفة طريق جديدة غربية عبر المحيط هذا ما شئت ان ابثه في مسامعكم ايها السادة الكرام، الذين عليهم ان يقولوا كلمتهم ويصدروا حكمهم. عسى الله ينير عقولكم كما انار عقلي لكي ينفذ جلالتهما هذه المهمة التي اوكلها الله الي.

فصمت المطران الطلبيري وصار يداعب الصليب المدلّى على صدره والحاضرون يحدقون انظارهم بكلمبس الى ان ساله احد الملاحين ببعض الغضب وبنبرة في صوته:

– هل انت تتمتع بكامل قواك العقلية؟ كيف يمكنك الوصول الى بلاد الهند عن طريق بحر الظلمات؟ هل تملك كافة الوسائل الحديثة الملاحية التي تساعدك للولوج في بحر الظلمات؟

– عندي البوصلة او بالاحرى «الابرة المغناطيسية» هذا هو اسمها الحقيقي الاصلي كن صبورا قليلا واشرحها لك.

«انها عبارة عن مغناطيس رفيع مستطيل يستخدم لخاصة معروفة في المغناطيس وهي

ثبوته في اتجاه معين فاذا جعلت ابرة مغناطيسية متحركة حول محور افقي يمر بمركز ثقلها بحيث ينعدم مفعول الثقل في توجيهها فانها تستقر في اتجاه واحد وان ازيلت عنه عادت اليه فلا تسكن الا فيه ويكون احد طرفيها ابدا نحو الشمال ويدعى قطبها الشمالي والثاني نحو الجنوب ويدعى قطبها الجنوبي فلا يتبادلان في وضعها ابدا وهذه الخاصة جعلت من الابرة المغناطيسية آلة للاستدلال في الاسفار برا وبحرا وجوا وتعلل هذه الظاهرة بوجود قوة مغناطيسية في الارض توجه الابرة بحيث يصلح القول في تقريب اول ان الارض تعمل عمل قضيب موضوع في مركزها صغير الابعاد بالنسبة لابعادها يتوجه محوره منحرفا عن محور دوران الارض بمَا قيمته احدى عشرة درجة ونصف ويكون قطبه الشمالي نحو الجنوب وقطبه الجنوبي نحو الشمال. فاذا ما علم بالتدقيق وجهة الابرة في مكان ما امكن الاستدلال بها على الطريق السوى.

وهذه الابرة المغناطيسية كانت معروفة عند العرب منذ القديم بشهادة خوان دي باروس في وصفه لخريطة الجزر الهندية ان العرب عرفوا الابرة المغناطيسية وانهم رسموا واستعملوا الخرائط، ويقول «خيرونمو اوسوريو». JERONIMO OSORIO انه كان للعرب في ايام فشكو دي غاما المام واسع في الملاحة وانهم لم يكونوا دون البرتغاليين في شؤون البحر.

توجد نصوص ترقى الى اواخر القرن الثالث عشر تذكر الابرة المغناطيسية وطرق استعمالها في الملاحة على غاية من الدقة.

نص لبيلك القبجاقي في كتابه «كنز التجار» يقول فيه:

«ومن خواص المغناطيس ان رؤساء بحر الشام اذا اظلم عليهم الجو ليلا ولم يروا من النجوم ما يهتدون به على تحديد الجهات الاربع، ياخذون اناء مملوءا ماء ويحترزون عليه من الريح بان ينزلوه الى بطن السفينة ثم ياخذون ابرة وينفذونها في سمرة او قش حتى تبقى معارضة فيها كالصليب ويلقونها في الماء الذي بالاناء ومعدود لها فتطفو على وجهها ثم ياخذون حجرا من المغناطيس كبير ملء الكف او صغير ويدنونه من وجه الماء ويحركون ايديهم دورة اليمين، فعندها تدور الابرة على صفحة الماء ثم يرفعون ايديهم على غفلة وسرعة فان الابرة تستقبل بجهتيها جهة الجنوب والشمال... رايت هذا الفعل منهم عيانا في ركوبنا البحر من طرابلس الشام الى الاسكندرية سنة ١٢٤٢، وقيل ان رؤساء مسافري بحر الهند يتعوضون عن الابرة والسمرة بشكل سمكة من حديد رقيق مجوّف يمكن انه اذا القي في ماء الاناء عام وسامت براسه وذنبه الجهتين من الجنوب والشمال».

والمقريزي المتوفي سنة ١٤٤٢ يقول:

«ما برح المسافرون في بحر الهند اذا اظلم الليل ولم يروا ما يهديهم من الكواكب الى معرفة الجهات يحملون حديدة مجوفة على شكل سمكة ويبالغون في ترقيقها جهد المقدرة ثم يعمل في فم السمكة شيء من المغنطيس جيدا ويحك فيها بالمغنطيس، فان السمكة اذا وضعت في الماء دارت واستقبلت القطب الجنوبي بفمها واستدبرت القطب الشمالي. وهذا ايضا من اسرار الخليقة، فاذا عرفوا جهتي الجنوب والشمال تبيّن منها المشرق والمغرب فاذا تحددت الجهات الاربع عرفوا مواضع البلاد منها فيقصدون حينئذ جهة البلاد التي يريدونها.

وقد اشار الادريسي قبل القبجاقي بنحو مائتي عام الى جاذبية المغناطيس الا ان شرحه اكتنفه شيء من الغموض.

ولعل اقدم نص صريح في ذكر هذه البوصلة البدائية في القرون الوسطى، يرقى الى القرن الثاني عشر في رسالة كتبها اسكندر نيكام بعنوان «في المواعين» ذكر فيها «ابرة تستعمل في السفن فتساعد البحارة في معرفة طريقهم عندما تغيب نجمة القطب وهي توضع على محور وتترك حرة في مركزها».

ويقول ايضا في كتابه «في طبيعة الاشياء»: انه عندما يضل البحارة وجهة سيرهم بسبب تراكم الغيوم في السماء حتى تحجب عنهم الشمس او بسبب ظلام الليل يمرون ابرة على حجر المغناطيس فتدور ثم تقف وراسها متجه نحو الشمال.

– والخرائط البحرية التي ترشدك الى تلك الاراضي؟

– من الضروريات الهامة للملاحة وانشاء الخرائط الدقيقة تحديد مواقع البلدان اي خطوط الطول والعرض كذلك وجود الآلات الهامة لذلك وتحديد العروض قد ياتي بقياس ارتفاع الشمس والنجم القطبي او الاوج الاعلى والادنى للنجم حول القطبي.

جاء البيروني العالم الفلكي العربي بفكرة جديدة بتطبيق الطريقة المتبعة بالنسبة للنجوم الواقعة حول القطب في شان الشمس ايضا.

كما قام هذا العالم بعمل خريطة مستديرة للعالم في كتابه «التفهيم لاوائل صناعة التنجيم» لبيان موضع البحار ابتكر طريقة لتصميم خرائط السماء والارض.

له مبتكرات وابحاث في كيفية نقل صور الارض الكروية الى الورق المسطح.

ويناقش البيروني الجانب الرياضي والفلكي من الجغرافية مثل عمران الجهة المقابلة من الارض واستدارة الارض وتحديد حركاتها.

ومما يروى ان مبعوثا تركيا الى السلطان الغزنوى روى له انه لاحظ وجود الشمس في الافق بحالة لا يكون ليل حينما كان فيما وراء البحار تجاه القطب الجنوبي. ولم يصدق السلطان تلك القصة العجيبة ورمى الرجل بالالحاد.

ثم استدعى البيروني لتفسير تلك الظاهرة فنهض العالم العلامة حتى توصل الى اقناع الملك فقال للملك ان هذا الرجل لا يذكر ذلك عن راى يرتئيه ولكن عن مشاهدة يحكيها عما راى فيما وراء البحر نحو القطب الجنوبي من دور الشمس علة ظاهرة في كل دورها فوق الارض بحيث يبطل الليل، ثم جاء البيروني بالآية وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا.

– سألناك عن شيء فأجبتنا عن شيء آخر لم نطلب منك درسا وتاريخ رسم الخرائط بل خريطة معينة اعتمدت عليها في رحلتك الى الهند.

– اذا كانت سفن قشتالية تتوغل في بحر الظلمات قاصدة الجزر الخالدات والمراكب البرتغالية تمخر عبابه متوجهة الى مديرة القمر والراس الاخضر وتنحدر نحو الجنوب أكثر فأكثر لا أرى ما يمنع التوغل فيه نحو الشرق.

– ولكن الفرق بعيد بين الطريقين فاذا سافرت قرب الشواطىء الافريقية وهبت عليك العواصف تجد ملجأ تأوى اليه ومأكولات لتسد الجوع واشجارًا وأخشابًا لاصلاح ما تعطل من السفينة، ولا شيء من هذا تجده في بحر الظلمات.

– قضيت ثلاثة وعشرين عامًا اجوب البحار وغربها وجنوبها وشمالها وشرقها من بلاد الانكليز الى غينية الى مرافىء البحر المتوسط واقول ان الطرق التي سأسلكها في بحر الظلمات صالحة للملاحة، فلا اقزام بحرية ولا عرائض البحر ولا حيوانات مخيفة ولا مياه قريبة من الغليان كما يقولون انه يحدث في المناطق الحرة.

– اذا كنت سافرت طيلة ثلاثة وعشرين عامًا فلا شك انك ادركت الصعوبة في معرفة موقع السفينة في كل وقت.

– بيّن اهل العلم بالهندسة بغير وجه من البرهان ان الارض ثابتة وسط العالم قائمة في مركزه ولا حركة لها في ذاتها وانها مستديرة الشكل وان جميع الاثقال تميل ويرجعن اليها بالطبع، وان كل جزء من أجزائها البعيدة عن المركز بدور الارتفاع والانخفاض مطيعة الى

مركزها وان الفلك المستقيم يدور عليها بجميع ما يحيط بها من الافلاك والكواكب السيارة والثابتة دورة واحدة في كل أربع وعشرين ساعة مستوية هي جملة النهار والليل من آخر النهار وركّب الله عز وجل على الأرض جرم الشمس لعلمه بالحكمة التي ينبغي ان يكون عليها تركيب العالم في فلك اخرج مركزه عن مركز الأرض بدرجتين ونصف من درج فلك البروج ، فلذلك ما اختلفت حركة الشمس على الأرض فحمى مزاج جوهر الهواء المحيط بالناحية الجنوبية. وكان جزء المعمور من الأرض في الناحية الشمالية ، اذ كل حيوان بطبعه احمل للبرد منه للحر ، ألا ترى انه يتولد في الماء من الحيوان ما لا يحصى كثرة وكذلك من النبات ولا يتكون في النار منه شيء إلا الشاذ النادر ان صحّ ذلك فيه.

كان القدماء يعتبرون الأرض مركز الكون أو قريبة منه وقد اخذ علماء العرب بهذا الرأي ، وقد وردت على لسان البيروني عبارة تشير الى معرفة وجود قوى الجاذبية بين الاجسام.

ثم الأقاويل في سبب هذا الاضطرار كثيرة ، منها جذب السماء الأرض من كل النواحي بالسواء وذلك يبطل بالجزء ومنها المنفصل عنها فان ما يلحقه من الجذب من جهة الأرض افتر ويجب ان تسلبه السماء الى نفسها من غير تلك الجهة حتى يطير اليها ولم نشاهد ذلك قط لصخرة مثلاً ، ولم يشعر بقوة هذا الجذب انسان ، فلا محالة ان الخلاء الذي في بطن الأرض يمسك الناس حواليها. اليس احد المتقاطرين من سكانها كالمستقر على القرار عارف من نفسه حال الاستواء والآخر كالمشدود كرهاً على السقف يعرف من نفسه الانتكاس والاضطرار وليس احدهما اذا انتقل الى مكان آخر بواجد فيه غير ما كان يجده ذاك ولكن الناس في جميع مواضع الأرض على حالة واحدة ليس عندهم مما ذكرنا خبر».

وكروية الأرض ظاهرة بظهور اعلى الجبال أولا للسائر نحوها ثم ظهور باقيها بالتدريج حتى قواعدها وبالمثل رؤية سارية السفينة في البداية ثم يبدو باقيها شيئًا فشيئًا كلما اقتربت.

والأرض تدور حول محورها والرأي السائد عدم وجود هذه الحركة واعتبار ان السماء تدور بما فيها من اجرام مرة كل يوم. والبيروني يؤيد هذا الرأي ولكنه خلال مناقشته للبراهين والأدلة اشار الى وجود عالم عربي كبير ، لم يذكر اسمه ، يرى ان الأرض هي التي تدور حول محورها وسرد وجهة نظر هذا العالم والاستدلالات على صحة رأيه. فمن المعروف انه لو كانت الأرض ساكنة وسقط حجر من علو شاهق لاتخذ مسارًا راسيًا يمتد الى مركز الأرض ، ولكن اذا كانت الأرض متحركة اصبح للحجر سرعتين احداهما سرعة الهبوط راسيًا نحو المركز

والأخرى سرعة افقية مكتسبة من حركة الأرض، وتكون النتيجة وصول الحجر منحرفًا نحو المشرق ويقول البيروني في ذلك: اما انا فقد شاهدت احد من مال الى نصرة هذا الرأي من المبرزين في علم الهيئة لم يلتزم نزول الثقيل الى الأرض على القطر عمودًا على وجهها بل منحرفًا على زوايا مختلفة... لأن الرجل رأى للثقيل المنفصل عن الأرض حركتين احدهما دورية لما في طبيعة الجزء من ثقيل الكل في خواصه والأخرى مستقيمة لانجذابه الى معدنه.

وذكر البيروني وجود حركة ذاتية للقمر والشمس والكواكب في مدارات خاصة بها غير انه اتبع الرأى السائد بان هذه المدارات حول الأرض وليست حول الشمس.

سمعت بخبر الفتية المغررين الذين لم يستطيعوا ان يسيروا في بحر الظلمات هذا أكثر من احد عشر يومًا فكيف تريد ان تسير اشهرًا؟

ان الجزيرة التي وصل اليها الفتية المغررون هي إحدى الجزر الزرقاء والجزيرة الثانية هي احدى جزر الكناريا أو الجزر الخالدات وليس من الممكن ان يكونوا قد وصلوا الى ابعد من ذلك، وكما تقول انهم ساروا في بحر الظلمات طيلة احد عشر يومًا فهذا يعني انهم قطعوا فيه مسافة الف ومائة كيلومتر ونيفّ وهناك اضطروا الى الاتجاه نحو الجنوب فساروا ١٢ يومًا أي حوالي ١٢٠٠ كيلومترا حتى وصلوا الى جزيرة الغنم فاذا علمنا ان الجزر الزرق تقع تقريبًا في مقابلة ساحل ايبرية غربًا فلا بد ان الرياح سارت بهم بعد ابحارهم بقليل الى الشمال الغربي ثم انحرفوا الى الجنوب ووصلوا الى احدى الجزر الخالدات لأن الناس الشقر الزعر ذوى الشعور السبطة وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب تنطبق اوصافهم على «الغانشس» الذين كانوا يسكنون هذه الجزر قبل الغزو الاسباني.

فاذا حسبنا مقدار ما قطعه المغررون في المحيط الاطلسي وجدنا انهم قضوا ٣٨ يومًا قطعوا فيها قرابة ٣٨٠٠ كيلومترا في مياه هذا المحيط وهذه أطول مسافة قطعت في ذلك الحين اي في القرن الحادي عشر وهو في ذاته عمل عظيم سبق العرب غيرهم من الناس وهو حدث محقق ولم يكن اولئك الاشبونيون هم العرب الوحيدون الذين اقدموا على ركوب هذا المحيط واتونا عنه بنبأ فان هناك نصوصًا كثيرة تدل على ان خروج المسلمين من شواطىء بحر الظلمات في اتجاه الغرب أو الجنوب بمحاذاة افريقية كان امرًا كثير الوقوع.

ثم ساله احد الجغرافيين عن الاقاليم السبعة واين يوجد كل اقليم منها.

– اعلم ان العلماء قسموا هذا المعمور على سبعة اقسام أو اقليم من الشمال الى الجنوب،

كل واحد منها آخذ من الغرب الى الشرق على طوله فالاول منها مار من المغرب الى المشرق مع خط الاستواء بحده من جهة الجنوب وليس وراءه هناك الا القفار والرمال وبعض عمارة ان صحت، فهي كلا عمارة ويليه من جهة شماليه. الاقليم الثاني ثم الثالث ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع الا الخلاء والقفار الى ان ينتهي الى البحر المحيط كالحال فيما وراء الاقليم الاول من جهة الجنوب الا ان الخلاء في جهة الشمال اقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب. ثم ان ازمنة الليل والنهار تتفاوت في هذه الاقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها. والمتكلمون على هذه الجغرافية قسموا كل واحد من هذه الاقاليم السبعة في طوله من المغرب الى المشرق بعشرة اجزاء متساوية ويذكرون ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان والامصار والجبال والانهار والمسافات بينها في المسالك.

الاقليم الأول:

وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس باخذ اطوال البلاد وليست هي في بسيط الاقليم وانما في البحر المحيط جزر متكثرة اكبرها واشهرها ثلاثة وقد بلغنا ان سفائن من الافرنج مرت بها في اواسط القرن الرابع عشر وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض اسراهم بسواحل المغرب الاقصى وصاروا الى خدمة السلطان فلما تعلموا اللسان العربي اخبروا عن حال جزائرهم وانهم يحتفرون الارض للزراعة بالقرون وان الحديد مفقود بارضهم وعيشهم من الشعير وماشيتهم المعز وقتالهم بالحجارة يرمونها الى خلف وعبادتهم السجود للشمس اذا طلعت ولا يعرفون دينا ولم تبلغهم دعوة ولا يوقف على مكان هذه الجزائر الا بالعثور لا بالقصد اليها كما يقول ابن خلدون لأن سفر السفن في البحر انما هو بالرياح ومعرفة جهات ما بها والى اين يوصل اذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في ممر ذلك المهب، وإذا اختلف المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذى به القلع محاذاة يحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي في حفافي البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه من الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها «الكنباص» وعليها يعتمدون في اسفارهم، وهذا كله مفقود في البحر المحيط فلذلك لا تلج فيه السفن لانها ان غابت عن مرأى السواحل فقل ان

تهتدى الى الرجوع اليها مع ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائة من الابخرة المانعة للسفن في مسيرها وهي لبعدها لا تدركها اضواء الشمس المنعكسة من سطح الأرض فتحللها فلذلك عسر الاهتداء وصعب الوقوف على خبرها.

وأما الجزء الأول من هذا الاقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان ويذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أولئك وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم «لملم» وهم كفار يكتوون في وجوههم واصداغهم واهل غانة «والتكرور» يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم الى المغرب وكلهم عراة وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر، الا اناس اقرب الى الحيوان والعجم من الناطق يسكنون الفيافي والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهيأة وربما يأكل بعضهم بعضًا وليسوا في عداد البشر...

وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات الى اسوان.

الاقليم الثاني:

وهو متصل بالاول من جهة الشمال وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات وفي الجزء الاول والثاني منه في الجانب الاعلى منهما ارض قنورية وبعدها في جهة الشرق اعالي ارض غانة، وقبائل صنهاجة وهي شعوب كثيرة وعلى سمت هذه المفاوز شرقا ارض فزان، وبلاد الصعيد حفافي النيل وبلاد كوار من امم السودان ثم قطعة من ارض الباجويين وارض ودان والواحات الداخلة، وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم بقية ارض الباجويين ثم بلاد الصعيد حفافي النيل فيمر بين الجبلين الحاجزين وهما جبل الواحات من غربيه وجبل المقطم من شرقيه ويتصل حفافيه الى اسيوط، وفي الشرق من جبل المقطم صحارى عيذاب ذاهبة في الجزء الخامس الى ان تنتهي الى بحر السويس وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندي في الجنوب وفي عدوته الشرقية من هذا الجزء ارض الحجاز من جبل يلملم الى بلاد يثرب، وفي الجزء السادس من غربيه بلاد نجد وجرش الى عكاظ وبلاد نجران وخيبر وتحتها ارض اليمامة وارض سبا ومارب وينتهي الى بحر فارس وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي، وفي الجزء السابع في الاعلى من غربيه قطعة من بحر فارس وفي الجزء الثامن بلاد بلهرا من الهند وعلى سمتها شرقا بلاد القندهار ثم بلاد منيبار، وفي الجانب الاعلى على ساحل البحر الهندي وتحتها في الجانب الاسفل ارض كابل وبعدها شرقا الى البحر المحيط

بلاد القنوج ما بين قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند آخر الاقليم وفي الجزء التاسع ثم في الغربي منه بلاد الهند الاقصى ويتصل فيه الى الجانب الشرقي فيتصل من اعلاه الى العاشر وتبقى في ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله الى البحر المحيط.

الاقليم الثالث:

وهو متصل بالثاني من جهة الشمال ففي الجزء الاول منه وعلى نحو الثلث من اعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط الى الشرق عند آخره ويسكن هذا الجبل من البرابر امم لا يحصيهم الا خالقهم ثم رباط ماسة وبلاد السوس وبلاد درعة ثم بلاد سجلماسة وفي الناحية الغربية من الجبل امم المصامدة ثم هنتانة وصنهاجة وبعض قبائل زناتة ويتصل به هناك من جوفيه جبل اوراس وهو جبل كتامة، ثم ان جبل درن مطل على بلاد المغرب الاقصى وهي في جوفيه ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش واغمات وعلى البحر المحيط منها رباط اسفي ومدينة سلا وبلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة، واصيلا والعرايش وقد سميت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الاوسط وقاعدتها تلمسان وفي سواحلها على البحر الرومي وهران والجزائر ومدينة تونس وبلد طرابلس وبلاد الفيوم والاسكندرية.

في الجزء الخامس من هذا الاقليم بلد الشام وطائفة من جزيرة قبرس وغزة وعسقلان ثم عكا ثم صور وصيدا وجبل اللكام وكانه حاجز بين ارض مصر والشام ومدينة دمشق مقابل بيروت ثم بعلبك وحمص وتدمر وبلد الحيرة والقادسية ومدينة البصرة.

وفي الجزء السابع في الاعلى منه المغرب بقية جبال القفص ويليها من الشمال والجنوب بلاد كرمان ومكران ومن مدنها الرودان والشيرجان ويزدشير ومدينة اصبهان وجبال الغور وبلادها وقاعدتها غزنة وقاشان ومرو والطالقان وبلخ حيث نهر جيحون. وفي الجزء التاسع ارض التيبت وارض فرغانة.

وفي الجزء العاشر منه في الجنوب بقية الصين وفي الشمال من ارض خرخير بلاد كتمان وقبالتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ منه اليها ولا مسلك والصعود الى اعلاه من خارجه صعب في الغاية وفي الجزيرة حيات قتالة وحصى من الياقوت كثيرة فيحتال اهل تلك الناحية في استخراجه بمَا يلهمهم الله اليه.

الاقليم الرابع :

يتصل بالثالث من جهة الشمال والجزء الاول منه في غربيه قطعة من البحر المحيط مستطيلة من اوله جنوبا الى آخره شمالا وعليها في الجنوب مدينة طنجة ، وطريف والجزيرة الخضراء وقصر المجاز وسبتة ثم يابسة ومايرقة ومنرقة وسردانية وصقلية ثم اقريطش وخليج البنادقة خليج القسطنطينية وبحر نيطش وجبلة واللاذقية وطرطوس وانطاكية وادنة وقنسرين وعين زربة وبلاد بخارى وسمرقند وخوارزم.

الاقليم الخامس :

الجزء الاول منه اكثره مغمور بالماء الا قليلا من جنوبه وشرقه ، فيه من بقية غرب الاندلس سلمنكة وسمورة وابلة وارض قشتالية وشقوبية وارض ليون وبرغش ووراءها جليقية وفي شمالها وشرقها وشقة ونبلونة وفي غرب بنبلونة قسطالة ثم ناجرة.

في الجزء الثاني من الناحية الغربية ارض غشكونية وبلاد جنوة وارض برغونية ومدينة رومة وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد افرنصيصة وفي جنوب رومة بلاد نابل وفي شمالها طرف من خليج البنادقة.

وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي وشمال بلاد البنادقة بلاد الالمانيين.

وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم قطعة من البحر الرومي بلاد مقدونية وارض باطوس.

وفي الجزء الخامس بلاد عمورية وبلاد البلقان.

وفي الجزء السادس من هذا الاقليم بلاد ارمينية وبلاد ازربيجان وبلاد اردبيل.

والجزء السابع من هذا الاقليم غربيه كله مغمور ببحر طبرستان وجبال الديلم الى قزوين.

والجزء الثامن منه كله مجالات للغزو من امم الترك وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نهر جيحون وفي الجهة الشمالية منه والشرقية نهر عرعون.

وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم بلاد اركس من امم الترك ويحف به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقيا المحيط بياجوج وماجوج.

وفي الجزء العاشر من هذا الاقليم ارض ياجوج متصلة فيه كله الاقطعة من البحر المحيط

غمرت طرفا من شرقيه من جنوبه الى شماله الا القطعة التي يفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مرّ فيه وما سوى ذلك فارض ياجوج وماجوج.

الاقليم السادس:

الجزء الاول منه غمر البحر اكثر من نصفه واستدار شرقا مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الارضية الشرقية الى الجنوب وانتهى قريبا من الناحية الجنوبية فانكشفت قطعة من الارض في هذا الجزء داخلة بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه وينفسح طولا وعرضا وهي كلها ارض بريطانية.

والجزء الثاني من هذا الاقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله قطعة من جزيرة انكلترا وهي جزيرة عظيمة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها في الاقليم السابع وفي جنوب هذه القطعة بلاد ارمندية ثم بلاد افرنسية جنوبا وغربا من هذا الجزء وبلاد برغونية شرقا.

وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في الناحية الغربية بلاد مراتية في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال وفي الناحية الشرقية بلاد انكونية وبلاد بلونية في الشمال.

وفي الجزء الرابع من ناحية الجنوب ارض جثولية وتحتها في الشمال بلاد الروسية ويفصل بينهما جبل بلواط.

في الجزء الخامس من هذا الاقليم بر مستطيل في غربه هرقلية على ساحل بحر نيطش وفي شمال بحر نيطش في هذا الجزء غربا ارض ترخان وشرقا بلاد الروسية.

وفي الجزء السادس في غربيه بقية بحر نيطش وبقية بلاد اللانية وفي الزاوية الشرقية الشمالية ارض بلغار وفي الزاوية الشرقية الجنوبية ارض بلجير.

وفي الجزء السابع من هذا الاقليم جبل سياه بعد مفارقته بحر طبرستان وهو قطعة من ارض الخزر.

وفي الجزء الثامن ارض الجولخ من الترك.

والجزء التاسع من هذا الاقليم بلاد خفشاخ من الترك وبلاد الشركس.

والجزء العاشر من هذا الاقليم بلاد ماجوج متصلة فيه الى آخره على قطعة من هنالك من البحر المحيط احاطت به من شرقه وشماله مستطيلة في الشمال وعريضة بعض الشيء في الشرق.

الاقليم السابع :

والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال الى وسط الجزء الخامس حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط بياجوج وماجوج ، فالجزء الاول والثاني مغموران بالمياه الا ما انكشف من جزيرة انكلترا التي معظمها في الثاني وفي الاول منها طرف انعطف بانحراف الى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الاقليم السادس وهي مذكورة هناك والمجاز منها الى البر في هذه القطعة سعة اثني عشر ميلا ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلانده مستطيلة من الغرب الى الشرق.

والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور بالمياه الا قطعة مستطيلة في جنوبه وتتسع في شرقها وفيها هنالك متصل ارض فلونية ثم في الجانب الغربي منها فسيحة مستديرة وتتصل بالبر من باب في جنوبها يفضي الى بلاد فلونية وفي شمالها جزيرة بوقاعة مستطيلة مع الشمال من المغرب الى المشرق.

والجزء الرابع من هذا الاقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من المغرب الى المشرق وجنوبه منكشف وفي غربه ارض قيمازك من الترك وفي شرقها بلاد طست ثم ارض رسلان الى آخر الجزء شرقا وهي دائمة الثلوج وعمرانها قليل ويتصل ببلاد الروسية في الاقليم السادس.

وفي الجزء الرابع والخامس في الناحية الغربية بلاد الروسية وينتهي في الشمال الى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل قوقيا ، وفي الناحية الشرقية منه متصل ارض القمانية التي على قطعة بحر نيطش من الجزء السادس من الاقليم السادس ، وينتهي الى بحيرة طرمى من هذا الجزء وهي عذبة تجلب اليها انهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال ، وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء ارض التتارية من الترك.

وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانية وفي وسط الناحية بحيرة عثور عذبة تجلب اليها الانهار من الجبال في النواحي الشرقية وهي جامدة دائما لشدة البرد الا قليلا في زمن الصيف. وفي شرق بلاد القمانية بلاد الروسية التي كان مبدأها في الاقليم السادس وفي الزاوية الشرقية من هذا الجزء بقية ارض بلد غار التي كان مبدأها في الاقليم السادس ، وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس وفي وسط هذه القطعة من ارض بلد غار منعطف نهر اثل.

وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في غربه بقية ارض يخناك من امم الترك وكان مبدأها من

الناحية الشمالية الشرقية من الجزء السادس قبله وفي الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء ، وفي الناحية الشرقية بقية ارض سحرب ثم بقية الارض المنتنة وفي شرقها الارض المحفورة وهي من العجائب خرق عظيم في الارض بعيد المهوى فسيح الاقطار ممتنع الوصول الى قعره يستدل على عمرانه بالدخان في النهار والنيران في الليل تضيء وتخفي وربما رؤى فيها نهر يشقها من الجنوب الى الشمال. وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب المتاخمة للسد ، وفي آخر الشمال منه جبل قوقيا متصلا من الشرق الى الغرب .

وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خنشاخ وهم قفجق يجوزها جبل قوقيا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب في وسطه الى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في الجزء التاسع من الاقليم السادس ويمر معترضا فيه وفي وسطه هنالك سد ياجوج وماجوج.

والجزء العاشر غمر البحر جميعه .

وعندما وصل النقاش والجدال الى هذا الحد تدخل المطران الطلبيري قائلا :

امامنا ثلاث مشاكل مطروحة على بساط البحث : اولا هل من الممكن عبور اقيانس !

هل توجد رياح وتيارات تساعد على العودة الى قشتالة !

هل توجد اراضي على الضفة الاخرى من بحر الظلمات !

وهذه الامور من خصائص الملاحين اما مسالة الوحي فهي من خصائص اللاهوتيين. فلنرجع الى النقطة الاولى. هل من الممكن عبور بحر الظلمات؟

فرد احد الملاحين قائلا : لم يعبره احد حتى الآن.

فاجابه كلمبو : ليس ما تدعيه صحيحا فقد عبره الفتية المغررون وتوغلوا فيه احد عشر يوما اي ما يزيد على مسافة الفي وخمسمائة كيلومتر، وغيرهم ايضا على عهد العرب خاض هذا البحر مثل خشخاش... وعادوا سالمين وهذا يعني انه في هذا البحر تهب رياح تساعد على العودة الى مكان الانطلاق.

وهمّ كلمبو بكشف سره الدفين : «الفونسه سانتشس عبره»... ولكن اذا فشى سره زال فضله ولا يكون الاول الذي يذهب الى تلك الاراضي المجهولة.

وانفضت الجلسة في ذلك اليوم على امل استئنافها غدا في الجامعة. في اليوم التالي.

وفعلا في اليوم التالي استؤنفت الجلسة وتكلم احد علماء الجغرافية فساله :

– هل قست المسافة الى الهند عن طريق المحيط الاطلسي الغربي

– هذه المسالة لا تحتاج الى قياس ما دمنا نعلم المسافة الى الهند على الطريق العادية التي يسلكها الملاحون، فعملية حساب بسيطة وتعطينا الرقم الصحيح.

ايها السادة لقد حان الوقت لاطلاعكم على سر خطير ولكن اطلب منكم كتمانه لانه قد يعرض حياتي للموت.

وارتسمت على وجوه الجميع علامات الدهشة والاستغراب والحيرة والتطفل وتساءلوا وما يكون هذا السر الذي يخشى منه هذا الغريب على حياته وساد بعض الصمت في القاعة حتى خرقه المطران الطلبيري قائلا :

– لا تخش شرا، سرك مصون ويمكن اطلاعنا فنحن الاكليروس تعودنا على كتم الاسرار وكم في صدورنا منها. والباقون يتعهدون بكتمه عن الجميع.

فاطمأن كلمبو الى اقوال المطران وقال :

اعتاد البرتغاليون المخلصون للتقاليد ان يتوجهوا الى الهند عن طريق الشواطىء الافريقية ويدوروا حول الراس الرجاء الصالح للوصول الى بلاد الافاويه، ولكن بمَا ان الارض مستديرة فلماذا لا يتوجهون الى تلك البلاد عن طريق الغرب؟

وتبادر هذا السوال الى اذهانهم على عهد الامير جوان القائد البحري البرتغالي، وكان ذلك سنة ١٤٧٠، وتحدث مع هذا الامير احد رجال الاكليروس البارزين في البرتغال اسمه الخورأسقف مرتينس فقال له: «ايها الامير لما كنت في فلورنسة تعرفت على احد علماء الجغرافية المشهورين هناك اسمه «تسكنللي» حدثني عن امور كثيرة غريبة مدهشة حقا، ومن بعض ما قال لي: ان الوصول الى الهند عن طريق الغرب في بحر الظلمات امر سهل والطريق اقرب من الطريق الشرقية.

ورسخ في ذهني هذا الكلام وما زال يراود فكري منذ ذلك الحين.

فتبصر الامير جوان في الامر قليلا وشاء معرفة راي تسكنللي في المسالة فطلب من الخوراسقف ان يكتب له مستوضحا وليزوده بكافة المعلومات والخرائط اذا امكن.

ولبى رجل الدين وصية الامير جوان فكتب الى صديقه العالم الفلورنسي ووصله الرد في ٢٥ حزيران سنة ١٤٧٤، واذا هي رسالة طويلة مسهبة الشرح ومرفقة بخريطة.

جمع الامير جوان علماءه الجغرافيين المقربين اليه وعرض عليهم الرسالة المكتوبة باللاتينية وكشف امام انظارهم الخريطة المصوّرة عليها المرافىء البرتغالية والجزر التي تؤدي الى القطب والى الخط الاعتدالي وكم من الفراسخ يجب ان يقطعوا للوصول الى تلك الاراضي الخصبة والغنية.

وكان تسكنللي من علماء الجغرافية والحساب ولكن في اواخر ايامه انصرف الى رسم الخرائط لضيق مالي.

دقق العلماء البرتغاليون بالخريطة وبالرسالة وبالتوضيحات الموجودة فيها ولم تظهر على عيونهم الدهشة ولا التعجب وبالتالي لم تحدث التاثير المطلوب لانهم عالمون باحوال الملاحة والبحار فقالوا: ما هو حسن ليس بجديد وما هو جديد ليس بحسن.

ويمكن تلخيص الرسالة التي بعثها تسكنللي الى الخوري – المطران البرتغالي مرتينس على النحو التالي:

١ – الارض مستدير، وهذا امر معروف لدى الخاص والعام في البرتغال وغيرها، وبالتالي المسالة ليست جديدة في نظرهم.

٢ – المسافة المعروفة من اشبونة الى الشواطىء الهندية تعد ٢٣٠ درجة من دائرة الارض، والجغرافيون البرتغاليون يعلمون العلم اليقين ان هذه المسافة خاطئة، فقد صدر عن الجغرافي الصوري مارينو ثم اصلحه بطليموس، غير ان تسكنللي لم ياخذ براي بطليموس فزاد على الخطأ خطأ آخرا وبالتالي على حد قول تسكنللي لم يبق من هذه المساحة سوى ١٣٠ درجة من البحر للوصول الى الهند عن الطريق الغربي، وهذا التقدير خطأ في نظر البرتغاليين لان النتيجة الاولى خاطئة ولكنهم لا يعرفون مقدار الخطأ.

٣ – طول الدرجة الارضية ٦٢,٥ ميلا وبذلك تكون المسافة ١٣٠ × ٦٢,٥ = ثمانية آلاف ومائة وعشرين ميلا. وهذا ما جعل البرتغاليين يهزأون من هذا الرقم لانهم كانوا يظنون الدرجة يقابلها ٧٠ ميلا.

٤ – من الراس الاخضر الى شواطىء آسية المسافة ١١٦ درجة.

٥ – ذكر تسكنللي انه على الطريق الغربية تقع جزر «انتي» وبلاد سيبانغو (اليابان)، تبعد الواحدة عن الاخرى خمسين درجة.

هذه النقطة الاخيرة من كتاب تسكنللي استرعت انتباه العلماء الجغرافيين دون سواها : انتليا – سيبانغو.

ما هي انتليا؟ يقول التاريخ القديم انها مدينة حضارية كبيرة في المحيط الاطلسي غمرتها المياه وزالت من الوجود ويسميها افلاطون «الاطلنطيد» ومع الوقت تحرفت واصبحت «انتيليا».

ثم ان سكان «مديرة القمر» والجزر الخالدات في بعض الاحوال الجوية يشاهدون اراضي في الافق البعيد فظنوا انها جزر انتليا.

واخيرا يقول التقليد عند البرتغاليين والاسبان على السواء ان العرب لما اجتاحوا الشبه الجزيرة الابرية واستولوا عليها هرب سبعة اساقفة من شبه الجزيرة وتبعهم عدد كبير من السكان حتى وصلوا الى تلك المناطق النائية التي اطلقوا عليها اسم المدن السبع نسبة الى سبعة اساقفة.

تلك هي الأساطير السائدة عن البرتغاليين والاسبان بشأن جزر انتليا، غير أن العلماء ليسوا بالوهميين او الخياليين ليقاسموا الشعب البسيط اعتقاداته، بل انهم رجال علم واقعيون لا يمكنهم تصديق هذه النظريات واخذها بعين الجد.

ولكن «سيبانغو» مسالة اخرى، انهم على الاقل يعلمون بوجودها فقد تحدث عنها ماركو بولو وافاض في وصفها وغناها وثروتها، وحدد موقعها على بعد الف وخمسمائة ميل من الهند.

هذه سيبانغو هي النقطة الاساسية الهامة في نظر العلماء البرتغاليين الواردة في تقرير تسكنللي وخريطته.

اودعت اوراق تسكنللي في سجل المحفوظات دون ان تشدد عليها الرقابة بحيث ان اي انسان عالم اذا احب الاطلاع عليها يتوصل الى ذلك.

علمت بوجودها واستقيت منها كل هذه المعلومات والآن وبعد مرور هذه الاعوام اذا علم الملك يوحنا الثاني البرتغالي اني ساعمل بموجبها فلا شك انه قاتلي وانتم تعلمون سرعته الى سفك الدماء.

قد لا تكون المسافة بهذا المقدار الذي ذكرها تسكنللي لان علماء العرب صححوا على عهد الخليفة المامون بصورة عملية فوجدوا ان كل درجة تساوي ٥٦ ميلا ونصف الميل فاذا

استخرجنا ٢٢٥ درجة وهي الطريقة الشرقية الى الهند من اصل ٣٦٠ درجة التي هي دائرة الارض يبقى معنا ١٣٥ درجة ، واذا ضربنا هذا الرقم بستة وخمسين ميلا عربيا ونصف الميل يعطينا سبعة آلاف وخمسمائة ميلا تقريبا او سبعة الاف وخمسمائة كيلومتر[١].

انها معلومات لا باس بها ولكن العقد ما زالت مربوطة انه بحر شديد الاهوال والملاحة فيه محفوفة بالاخطار، «وليس المخاطر محمودا ولو سلم».

ولم يفت كلمبو ان قصة تسكنللي قد اثرت في نفوس اعضاء اللجنة ، ويامل منهم كتم السر لان الملك البرتغالي يوحنا الثاني اذا علم ان كلمبو قد وقف على الوثيقة وعرضها على ملكة قشتالة فلا شك انه سينتقم منه.

وسلّم امره لله.

---

(١) استنبط نللينو العالم الفلكي الايطالي ان الميل العربي هو ١٩٧٣٫٢ متر.

الفصل السادس

بيتريس وكلمبو

وجاءت سنة ١٤٨٧ وعاد البلاط الى قرطبة وموقف كلمبو على حاله يتارجح بين الشك واليقين، متى تنتهي حرب غرناطة لكي ينصرف الملكان الكاثوليكيان الى هذه المهمة الخطيرة؟ غير ان المساعدة المالية التي يتلقاها من البلاط تزيد قدره عند الناس ويشعرون انهم دون مستواه، وهذا الشعور ذاته خالج بيتريس واقرباءها.

وشاء الملكان الكاثوليكيان ان تكون صائفة هذا العام موجهة ضد مالقة الثغر الاندلسي الهام الذي يجعل مملكة غرناطة ان تتلقى المساعدات بالرجال والعتاد والمؤن من مسلمي افريقية، ففرضا عليها حصارا بحريا شديدا وطلبا منها الاستسلام، فلم تستسلم وقررت القتال حتى النهاية. واتاح لكلمبس وجوده في قرطبة الاجتماع ببيتريس بتواتر فقد وجدته شارد النظرات يتلهى بان يتلو على مسامعها المناقشات الطويلة التي تجري في القصر الملكي لتقرير مساعدته في رحلته او رفض المساعدة نهائيا بدل ان يلامسها او يداعبها كما فعل في الماضي، وما كانت لتعير هذه اللامبالاة بجسدها اهتمامًا لولا الأخبار التي وصلت الى مسامعها عن مغامراته في قرطبة وتردّده الى المواخير وما اكثرها في العاصمة الاندلسية في ذلك العهد اذ انه «حيثما تكون الجثة فهناك تجتمع النسور»، والنسور في هذه الحالة هم الجنود الآتون من كل فج وصوب للاشتراك في القتال ضد العدو المسلم واخراجه نهائيًّا من البلاد او القضاء على سيادته فيها. كما وصل الى اذنيها ان رجلها يهيم بابنة احد الاغنياء من اصحاب النفوذ.

فتبدلت فجأة كانها انسانة جديدة، هذا الانفصال الذي طال اربعة اشهر وهذا الفتور حيالها هدّ برج حصانتها وعرش فضيلتها وخشيت ان تخسر الرجل الى الابد، وادرك كلمبو

هذا التبديل في موقفها حياله فهي تتهالك عليه وتتلاشى بين ذراعيه في تنويمة وتهويمة طويلتين مستسلمة طائعة لا تاتي ببادرة تنم عن رغبة في المقاومة وكبت العاطفة الجموح الكامنة في اعماقها ولا في صد اليد اذا امتدت الى ما استتر من اعضائها ، والاحتجاجات الصارمة التي مارستها في الماضي تحولت الى تمتمات مغرية داعية الى النداء اكثر منها الى الرفض الجاف.

وفي احد الايام وقع ما لا بد منه ان يقع فانزلقا في منحدر لم يتمكنا معه من الوقوف عند حد وافلتا العنان للذة الجسدية ترتوي من جسديهما حتى التخمة وبلغا اقصى ما تصبو اليه نفسها وجسدهما ، وتكررت اللقاءات وتكررت النشوة السابقة وتكررت تلك الفترات القصيرة من السعادة التي غمرتهما بجناحيها.

وشاءت بيتريس ان تعيش مع رجلها بعد ان نال منها ما يريد ونالت منه ما تريد وحملته على استئجار منزل ولو وضيع ، فالمال لا ينقصه بعد ان قررت الملكة ايزابيل الكاثوليكية منحه مساعدة مالية تتكرر من وقت الى آخر اليوم ثلاثة الاف مرابطية وبعد شهرين او ثلاثة اشهر اربعة آلاف مرابطية وهكذا دواليك ، لا تجعله هذه المبالغ يعيش في رخاء الاثرياء ولكن تكفيه لسد حاجاته الضرورية الحياتية.

والتسامح في تعاطي الجنس سائد في ذلك العصر شرط الا يتعدى الحدود الطبيعية ، فما زالت العلاقات الجنسية سائرة سيرها الطبيعي بين رجل وامرأة فلا حرج في ذلك: الله خلقهم ذكرا وانثى ولكن الله يعاقب الشذوذ الجنسي مثلما عاقب سادوم وعامورة ، فليس امرا خارق العادة اتخاذ خليلة وان كان من رجال الدين ، فالكردينال «مندوسة» MENDOZA الذي اطلق عليه لقب «الملك الثالث» اي بعد الملكين الكاثوليكيين ، اشتهر بعلاقاته الغرامية بالكثيرات من سيدات البلاط الجميلات ولم يتورع عن الخروج مع اولاده جهرا. واضطر الملوك في ذلك العهد الى اصدار المراسيم المشددة في ارغون وقشتالة في معاقبة مرتكبي الفضائح في الاديار النسائية ووضع حد للفخفخة وحب الظهور من قبل خليلات رجال الاكليروس وليس في سلوك بيتريس الفتاة المغمورة ما يدعو الى استلفات الانظار اذا ذهبت تعيش مع هذا الغريب الطموح الذي من وقت الى آخر يستلم مساعدات مادية من الخزينة.

واخوه برتلومي ذهب مذهبه ، يعيش مع امرأة اعطته ولدا ولم يتزوج منها لانه لم يتمكن

من السهل الحصول على الاوراق والوثائق اللازمة لاجراء عقد الزواج الكنسي من شهادة ميلاد ومعمودية وتثبيت واطلاق حال واشياء اخرى من هذا النوع.

استاجرا منزلا متواضعا نظفته بيتريس وفرشته باثاث حصلت عليه باسعار رخيصة لانه مستعمل: مائدة وضعت عليها شرشفا من المخمل وتحتها سجادة وصف كلمبو بعض الكتب والخرائط والاوراق على هذه المائدة وزين الغرفة ايضا صندوق من الخشب مدهون وخزانة ضمت ملابسها وكانون للتدفئة في ايام الشتاء ولياليه الطويلة وبعض القدور وآنية المطبخ وخابية للماء امام الدار واوعية صغيرة للزيت والحبوب وقنديلان للاستضاءة.

وطالت الخلوات بينهما لا عذول ولا رقيب ولا كبت شهوات انهما زوجان امام الله وان لم يكونا امام الناس والله احق ان يخشياه، ينعمان بجسديهما ويتنعمان وفي اوقات استراحتهما وهما متمددان قريبين متعانقين يتلو عليها احاديث القرون الماضية او يقرأن العهد القديم، وقرأ عليها ذات يوم قصة يوسف كما وردت في التوراة لما باعه اخوته لتجار مصر وهؤلاء باعوه لوزير الفرعون وكيف ان امرأة هذا الوزير شغفها حبا وراودت يوسف عن نفسه وتمنع فشكته لزوجها فوطيفار فامر بسجنه وكيف فسّر للخباز حلمه بانه سيصلب وتاكل الطيور جثمانه وفسر حلما آخر للسقّاء وقال له هذا ان فرعون سيعفو عنك وترجع الى وظيفتك السابقة واذكرني عنده.

وحدث بعد ذلك ان حلم فرعون حلما وجمع العرافين ومفسري الاحلام ولم يقدر احد ان يفسر له حلمه تذكّر السقّا يوسف المودع في السجن واخبر الفرعون بامره فامر باخراجه من سجنه وفسر للملك فرعون الحلم وهو ان سبع بقرات عجاف افترست سبع بقرات سمان، فقال للملك: انه ستاتي سبع سنين اقبال عظيم ثم تتلوه سبع سنوات جوع شديد. فمر ايها الملك ان تجمع الاغلال في الاهراء طيلة السنوات السبع الخصيبة لانفاقها في سبع السنوات الجوع التي تليها.

فدهش الفرعون وقال ليوسف اني جعلتك قيّما لكي تجمع الحنطة خلال اعوام الرخاء لاعوام المحل. وهكذا كان فلم يتضايق سكان مصر في ذلك الحين من المجاعة التي جاءت في السبعة اعوام التالية للخصب، حتى ان البلدان المجاورة قصدت مصر لشراء الحنطة ومن جملة القادمين اخوة يوسف.

وتكررت هذه المجاعة في سنة ١٢٠١ مسيحية لان النيل لم يفض في ذلك العام ويسقي ارض مصر والنيل نهر عظيم يمد وقت نضوب مياه الارض فيعلو عليا ويقيم اياما فاذا نزل عنها

حرثت وزرعت ، ثم يكثر النداء في الليل جداوبه يتغذى الزرع الى ان يستحصد. ونهاية ما تدعو اليه الحاجة من الزيادة ثمانية عشر ذراعا ، فان زاد على ذلك يروي امكنة مستعلية كانه على جهة التبرع ، ونهاية ما يزيد على جهة الندرة اصابع من عشرين ذراعا وعند ذلك تستبحر امكنة يدوم مكث الماء فيها فتفوت زراعتها ويبور من البلاد ما عادته ان يزرع. ولنسمّ الثمانية عشرة نهاية الضرورى ونسمّ العشرين نهاية الافراط وكل نهاية بين هاتين فلها ابتداء يقابلها ، فابتداء الضرورى ستة عشر ذراعا ، ويسمى «ماء السلطان» اذ عنده يستحق الخراج ويروى به نحو نصف البلاد ويغل من القوت بمقدار ما يصون اهل البلاد سنتهم جمعاء مع توسع ويروى سائر البلاد المعتادة بالري بمَا زاد على ستة عشر ذراعا الى ثمانية عشر وهذا يغل مقدار ما يسد اهل البلاد سنتين فصاعدا.

واما ما تنقص عن ستة عشر ذراعا فيروى به ما هو دون الكفاية ولا يحصل منه ميرة سنتهم ويكون تعذر القوت بمقدار نقصانه عن ستة عشر ذراعا وحينئذ يقال ان البلاد قد «شرقت».

فمتى نقص عن الستة عشر ذراعا فهو ابتداء التفريط المقابل للافراط.

واتفق ان زيادة النيل بلغت في سنة ١٢٠٠ اثني عشر ذراعا واحدى وعشرين اصبعا وهذا المقدار نادر جدا ، واما وقوفه على ثلاثة عشر ذراعا فانه وقع نحو ست مرات خلال ثلاثمائة عام واما وقوفه عند اربعة عشر ذراعا فانه وقع نحو عشرين مرة.

قبل ان يبتدىء النيل يتحرك في سنة ١٢٠٠ بالزيادة بدت في مائه خضرة قبل شهرين من تحركه ثم اصبحت رائحته كريهة واعترته عفونة طحلبية كانه عصارة السلق اذا بقي اياما حتى يعفن.

ان جرية النيل الاصلية مادتها عيون واما زيادته فمادتها امطار ونقصان العيون دليل على احتراق السنة ويبس الهواء وقلة البخار فيقل المطر لذلك.

والانهار الخارجة من جبل القمر يجتمع بآخره الى بركة عظيمة ذات ساحة فسيحة ومن هذه البركة يخرج هذا النيل ولا شك ان هذه البركة ماؤها دائم فيطحلب ولا سيّمَا شطوطها فاذا وقعت الامطار الموسمية وجرى اليها سيوله اثارت ما في قعرها وحركّت ما كان ساكنا فيها وانكسح ايضا ما في الشطوط الى الاوساط وانسحب الى محل الجرية فاستصحبته.

ودخلت سنة ١٢٠١ مفترسة اسباب الحياة وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت

الاسعار واقحطت البلاد وخاف الناس من الجوع وضوى اهل السواد والريف الى امهات البلاد وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا في البلاد ايادي سبا ومزّقوا كل ممزق ودخل الى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت وبيء الهواء ووقع المرض واشتد بالفقراء الجوع حتى اكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والارواث. ثم تعدوا ذلك الى ان اكلوا صغار بني آدم فكثيرا ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون او مطبوخون فيامر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل...

احضر الى دار الوالي صغيرا مشويا في قفة ومعه رجل وامرأة زعم الناس انهم ابواه، فامر باحراقهما. ووجد بمصر رجل قد جرّدت عظامه عن اللحم فاكل وبقي قفصا كما يفعل الطباخون بالغنم.

وتناقل الناس اخبارهم .ويفيضون في ذلك استفظاعا لامره وتعجبا من وقوعه، وكثر امره فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له وشوهدت امرأة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظفر معها بصغير مشوى تاكل منه واهل السوق ذاهلون عنها مقبلون على شؤونهم ليس فيهم من يعجب لذلك او ينكره وفي بعض الليالي بعيد الصلاة كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض الموسرين فبينما هو الى جانبها اهتبلت غفلتها صعلوكة فبقرت بطنه وجعلت تاكل منه نيّا.

وبينما امرأة تمشي على الخليج انقض عليها رجل جلف ينازعها ولدها فترامت على الولد نحو الارض حتى ادركها فارس فطرده عنها وزعمت انه كان يهمّ بكل عضو يظهر منه ان ياكله، وان الولد بقي مدة مريضا لشدة تجاذبه المرأة والمفترس.

وتجد اطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولا حارس، منبثين في جميع اقطار البلاد وازقة الدروب كالجراد المنتشر، ورجال الفقراء ونساؤهم يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم، ولقد احرق بمصر خاصة في ايام يسيرة ثلاثون امرأة، كل منهن تقر انها اكلت جماعة، وقد احضرت امرأة الى الوالي وفي عنقها طفل مشوى فضربت اكثر من مائتي سوط على ان تقر فلا تحير جوابا بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت فماتت على المكان.

ثم فشا فيهم اكل بعضهم بعضا حتى تفانى اكثرهم ودخل في ذلك جماعة من المياسير والمساتير منهم من تفعله الحاجة ومنهم يفعله استطابة. وحكي ان رجلا كان له صديق فدعاه صديقه هذا الى منزله لياكل عنده ما جرت به عادتهما قبل فلما دخل منزله وجد عنده جماعة

عليهم رثاثة الفقراء وبين ايديهم طبيخ كبير اللحم وليس معه خبز، فرابه ذلك وطلب المرحاض فصادف عنده خزانة مشحونة برمم الادمي وباللحم الطري فارتاع وخرج فارا.

واشمأزت بيتريس من سماع هذه القصص التي تقشعر لها الابدان وطلبت من كلمبو السكوت عنها فلبّى طلبتها مع انه كان يبغي المزيد منها.

وهمست ذات يوم في اذنه انها حامل وتقبل الخبر بالفرح وتبادر الى ذهنه ابنه دياغو الموجود في دير الرابطة باونبة عند الرهبان.

واحبت ان تعرف مستقبلها وما يخبىء لها القدر من افراح واتراح، ومن لها غير العرافة لتكشف لها بختها فقصدتها وبادرتها بالسوال عن مصيرها. فنظرت العرافة في وجهها وفي يديها قائلة:

– ستحبلين وستلدين طفلا ذكرا.

واضطربت بيتريس من اقوال العرافة، انها ما زالت في الشهر الثاني من حبلها والعرافة تجهل علاقتها بالغريب او ظنت انها جاهلة ذلك. وشاءت معرفة مصير رجلها، فاقبلت اليه مسرعة تطلب منه مرافقتها الى العرافة.

وتوجها معا ودخل كلمبو الكوخ وبقيت بيتريس خارجا تنتظره انها تخشى ان تفوه العرافة بامور تكره بياتريس سماعها.

جلس كلمبو على مقعد من الحجر واضرمت العرافة النار وشرعت تلقي فيها اعشابا ذات رائحة عطرة ثم عمدت الى اناء مقلوب فرفعته واخرجت منه ضفدعا شقته نصفين والقته في النار وفاحت رائحة اللحم المشوي في ذلك الكوخ الحقير فانحنت العرافة فوق البخار الاسود المتصاعد من النار وانفرجت شفتاها عن بسمة ارتياح:

– بان لي انك ستصل الى ارض حجارتها ذهب.

ودبت في جسم كلمبو رعشة عندما سمع كلام العرافة.

وتابعت كلامها كانها سقط عليها وحي، ارى اراضي وراء البحر المحيط وامواجا تضطرب صاخبة وسهولا خضراء واودية خصبة وغابات كثيفة تغني فيها طيور غريبة ترقش ريشها بالالوان الفاتحة تغرد وتزغرد وتصيح صيحات غريبة لم يسمع بها في بلادنا.

– الا تشاهدين اناسا في تلك الاراضي الخضر؟

فحدقت العرافة اكثر فاكثر في الجمر المتصاعد منه الدخان الاسود فارتسم على وجهها المتجعد الشاحب اشكال غريبة من الاضواء والاطياف وقالت :

– ارى رجالا ونساء عراة ، سمر الابدان وجوههم عريضة ، سباط الشعور مثل الخيول صبغوا جلودهم بالالوان من فاتحة وقاتمة.

– انهم ولا شك من رعايا الخان الاكبر.

– علا صراخهم خوفا من طائر ابيض له اجنحة كبيرة عريضة ظنوا انه هبط عليهم من السماء ، عفوا ليست اجنحة بل اشرعة بيض ، انها اشرعة مراكب.

فجرض «الغريب» بريقه : انها مراكب شراعية ، مراكب قشتالية.

– اجل مراكب قشتالية ملاحوها ينطقون الرومنسية ، وصلوا الى اليابسة وفرّ سكانها الى اكواخهم ثم عادوا يحملون طيورا كبيرة متنوعة الالوان وخيوطا قطنية.

– تاملي جيدا ، هل يحملون ذهبا؟

– قطعا صغيرة معلقة في انوفهم.

– هل هو ذهب خالص نقي؟

– لا اقوى على الاجابة على هذا السؤال انه يفوق قدرتي.

– هل يلبسه الجميع ؟

– كلا ، البارزون منهم فقط.

– واكواخهم ، اليست مسقفة بصفائح الذهب؟

فانكرت العرافة باشارة من راسها.

– هل يسلمون الذهب بمطلق رضاهم ام يجب استخلاصه منهم بالقوة؟

– لا يعارضون في تسليمه انهم شعب مسالم وبسيط لا يملكون اسلحة حديدية.

وحدّق الغريب انظاره في النار والدخان المتصاعد منها عله يرى من خلالها المشهد الذي صوّرته له العرافة.

وغادر الكوف فوجد بيتريس تنتظره وفي عينيها سؤال : ماذا قالت له العرافة؟

فاخبرها بكل ما سمعه ، واستبشر بكلامها خيرا.

ولما جمعتها الدار الحت عليه بالسؤال فلم يستجب لها بل اجابها :

الا تريدين معرفة ما حصل لسكان مصر بسبب الجوع الذي برّح بهم من جراء جفاف النيل؟ هذا النهر الذي يعد اطول نهر في العالم.

الجوع فضّاح ، لقد شاهدت بام العين حصار مالقة القريب العهد والضيق الذي حصل لاهلها من جراء هذا الحصار وسأرويه لك فيما بعد لانه ولا شك فاتك اكثره كما فات الكثيرين من الذين لم يحضروا اهوال ذلك الحصار وفظاعته.

اواصل الكلام عن جوع مصر: «فمن غريب ما حدث من ذلك ان امرأة من نساء الاجناد ذات مال ويسار كانت حاملا مثلك وزوجها غائب في الخدمة ، وكان يجاورها صعاليك فشمت عندهم رائحة طبيخ فطلبت منه كما من عادة الحبالى فالفته لذيذا فاستزادتهم فزعموا انه نفذ فسالتهم عن كيفية عمله فاسرّوا اليها انه لحم بني آدم فوطاتهم على ان يتصيدوا لها الصغار وتجزل لهم العطاء فلما تكرر ذلك منها وغلبت عليها الطباع الوحشية وشي بها جواريها خوفا منها ، فهجم عليها فوجد عندها من اللحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك فحبست مقيدة وارجىء قتلها احتراما لزوجها وابقاء على الوليد في احشائها.

وحكى من يوثق به انه اجتاز على امرأة بخربة وبين يديها ميت قد انتفخ وتفجر وهي تاكل من افخاذه فانكر عليها ، فزعمت انه زوجها.

وكثيرا ما يدعّي الآكل ان الماكول ولده او زوجه او نحو ذلك.

ورؤى مع عجوز صغيرا تاكله فاعتذرت بان قالت : انما هو ولد ابنتي وليس باجنبي مني ولأن آكله انا خير من ان ياكله غيري.

واشباه هذا كثير جدا.

ومما شاع ايضا نبش القبور واكل الموتى وبيع لحومهم وهذه البلية وجدت في جميع بلاد مصر ليس فيها بلد الا وقد اكل فيه الناس اكلا ذريعا من اسوان والفيوم والمحلة والاسكندرية ودمياط وسائر النواحي.

واما القتل والفتك في النواحي فكثير فاش في كل فج ولا سيّما طريقي الفيّوم والاسكندرية وقد كان بطريق الفيوم اناس في مراكب يرخصون الاجرة على الركاب فاذا توسطوا بهم الطريق ذبحوهم وتساهموا اسلابهم ، وظفر الوالي منهم بجماعة فمثّل بهم ، واقرّ بعضهم عندما اوجع ضربا ان الذي خصه دون رفاقه ستة آلاف دينار.

اما موت الفقراء هزالا وجوعا فامر لا يطيق علمه الا الله سبحانه وتعالى.

فالمسافر يمر بالبلدة فيجد البيوت مفتوحة واهلها موتى متقابلين بعضهم بعضا قد رمّ وبعضهم طري وربما وجد في البيت اثاثه وليس له من ياخذه.

وقال احدهم دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيوانا في الارض ولا في السماء فتخللنا البيوت فالفينا اهلها «مصيدا خامدين». ثم انتقلنا الى بلد آخر ذكر لنا انه كان فيه اربع مائة دكان للحياكة فوجدناها كالتي قبلها في الخراب.

واحتجنا الى الاقامة به لاجل الزراعة فاستأجرنا من ينقل الموتى مما حولنا الى النيل كل عشرة بدرهم. وقال ايضا قد بدلت البلاد بالذئاب والضباع ترتع في لحوم اهلها.

وقال ايضا وكثيرا ما كانت المرأة تتملص من صبيتها في الزحام فيتضورون جوعا حتى يموتوا، واما بيع الاحرار فشاع حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة وعرض علي احدهم جاريتان مراهقتان بدينار واحد وجاريتان احداهما بكر تنادى عليهما احد عشر درهما.

وذكر احدهم: سألتني امرأة ان اشتري بنتها وكانت جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم فعرفتها ان ذلك حرام فقالت: خذها هدية.

وكثيرا ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس بان يشتروهم او يبيعوهم وقد استحل ذلك خلق عظيم ووصل سبيهم الى العراق واعماق خرسان.

واعجب من جميع هذا ان الناس مع ترادف هذه الآيات عاكفون على اصنام شهواتهم لا يرعوون، منغمسون في بحر ضلالاتهم كانهم هم المستثنون فمن ذلك اتخاذهم بيع الاحرار متجرا ومكسبا ومنه عهارتهم بهؤلاء النسوة حتى ان منهم من يزعم انه افتض خمسين بكرا ومنهم من يقول سبعين، ومنهم من اثرى بسبب متجره بالقمح ومنهم من اثرى بسبب مال انتقل اليه بالارث.

واما خبر النيل في تلك السنة فانه احترق في برمودة احتراقا كثيرا وانحسر الماء عنه نحو الجيزة وظهر وسطه جزيرة عظيمة طويلة وتغير الماء في طعمه وريحه ثم تزايد التغير ثم انكشف امره عن خضرة طحلبية كلما تطاولت الايام ظهرت وكثرت ولم تزل الخضرة تتزايد ثم تناقصت وبقي في الماء اجزاء نباتية وطاب طعمه وريحه ثم اخذ ينمو وتقوى جريته حتى قيس ذراعان واخذ في زيادة ضعيفة ثم زاد اصبعا ثم وقف ثلاثة ايام فايقن الناس بالبلاء ثم اخذ

في زيادات قوية اكثرها ذراع حتى بلغ خمسة عشر ذراعا وست عشرة اصبعا فاروى المنخفضات وقد عزّ الحرث والبقر جدا حتى يباع الثور الواحد بسبعين دينارا والهزيل بدون ذلك وكثير من البلاد ينحسر عنها الماء بغير حقه ولغير وقته اذا ليس بها من يمسك الماء ويحبسه فتبور لذلك مع ريها وكثير مما زرع اكلته الدودة وكثير مما سلم منها اضوى وعطب ونهاية سعر القمح في تلك السنة خمسة دنانير الاردب ، والفول والشعير باربعة دنانير.

هذا هو نهر النيل والويل للمصريين اذا لم يات فيضانه في كل عام حسب المطلوب ، وكما نرى ان هذه الحوادث تتكرر على مدار التاريخ.

* * *

ووافت الحامل ايامها ووضعت طفلا ذكرا سمياه «فرنانده» تيمنا باسم الملك فرناندو الاراغوني. حرصا على العناية به وكثيرا ما كان يقضيان ساعات طويلة بقربه يراقبان حركاته لا تفوتهما شاردة ولا واردة. وخلال هذه الساعات الطوال التي يقضيانها الى جانب الطفل يروى كلمبس رحلاته وانطباعاته عن زملائه في الرحلة ولا يذكرهم بالخير، كلهم اساءوا معاملته قليلا او كثيرا.

اصبحت بيتريس عارفة بطباعه وبفضائله وعيوبه ، انه غارق في بحر من الشك وسوء الظن بالناس ، يشعر وكانهم يطاردونه ويضطهدونه انه يستحق معاملة افضل نظرا لمواهبه الفريدة ، وجميع الذين مروا في حياته تصرفوا معه اسوأ تصرف.

ويلوح له في بعض الاحيان بصيص امل في ان يصبح غنيا ليكافىء القليلين الذين احسنوا اليه ، لم يشأ ان يبوح باسمائهم وبيتريس لا تلج في معرفتهم ، لانها واثقة من ان الحجاب الذي سدله كلمبو على ماضيه لن يزيله ابدا.

وهذه المحادثات الطويلة الهادئة الوادعة يقطعها هذا الغريب فجأة بانفجار غضبه ، عندما يرى ان الايام تمر دون ان يتوصل الى تحقيق رغائبه. لعن الله هذه الحرب المشبوبة بين النصارى والمسلمين. وتجرأت بيتريس وسالته : كيف ابتدأت ومن اضرمها؟

ولا يريد ان يرّد لبيتريس طلبا لا سيّمَا وانها ام مرضع فشرع يبث في اذنها كل ما يعرفه عن هذه الحرب الدائرة ولم يمض على اضرامها اكثر من خمسة اعوام فقال :

ابتدأ مولاي ابو الحسن ملك غرناطة بمهاجمة قلعة الصخرة الواقعة على مرتفع شاهق ، قريبة من مدينة رندة ، وقد شاع عن هذه القلعة انها لا تؤخذ حتى لقد شبهت المرأة المصونة

بها. هاجمها مولاي ابو الحسن على غرة من اهلها واستولى عليها وساق سكانها اسرى.

ردّ عليه النصارى بان دخلوا مدينة الحمة القريبة من غرناطة بعد ان طوقوها ليلا على حين غفلة من اهلها فملكوا القصبة اولا والناس نيام فلم يشعر احد الا والنصارى قد هبطوا من القصبة على البلد بالسيف حتى قتل من نفد اجله وفرّ من قدر على الفرار.

حاول المسلمون استرداد المدينة اولا وثانيا وثالثا فهاجموها دون جدوى. وكان سقوط الحمة بايدي النصارى في شهر مارس آذار سنة ١٤٨٢ يقابلها محرم سنة ٨٨٧.

استعد الملك فرنانده لمهاجمة لوشة القريبة من الحمة فمني بفشل كبير علي يد القائد العربي الشهير علي العطار. ورات مدينة الحمة التي احتلها النصارى ان تعقد هدنة مع لوشة التي عجز الملك الكاثوليكي عن احتلالها وتمت الهدنة بين المدينتين.

احب قائد حامية الحمة «برتوكاريرو مكافاة الفارس الذي اقتحم الحمة» «اورتيغا البرادوي» على بطولته بتزويجه ابنته «يولندة».

دعا الى حفلة الخطبة جميع الفرسان المشهورين في تلك الانحاء ومن جملتهم علي العطّار حامي مدينة لوشة. وكان هذا القائد العربي قد بلغ من الكبر عتيا، فراى الا يظهر بمظهر الرجل الذي لا يريد السلم مع جيرانه النصارى فارسل حفيده عبدالله بن العطار، البطل الشجاع الذي في احدى جولاته تعرف على يولندة الجميلة ابنة برتوكريرو، الايام ايام هدنة وسلام بين الطرفين فالملك فرناندو بعد الفشل الذي مني به اما لوشة شاء ان يهاجمها مرة اخرى وعليه ان يستعد وقتا طويلا لهذا الهجوم الذي يجري عادة في مستهل الصيف.

فعبدالله العطار هذا الذي تعرف على يولندة التي تركت في قلبه اطيب الاثر ندم للمرة الاولى في حياته على انه مسلم وهي نصرانية، وهذه هوة عميقة تفصل بينه وبينها.

توجه الى الحمة يحمله حبه على جناح الشوق لمشاهدة يولندة التي اخذت بمجامع قلبه البكر. ولما اقترب من المدينة عاودته الذكريات القريبة العهد، وقلبه يريد ان يطير من صدره الى لقاء النصرانية الحسناء. كتم حبه في صدره وطلب السماح من عمه لكي يذهب الى افريقية لمقاتلة النصارى في البحر.

استعدت مدينة الحمة لاستقبال الوفد العربي وقد زالت عن المدينة آثار المعارك التي شهدتها وعهدها بها قريب، وتحولت المساجد الثلاثة الى كنائس.

واحتشد الناس في الساحة العامة واستقبلوا وصول الوفد اللوشي بشيء من الدهشة

والخشية في الوقت ذاته، غير ان العدد ضئيل فلا يخشى منه شر.

اقترب ابن العطار من الباب فانفتح له فدخل وترجل وسلم جواده الى خادمه وفعل اصحابه مثله، وطلب بكل ادب وكياسة مقابلة الحاكم...

وسار مع جماعته مرفوعي الراس لا يعبأون بالانظار التي ترمقهم شذرا حتى وصلوا الى مدخل القصر.

وخرج لاستقبالهم اثنان من حملة الصولجان وقاداهم حتى بلغوا القاعة فهب الحاكم لاستقبالهم وصافح بحرارة رئيس الوفد قائلا:

قصري يرحب بكم ويتشرف بقدومكم، ثم تحدث الى الحاضرين:

ايها الفرسان، انه لمن دواعي الشرف لي ان اقدم لكم البطل العربي عبدالله بن العطار ابن اخي البطل العربي الآخر والي لوشة علي العطار الذي قَبِلَ باسم عمه الدعوة التي وجهت اليه لمشاركتنا في افراحنا فانتظر من شهامتكم ان تتركوا جانبا المعارك بينَ شعبينا وتستقبلوهم في هذه المناسبة بالحفاوة وان تجعلوا اقامتهم بيننا محببة الى قلوبهم، انهم ضيوف شرف.

فعلت من الحاضرين وشوشات التاييد والقبول وفي الحال امتزجت الجماعتان وتبودلت الاحاديث الودية. وقال عبدالله بن العطار:

اشكركم على حفاوتكم واترك للفقيه الذي يرافقني ان ينقل لكم رسالة السلام وحسن النية من عمي والي لوشة، علي العطار.

وتقدم الفقيه وقال: اذا لم يكن السلام فليكن على الاقل ميثاق الهدنة ان صاحب مدينة لوشة علي العطار تهزه رغبات صادقة في المحافظة على السلام اطول مدة ممكنة بين المدينتين.

وهنا تجدر الاشارة الى ان الذي احتل مدينة «الحمة» هم الاندلسيون صاحب مدينة قادش الذي شكل حملة من فرسان الاندلس وعلى راسهم اوريغا البرادوى بينما كان الملكان الكاثوليكيان على بعد مئات الكيلومترات في الشمال يدبرون شؤونه.

ثم عرض الهدايا المرسلة للعروسين والجوقة من الموسيقيين لاحياء حفلة تكريما لها.

وشرع حاكم المدينة يقدم لضيوفه العرب حاشيته ومن بينها اورتيغا خطيب يولندة.

وتمكن عبدالله العطار بالجهد الجهيد من اخفاء الغيرة التي نهشت فواده وهو يصافح مزاحمه والدّ اعدائه، واورتيغا تردد ايضا في مصافحة ابن العطار.

واسترعى عبدالله بن العطار انظار الحضور بجمال صورته وحسن لباسه وصوته الساخن الرقيق وشهرته التي سبقته، انه افرس الفرسان المسلمين فاجتذب اليه قلوب الحاضرين والنساء منهم وتمنى الكثيرات لو تتحدثن معه ولو للحظات قليلة.

ولم يدر في خلده انه سيكون موضوع اهتمام الناس وخاصة النساء، ودنت منه احدى السيدات الفاتنات يشجعها حضور اترابها وخاطبته قائلة:

– اصحيح ما اشيع عنك انك اشعر من المعتمد بن عبّاد.

– سيدتي ان تواضعي يحول بيني وبين اجابتك على سؤالك.

– اسالك بطريقة اخرى: هل حقيقة تنظم الشعر؟

– نعم كل العرب شعراء بطبيعتهم اذا حركت عواطفهم فواتن النساء.

– الا يوحي لك شخصي بقصيدة تنظمها مشيدا بمحاسني؟

– سيدتي الفاتنة، ان الكلمات الشعرية التي تخرج من لساني غير قادرة على ان تفي بوصف جمالك وسحرك.

وكفت الحسناء عن ملاحقته لما علمت ان لا سبيل الى اجابة طلبها.

وشعر من نفسه التعب والرغبة في الاستراحة، فلبى مضيفه طلبه وامر الخدم بارشاد الضيف الكريم الى مخدعه.

ولما اصبح وحيدا استسلم الى تفكيره الذي حصره بالنصرانية ذات العيون الخضر، وسمع اصواتا وهمسات قريبة منه فتتبع مصدرها واذا هي صادرة عن غرفة تحت غرفته فاطل على الشرفة فسمع حبيبة قلبه تتحادث مع احدى وصيفاتها فوصل الى اسماعه بعض الحديث، وتاملها فوجد ان الايام قد صقلت جمال وجهها انها جالسة على مقعد ووصيفتها تمشط شعرها الاشقر الطويل المنسدل على ظهرها وكتفيها حتى يكاد يلامس الحضيض، اتشحت بقميص رقيق من الحرير يكشف عن مفاتن جسدها فشعر الحب يتقد في صدره، ولحظ على يولندة انها ليست سعيدة مع ان زواجها قريب وعليها ان تبتهج له ووصل الى اسماعه ما يؤيد ظنه.
قالت الماشطة: كيف يجول في خاطرك هذه الفكرة الجنونية؟ هل تتصورين حزن والدك اذا درى برفضك الزواج من خطيبك الفارس الشجاع؟.

ان اي فتاة تتمنى لو تحظى بنظرة من خطيبك تاكلهن الغيرة منك لانه حدق انظاره فيك دون سواك، ومع هذا فانت لا تعيرينه اي انتباه، بحق جروحات المسيح لا ادرك السر

الذي يكمن في راسك هذا الجميل. هل تنهدين الى ما هو اسمى؟ هل تتوقين الى الزواج من ملك او امير؟

–كني ، كني ايتها المرأة اذا واصلت الاصغاء اليك اشعر ان من واجبي ان اشكر السماء على هذه النعمة التي اغدقتها علي بان جعلت الفارس اورتيغا يختارني من بين النساء.

– نعم نعم ، يا سيدتي ، ليس من رجل يضاهيه شجاعة واقداما وكياسة وجمال مظهر.

– لم يمض اكثر من شهر على تعارفنا ومهما بذلت من التوسلات لقلبي لكي يحبه ولا يلبي طلبي.

– هل من رجل آخر في حياتك؟

فوجئت يولندة بهذا السوال غير المتوقع وقالت: اجل ولكن هيهات تتحقق الاماني ودونها خرق القتاد وتحمل الويلات الشداد...

فرنت هذه الكلمة في اذن عبدالله بن العطار كما لو كانت وقع قيثارة او رنة عود نقرتها ايدي ملائكية اذ تصور انه هو المقصود فقد وصل الى قلب يولندة ، عادت الى ذهنه المبارزة التي جرت في قرطبة منذ سنوات قليلة وفاز بها ونعم في ذلك الحين بمنديلها علامة اعجاب ببطولته واحتفظ بتلك الذخيرة.

ولحظت يولندة على الماشطة انها ادركت سرها فانتهرتها:

– احفظي لسانك ولا تتدخلي بمّا لا يعنيك.

وهبت ريح باردة من جبل مولاى الحسن فاوقفتا الحديث ولاحت من يولندة التفاتة الى فوق والتقت نظراتها بنظرات عبدالله العطار فاضطربت واختفت بسرعة في حجرتها.

ومكث ابن العطار برهات قصيرة حائرا غارقا في افكاره مستعرضا الاحداث التي مرت ببرهة وفي دماغه كلمات يولندة كانها صفعة من كف القدر.

فالمرأة التي طالما علل النفس برؤيتها ، المرأة التي لا يبخل عليها باسمه وثروته ودينه وحتى حياته نفسها سينتزعها من يديه رجل لا تحبه. ما اعمى القدر.

وانطرح على فراش وثير وتجاذبته الافكار ولا صلة لها ببعضها البعض ، وشعر بذاته انه اتعس مخلوقات الله قاطبة وامتزج الخير والشر في نفسه وتزاحمت الشعور المتنافرة.

وطال تفكيره وما شعر الا والستار ازيح عن الباب وظهر احد الاشراف يعلن بدء الاحتفالات.

الساحة واسعة وهي على شكل دائرة احيطت بها المنازل ذات الشرفات. اجتازها ابن العطار مع حاشيته وشاهد اهل الحمة متجمعين فيها، انها وجوه لا يرغب برؤيتها مقصده وجه واحد، الساحة تمتلىء بالناس شيئا فشيئا. واقبل الاشراف يصحبهم ابن العطار وحاشيته. واخيرا وصل صاحب المدينة برفقة ابنته فاستقبل بالتصفيق الطويل والهتافات الصاخبة اعجابا بابنته يولندة ذات الجمال الفاتن، بدت وكانها احدى بطلات الاساطير الرومانية او الجرمانية.

واضطرب قلب عبدالله العطار وتسارعت خفقاته، اجل انه يحفظ في ذاكرته صورة حبيبة فؤاده منذ سنوات غير ان الحقيقة الحاضرة تخطت باشواط شطحات مخيلته فسكر في تامل هذا الجمال الاخاذ بمجامع القلوب لان سحر هذه الفتاة لا يقوم في عينيها الخضراوين ولا في شعرها الذهبي الطويل ولا في جبينها المصقول ولا في احمرار خديها ولا في حمرة لسانها وشفتيها ووجنتيها ولا في تدوير وجهها ولا في طول عنقها وحاجبيها واصابعها ولا في وسع جبهتها وعينيها وصدرها ووركيها ولا في ضيق منخريها واذنيها ولا في صغر فمها وقدميها وكفيها بل في تلك العلاقة والارتباط القائم بين الخلق والخلق وفي كمال تكوينها الجسدي وفي حركاتها المغلفة بالظرف ومجلببة بالفتنة والسحر.

واقبل صاحب المدينة ليكون وسيلة التعارف بين الضيف الكريم وابنته الوحيدة وبعد ان قدمها له تركها برهة ليقوم بواجب الترحيب بضيوفه وليعطي الاوامر ببدء الاحتفالات، وحاول العربي اخفاء اضطرابه وهو يمد يده للسلام على سالبة لبه وحياها منحنيا انحناءة كبيرة.

لم تستطع يولندة مقاومة هذا الاكرام والكياسة واللطافة البادية من الفارس العربي وردت التحية وقدمت له يدها البضة الناعمة فاغتنم الفرصة وطبع قبلة على تلك اليد الممدودة اليه.

واضطربت النصرانية بجميع جوارحها وشعرت بهزة تمتلكها من راسها الى اخمص قدميها وارتجفت مثل ورقة في مهب الريح.

ومكثا لحظة يحدجها بنظره وتحدجه بنظرها واخفت يولندة اضطرابها حتى لا يشعر بها والدها وخطيبها، وسالت العربي:

– ليست المرة الاولى التي تجمعنا.

– بالواقع يا سيدتي ، اسعدني الحظ ان اشاهد جمالك في عاصمتنا السابقة قرطبة لمّا تكرمت علي بهذه الهبة ، وازاح عباءته وكشف عن صدره بطريقة خفية لم يدركها سواها ولاح لها المنديل ، منديلها الذي رمته له في حلبة النزال.

ولم يتبادر الى ذهنها ان فارسها ما زال يحافظ على ذلك التذكار الذي منذ ان وقعت الهدنة بين النصارى والمسلمين وتبادل الزيارات والدعوات لمشاهدة الاحتفالات والمبارزة وغيرها.

– ما الذي دفعك للمحافظة على هذا التذكار منذ سنوات؟

– لانه يخصك وقد شغفني جمالك حبا فلم تغادري خاطري دقيقة منذ ذلك الحين.

فابتسمت الفتاة عن رضى وتابعت الحديث مع الفارس العربي :

– هل لي ان اصدق اقوالك ودارك تعج بالجواري والقيان ، الم يجعلنك تنسى النصرانية التي لم تشاهدها سوى لحظات قليلة؟

– يجب ان تصدقيني ، ليس من قوة مهما علت قادرة على نزع صورتك من ذاكرتي وحبك من قلبي.

فاحمر وجه يولندة خجلا من هذا التصريح السافر بحبه لها وقالت في نفسها : هل هذا هو الامير الذي شعرت ببعاده عن قلبي وعبدته في منامي واحلامي بقدر ما علي ان ابغضه كعدو قومي ؟

– ما كدت اسمع صوتك حتى ادركت انه الصوت الذي يهدهد امالي بنغماته العذبة ولكن لتعاستي ، انت عدو بلادي...

– قولي لي اي مكان في جسدي عدو لك حتى انزعه بلا رحمة ولا شفقة لكي احلو في عينيك فانا ابغض جنسي لانه يصرفني عنك.

وشعرت يولندة ان الحديث قد طال ولا المكان يسمح بالاسترسال به فقالت :

– عن قريب ساتزوج وانت تعلم ذلك ، وليس الامر بيدي.

وادرك الحاكم صاحب المدينة ان ابنته في حالة غير طبيعية ولاحظ ايضا نظرات الفارس العربي المتوقدة لا تفارقها فحدس امرا غريبا قد دخل في حياتها فدنا منها وقطع عليها حديثها بلباقة قائلا :

– عفوك ايها الضيف الكريم ، الشعب ينتظر بدء الاحتفالات بفارغ صبر وعلى يولندة

ان تعطي الاشارة ، اذا احببت الاشتراك في العاب القصب فما عليك الا ان تنضم الى بقية الفرسان المتبارين.

— افضل المشاهدة ، وجلس قريبا من يولندة وابتدأ اللعب وفاجأ صاحب المدينة الامير العربي يحادث يولندة دون الاهتمام او الالتفات الى ما يجري في الحلبة.

وانتهى اللعب وكان الغالب الفارس «اورتيغا البرادوي» ORTEGA DE PRADO خطيب يولندة.

بقيت حفلة مصارعة الثيران فسال الحاكم الامير عبدالله بن العطار هل يرغب في الاشتراك بهذه المصارعة؟ فلم ير ابن العطار حرجا لا سيّما وانه يريد ان يحظى باعجاب يولندة.

ومصارعة الثيران لعبة قديمة العهد جدا منهم من يردها الى ابينا ادم لمّا طرد من الفردوس اضطر الى مطاردة الثيران الوحشية ليربطها الى العجلة ويدجنها. وغيرهم يوصلها الى «اسدروبال» القائد القرطاجي فانه كان يطارد الثيران الوحشية على صهوة جواده في جبال قرطاجنة ، ثم يوليوس قيصر الذي تعلم فن مصارعة الثيران في اسبانية.

ولمّا شاء البابا سكستوس الخامس ببراءته البابوية الغاء مصارعة الثيران رد عليه الملك فيليب الثاني الاسباني قائلاً «ان هذه البراءة لا تجدي نفعًا لأن مصارعة الثيران عندنا عادة متأصلة امتزجت بدم الاسبان ولا سبيل للتخلي عنها.

وتقول الاساطير انه نظمت حفلة مصارعة ثيران لمّا كانت مدريد بايدي العرب ومنظمها صاحب المدينة الذي وقع في هوى امرأة جميلة اسمها زائدة. اقيمت الحفلة على شرفها اشترك فيها فرسان من العرب اشداء ولم يتمكن احد منهم الاطاحة بثور وحشي شرس استلم الموقف.

وفي تلك الاثناء قبل احد الاشراف يطلب منازلة الثور ولم يشأ الكشف عن هويته.

سمح له بمنازلة الثور وبعد جولات قصيرة تمكن بطعنة نجلاء من القضاء على ذلك الثور الوحشي الذي اعجز الفرسان عن غلبته... وغادر الساحة كما اقبل ولم يدر به احد ، وتقول الالسنة الطويلة ان هذا الفارس لم يكن سوى السيد القنبطور.

ولنعد الى ما نحن عليه. لم يشأ صاحب مدينة الحمة «بوركاريرو» PORTOCARRERO ان يعرّس لابنته بدون مصارعة ثيران. جيء باربعة ثيران وحشية ، وهذه الالعاب لم تكن

غريبة على ابن العطار فقد اشترك فيها امام مولاي الحسن ملك غرناطة.

ابتدأت الحفلة باشارة من صاحب المدينة والمصارعون تقلدوا الرماح الطويلة بينما ابن العطار لم يحمل سوى خنجر رهيف في وسطه وقطعة قماش حمراء يهش بها على الثور ليثير غضبه.

خرج عليه ثور وحشي هائل المنظر وبدأ صراع مميت بين الانسان والثور وخشي الناس على ابن العطار من هذا الثور الهائج الذي يضرب الارض برجليه ويخدشها، لا سيّمَا وان سلاحه ليس سوى خنجر لا يزيد طوله على شبرين. فبعد ان انهكه في الجري والهرب امامه والثور يطارده ولم يجد اليه ماخذا حتى غافله في لحظة خاطفة واغمد خنجره بين كتفيه وكانت الضربة قاضية فخر الثور صريعا بين هتافات الحاضرين.

لم تقع انظر الحاضرين على مشهد مثل هذا المشهد وزاد اعجاب يولندة بالفارس العربي.

وتفرق الجميع وتوجه المدعوون الى قاعة الاستقبالات حيث ستجري حفلة الرقص. ودخل ابن العطار القاعة بوشاحه المقصب المصنوع في سوسة واتجهت اليه انظار السيدات بنوع خاص، وباشارة منه شرع الموسيقاريون العرب بقرع آلاتهم وبعد قليل ظهرت في وسط القاعة راقصة عربية ارسلها علي ابن العطّار وادت رقصة البطن بحركات كلها اغراء وفتنة احمر لها وجه السيدات الحاضرات وشعت اعين الرجال ببريق غريب.

وجرت فترة استراحة تناول فيها المدعوون المرطبات ولم تنقص الخمور. وتلتها حفلة راقصة بث ابن العطار في اذن يولندة وهو يراقصها كلمات افعمت قلبها سرورا ولم تتمالك ان صارحته قائلة: لماذا يا عبدالله لم تخلق نصرانيا لكنت اعطيتك مكانا في قلبي وروحي وعقلي وحياتي، ولكن يا للاسف وصلت الى فوادي متاخرا ومع ذلك ثق ايها العاشق الكريم ان صورتك مطبوعة في صدري وساحفظها ما حييت.

وبينما العاشقان غارقان في احاديثها الغرامية الا سمع صوت الخطيب ينادي خطيبته قائلا: انتهت الموسيقى الساحرة وعلينا بالعودة الى عالمنا الارضي.

واخذ خطيبته بذراعها وخرجا من القاعة وابن العطار يتميز غضبا وهمس الفقيه في اذنه انه يريد مخاطبته بامر خطير.

– لحظت عليك تصرفاتك تجاه ابنة حاكم المدينة ولحظ خطيبها ميلك اليها وميلها اليك، ان هذا الحب الذي شب في قلبك سيخلق ويلات كثيرة لك ولشعبنا، انت اشجع

امراء بني سراج ، انت فخر شعبنا اتريد ان تتركنا لمصيرنا وترتمي في احضان امرأة كافرة لا تحبك ؟

— اتريد مني ان اراجع لك تاريخنا الاندلسي لترى كم من الملوك المسلمين تزوجوا بالروميات. ابتدىء بعبد العزيز بن موسى بن نصير الذي تزوج ارملة لذريق «اجيلونة» وآخرهم ابو الحسن الذي تزوج ثرية الرومية ابنة حاكم مرتش.

— ارى ويا للاسف ، انك لا تريد الاصغاء الي ولا الى العقل السليم ، فقد اعمى الحب بصيرتك.

— نعم ، انا الذي لا اضطرب امام صليل السيوف ولا اجبن امام الكمي وقرع القنا بالقنا ولا اخشى عزرائيل عندما يرفرف باجنحته السود فوق راسي ليستل مني روحي ، واني كما قال الشاعر العربي :

«واني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر»

— ادعك وشانك لان الكلام معك عبث ، فليرفق الله بك.

وبدون انتظار كلمة توجه نحو الباب ولكنه توقف لمّا سمع الامير يناديه بلهجة توسل :

— ارجوك ان تكتم ما دار بيننا من حديث.

— لا تخش مني شرا فاذا كشفت لك اخطاءك فهذا لا يعني اني تحولت الى واش.

* * *

— تقدم ايها الامير عبدالله لا تخش سوءا.

فبكم لسان ابن العطار من الدهشة امام هذا الاستقبال غير المنتظر ، فدفع الباب الضخم بشدة فاحدث صريرا وانفتح على مصراعيه فبان للامير ومرافقه وجه اقشعر له شعر راسيهما فسمرهما في مكانهما ، فلم يقويا على الاتيان بخطوة اخرى الى الامام. لاح لهما في اطراف الكوخ هيكل عظمي اقرب منه الى مومياء من مخلوق بشري ، غطته غلائل متهرئة حمل في يده اليسرى فانوسا يعطي نورا شاحبا يتناسب والمكان. ويصوّر شبحا مرعبا عظام تحت جلد وعينان غارقتان في وقبيهما يكاد ينطفىء منهما نور الحياة ، عجوز شمطاء يبدو عليها انها قضت اكثر من مائة شتاء في هذه الحياة الدنيا وعاشت رغم الموت.

وجهها الشاحب المتجعد الضامر الحقود فمها الخالي من الاسنان ، نادت الامير قائلة : شرفت منزلي ، ايها الامير الخطير.

– كيف ادركت ايتها الساحرة الماكرة اني قادم اليك رغم ترددي في تنفيذ الفكرة الجهنمية؟

– سهل جدا، منذ ان خالجتك الفكرة التي اوحاها اليك امين سرك نقلتها الي بدون علم منك.

فدهش عبدالله بن العطار مع شيء من الرعب عند سماع هذه الكلمات من فم العجوز الشمطاء المحتالة الماكرة...

– اقصري في الكلام ولنبدأ بالعمل.

– انا رهينة اشارتك، تفضل واجلس قرب النار مع رفيقك الجو ماطر والليل بارد في هذه الارجاء. والعاصفة تهدر في الخارج والبرق يخطف الابصار والرعد يمزق صمت الليل.

دنا ابن العطار من النار ورمى بصرة من النقود الى العجوز فبرقت عيناها واخفت ابتهاجها.

– لا تظن ايها الامير اني اساعدك طمعا بالمال بل كراهة بالنصارى الذين لاقيت منهم الامرّين فيلذ لي الانتقام، ماذا تبغي؟ اكسير الحياة؟ بعض الشراب حتى تحبك النصرانية؟ بعض السم للتخلص من خصمك؟ او لبلبلة دماغه فقط؟ كل هذا في متناول يدي.

– كيف الوصول الى يولندة ابنة الحاكم وكيف الوسيلة الى خطفها من قصر ابيها؟

– الوسيلة الوحيدة لاخراجها من القصر هي دفنها في الصومعة ولكي تدفن يجب ان تموت او على الاقل تبدو وكانها ميتة في نظر الآخرين.

فاذا كانت لا تخيفك الفكرة فنفذها. انظر الى هذا المخدر، اذا تناوله احد لا يلحقه ضرر في اجهزته الحيوية بل يترك صاحبه في حالة غيبوبة طيلة اثنتين وسبعين ساعة يخاله الناس فارق الحياة، اذ يتوقف قلبه عن الخفقان وبعد اثنتين وسبعين ساعة يمكن رده الى الحياة بتناوله هذا الترياق.

وارته اياه ثم اردفت: اذا مضى الوقت المحدد ولم تتناول صاحبتك هذا الترياق تظل سادرة في نومها الى الابد، مفعوله فوري اذ انه يصل في الحال الى الدم فعليك ان تخزها بهذه الابرة المغمسة بالسائل. وتدرك غرضك من الصبية. ادخل حجرتها وضع خرقة ملوثة بالبنج على انفها ثم اوخزها بالابرة على الطريقة التي ذكرتها لك. وفي الصباح يشاهدونها ميتة فيدفنونها في الصومعة على عادة الاشراف ولا يصعب عليك الوصول اليها قبل انقضاء اثنتين

وسبعين ساعة، فتعيد اليها الحياة بحقنها بهذا المصل ثم تحملها على صهوة جوادك الى لوشة.

وتردد عبدالله بن العطار في تنفيذ هذه الخطة التي قد تؤدي به الى امتلاك حبيبة فواده. وشكّ في نوايا العجوز ولكن لمّا حدثته عن كرهها للنصارى بسبب المضايقات الكثيرة والاضطهادات التي لاقتها من محاكم التفتيش صدّق اقوالها. وسرها منه اصغاؤه اليها فواصلت كلامها:

– لا استطيع قراءة الغيب ولكني مستعدة لمساعدتك نكاية في النصارى وبالملكين الكاثوليكيين.

وبدون انتظار موافقة من الامير اخذت الانبوبين وسلمتهما اليه قائلة:

– اني اقرأ في جبينك الشك الذي يخالجك في صدق كلامي.

ونهض من مجلسه وقال: ايها الحب هبني القوة حتى ابلغ النهاية.

واخرج صرة اخرى من النقود ورماها امام العجوز.

وكان نصف الليل فهبط من حجرته الى حجرة يولندة ووجد النافذة موصدة فدفعها بيديه بخفة فانفتحت ودخل الحجرة والمطر يهطل بغزارة والرياح تعصف، الغرفة واسعة ولكن لا اثر للثراء فيها.

وتأمل يولندة على سريرها انها اشبه بحورية الجنان بقامتها الهيفاء الممددة على السرير وشعرها الناعم الاشقر وحاجبين كالنون زينا وجهها، جمالها سماوي، صدرها نصف عار غطته غلالة رقيقة وذراعان ناعمتان، وسكر من العطر الفائح من صدرها.

وخرجت تنهدة خرساء من صدر يولندة لمّا وخز ذراعها بالابرة المغمسة بالسائل السحري وفتحت عينيها ولاح لها شبح ابن العطار فظنت نفسها في حلم، وشاءت الصراخ ولكن المخدر فعل فيها فارتخت مفاصلها وشوهدت نقطة من الدم القاني على ذراعها البضة وتحول جسدها الى جثة باردة صفراء.

ادنى شفتيه من ذلك الجرح وامتص نقطة الدم كانها بلسم لجراح قلبه... وجحظت عينا ابن العطار لهول ما شاهد ونفر الدمع من عينيه وانكب على جثمان حبيبته يوسعه لثما وتقبيلا دون ان تخالجه شهوة او لذة جسدية لامتلاكه.

لم يرشح الى احد في القصر ما جرى في تلك الليلة التي غضبت فيها الطبيعة على بني البشر وعوى كلب من بعيد وعصفت الريح في جنبات القلعة.

واقبل الصباح وعجت الساحة العامة بالناس لمشاهدة العرس الحافل الذي انفق عليه الحاكم بسخاء وتناقلت الافواه نبأة وفاة يولندة ولم يصدقوه: فتاة في ريعان الشباب تنبض بالحياة تتوارى هكذا في طرفة عين؟. وسمع الوالد من فم النطاسي ان ابنته ذهبت ضحية نوبة قلبية قد يكون سببها ابتهاجها بقرب زفافها. عرض جثمانها واضيئت حوله الشموع واخذت الجموع تمر امامه تودعه الوداع الاخير.

مرت اربع وعشرون ساعة على وفاة يولندة والامير عبدالله في حالة ياس مريرة، لم يعينوا مكان الدفن. الوقت يمر بسرعة ولا يرحم.

وجاء امين سره يطلعه على ان الدفن في المكان الذي تكهنت به العجوز الساحرة، فادخل الخبر بعض العزاء على قلبه الكسير.

غادر عبدالله العطار وصحبه قلعة «الحمة» دون ان يلتفت اليهم احد هول المصاب ذهب بواجب اللياقة تجاه الضيف الكريم.

وفي اليوم التالي كانت غيوم كثيفة تغطي السماء فكأن الطبيعة شاركت اهل الحمة بمصابهم وحدادهم، يمشون وئيداً نحو الصومعة يرتلون المزامير: «ارحمني يا الله كعظيم رحمتك وكمثل كثرة رحمتك امح مآثمي،...» «ومن الاعماق صرخت اليك يارب يا سيّد استمع صوتي؛ راحتك الدائمة اعطهم يا رب ونورك الازلي فليضيء لهم». ومشى وراء الكردنال مندوسة جماعة من الاكليروس واعيان المدينة وورى الجثمان.

وما كاد آخر شخص يغادر المكان ويخيم الصمت ويرخي الليل سدوله حتى شوهدت جماعة قليلة العدد تنساب كالافاعي وتدنو بحذر كلي من المدفن، وازيح الحجر الذي يسدل المدخل واخرج التابوت وازيل الكفن عن جثمان يولندة وكشف عن ذراعها ولفت بملحفة واعيد التابوت الى مكانه وحقنت بابرة المصل، وظن ان مفعول الاكسير سريع ولكن الجثمان ظل على حاله لم تدب فيه الحياة فارتعب وخالجه الشك وجمد دمه في عروقه للمرة الاولى في حياته هل خدعته العرافة؟

وحمل الجثمان الى لوشة.

وعاد من جديد الى «الحمة» لعقد الهدنة فلم يوفق ولكن اخذ الطرفان على انفسهما عهدا بالمحافظة على حسن الجوار حتى يقضي الله امرا كان مقضياً.

وبهذا الوعد طار ابن العطار الى لوشة وسال عن يولندة التي استعادت وعيها وخالت

نفسها في حلم ، وتذكرت الحفلة وآخر وجه راته وهو وجه ابن العطار ، وفتحت عينيها ووجدت ذاتها في قصر جميل تحف بها الوصيفات يعزفن احسن الالحان وهي مستلقاة بين الوسائد والطنافس وهي لا تصدق انها في كامل عقلها او انها في حلم او يقظة ، ووجدت ذاتها باثواب شفافة لا تكاد تستر شيئا من جسدها . لم تتعود على مثل هذه الاقمشة الحريرية والعيون مصوبة اليها فخجلت من عريها .

ولمّا استيقظت تماما البسنها واحضرن لها الاطعمة الشهية فلم تتذوق سوى قليل من الشراب ، وسألت احدى الوصيفات عن سبب هذه الحفاوة بها واين هي؟ فاجابتها الوصيفة انه لم يمض عليها سوى ساعات قليلة في هذا القصر حملت اليه غائبة عن رشدها وان الامير عبدالله بن العطار قد خطفها واوصى بالسهر عليها وهدد وتوعد ان وصل اليها ادنى اذى .

واطل في تلك اللحظة الامير فتوارت الوصيفات ونادته يولندة بقساوة وغضب :

– انت عدوي الطبيعي وعدو آبائي واجدادي وديني ووطني انت التجأت الى اساليب شيطانية وخطفتني من دار والدي ورميتني في هذا السجن اي الاعذار تخرج من فمك لتبرر هذا التصرف حيالي؟

– قولي لي بحقك ، كيف استطيع نزع البغضاء الكامنة في صدرك ولا مبرر لها . لا تعتبري ذاتك اسيرة في هذا القصر. انا اسير حبك والمقيد والمكبل بسلاسل هواك.

ولم تتمالك يولندة تجاه هذا التصريح السافر بحبه لها الا ان خفضت انظارها كأنها تدعوه الى متابعة كلماته التي دخلت الى عقلها وسمعها بدون استئذان.

عندما تسمعين قصتي من اولها الى آخرها والتضحيات التي قاسيتها في سبيلك لكي انزعك من احضان اهلك واخرق حق الضيافة واعرضك لخطر الموت حتى احصل عليك .

فدهشت يولندة : خطر الموت؟ ماذا تقول؟

فروى لها القصة من اولها الى آخرها .

– كيف خوّلت لك نفسك ان تدخل في روع والدي اني ميتة؟ االى هذا الحد وصل جنونك؟ . ان عيني لا ترى فيك سوى جلادي ، دعني في وحدتي وكوابيسي وآلامي ، قتلت فيّ آمال شبابي دعني ، دعني وشاني .

فلملم نفسه وتوارى دامي القلب كئيب الفواد .

ومرّ اسبوع على الحادث ولم تطأ رجلاه ذلك المكان حتى بلغه ان عمه وصل من سفره

وهو يطلب رؤيته في الحال فهرول مسرعا انه يخشى سطوة عمه. وتقابلت النظرات، وكان المشهد صاخبا.

ذكر العم لابن اخيه الويلات التي جرتها على مملكة غرناطة الحسناء الرومية ثرية زوجة مولاي ابي الحسن. وماذا يكون موقف النصارى اذا علموا ولا شك انها عالمون آجلا او عاجلا ان ابنة احد قادتهم اسيرة في لوشة فسيهاجمون المدينة من جديد حتى تسقط في ايديهم لينقذوا منها ابنة قائدهم.

لم يجد الوعد والوعيد نفعا. ومر اسبوع آخر ويولندة تبحث عن حيلة تطلع اباها بها عن مكانها. ووجدت ضالتها المنشودة في تاجر يهودي دخل القصر فسمح لها بمشاهدته لعلها تريد شراء بعض الحاجات منه وبذلك تطيب نفسها.

وبادرت التاجر بالكلام: هل تريد ان تصبح بين ليلة وضحاها من اغنى الناس واشتري منك كل بضاعتك؟

فتهلل وجه اليهودي بشرا وقال: ومن لا يريد ان يصبح غنيا؟ ماذا علي ان اصنع لادرك الغنى؟.

– الامر بسيط، ولكن اقسم لي انك لا تخونني.

– بحق اله ابراهيم واسحق ويعقوب، اشهد عليّ السماء والارض والملائكة.

– هل تجد من ذاتك القدرة لتحمل رسالة الى حاكم الحمة دون ان يشعر بها احد من ابناء هذا القصر؟

– هذا كل شيء؟

– لا شيء سواه اخبره اني حية ارزق واني اسيرة ابن العطار وستنال منه اكبر مكافأة عندما تبشره اني في قيد الحياة.

– لا اقوى على خيانة هذا الامير الذي فتح لي قصره.

– اذا عدلت عن فكرتك فاذهب في طريقك وابق فقيرا مدى الحياة، وعن قريب يدخل النصارى لوشة وغرناطة كما دخلوا الحمة.

– ستتحقق امانيك ايتها النصرانية، اقسم لك اني باذل كل ما في وسعي لارضاء رغبتك.

ثم ودعها بانحناءة كادت جبهته تلامس الحضيض.

غير ان الحيلة لم تنطل على عبدالله الذي راقب وسمع كل ما دار بينهما من حديث وكاد يتميز غيظا وامتدت يده الى قبضة خنجره وعيناه محدقتان بالاسيرة التي لم تدرك وجوده ، انها تصلي.

– لا تسترسلي في الآمال والاحلام الفارغة يا يولندة رسولك لن يصل انه يرقد رقدته الاخيرة عقابا له على جشعه وطمعه.

فخارت قوى الاسيرة وفقدت كل امل لها بالنجاة من ذلك القفص الذهبي.

* * *

الاحوال ليست على ما يرام بين المسلمين والنصارى فقد وصلت الى اسماع حاكم الحمة ان الملك فرنانده يهيء جيشا لينقض به على مدينة لوشة حتى يعزل غرناطة ويتمكن من تطويقها فياخذها لقمة سائغة.

اقبل وفد جديد من لوشة فمد الجسر ومر عليه الوفد المشكل من ثلاثة اشخاص فقط وطلب مواجهة الحاكم الذي سمح له بالوصول اليه بدون تأخر.

عفوك ايها الحاكم ، ان ما جئت لاجله لخطير وانتظر من شهامتك ان تغض الطرف وتاخذ برحابة صدر كل ما تسمعه.

– تكلم ولا تخش سوءا انت الضيف والضيف مكرّم عندنا.

وتكلم والحاكم مصغ له كل الاصغاء ولا يكاد يصدق ما يسمعه.

وشاء التحقق من صحة ما يقول وفتح القبر فاذا التابوت فارغ.

وهمّ الحاضرون بالحاق الاذى بالضيف فنهاهم الحاكم وانتهرهم بشدة. ولا سيّما اورتيغا البرادوى الخطيب فالاهانة التصقت به اكثر من اي شخص آخر لان هذا المسلم قد اختطف خطيبته ، عار كبير يعلق به ولا تغسله الا منازلة قرينه.

وتقرر اللقاء في الميدان عند طلوع الشمس.

وتجمع الناس لمشاهدة هذه المبارزة واعطيت الاشارة وخرج الخصمان وتلاقيا وكانت الصدمة عنيفة بحيث ان النصلين انكسرا كما لو كانا قصبتين دون ان يتزحزح احدهما عن صهوة جواده وصمد الترسان. والقيا جانبا الرمحين اللذين لم يعودا نافعين وانتضيا سيفهما

وساد الصمت من جديد بين صفوف الحاضرين ولم يسمع سوى صليل السيوف.

ابن العطار يقاتل لاجل حبه بشراسة النمر دون ان يترك فترة استراحة لغريمه ومزاحمه على قلب يولندة وقد خامره الغضب لانه للمرة الاولى في حياته يصطدم بفارس يصمد امامه.

اما اورتيغا البرادوى الواثق من قوة ذراعه يقاتل برباطة جأش مغتنما كل هفوة تصدر عن عدوه ليكيل له الضربة القاضية، واشرأبت الاعناق نحوهما والقتال سجال، وتململ ابن العطار غيظا وحنقا اذ انه لم تبدر غفلة من خصمه، وفار الدم في عروقه من طول المقاومة فكرّ عليه وضربه بالسيف على راسه وكانت الضربة قاصمة واضطربت نفوس القشتاليين من هولها اذ انهم ظنوا انها اجهزت عليه ولكن على ما يبدو لم تجرحه سوى جرح طفيف لان الخوذة صانته.

وساد الصمت من جديد ليروا ما يكون من النصراني الذي تميز غيظا ونزع الخوذة عن راسه وهجم على خصمه مكشوف الراس، انها مغامرة ومخاطرة، وحذا عبدالله بن العطار حذوه فنزع عمامته عن راسه والقاها جانبا حتى لا يقال عنه انه قاتل خصمه في ظروف افضل. فاعترف له النصارى بشهامته الا خصمه فقد غاظه هذا التصرف منه وتجددت المبارزة بعنف اشد وعرق الجوادان وسال الزبد من شدقيهما.

وفجأة شوهدت جبة الفارس العربي تتمزق وترسه يتحطم وقد طارت قطعة منه لمّا شاء اتقاء الضربة التي انزلها عليه خصمه.

ولمّا كان الصراع في اشده شوهد جسد الفارس العربي يهوى عن صهوة جواده مضرجا بدمائه فالضربة التي نزلت عليه كانت قاتلة.

وهلل النصارى.

وصل الى اسماع علي بن العطار النبأ الاسحم، فصرف يولندة الى ابيها انها سبب بلاء ابن اخيه.

وحمل المسلمون جثمان قائدهم، اما يولندة فلم تشأ ان تتعزى على فقد حبيبها، ولعنت خطيبها وبغضته بكل ما في صدرها من بغض... والنصارى ساءهم هذا التصرف منها تجاه خطيبها الذي عرض حياته للخطر بسببها ولم يغفروا لها سلوكها نحوه. وما طال عهدها الى ان لحقت به الى دار الخلود حيث يجمعها الحب الذي انكره عليهما سكان الارض.

الفصل السابع

مالقة

– هذا الملك فرننده يطلب منا ارسال خمس سفن اسهاما منا في حصار مدينة مالقة التي تقاوم بشدة بسبب المساعدات التي تصل اليها من افريقية بحرا.

وكان المتكلم «لب القلفاطي» احد الملاحين المعروفين.

ورد عليه مرتين الهنشه الملقب بالشرشور:

– ولماذا لم يطلب اسطول «بالس» بكامله، يكفينا اننا نناوش الزغل في المرية، وما حاجة الملك بالاسطول؟ لقد جاءت سفن عديدة من الشمال ومن كل المناطق الخاضعة لقشتالة وارغون فما حاجته بخمس سفن اخرى؟

– انه على ما يظهر يريد ارسالها الى نابولي.

– وماذا اضعنا في نابولي؟ جاء الارغوني لمساعدتنا في حرب غرناطة والآن يريد منا ان نساعده في حرب نابولي، نحن لا علاقة لنا بنابولي.

– يقولون ان الملك مستعد ان يدفع لنا بسخاء.

– رحلة واحدة الى الجزر الخالدات تكسبنا اكثر مما نكسبه في عدة شهور قتال، والمسالة تختلف فليس الحال سواء في مقاتلة السفن العدوة والتعرض للموت، وفي السفر الى الجزر الخالدات او الى انكلترة حاملين اليها الحنطة.

واجتمع الملاحون ومن بينهم «جوان بنتو» المتمرد على طلب الملك لان بنتو هذا يملك

سفنا وساله لب القلفاطي : نرسل لهم سفينتين نختارهما بالقرعة ، والجميع يدفع الضرر المترتب عن هذا لصاحبي السفينتين.

فقال احدهم ولم يعجبه الاقتراح : اذا كان لا بد من العصيان فليكن العصيان كاملا.

وكان المتكلم هنا هو الشرشور.

وساله احد الحاضرين : وماذا تعني بقولك : العصيان الكامل؟

— لا نرسل اي سفينة.

فنظر بعضهم الى بعض مبهوتين وقال خوان بنتو: المسالة خطيرة جدا.

فرد عليه القلفاطي قائلا : انا الى جانب مرتين الهونشه.

وتعالت الاصوات من هنا وهناك : وانا... وانا... وانا...

وقال احدهم : نتعرض لقصاص الملك.

فقال مرتين الهونشه الشرشور: لا ننفذ القصاص.

فكأن هذا الشرشور قرأ في صفحات الغيب ان هذا العصيان سيكتب اسم «بالس الفرنتيرة» في حوليات التاريخ...

هذا ما جرى في بَالُس بينما الملك فرنانده يحاصر مدينة مالقة وقد طال الحصار، ولا حرج علينا في وصف هذا الحصار حتى نتبين ان معركة غرناطة كانت من اشرس المعارك في التاريخ. نستعين بالمصادر العربية ، ولكن بنوع خاص بالمصادر النصرانية لانها اسهبت اكثر من المصادر العربية في وصف هذه المعركة التي استمرت اشهرا.

«قرّر الملك الكاثوليكي النزول الى مالقة بعد ان رتب الامور في «بلّش» واطمأن الى حماية مؤخرته من الغارات الاسلامية. فامر بنقل المدفعية والانفاط عن طريق البحر وتوجه برا الى مالقة التي لا تبعد سوى فرسخين عن بلّش» ووجه سفارة الى المدينة يطلب من اهلها الاستسلام وينالون الامان عن انفسهم واموالهم.

يراس حامية مالقة فارس شجاع اسمه «حامد الثغرى» اوكل اليه ابو عبدالله الزغل قيادة القوات التي تحمي المدينة. انه من قبيلة غمارة الافريقية.

وصلت اليه رسالة الملك الكاثوليكي فقال : لم يعهد الي صيانة هذه المدينة لكي افرط بها كما يريد صاحبكم. عقد الملك فرننده مجلسا لمّا وصل اليه رد القائد العربي. فقال احد

الحاضرين : لا حاجة بنا الى الاستيلاء على المدينة ، تكفي محاصرتها ، وهي بالفعل محاصرة واذا قطعت المؤن والذخائر عنها تستسلم لا محالة ، وقال غيره : قدم الملك الى هذه المدينة بقوات ضخمة فيجب قتالها حتى تسقط بسرعة والا فانها لا تعدم من وسيلة لاستلام الاسلحة والمؤن وتقاوم الى ما لا نهاية له.

قرر الملك القتال. فتقدم الى المدينة الواقعة في سفح جبل تحيط بها الاسوار والابراج الضخمة القريبة بعضها من بعض ، ويحيط سوران عاليان فيها اثنان وثلاثون برجا وما وراء هذه الابراج العالية ثمانون برجا متوسطًا وصغيرًا.

ولمّا شاهد قائد حامية مالقة الفرسان النصارى يقتربون من المدينة والاسطول يحاصرها من البحر وزع الاسلحة على السكان واقام الحرس على الابواب والابراج والاسوار واحرق البيوت القريبة من السور وحشد في جبل فاروق القريب من المدينة ثلاثة فيالق الواحد لحراسة ذلك الجبل والآخر في مكان يؤدي اليه والثالث فوق ربوة مطلة على البحر.

حاول فرسان الجلالقة الاقتراب من الناحية القريبة من البحر وقوة اخرى من حرس الملك والملكة هاجمت الحامية التي تحرس الممر المؤدي الى جبل فاروق ويشد ازر هؤلاء الحرس رئيس جمعية فرسان سنتيقوب ، وتمكن المسلمون من رد الجلالقة بعد ان كبدوهم خسائر جسيمة ووصلت فلولهم الى حرس الملك. ثم اعادوا الكرة بمساعدة هؤلاء وردوا للمرة الثانية بخسائر اكبر.

ولمّا رأى قائد الحرس ان الهزيمة لحقت بجنوده طلب مساعدة فرسان سانتيقوب فرد عليه رئيسها ان القتال في تلك الناحية محفوف بالاخطار ، واستمرت الحال على هذا المنوال ست ساعات والمسلمون لا همّ لهم سوى قتل النصارى لا المدافعة عن انفسهم وقتل من النصارى في ذلك اليوم اثنا عشر الف وسبعمائة رجل وهم مصرون على احتلال جبل فاروق لانهم بدون احتلال هذا الجبل لا سبيل لتشديد الحصار على المدينة.

وتمكن النصارى اخيرا من الاستيلاء على المرتفع المقابل لجبل فاروق ونصب فيه الملك محلاته ومعه فرسان سنتيقوب وفرسان الجمعية الدينية الاخرى «القنطرة» وفي مكان آخر نصب المدفعية بينما العمال دائبون على صناعة الحديد والعدة والذخيرة للمدافع والانفاط.

وامر الملك بتحصين ذلك المرتفع فجعل فيه الفين وخمسمائة فارس واربعة عشر الف راجل وزوده بالانفاط والبارود واوكل قيادته الى صاحب قادش وامده بالرجال والعتاد حتى

اصبحت المدينة مطوقة من جميع النواحي الا ناحية البحر وفي الليل امر المراكب والسفن بالاقتراب وكانت تنقل المدفعية والانفاط.

عاين المدافعون عن المدينة كل هذه التحركات فصبوا نيران مدافعهم على محلة الملك فاضطر لنقلها الى مكان آمن وامر باخراج المدافع من السفن، كما وصلت سفينتان من بلاد «الفلندر» محملة بالانفاط.

وبعد وصول المدفعية امر قائدها باصعادها الى المرتفع الذي يدافع عنه مركيز قادش تجاه جبل فاروق فنقلت خمسة انفاط كبيرة وبعض الحراقات وارسل الى محلة رئيس فرسان سنتيقوب ستة انفاط ثم وزعت الحراقات والمدافع والانفاط الباقية على القواد المرابطين حول المدينة، وقد كلفهم غاليا جدا تركيز هذه المدافع لان المدافعين كانوا يطلقون عليها النيران بكثرة ولا سيّمَا على العمال والمهندسين الذين يشتغلون في حفر الخنادق والمرابض للمدفعية.

وتمكن المسلمون من الخروج بخيلهم من الاسوار يقاتلون النصارى خارجها.

وراى الملك انه اذا استولى على احد هذه الابراج يفتح ثغرة في اجهزة الدفاع فسلّط مدافعه على الاسوار حتى فتح فيها ثغرة ونصبوا السلالم للصعود الى ذلك البرج والمسلمون الذين فيه لا يستطيعون الدفاع عنه لتعرضهم للخطر فنزلوا الى بهوه والقوا القنب المغمس بالزيت والقطران على السلالم فاحترقت وامطروا النصارى بوابل من البارود والسهام فردوهم خاسرين فامر الملكُ صاحبَ «نجرة» من شمالي البلاد بالتوجه بقواته لمساعدة المهاجمين.

وفي اليوم التالي جاء النصارى بسلالم جدد وصعدوا منها الى البرج ونصبوا اعلامهم فوقه. وعندما شاهد المسلمون النصارى رفعوا اعلامهم فوق البرج تحصنوا في الربض وشرعوا في اطلاق النار عليهم واستمر القتال يومين اضطر بعدهما النصارى الى التخلي عن هذا البرج فنزلوا الى بهوه وراى المسلمون ان لا طاقة لهم على استعادة البرج فاحرقوه وقتل عدد من النصارى فيه والباقون اصيبوا باضرار كبيرة بسبب النيران والدخان وقاوموا حتى اقبل اخوانهم لمساعدتهم واستمر القتال ثلاث ساعات ووقعت خسائر كبيرة من الجانبين، وكل شبر يتقدمه النصارى يكلفهم غاليا جدا مغموسا بدمائهم.

وراى المدافعون ان لا طاقة لهم على صد النصارى المتزايد عددهم غير عابثين بالخسائر الجسام التي يتكبدونها، ارتدوا الى المدينة استولى العدو على الربضين ودخل «مندوسة» احد القواد بجنوده من احد الابواب في الربض وانتشر رجاله في الشوارع والاماكن التي يجهلونها

فيه والمسلمون العارفون بالمداخل والمخارج هاجموهم فجرحوا بعضهم وقتلوا البعض الآخر ولاذ الباقون بالفرار من الباب الذي دخلوا منه وخاف الذين هم في البرج فالقوا بانفسهم منه وتخلوا عن تلك الناحية من الربض واوقع بهم المسلمون خسائر فادحة فاقبل اخوانهم لنجدتهم واستمر القتال عنيفا وتمكن النصارى من استعادة البرج بعد ان كانوا جلوا عنه ولكن كلفهم غاليا جدا.

وصول الملكة ايزابيل:

طال الحصار والمسلمون يدافعون عن مدينتهم ويلحقون الاضرار الفادحة بالعدو وحصل نقص في صفوف النصارى وحصل تذمر وظن البعض منهم انه بسبب هذا النقص لا يتمكن فرننده من مواصلة الحصار وان الكثير من الرجال يتخلون عن مراكزهم بدون علم الملك ويلتحقون ببيوتهم ، وخافت الملكة سوء العاقبة فكتبت الى الملك تطلب منه فك الحصار عن المدينة. ودرى المسلمون برغبة الملكة ايزابيل بفك الحصار عن مالقة. فما كان من الملك الا ان كتب اليها يدعوها للمجيء الى مالقة ليتاكد المسلمون من تصميم الملكة على الاستيلاء على مدينتهم.

وصلت الملكة الى محلة الملك فاستقبلها بحفاوة ووجد في وصولها تفريج كرب وعزاء للخسائر الفادحة التي تكبدوها وما زالوا يتكبدونها دون نتيجة ملموسة.

طلب الملك من السكان الاستسلام ، ؤوصل النداء الى الاهالي فلم يشأ حامد الثغرى الاصغاء له وازداد اقتناعا بقدرة المدينة على المقاومة لا سيّمًا وان الامطار وشيكة الوقوع والشواطىء تصبح خطرة على السفن فيغادر الاسطول تلك النواحي وياتي الافارقة لمساعدة اخوانهم.

وشاء بعض الاهالي الاصغاء الى نداء الملك النصراني فقتل الغماريون بعض هؤلاء الراغبين في الاستسلام ليكونوا عبرة لغيرهم ، واجتمعت الكلمة على مواصلة القتال.

سلّط الملك انفاطه على الابراج واستمر الضرب عدة ايام حتى فتحوا ثغرات في الاسوار.

وتم القرار على ان يتقدم صاحب قادش بقواته الى القلعة حيث تدمرت الابراج واضطر لتنفيذ الاوامر رغم ثقته بعقم المحاولة.

راى المسلمون ان النصارى قد دنوا منهم فخرجوا عليهم بالفي رجل بهجمة صادقة واخترقوا اجهزة دفاعهم وهرع الجلالقة لنصرة صاحب قادش واضطروا للقتال راجلين والمسلمون فوقهم يقتلون منهم ويجرحون وتواصلت النجدات الى النصارى وانتشر القتل فيهم وتكاثرت النجدات فكفّ المسلمون عن قتالهم بعد ان قتلوا عدة قواد منهم وجرح صاحب قادش بسهم نارى في ذراعه.

وتراجع المسلمون الى الحصن وراى صاحب قادش الخطر الكبير المحدق به والاستفادة الضئيلة من وجوده قريبا من الحصن فارتد الى نقطة انطلاقه.

وبينما الامور تجري على هذا النحو في مدينة مالقة والنصارى لا يمتلكون شبرا الا بالتضحيات الكبيرة من الرجال والعتاد والكثير من المراكب لا تصل اذ يستولي عليها الافارقة. واحتار الملك والملكة في امرهما، طال الحصار ولم يبلغا ماربهما من المدينة ولم يجدا من حسن الراي التخلي عنها بعد الخسائر الفادحة التي تكبداها فقررا الاستمرار حتى النهاية.

والامور في غرناطة على اسوأ حال فالعداوة مشتدة بين ابي عبدالله الصغير وعمه الزغل الموجود في وادي آش. ودرى الشعب هناك ان مالقة محاصرة وتحتاج الى نجدة فحث الفقهاء محمدَ عبدِالله الزغل على الجهاد وانقاذ مالقة فارسل الفرسان والمشاة الى المدينة المحصورة.

ودرى ابو عبدالله الصغير ان عمه ارسل المتطوعة الى مالقة فجمع ما استطاع من الفرسان واخرجهم الى قتال المتطوعة ودارت المعركة بين الفريقين وتغلب فرسان غرناطة على فرسان وادي آش فقتلوا وجرحوا بعضهم وفرّ الباقون.

واسرع عبدالله الصغير واطلع الملكين الكاثوليكيين على فعلته واعلمها ان مالقة متضايقة من الحصار فاذا شدا عليها برا وبحرًا فلا شك انها مستسلمة.

وارسل مع الكتاب هدايا للملك والملكة من غالي اقمشة الحرير والعطور.

شكراه على حسن صنيعه وامرا حماة الثغور بعدم التعرض له بل مقاتلة عمه ابي عبدالله الزغل.

تجول فرسان غمارة في المنازل يبحثون عن الطعام وكل من رفض اعطاءه قتلوه واستولوا على ما في بيته. ولم يكن معسكر الملك فرنانده احسن حالا فالناس ملت القتال وطال الحصار وكثر الجرحى والمرضى وتفشت الاوبئة في المعسكر ونالت منه اكثر مما نال العدو وخشي الملك من شبوب الحرائق فتلتهم كل شيء وخاف من تسميم الآبار فامر بابعاد جميع

المدجنين من المحلات خشية الخيانة وبث العيون والارصاد لمراقبة كل واحد يدخل ويخرج من المعسكر وعاقب المخالفات بصرامة.

ونقص الخبز فاضطرت الملكة لاحتكاره وتوزيعه على المقاتلين اربع اونصات في الصباح واونصتان في المساء.

وحفر النصارى الانفاق للوصول الى المدينة وشعر بهم المسلمون فحفروا قبالهم والتقى الطرفان في الانفاق والخنادق، واستمر الحال على هذا المنوال ستة ايام وتضايق النصارى كل الضيق اذ لم يدركوا وطرا من خصومهم الذين الحقوا بهم اضرارا جسيمة.

واشتد الجوع في المدينة فلم يعد يطيقه المدافعون عنها.

وعرف المسلمون في الاندلس ما يعاني اخوانهم في مالقة فاحبوا مساعدتهم.

وكان رجل مسلم اسمه ابراهيم الجربي من مدينة جربة بتونس يقيم في مدينة وادي آش راودته فكرة قتل الملك والملكة وبذلك ينقذ مالقة والمسلمين منهما. اشتهر هذا الرجل بالقداسة والتقوى وتنبأ ان مالقة ستنتصر على النصارى فصدقه المسلمون وقرروا الدخول اليها من ناحية البحر فجمعوا قوة من اربعمائة رجل وفي الفجر فاجأ مائتان منهم النصارى وقاتلوهم بعنف وتوصلوا الى المدينة.

جاء هذا التونسي على قصد الوقوع اسيرا في ايدي الاعداء لتنفيذ ماربه وجاء النصارى للبحث عن المسلمين الذين قدموا لمساعدة اخوانهم فلم يجدوا سوى ابراهيم التونسي الدرويش منصرفا الى الصلاة فاخذوه اسيرا وسلموه لصاحب قادش. فسئل عن حاله فاجاب انه يعرف الحدثان. فساله صاحب قادش هل يعلم كيف ومتى تؤخذ هذه المدينة؟

فاجابه انه يعرف ذلك بدقة وان الله ارسله وامره الا يبوح به الا للملك والملكة سرا.

ارسل صاحب قادش يخبر الملك بامر هذا الدرويش فاوعز الملك باحضاره فحمل الى مضرب الملك والملكة تحيط به جماعة دفعها التطفل لمرآه لان شهرته وصلت الى اسماعهم.

وحدث ان الملك تناول طعام الغذاء وشاء الاستراحة قليلا بينما الملكة انصرفت الى تدبير بعض شؤونها فوضعوه في مضرب المركيزة «موية» وفيها احدى صديقاتها واحد الاشراف فظن الدرويش انهما الملك والملكة فانتضى خنجرا مخبأ بين ثيابه وطعن به النبيل «الفاره» طعنة اودت بحياته وشاء طعن المركيزة فارتعشت يداه ودخل امين الصندوق صدفة وانقض على الناسك وتعاركا ولجم يده ومنعه عن الحركة وهجم عليه الحرس فمزقوه وجمعوا اشلاءه

ورموها بالمنجنيق الى المسلمين فاخذوها ودفنوها بكل احترام وتجلة واخدوا نصرانيا اسيرا عندهم فقتلوه وارسلوه على ظهر حمار الى محلة النصارى.

ومرت الايام والجوع يشتد فلم يعد احد ياكل خبزا بل لحم الحيوانات وجلود البقر ونواة النخل يطحنونها ويصنعون منها خبزا.

وفضل المسلمون من الاهالي والتجار العبودية والمنفى على الموت جوعا، فاجتمعوا الى فقيه اسمه ابراهيم الحريز وشريفين من اعيان المدينة هما عامر بن عامر وعلي دردش وبعض التجار واعيان المدينة وتكلم الفقيه باسمهم مع حامد الثغرى قائلا:

«نناشدك بالله القوي ان تسلم المدينة لعاهل النصارى للاحتفاظ بحياتنا فانت قائدنا لا تكن عدوا لنا الجوع قتلنا والنصارى يقتلوننا بالسيف، انظر كيف ان الكثيرين من ابطالنا لاقوا حتفهم نساؤنا واطفالنا يصرخون طالبين الخبز ولا نلبي طلبهم فاذا كنت تشعر بقوتك فاخرج وقاتلهم في ساحة الوغى.

لم يعر الثغرى اقوالهم اذنا صاغية بل صمم على مواصلة القتال.

وخرج لمقاتلة العدو فانقض على فرسان سانتيقوب والقنطرة وكانت مفاجأة للنصارى فاعملوا فيهم السيوف واقبل اخوانهم من فرسان «بورتوكاريرو» لنجدتهم واشتبكوا في معركة حامية تغلبت فيها الكثرة على الشجاعة فتقهقر المسلمون الى المدينة بعد ان خسروا عددا من رفاقهم.

وانسحب حامد الثغرى الى قلعة جبل فاروق وقرر الباقون التفاوض مع النصارى فاقبل ابراهيم الحريز الفقيه وعلي الدردش وعامر بن عامر وثلاثة آخرون وطلبوا من الملكة الامان على انفسهم وممتلكاتهم وهم يسلمون المدينة.

وطلب الملك والملكة من صاحب ليون ان يرد عليهم، فقال لهم: لو انكم استسلمتم في اول الامر من دون قتال لنلتم ما ناله سكان بلّش ولكن بعد هذه المقاومة العنيفة وبعد هذه الخسائر الجسيمة التي الحقتموها بقواتنا لا يمكن اعطاؤكم الامان بل عليكم ان تخضعوا لمشيئة الغالب.

عاد الوفد الى المدينة واطلع السكان على الجواب الذي سمعوه فضجوا وقالوا: اذا لم يعطنا الملك الامان نقتل خمسمائة من النصارى الاسرى ثم نحرق المدينة بمَا فيها والقادر منا على حمل السلاح يقاتل حتى الموت.

فحنق الملك من جوابهم وتهديدهم بقتل النصارى فوجه اليهم من ينذرهم بانهم اذا قتلوا اسيرا واحدا من النصارى يذبحون عن بكرة ابيهم ذبح النعاج.

فقرروا الكتابة الى الملك والملكة:

باسم الله الرحمن الرحيم: الى مولانا الملك ومولاتنا الملكة اللذين هما من اعظم ملوك الارض، اننا نضع انفسنا تحت تصرف جلالتكما ونقبل الارض التي وطأتها اقدامكما. عبيدكم الموجودون في مالقة كبارا وصغارا، يتوسلون الى جلالتكما ان تعاملوهما بالحسنى مثلما اجدادكم الملوك عاملو اباءنا واجدادنا وانتم تعلمون كيف سقطت قرطبة بعد حصار طويل حتى استولى النصارى على نصفها تقريبا وبقي المسلمون في النصف الآخر وطلبوا من اجدادكم ملوك قشتالة وارغون مسامحتهم بعد ان نفذ القوت من عندهم وكذلك ملوكنا رحمهم الله اقبلوا الى النقيرة للسلام على جدكم.

ونحن عبيدكم نعترف بخطأنا ونضع انفسنا تحت تصرفكم ومعاذ الله ان تعاملونا بالسوء بل بكل ما يتناسب وكرمكم ورحابة صدركم وتقواكم وفضيلتكم.

وهذا رد الملك:

«من الملك الى جميع من هم بمدينة مالقة: قرأت رسالتكم التي شئتم بها اطلاعي على رغبتكم في تسليم جميع ما في المدينة وتغادرونها الى حيث تشاؤون، فلو ان هذا الطلب جاء منذ تسليم «بلّش» لجرى الامر على ما تشتهون ولكن بمَا انكم انتظرتم حتى النهاية فلا يسعني الا التصرف بكم كما يلذ لي.

ولمّا قرأ اهل مالقة جواب الملك اضطربت قلوبهم ومنهم من مالوا الى قتل جميع الاسرى واحراق المدينة وقتل انفسهم وغيرهم عللوا انفسهم بالامل في الخلاص اذا استسلموا لمشيئة الملك. وتغلب هذا الرأي على رأي المتطرفين.

وقصد الدردش محلات الملك واتفق معه سرا على ان يحوّل جميع سكان مالقة الى الرقيق الا اربعين عائلة من اقاربه يظلون في المدينة بكل ما لهم ويصبحون من المدجنين.

ثم ان الدردش سلّم الملك القلاع والابراج والمساجد فامر بالمناداة في الشوارع: كل من يتعرض لاحد من المسلمين بالقتل او السرقة او النهب يقتل.

اقتيد جميع سكان مالقة عبيدا الى قشتالة الا الذين دفعوا الفدية، ثم وزعوا على بيوت الاغنياء يشتغلون فيها حتى يجمعوا الفدية المطلوبة.

كم كان عددهم؟ يمكن اعطاء رقم تقريبي، تعد مالقة في ذلك الوقت ثلاثة الاف منزل فاذا افترضنا انه في كل منزل يوجد خمسة اشخاص فيكون المجموع خمسة عشر الف نسمة.

وقبل ان يغادر الملك فرننده المدينة رمم الاسوار والقلاع والابراج ثم امر الملك والملكة بالاستيلاء على جميع الاسلحة والمدفعية وامرا باخراج جميع السكان من بيوتهم والتجمع في ساحتين وامر بقتل القائد حامد الثغرى بعد ان سالوه عن السبب في جلب الويل عليه وعلى جميع اهالي مالقة فاجاب انه استلم قيادة هذه المدينة للدفاع عنها او الموت دونها.

تقسم سكان مالقة على النحو التالي:

– قسم لافتكاك الاسرى النصارى الموجودين في افريقية.

– والقسم الثاني وزع على جميع الفرسان والقادة من اراغونيين وبلنسيين وقشتاليين وبرتغاليين وغيرهم من الامم التي اشتركت في القتال مراعين بذلك استحقاق كل فرد منهم والبطولة التي اظهرها في ساحة الوغى.

– والقسم الثالث بيع كالرقيق لسد نفقات الحصار الطويل الامد الذي استغرق ما يزيد على ثلاثة اشهر ارسلوا الى ملكة نابولي مائة جارية والى ملكة البرتغال ثلاثين جارية وبقي قسم كبير من الجواري في القصر الملكي.

وكان استسلام المدينة للملكين الكاثوليكيين في الثامن عشر من آب سنة ١٤٨٧، وقد ظلت في ايدي العرب سبعمائة وسبعين عاما.*

وكان كريستوف كلمبوس قد توجه الى مالقة خلال الحصار ولكن لم يشترك في القتال.

وعاد مع الملكين الى قرطبة بعد اكمال الترتيبات في مالقة، واستقبلهم ولي العهد الامير جوان وحاشيته ورئيس اساقفة المدينة وقدموا صلاة الشكر ونالوا بركة كردنال اسبانية.

هذه معركة مالقة كما قدمتها الروايات النصرانية اما الرواية الاسلامية المذكورة في «نبذة العصر من اخبار ملوك بني نصر» فتقول:

«فلما استخلص العدو مدينة «بلّش» سار بمحلته نحو مدينة مالقة فنزل عليها وقاتلها قتالا شديدا واحاط بها من كل جانب ومكان برا وبحرا فتحصن اهل مالقة ببلدهم واظهروا ما كان عندهم ومعهم من السلاح والعدة والانفاط، وكان فيهم جملة من نجدة الفرسان فقاتلوا الروم قتالا شديدا وقتلوا منهم خلقا كثيرا حتى انه قتل من الروم في يوم واحد اثنا عشر الفا

وسبعمائة ومع ذلك بقي العدو يفتح عليهم ابوابا من الحرب والحيل والمسلمون قائمون بحراسة بلدهم ويغلبون عدوهم ويقتلون من قرب اليهم منهم وهم صابرون حتى ضيّق عليهم العدو ودوّر بالمدينة سورا من تراب وسورا من خشب وحفيرا مانعا ومنع عليهم الداخل والخارج في البر ومنع عليهم في البحر بالمراكب وشد عليهم في الحصار وهم مع ذلك صابرون يقاتلون اشد القتال ولا يظهرون جزعا ولا هلعا ولا يطمعون العدو في شيء مما يرونه منهم حتى نفذ ما عندهم من الاطعمة والزاد واكلوا ما عندهم من المواشي من خيل وبغال وحمير وكلاب وجلود وورق الشجر حتى فني ذلك كله واثر فيهم الجوع اثرا عظيما ومات كثير من نجدة رجالهم الذين كانوا يوالون الحرب والقتال، فحينئذ اذعنوا وطلبوا الامان فاحتال عليهم العدو حتى دخل البلد بمكر ومكيدة واسرهم كلهم وسبا نساءهم واولادهم واحتوى على جميع اموالهم وفرقهم على اهل دخلته وقواده. وكان مصابهم مصابا عظيما تحزن له القلوب وتذهل له النفوس وتذوب وتبكي مصابهم العيون بالدماء فانّا لله وانّا اليه راجعون».

بعد الانتصار الذي احرزه الملكان الكاثوليكيان في مالقة وتدبير الامور فيها توجها الى قرطبة كما أشرنا ومنها الى سرقسطة لحضور اجتماع مجلس الامة في أراغون، فانتصار هذا الملك الارغوني في مالقة ايقظ حماسا كبيرًا في اسبانية وتبرع الاراغونيون بمبالغ ضخمة لمواصلة الحرب ضد المسلم، وهتفوا بحياة ولي العهد الأمير جوان الذي بلغ التاسعة من عمره.

ومن سرقسطة انتقل البلاط الى بلنسية ومنها الى مرسية حيث اجتمع الجيش لصائفة ١٤٨٨، ولكن الملك ارتكب خطأ فادحا هذه المرة لانه ارسل من هذا الجيش المعد لصائفة ١٤٨٨ قوة لا يستهان بها لمساعدة دوق «بريطانية» الفرنسي الذي ثار على الوصية على عرش فرنسة باسم الطفل كارلوس الثامن، اذ انه اذا نجحت ثورة مثل هذه ضد فرنسة تساعده على استعادة منطقة «الروسليون» وجزيرة سردينية، غير ان الثورة فشلت وفشلت معها الحملة التي ارسلها فرناندو الكاثوليكي لمساعدة الثائر فان اكثر من الف فارس اسباني قتلوا او اسروا في هذه المحاولة الفاشلة.

هذا من جهة ومن جهة ثانية فان الجهود التي بذلها في الدفاع عن صقلية اضعفت صائفة ١٤٨٨ ايضا، اذ انه لم يتمكن من حشد اكثر من تسعة عشر الف رجل في مرسية.

ادرك الزغل ان الملك فرننده ينقصه الرجال والاموال فاغتنم الفرصة وهاجم المناطق النصرانية الواقعة على الحدود واستولى على كثير من الانعام وسبا النساء والاطفال، حتى

وصل الى منطقة مرسية. كما انه في الناحية الغربية استرد الكثير من المدن التي كانت قد سقطت في ايدي النصارى.

وكما لو ان الله شاء معاقبة الملك الكاثوليكي على ما ارتكبه من فضائح ضد سكان مالقة بعد استسلامهم اقبلت سنة ١٤٨٨ تنذر بالشر المستطير، انتشرت الفئران بصورة مدهشة مهددة بالويل، تخرج من كل مكان من تحت الارض من الجدران من السواقي والاوكار، فعمت المنازل والساحات العامة والدور الفخمة والقصور المنيفة وصحون الكنائس تحمل وباء الطاعون.

وفي اواسط شهر شباط كان قد توفي اربعة آلاف شخص في «استيجة» وثمانية الاف في «شريش» و «اشبيلية» و «قرطبة».

يدفنون الموتى في الليل دون جنازة ودون صلاة ودون قرع اجراس. الخوف عمّ الجميع تجاه هذا الوباء فالاشراف والاسياد والاعيان والرعاع كلهم هربوا من المدن الى الحقول مع عائلاتهم والمطرانيات اقفرت ايضا من ساكنيها، ولم يبق الا القليل من الكهنة في دور محاكم التفتيش لكي يسمعوا اعترافات المرتدين من المسلمين واليهود. وكثر الوشاة ونقص الشمع وكثرت الصلوات وقل الكلس وتحولت الاديرة الى مستشفيات.

وكيفية الاحتراز منه كما وصف الاطباء العرب: تنقية البدن وتعديل مزاجه، فتقلل الفاكهة والشراب والمرق ويقتصر على المجففات، والصحناء الشامية نافعة ايضا والحوامض كلها جيدة والتبخير بمَا يصلح كيفية الهواء بالادوية التي لها في ذلك خاصية كالكافور والسعد والصندل والمسك والعود والعنبر والاترج وورق الغار ورش البيت بماء الورد وتقريب الفواكه العطرة كالتفاح والسفرجل والكمثرى والزعرور واطراف الاشجار والزهور الباردة. وقال لسان الدين بن الخطيب من القرن الرابع عشر:

ما للوباء من الدواء سوى السفر والبعد عنه، فذا الذي فيه اشتهر
فعلى الكراهة جلهم حمل الخبر والاجر يحصل للمقيم اذا صبر

او هذان البيتان:

يا من يفر من الوباء بزعمه ويرى الخروج الى الرياض يقيه
هذا على الاطلاق ليس يقوله من كان يدعى عندنا بفقيه

انه مرض حاد يتصل بالروح بدأ بواسطة الهواء ويسري في العروق فيفسد الدم ويحيل رطوبته الى السمية وتتبعه الحمى ونفث الدم او يظهر عنه خراج من جنس الطواعين.

سببه الامور الفلكية من القرانات التي تؤثر في العالم حسبما يزعمه ارباب صناعة النجوم وياخذه الطبيب مسلّما عنهم.

وسبب ادنى وهو فساد الهواء الخاص على ظهوره ابتداء او انتقالاً.

اعراضه: الحمى المحرقة بجميع خواصها ثم نفث الدم او ظهور الخراج فيما خلف الاذنين او الابطين او غير ذلك.

العلاج: على ضربين ضرب يقصد به التحريز منه قبل وقوعه وينقسم قسمين: احدهما استفراغ المادة الزائدة واصلاح الاغذية باختيارها معتدلة مائلة الى البرد والتغليظ واصلاح الاهوية والمجالس بالطيوب الباردة والرياحين.

والثاني وهو الاجدى: اجتناب مظان الفساد من المريض والميت او ثوبه او انيته او اليفه او سكنى محله او مجاورة البيت الذي فشى في اهله ومتى دعت الضرورة الى بعض ذلك كانت المخاطرة على الحقان ونزف وامساك تنفس والاكباب على مشموم واخذ اعالي الرياح على محل الافة من اعظم اسباب النجاة باذن الله.

وضرب يقصد به علاج المرض بعد استقرائه وحقه الاحالة بعد اطواره ففي كونه حمى بمّا قيل في الحمى، او نفث الدم فيعالج ذات الرئة وفي كونه خراج، بعلاج الخراج من تسكين الذرع والانضاج والتفجير بالدواء او بصناعة اليد.

ومما يتوثق اليه من تقدمة المعرفة في هذا العرض فعلى وجهين اما باعراض عامة من الغشي وبرد الاطراف وفساد العقل وغيرها من اعراض الهلاك، او باعراض خاصة تتبع البثور من الوان الخضرة والطاوسية والاسمنجوية والسواد او احوال تظهر من شهوات لبعض الفواكه والبقول.

واذ قد فرغنا من هذا القدر فلنذكر حال هذا الامر في بدن الانسان بمّا تقرر عندنا منه فنقول انه اذا ورد على بدن الانسان ابتدأ لاستعداده وهو الاقل او انتقالا وعدوى وهو الاكثر انفعل له الروح اما دفعة او بعد مصابرة بحسب الاستعداد فسخن وحدثت الحمى وسرى في الشرايين وعم الحر الغريب وفسدت الرطوبات المبثوثة في العروق وغلى الدم غليانا عصاريا قاذفا بالرطوبات الفاسدة الطافية وعند ذلك تبادر الطباع بقدرة باريها سبحانه الى دفع ذلك، فان كانت مضطلعة به قاهرة اياه واعانتها هيئات قمرية فلكية حسبما ذكره المتكلمون في البحران دفعتها باذن الله على سبيل البحارين ومن مجاريها المتعارفة بولا او ابرازا او عرقا او رعافا او نزفا فكان في ذلك النجاة وان قصرت عن هذا المقدار صرفتها الى المواضع التي تندفع اليها مواد الاعضاء الرئيسية اذا اهمها امرها وقدرت على دفعها وهي المغابن من خلف الاذن وتحت الابط واصل الفخذ وكل باذاء عضو من دماغ وقلب وكبد فاذا استقر قرارها هنالك ان فصل من هذا القدر من

المدافعة فضل وكان في نشاطها ومددها من الروح سعت حضرة العدو بذلك الموضع وادارت الحال الغريزي بها القهر المواد السمنية وشرعت في انضاج المادة وتفجيرها او تحليلها من قبل ان تجمع فوقع ايضا الخلاص بهذه السبيل.

وان كانت الطباع غير مضطلعة بهذا الامر الوارد عليها ولا قاهرة لتلك المواد السمية فاما ان تخور وتلقي بيدها فتقع الانذارات الرديئة وتندفع تلك المواد الى اقرب المواضع القابلة لها من محل الآفة وهي الرئة لسخافتها وحركتها وانفعالها واستجداها لمباشرة الانتشاق السميّ منذ اول الامر فورمت وظهرت فيها اعراض ذات الرئة وفسدت اعضاء الصدر بالمجاورة فدفعت تلك المواد الى المواضع الثلاثة المذكورة او غيرها بعد ان كادت تستقر بالرئة ووقع الاحساس ببعض اعراضها ثم كان تراجعها بعد ان استنفدت وسعها كليلة الى مركزها فاستاسدت خلفها السورة السمية وظهر سلطانها فقهرت الروح واطفاته. اما مع بقائها اوراما ظاهرة او مع غورها واستبطانها فكان الهلاك على هذا السبيل.

هذا مقتضى الصناعة وما يعطيه النظر بعد مراعاة مقدماتها من تشريح وغيره.

واذ قد فرغنا من هذا القدر فنحن نتعقب الفاظ هذا القول بمّا عسى ان يزيل اشكالا او يجر فائدة فنقول:

ان قيل ما معنى الاستعداد الذي تكرر لفظه في هذا الغرض ووقف عليه كثير من مفهوم العدوى، قلنا الاستعداد تهيء شيء لقبول شيء بمناسبة ومشاكلة له حتى يلبس صورته على مسامحة في هذا التعريف فاذا اتفق ان يكون المزاج الشخصي قريبا في عرضه من مزاج الوارد السمي مستعدًا لقبوله، قَبِلَهُ ومال اليه من غير مدافعة ولا ممانعة كما يثب الزئبق على الذهب لشبهه بمناسبته اياه فيغوص فيه ويتحد به ويسرى في الامشاج والرطوبات بسريان الروح فيفسدها افساد السموم.

وان اتفق ان يكون بعيدا منه في عرض مزاجه قاومه مقاومة الضدية تكون المانعة والموافقة، وقد يكون هذا البعد خلقة للمزاج، او يحصل العلاج ولذلك حرص الاطباء عند تعرفهم بالحدس طبيعة هذا المرض على الميل بالتدبير الى طرف من مضادته يخرج عن سبيل الاستعداد من رد دعواى. والانتقال كثيرا من المباشرين للمرض سلموا من مضرته مع الملازمة والقرب من المريض، وهلاك آخرين ممن لم يباشروا او باشروا مباشرة يسيرة ان لم يعلم الجمهور ان علة السلامة او العطب بقدرة الله انما هي الاستعداد او عدمه وان الناس في الاقتراب من نار تلك السمية بمنزلة الفتل التي تقرب من النار والمشعلة من السراج وان ما يكون قريب عهد بالايقاد والحرارة والدخانية اسرع به تعلق النار لحينه وهذا مثال المستعد الوافر الاستعداد. وما كان جافا غير قريب العهد بالنار قبل الايقاد بعد انفعال في زمان اطول من الاول وهو مثال الشارع في الاستعداد، وما كان من الفتل بليلا مشربا مائية اشتعل بعد طول مصابرة وتنشيف وبعد زمان تجف مائيته فاما ان يتم اشتعاله بطول الزمن وعمل الدوب او ربمّا غلب الفاعل لضعفه عنه او خمد الفاعل قبل مصابرته وهذا مثال البعيد عن الاستعداد ومحله من المخاطرة ما علمت والجهل بهذا المعنى

غلط الناس وعدد مصارعهم ولله در القائل :

«ما يبلغ الاعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه»

فان قيل : كيف تسلم دفع العدوى وقد ورد الشرع بنفي ذلك؟

قلنا : وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والاخبار المتواترة وهذه مواد البرهان. وغير خفي عمن نظر في هذا الامر او ادركه هلاك من يباشر هذا المريض بهذا المرض غالبا، وسلامة من لا يباشره كذلك، ووقوع المرض في الدار والمحلة لثوب او انية حتى ان القرط اتلف من علق باذنه واباد البيت باسره ووقوعه في المدينة في الدار الواحدة ثم اشتعاله منها في افذاذ المباشرين ثم في جيرانهم واقاربهم وزوارهم خاصة حتى يتسع الخرق، وفي مدن السواحل المستصحبة حال السلامة الى ان يرحل بها في البحر من عدوة قد شاع عليها خبر الوباء رجل موف فيكون تاريخ ظهور المرض بها متعاونا بحلول وسلامة الكثير ممن اغيى في التوحش كالزاهد ابن ابي مدين بمدينة وكان من القائلين بالعدوى وقد تزود لمدة وبنى باب منزله على اهله وهم كثيرون وفنيت المدينة ولم يبرز انسمة واحدة بطول تلك المدة وتوارت الاخبار بسلامة اماكن لا تطأها الطرق ومنقطعة عن الناس، ولا عجب لهذا العهد من سجن الاسرى من المسلمين انقذهم الله بدار منعة اشبيلية وهم الوف لم يصبهم الطاعون وقد كاد يستاصل المدينة، وصح النقل بسلامة اهل العمود والرحالين من الغرب بافريقية وغيرها لعدم انحصار الهواء وقلّة تمكن الفساد منه. وفي هذا الباب وارتكاب اللجاج فيه الجم في الناس سيف الطاعون وسلط الله عليهم من بعض المفتين من اعترضهم بالفتي اعتراض الازارقة من الخوارج للناس بالسيوف فسالت على شب اقتلامهم من النفوس والمهج ما لا يعلمه الا من كتب عليهم الفناء بسببه وان كان بريء القصد من المضرة وقوفا مع ظاهر لفظ الحديث.

ومن الاصول التي لا تجهل ان الدليل السمعي اذا عارضه الحس والمشاهدة لزم تاويله والحق في هذا تاويله بمَا ذهب اليه طائفة ممن اثبت القول بالعدوى. وفي الشرع مؤنسات عديدة كقوله لا يورد مرض على مصح. وقول الصاحب افر من قدر الله الى قدره وليس هذا موضع الاطناب في هذا الغرض والكلام في القول بالعدوى او بعدمها شر ما ليس من وظائف هذا الفن انما جرى مجرى الجمل المعترضة والمثل وله تحقيق في محله.

وبالجملة فالتصامم عن مثل هذا الاستدلال زعارة وتصاقر على الله واسترخاص لنفوس المسلمين وقد وقف من اهل الورع بالعدوة الى الناس مستقلين مشهدين على انفسهم بالرجوع عن الفتوى بذلك تحرجا من تسويغ الالقاء باليد الى التهلكة، عصمنا الله من الخطل ووفقنا في القول والعمل.

ان قيل ما عندكم في اصل هذا الوباء ومنكم ظهر في الارض قلنا هذا الواقع ابتدأ بارض الخط والصين في حدود عام اربعة وثلاثين وسبعمائة (الف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين مسيحية)، حدّث بذلك غير واحد ممن يوثق به من اولي الرحلة البعيدة والجولان كالشيخ القاضي الحاج ابي عبدالله بن بطوطة وغيره.

قالوا لجيف كثيرة اجلت عنها حرب بتلك الجهة فتعفنت بعد ان تقدمها بذلك الاقليم حريق نار اتى على النجم والشجر فيما يناهز عشر مراحل ففسد الهواء وتقاضبت الاسباب القريبة بالاسباب القصوى وفشي في الخلق الموتان والوباء الغريب الذي من شانه وخواصه السعي والانتقال والدبيب فيما يجاوره من الارض البعيدة عن غرض البلد المعروف وظهر تعلقه بالمستعدين مع سلامة الهواء الى ان تكثر الآفات في الاماكن المتسعة من البلد فيفسد ما بينها ثم يتصل الفساد حسبما قدمنا. وشمل على هذه الوتيرة المعمور فبلغ ما هلك من نوع الانسان به في هذا الوقت المحدود بسبعة الاعشار ولم يتقدم فيما اتصل باولى الاطلاع من تواريخ الاسم خبر وتاء بلغ مبلغه من اخذه ما بين المشرق والمغرب واتصاله بالجزائر المنقطعة في البحر واستئصال اهل البيت والقرية على سبيل واحدة، يتعلق بالناس تعلق النار بالحلفاء والهشيم بادنى ملامسة من المام بمريض او بمباشرة ثوبه وآنيته وفيما ظهر فيه نفث الدم اشد وعند قبض النفوس اعظم.

وذكر انه في الاماكن الوبيئة اخف في الضعفاء واهل الشظف واقتل وبصنفي النساء والصبيان اسطى وقد تقدم به انذار طائفة ممن عني بتعديل القرانات الانتقالية وفصلّ احوال المدائن التي طوالعها معروفة في الاخذ بخطوطها من منحسته بحسب ادلتها من نصبة القران فلم يبعدوا عن الاصابة.

قولنا في حده مرض حاد حار السبب تحرز من السكتة والتشنج.

قولنا سمي المادة تحرز من غير السمي مما تحمل الطباع امره على التراقي فلا يظهر منها الخور والاضطراب المعتاد في طرق السموم وذكر المادة تحرز من غير المادى كالحر الحادث عن لهيب النار والشمس.

قولنا تتصل بالروح بدأ تحرز مما يتصل بواسطة عضو الى القلب.

قولنا فيفسد الدم تحرز مما يسخن الروح ويعفن الدم من الحميات البلغمية في المادى واليومية في غيره.

في سببه النجومي ياخذه الطبيب مسلما من صاحب ذلك الفن لخروجه عن الموضوع اذ هو من غير موضوع الطبيب فان تكلم فيه من حيث صناعة الطب كان مخطئا.

قولنا فساد الهواء الخاص نعني به هواء البيت الذي يصيبه ثم هواء القرية مثلا عند استحكامه مع سلامة ما يجاوره تحرزا من فساد الهواء العام لوجود السلامة في المجاور ولو كان فسادا عاما لبحر الهواء كما يفسد بحر الماء في الغدر التي يحتال فيها على طفو المسحل لم يقع ذلك.

ان قيل ذكرتم ان اللحم الغددي الذي في الاربيتين معد لمّا يندفع من الكبد واكثر ما يظهر الخراج بهما في هذا المرض وهو قلبي كما ذكرتم.

ثم قلنا ان نسبته للقلب بعلاقة سببه بالروح اولا تعم بلواه الاعضاء الرئيسية وربمَا دفع القلب المواد الى ما تحت الابط ما لم تكن المادة كهذه، واما في مثلها فلو وجدت الطباع مدفعا ابعد من ذلك في اسفل البدن لاستجمعت في دفعها اليه.

ان قيل اطلقتم القول بالمضادة على الحر الغريزي والحر السمي الغريب وهما تحت جنس الحر، قلنا المضادة تقع تحت الجنس الواحد فحرارة النار تضادها حرارة الشمس والسراج السليم المزاج يضاده

السراج الفاسد المزاج فيطفيه.

ان قيل اكان ما ينفث فيه الدم اقبل للعدوى من غيره.

قلنا لكونه اشد من غيره ولذلك لا تقبل البرء ولمناسبة التنفس للتنفس ومناسبة الرئة للرئة القابلة المستعدة ويشبه من الكلام الشعري الخارج عن هذا الغرض قول الواعظ الكلام اذا خرج من القلب دخل في القلب الى ما اختصت به الرئة من قبول العدوى في السل وغيره.

ان قيل كانت العدوى عند خروج الروح اشد.

قلنا لاقتلاع جرثومة الروح المتناهي الآفة التي ليس صورة المزاج السيء وربما تتخلل معه اجزاء بالغة غاية الانحراف كانت تقاومها الحياة بعض مقاومة ببقايا المزاج المختلف.

ان قيل باله في المواضع الوبئة اخف؟

قلنا ان صدق الزعم فللانسة من النفوس بالهوية الخبيثة وتعودها المصابرة له والتعاهد به كالذي يحكى عن بعض الجواري اللواتي يغذين بالسم بتدريج ويحتال بهن على الملوك.

ان قيل لاي شيء يكثر وقوعه في اهل الشظف؟ قلنا لامور منها امكان المباشرة لمظانه من المرض والجنائز والاثواب والات ومنها ضيق المساكن والتركم وسوء التدبير وعدم التحفظ وقلة التيقظ لفشو الجهل وعدم العلم بهذه الامور في طبقات اللفيف، ان قيل: ما باله يتفاحش في النساء والصبيان قلنا لوفور الرطوبة التي هي متعلق الحرارة وبمنزلة الدهن لنار السراج».

– لسان الدين بن الخطيب –

ووجد كلمبس ان قضيته في اسبانية بعيد التحقيق، فالملكان الكاثوليكيان مشغولان اكثر فاكثر بحرب غرناطة التي تزداد اشتعالا فراى ان يكتب الى ملك البرتغال.

وكتب له.

وما طال ان جاء الجواب يقول: «الى كريستفرو كلمبو، صديقنا الحميم، في اشبيلية: نحن دون جوان بنعمة الله ملك البرتغال والغرب وصاحب غينية، نرسل اليك سلامنا العاطر. قرأنا كتابك الذي ارسلته لنا ولمسنا فيه نيتك الحسنة ومودتك الصادقة التي عبرت عنها تجاهنا فنشكرك عليها جزيل الشكر.

اما بشأن مجيئك الى البرتغال فانه يكون ذا نفع كبير لنا، فنستفيد من خدماتك ويسرنا ان نراك، وليس عليك ان تخشى شيئا من عدالة الملك، لبعض امور صدرت عنك، فاننا نضمن لك انه لن يتعرض لك احد بسوء عند وصولك ولا طيلة اقامتك بيننا ولا في

عودتك ، فلا اعتقال ولا سجن ولا تهمة ولا مطاردة لاي سبب من الاسباب سواء كان مدنيا او جنائيا او ماليا او من اي نوع آخر.

استلم كلمبو الرسالة في ٢٠ آذار ١٤٨٨ عندما كان في مرسية ، وقرأها بامعان ودهش ، انها ودية للغاية ، لم يكن يتوقع مثل هذا الرد حتى ظن انها مزيفة ولكنها ليست مزيفة ، تكشف عن رغبة يوحنا الثاني البرتغالي في كسب وده.

سرّ بها كل السرور في بادئ الامر ثم داخله الشك والريب في حسن نوايا الملك البرتغالي ، هل دري ان كلمبو اختلس رسالة تسكنللي او نسخها على صفحة بيضاء في كتاب كان يحمله؟.

ان تصرفا مثل هذا التصرف يدعو الى التفكير. الملك البرتغالي طموح ، وطامع في اكتشاف اراضي جديدة يضمها الى امبراطوريته ولذا طلب الى كلمبو العودة الى البرتغال بكلمات معسولة ولكن في طيها سم قاتل. فهل يصغي الى طلبه ويلبي دعوته؟ من يعلم ماذا يحصل له لو لبّى دعوته. الملك يوحنا الثاني رهيب القصاص سريعه ، وقصة دوق «فيسو» معروفة ، شاء هذا الدوق تنظيم مؤامرة ضده ، فدرى بها ولم يكشف للدوق غضبه او رغبته في الانتقام منه ، بل على العكس ، استدعاه بحلو الكلام ولمّا مثل في حضرته وبخه وانبه على سوء تصرفه حياله واستل خنجرا اغمده في صدره ، هذه الرواية حديثة العهد ومرتسمة في مخيلة وذاكرة كلمبو تراوده من حين الى آخر ، هل يكون مصيره كمصير الدوق؟

استعرض العشرة اعوام التي قضاها في الكفاح لاجل الوصول الى غايته ولم يدركها حتى الآن : ابتدأ في اشبونة مع الملك يوحنا الثاني البرتغالي ، ثم قدم الى قشتالة ، في جنوبها ، ببالس دير الرابطة اشبيلية شلوقة ، وقرطبة وشلمنقة وقرطبة مرة اخرى واشبيلية من جديد والآن مرسية ، فقد اعلمه احد الملاحين واسمه «بلشقه» VELASCO الجليقي انه في رحلة نحو ايرلندة توغل كثيرا في جنوبي غربي تلك البلاد ولاح له في الافق البعيد اراضي.

ماذا ينفعه ان اصدقاءه كثيرون في البلاط الملكي؟ وكلهم عارفون بقصته : ملك البرتغال يوحنا الثاني ، كردنال اسبانية ، دوق قادش ، الملك فرننده ، الملكة ايزابيل الكاثوليكية ، كل هذه ذكريات راسبة في ذاكرته التعبة.

هؤلاء ليسوا اصدقاءه انهم اصحاب الامر وبيدهم الحل والربط ، كلمة واحدة من فم احدهم وتجعله اسعد الناس ولا يجودون بهذه الكلمة التي فيها سعادة انسان ، ما اقسى قلب الانسان.

عنده اصدقاء آخرون اقل مقاما ورتبة من هؤلاء الذي جئنا على ذكرهم وقادرون على التاثير على اولئك: الكردنال دياغه دي «ديسا» DEZA المطران الطلبيري، اندريس قبريرة، وامراته بيتريس بوعبديلية، المركيز والمركيزة «موية» MOYA صديقة الملكة الحميمة، وقد تعرضت للموت لو لم تضطرب يد ذلك الدرويش التونسي الذي شاء قتلها في مضربها وقد ظنها الملكة ايزابيل...، خوان قبريرة، من عائلة اراغونية يهودية مرتدة انه وصيف الملك فرننده الذي يثق به كل الثقة. لويس «سانتنجل» SANTANGEL، امين سر الملك ايضا من اراغون وغبريال سانتشس صاحب بيت المال وهو من المرتدين الاراغونيين ايضا.

ماذا استفاد من كل هؤلاء الاصدقاء؟ انه ما زال حيث كان منذ عشرة اعوام.

وجاءت سنة ١٤٨٨ ولم يتمكن الملك فرننده من احتلال اراضي جديدة في الاندلس على العكس خسر قسما من الاراضي التي استولى عليها من المسلمين في الاعوام السابقة، اهتم بشؤون فرنسة وجنوبي ايطالية واهمل الاندلس. ادرك بعد فوات الاوان انه لا يمكن القتال على جبهتين، وتوزيع القوى، والمسلمون اقوياء، لقد دلت معركة مالقة على قدرة المسلمين على المقاومة، بلغ الجيش القشتالي المحاصر مالقة ما يزيد على ستين الف مقاتل وسكان مالقة كلهم لا يزيدون على خمسة عشر الف شخص ومع ذلك فقد انزلوا ضربات موجعة جدا بالجيش القشتالي وكبدوه الكثير من الخسائر باعتراف القشتاليين انفسهم.

في سنة ١٤٨٩، الموقف تغير لا بد من صب المجهود كله على الاندلس حتى يستطيع الانصراف فيما بعد الى شؤون فرنسة وايطالية.

قرر في صائفة ١٤٨٩ مهاجمة بسطة واحتلالها فاذا تم له ذلك يكون قد عزل غرناطة ويصبح بالتالي الاستيلاء عليها امرا سهلا...

حصار بسطة:

لما درى ابو عبدالله الزغل المالك في وادي آش ان العدو ينوي مهاجمة بسطة جمع ما يقرب من عشرة الاف رجل اعتادوا على الضرب والطعان ووجههم الى تلك المدينة فجمعوا ما استطاعوا جمعه من حنطة وشعير واخذوا اسلحتهم وحصد اهل المدينة القمح قبل ان ييبس وخزنوه في الاهراء حتى لا يستفيد منه العدو، والمدينة ابراجها حصينة واسوارها منيعة

يحرسها شيوخ الغزاة ابو عبدالله محمد بن عثمان وابو الحسين الشريف وعبدالله بن عمران ويحيى النيار (سيدي يحيى كما تعرفه الرواية النصرانية).

توجه النصارى بجميع قواتهم لمحاصرة المدينة فنصب الملك فرننده محلته في البساتين القريبة من الارباض.

وراى القادة المسلمون ان تعبئة الجيش النصراني على هذا النحو ومرابطته داخل البساتين من شانه ان يمنع حركة تنقل قواتهم فخرجوا من معاقلهم وحصونهم لطرد النصارى من البساتين فهاجموهم من كل جهة وساعدتهم طبيعة الارض على رجاحة كفتهم لانهم يقاتلون راجلين في منطقة وعرة كثيرة الاشجار الغضة لا تسمح للخيول بالتحرك بسهولة.

ولمّا عاين النصارى هذه النتيجة والخسارة الكبيرة التي حلت بهم امر الملك الفرسان بالنزول عن خيولهم والانضمام الى المشاة وحمي وطيس الوغى، واستمرت المعركة اثنتي عشرة ساعة والحرب سجال ففي بعض الاماكن يتغلب النصارى على المسلمين وفي اماكن اخرى يتغلب المسلمون على النصارى، وعلى كل حال رجحت كفة المسلمين واختلط الحابل بالنابل نظرا لكثافة الاشجار فلا يميز العدو من الصديق فلا النصارى يتخلون عن القتال ولا المسلمون يجبنون امام عدوهم، والملك النصراني ينتقل من هنا الى هناك محثا الرجال على القتال ولكن الاشجار تعيقهم في جولاتهم وتتساقط القتلى بكثرة منهم.

وراى الملك ان ينقل محلته الى نقطة اقل خطرا ودرى المسلمون بامرهم فشنوا عليهم حملة صادقة قتلوا فيها الكثيرين من خيرة جنودهم.

وجمع الملك النصراني قواده للتشاور في فك الحصار عن المدينة وتضاربت الآراء واحب الملك ان يسمع رأي الملكة فردت عليه قائلة:

«لا افهم بشؤون الحصار واترك البت لكم ولكن اذا قررتم مواصلة الحصار فانا مستعدة لتزويدكم بالرجال والمؤونة وجميع ما تحتاجون اليه لاحتلال المدينة.

ولمّا وصل رد الملكة قرر الجميع مواصلة الحصار.

وراى الملك ان يقسم جيشه الى فريقين، الفريق الاول مشكل من المدفعية وآلات الحصار، والفريق الثاني يراسه الملك نفسه وبين الفريقين مدينة بسطة ومن الناحية الاخرى الجبال الشامخة ومن الناحية الرابعة البساتين بمَا فيها الاشجار الكثيفة وبين المحلتين مقدار نصف فرسخ بخط مستقيم ولكن مدينة بسطة بينهما ويقتضي الدوران فتصبح المسافة فرسخا

واكثر اذ يجب المرور بالبساتين الغضة ومن الصعب على الفريق الاول مساعدة الفريق الثاني والعكس بالعكس، فامر الملك بحفر الخنادق في المحلتين لكي يكون الجيش بمأمن من الغارات، وامر بقطع الاشجار، ووصل عدد المشتغلين في قطعها الى اربعة الاف يحرسهم الفا فارس وخمسة آلاف راجل.

لم يقف المسلمون مكتوفي الايدي، بل يخرجون كل يوم مرتين لمقاتلة العدو ومنعه عن قطع الاشجار ويدور القتال ويقع القتلى من الجانبين والملك فرننده مصر على ازالة هذا العائق الكبير امام جيشه.

وعلى هذا النحو طوقت المدينة من ثلاث نواحي ولكن المنطقة الجبلية ظلت مفتوحة والمسلمون يذهبون منها ويأتون ويأسرون ويقتلون النصارى الذين يخرجون من محلاتهم للتموين.

امر الملك بحفر الخنادق في تلك المنطقة الجبلية واستمر العمل طيلة شهرين والمناوشات لم تنقطع الى ان تمّ تطويق المدينة من النواحي الاربع.

درى ابو عبدالله الصغير المالك في غرناطة ان ضجة قامت ضده لانه يتقاعس عن نصرة بسطة، فامر باعتقال المشاغبين وقطع رؤوسهم، فخمدت الثورة، وارسل الاموال الى الملكة ايزابيلا لكي تحارب بها اخوانه المسلمين.

شاءت الملكة ايزابيلا ان تكون حاضرة في محاصرة بسطة وكان يرافقها ابنها البكر وخمسون سيدة.

وكريستفرو كلمبو توجه ايضا الى تلك المدينة وشاهد الاستعدادات الضخمة للاستيلاء عليها والدفاع المجيد الذي يظهره المسلمون والخسائر الكبيرة التي الحقوها بالجيش القشتالي بالرجال والعتاد، لم يشارك في القتال ولكنه يتجول بين فرسان قشتالة.

رسالة السلطان الاكبر في مصر للبابا:

شغلت هذه الاحداث الاندلسية المفجعة العالم الاسلامي وكان صداها يتردد في بلاط القاهرة لان زعماء الاندلس لمّا لاح لهم الخطر الداهم كتبوا الى امراء المسلمين من مشارقة ومغاربة.

وكانت مصر ترتبط يومئذ بثغور الاندلس مثل مالقة والمرية بعلاقات تجارية ولمصر آنذاك

هيبتها بين الدول المسيحية منذ الحروب الصليبية ولانها تحكم البقاع النصرانية المقدسة وبين رعاياها الملايين من النصارى وفكرت الاندلس بالاستنجاد بمصر بعد تقاعس المغرب عن نجدتها.

اهتز المشرق لحوادث الاندلس وسقوط قواعدها في ايدي النصارى وتهادن بايازيد الثاني سلطان آل عثمان والاشرف فايتباى سلطان مصر موقتا رغم حروبهما الدامية وعقدا محالفة لانجاد الاندلس وانقاذ دولة الاسلام فيها.

وضعا خطة مشتركة تقوم بان يرسل بايزيد الثاني اسطولا لغزو جزيرة صقلية من املاك اسبانية ليشغل بذلك اهتمام فرننده وايزابيلا وان تبعث سريات كبيرة من الجند من مصر وافريقية تجوز البحر الى الاندلس.

ان فكرة انجاد الاندلس لقيت عطفا ولكن لم يتفقا على خطة واحدة.

وصلت الى مصر في اواخر سنة ١٤٨٧ سفارة من الاندلس تحمل رسالة تتضمن عن رغبة السلطان الغرناطي في ان يرسل له السلطان المصري تجريدة تعينه على قتال الفرنج فانهم اشرفوا على اخذ غرناطة.

فلما سمع السلطان ذلك اقتضى رايه ان يبعث الى القسوس الذين بالقمامة التي بالقدس بان يرسلوا كتابا على يد قسيس من اعيانهم الى ملك الفرنج صاحب «نابل» نبولي بان يكاتب صاحب اشبيلية بان يحلّ عن اهل مدينة غرناطة الحصار والا يشوش السلطان على اهل القمامة ويقبض على اعيانهم ويمنع جميع طوائف الفرنج من الدخول الى القمامة ويهدمها.

فارسلوا قاصدهم وعلى يده كتاب الى صاحب «نبولي» كما اشار السلطان فلم يفد ذلك شيئا.

ولم يكن من الميسور على مصر ان تلبي نداء الاندلس بطريقة فعالة فترسل الامداد والمساعدات المادية على ما بينهما من بعد الشقة وعلى ما كان يشغل مصر يومئذ من الحوادث الداخلية وتوجسها من عدوان الاتراك على حدودها الشمالية، ولكن حاولت معونة الاندلس بالطرق الدبلوماسية والضغط السياسي. ذلك ان سلطان مصر الملك الاشرف اجاب على سفارة الاندلس بتوجيه سفارة مصرية الى البابا وملوك النصرانية مشكلة من راهبين من رعاياه النصارى احدهما القس «انطونيو ميلان» رئيس دير القديس فرنسيس في بيت المقدس، وعهد اليهما بكتب الى البابا وهو يومئذ «انوشنسيوس الثامن» (١٤٨٤ — ١٤٩٢)

والى ملك نابولي فرننده الاول والى فرننده وايزابيلا الكاثوليكيين ملك اراغون وملكة قشتالة. ويعاتب سلطان مصر في هذه الكتب ملوك النصارى على ما ينزل بابناء دينه في مملكة غرناطة وعلى توالي الاعتداء عليهم وغزو اراضيهم وسفك دمائهم في حين ان رعاياه النصارى في بيت المقدس وفي مصر، وهم يعدون بالملايين، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات آمنين على انفسهم وعقيدتهم الدينية واملاكهم.

لهذا يطلب من ملكي قشتالة واراغون الكف عن هذا الاعتداء والرحيل عن اراضي المسلمين وعدم التعرض لهم ورد ما اخذ من اراضيهم، ويطلب من البابا وملك نابولي ان يتدخلا لدى الملكين الكاثوليكيين لردهما عن ايذاء المسلمين، والا فان ملك مصر سيضطر اذاء هذا العدوان ان ينهج سياسة التنكيل برعاياه النصارى ويبطش بكبار رجال الدين في بيت المقدس ويمنع دخول النصارى الى كافة الاراضي المقدسة ويهدم قبر المسيح ذاته، وكل الاديار والمعابد والآثار النصرانية المقدسة.

غادر القس انطونيو ميلان وزميله الديار المصرية لتادية السفارة الى ملوك النصرانية. وصل السفيران الى اسبانية في خريف ١٤٨٩ اعني بعد عام ونصف من وصول رسل الاندلس الى القاهرة، وكانت مالقة قد سقطت واستولى النصارى على طائفة اخرى من الحصون ثم تحولوا الى بسطة لمحاصرتها.

هناك امام اسوار بسطة وفد القس انطونيو ميلان وزميله الى معسكر الملكين الكاثوليكيين في اواخر سنة ١٤٨٩. فاستقبلهما الملك فرننده بحفاوة وترحاب واستلم كتاب السلطان واستمع الى رسالتهما وكان السفيران قد عرجا في طريقهما على رومة ونابولي اولا وقدّما كتاب السلطان الى البابا انوشنسيوس الثامن والى ملك نابولي.

كتب البابا الى الملكين الكاثوليكيين يسالهما عما يجيب به على مطالب السلطان ووعيده. وكتب ملك نابولي فرننده الاول اليهما يستفهم عن سير الحرب الاندلسية ويلومهما على اضطهاد المسلمين وينصح بالتخلي عنه حتى لا يتعرض نصارى الشرق لعقاب السلطان.

ويرجع تدخل ملك نابولي على هذا النحو الى خلاف بينه وبين ملك اراغون على حقوق عرش نابولي والى تخوفه من ان يرتد فرننده الى محاربته متى ظفر بالاندلس.

ثم زار القسان مدينة جيان حيث الملكة ايزابيلا الكاثوليكية وابلغاها موضوع سفارتهما ولقيا منها نفس الحفاوة والترحيب.

ولم ير الملكان الكاثوليكيان في مطالب سلطان مصر وتهديداته ما يحملها على ترك سياستهما في الوقت الذي اخذت فيه قواعد الاندلس تنهار تباعا في ايديهما. ولكنهما رايا ان يجيبا السلطان، فكتبا اولا الى البابا ردا على رسالته لها وهذا ما جاء في الرسالة الموجهة الى سلطان مصر:

«ان اسبانيا كانت في القديم لاجدادنا ثم تملكها العرب ظلما وعدوانا، وان ملوك قشتالة وليون حاولوا استردادها. ومع ذلك فان ملوك غرناطة يحاربون النصارى المتاخمين لتلك المملكة وينهبون المواشي ويقتلون ويسلبون ويسبون في كل مكان. ويرى الحبر الاعظم ان هذه الاعمال لا يمكن احتمالها والسكوت عنها فكان من الضروري محاربتهم واسترجاع ما هو لنا.

واذا كان سلطان مصر يعامل النصارى بالحسنى فاننا نعامل المسلمين بالمثل ويعيشون بسلام وامان وحرية بدينهم وشرائعهم، ولكن المسلمين يملكون اراضي ليست لهم ويقاتلون النصارى ويسلبونهم اراضيهم ويسبون نساءهم واطفالهم، ويرى الحبر الاعظم انه يجب مقاومة ظلمهم وعدوانهم ومحاربتهم حتى يتخلوا عن الاراضي التي يملكونها.

ذلك كان فحوى الرسالة التي وجهها الملكان الكاثوليكيان ايزابيلا وفرننده الى البابا ردا على رسالته ورسالة سلطان مصر.

تحادثا مليا مع الراهبين من حراس بيت المقدس الحاملين الرسالتين واطلعاهما على جميع تلك الامور لكي يرفعاها بدورهما الى السلطان الاشرف.

ثم ودّعا الراهبين واعطتهما الملكة الف دينار لكل واحد منهما لكنيسة بيت المقدس لشراء الضروريات للعبادة في هيكل القبر المقدس واعطتهما منديلا صنعته بذاتها لكي يوضع فوق القبر المقدس وصرفتهما معززين مكرمين.

رجع القسان الى المشرق يحملان جواب الملكين الكاثوليكيين.

ترك هذا الحادث في نفس كريستفورو كلومبو انطباعات دينية عميقة. هذان الراهبان قادمان من بيت المقدس، من الاماكن المقدسة التي يسيطر عليها المسلمون ويجب استخلاصها منهم، فازداد يقينا انه مدعو من الله الى القيام بهذه المهمة بصورة غير مباشرة، يتوجه من المغرب الى المشرق، الى الاراضي العامرة بالخيرات الغنية بالذهب، وسمع صوتا

داخليا يناديه : اذهب وانتصر وارجع مثقلا بالغنائم والثروات والخيرات التي تساعد الملكين الكاثوليكيين على استعادة الاراضي المقدسة من المسلمين.

وتبادر الى ذهنه الخان الاكبر سلطان المغول وماركو بولو الذي عرّف الغربيين عليه ، اجل ماركو بولو الرحالة الذي عاش في القرن الرابع عشر ولد سنة ١٢٣٤ وتوفي سنة ١٣٢٤ فيكون قد عمّر ثمانين عامًا مسقط راسه البندقية في عائلة اشتهر افرادها بالتجارة.

في سنة ١٢٧١ توجه مع والده وعمه الى بلاد الصين بلاد السلطان الاعظم.

كان عليهم ان يمروا بارمينية وبلاد فارس وصحراء غوبي ويتخطون صعوبات جمة واخطار حقيقية مدفوعين بامكانية تحقيق مكاسب وثروة ضخمة.

تمكن ماركو بولو الفتى من كسب اعتبار الخان الاكبر قبلاى الذي جعله مستشاره الخاص في اموره واوكل اليه مهام خطيرة في الادارة المدنية في الامبراطورية المغولية المترامية الاطراف ، اوسع امبراطورية عرفت في ذلك التاريخ.

خولته وظيفته التجول في كافة الولايات الصينية الواسعة في الجنوب الشرقي الاسيوي حتى الهند وجمع معلومات ضخمة متنوعة عن جميع هذه الاماكن التي زارها لمّا كانت هذه الاماكن شبه مجهولة عند الغربيين.

وفي سنة ١٢٩١ وقع ماركو بولو اسيرا في ايدي الجنوبيين واستمر في السجن ثلاثة اعوام استفاد منها ليملي على رفيقه في زنزانته «روستشللو» جميع ما شاهده في تلك الرحلة الطويلة وعجائب المخلوقات فيها.

يعتبر كتابه هذا اول وصف جغرافي في ظهر في اوروبة حول الشرق الاوسط في اواخر القرن الثالث عشر.

في يوم من الايام وصل الى مدينة البندقية ، وكان ذلك سنة ١٢٩٥ ثلاثة اشخاص : ماركو بولو ووالده وعمه ماتيو بعد غيبة استمرت ستة وعشرين عاما فجرى لهم استقبال فخم واقيمت وليمة ضمت جميع معارفهم واقاربهم وعندما احتل كل واحد مكانه ظهر الثلاثة بالبسة فخمة : اوشحة طويلة من الاطلس الدمشقي والمخمل القرمزي تجر اذيالها على الارض ، قطعوها اربا اربا ووزعوها على الخدم كما جرت العادة في ذلك الحين ، ثم صعد ماركو بولو على المائدة وسحب من جيوبه حلى وحجارا كريمة من الزمرد والمرجان والعقيق والالماس بين هتاف الحاضرين وتصفيقهم ، والجميع يعانقونه كما لو كان بطلا.

المغول:

من هم المغول؟ قبائل رحلّ في آسية الوسطى وفي منطقة اطلق عليها اسم تركستان يهددون جيرانهم ويغزونهم ويسلبون مواشيهم وانعامهم، تحولت هذه القبائل مع الزمن الى شعب واحد يسعى الى السيطرة على جيرانه وتوصل بالفعل الى الاستيلاء على اراضي واسعة.

جاءت سنة ١٢٠٠ توحدت هذه القبائل ونشأت منها دولة اطلق عليها اسم «المغول» او التركمان او التتر.

احتل سلطانهم جنكسخان التركستان الغربية وبلاد فارس والافغنستان ووصل الى جبال القفقاز ووديانه ونهر الفولغا، وتوغل خلفاؤه في العالم الاسلامي، فاستولوا على بغداد ودمشق وحلب سنة ١٢٥٨ تحدث ماركو بولو عن كل هذه الغزوات والفتوحات.

ايقظت هذه الانتصارات على العالم الاسلامي مخيلة الغربيين الذين اعتبروا المغول الاعداء الالداء للاسلام، ولكن الامر على عكس ذلك فلا اوغاداي ولا خلفاؤه استقروا في بغداد عاصمة العباسيين، بينما احتلوا بكين سنة ١٢٧٩ وطردوا العائلة المالكة وحلوا محلها.

وعندما توجه ماركو بولو سنة ١٢٧١ الى بلاد الصين خرج من شواطىء البحر المتوسط كانت الامبراطورية المغولية تمتد حتى سهول روسية وبحر الصين، وتشكلت في القسم الغربي منها ثلاث ممالك، وعلى راس كل مملكة خان ولكنه تابع للخان الاكبر في الصين قبلاي الذي تعرف عليه ماركو بولو وخدمه في عدة مناطق من الصين ووسّع حدود مملكته من عدة نواحي ولكنه فشل في محاولته احتلال اليابان سنة ١٢٧٤ و ١٢٨١ ودمرت العواصف سفنه في الحملتين.

وعلى هذا النحو يكون ماركو بولو قد تعرف على عظمة المغول في اوج مجدهم بعد سنة ١٢٧٠، ليس فقط في الصين، والعاصمة بالذات بكين التي تصدر منها الاوامر الى بقية الممالك بل جال في هذه الممالك في طولها والعرض عندما اوكلت اليه بنوع خاص والى ابيه وعمه مهام خاصة.

عاد الى ذهن كلمبو كل هذه الامور ووجد فيها وسيلة جديدة لاقناع الملكين الكاثوليكيين باتخاذ الخان الاكبر حليفا لها ضد المسلمين الاتراك، فلماذا لا يستخلص منهما رسالة الى الخان الاكبر يحملها بنفسه اليه؟

ولماذا لا؟ المعلومات التي هي عند الغربيين بشان هؤلاء المغول خاطئة، فقد عرف عنهم

الغربيون انهم قبائل يحارب بعضها البعض منصرفون الى السلب والنهب والقتل والتدمير لا يردعهم رادع ولا يزجرهم زاجر كل ما كتب عنهم حتى عهد ماركو بولو محاط بالاساطير والخرافات والتخيلات والاوهام، فهذا الراهب الانكليزي اسمه ماتيو باريس كتب عنهم في سنة ١٢٥٩ انهم شياطين جاءوا من عند ابليس، شاربو الدماء يقتاتون من لحوم الكلاب والبشر ويجهلون اللغات الحديثة المتكلمة في العالم المسيحي، وليس من احد قادرا على الكلام بلغتهم، انهم شعب ياجوج وماجوج العمالقة الاشرار الذين تكلم عنهم النبي حزقيال، وهم يمثلون اعداء الله على الارض.

ظن البعض ان هؤلاء القبائل هي اسباط بني اسرائيل العشرة الذين عبدوا العجل الذهبي وقد حصرهم اسكندر ذو القرنين في جبالهم الواقعة عند حدود بحر قزوين.

وبين هؤلاء الكتاب الذين وصفوهم على هذا النحو بنيامين التطيلي من شمالي غربي شبه الجزيرة الابرية، والراهب الفرنسيسكاني غليوم ربروك وغيرهما وتوسعوا في هذه الخرافات والاساطير حتى ساد غموض تام عن هذه القبائل التي سموها بياجوج وماجوج اعداء الاسكندر ذي القرنين.

وكان من المعروف عنهم انهم مضطهدو النصارى بحيث انه في سنة ١٢٤١ كانت تتلى الصلوات في كاتدرائية نوتر دام بباريس لكي يصون الله كنيسته وشعبه من غضب وويلات المغول او ان يلهمهم الى اعتناق الدين المسيحي.

تغيرت نظرة النصارى ورايهم في هؤلاء المغول فاهتموا بالاطلاع على حياتهم ومعرفتها على حقيقتها فخلقت فكرة جديدة عن هؤلاء المغول فالارهاب والتقتيل والتشنيع والتفظيع الذي شاع عن المغول في الاعصر السابقة تحول الى حب الاطلاع والرغبة في معرفة هذا الشعب الجديد وقوته السياسية وحتى الوصول الى التفاهم معه.

فالجحافل المغولية التي كانت قاصدة احتلال المجر توقفت وشرعت تشن الغارات على البلدان الاسلامية حتى وصلوا الى بغداد ودمشق فاحتلوهما ومثّلوا ولم يعرفوا الاندحار الا في فلسطين، وبما انهم حاربوا الاسلام والملكان الكاثوليكيان يحاربان الاسلام فالعدو مشترك ويقول المثل عدو عدوك صديقك، فلماذا لا نحاول كسب ود هؤلاء وتعريفهم بالديانة النصرانية التي يجهلونها بدون شك، ونتبادل معهم الهدايا والسفارات والاحلاف والمواثيق وبذلك نضع الاسلام بين نارين.

والتجار ايضا من مصلحتهم التفتيش عن طرق جديدة تسمح لهم بالمزيد من المكاسب والارباح ، فجميع الاتجاهات من سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية ومالية تتضافر لكي تجمع على ضرورة التقرب من هؤلاء المغول بشتى الوسائل ولا يجب النظر اليهم كاعداء بل على العكس يجب ان ينظر اليهم كاصدقاء.

ولكن هناك تساؤل هل من الممكن الجمع بين جميع هذه المصالح وبعض يتناقض مع البعض؟ ان هذه المصالح قابلة الانسجام فنشر الديانة المسيحية في تلك البلاد النائية يساعد على نشر اللغة والثقافة ويساعد ايضا على التجارة فمن يستطيع الانكار ان هذا الراهب المبشر بالديانة المسيحية لا يفتح الطريق امام التاجر الذي يفتش عن الكسب المادي؟

وكان فشل الحروب الصليبية من العوامل التي ساعدت على التقرب من المغول ففكرة الاستعمار التي حركت الحروب الصليبية خبتت بعد الاندحارات المتوالية التي مني بها الصليبيون ولكن روح الاستعمار ظلت راقدة تحت الرماد والتنصر ما زال يهز رغبات بابا رومة الذي ينهد الى اجتلاب الكنيسة الشرقية والدخول في العالم الاسلامي لتنصيره ، فقامت حركة تبشيرية كبيرة تحركت من رومة البابوية . حمل لواء هذا التبشير الرهبان من جمعية الفرنسيسكان وجمعية الدومنكان وزعتا رهبانهما في العالم الوثني والاسلامي والمسيحي الشرقي المنشق عن رومة ، الساعية الى الكنيسة الشرقية الارثوذكسية كنيسة رومانية كاثوليكية تدين بالطاعة لبابا رومة.

توجه رهبان الدومنكان من بلاد المجر اولا ثم من ايطالية ولكن فشلت هذه المحاولة في تنصير المغول . ولمّا اعلن البابا انشونسيوس الرابع في مجمع ليون المسكوني عن رغبته في تعليم المغول الديانة المسيحية ، تحمس المرسلون في الوصول الى بلاد الخان الاكبر والتقرب من عائلته واخصائه.

من الطبيعي ان تكون رومة مطلعة تمام الاطلاع على ما يجري في بلاد المغول لا سيّمَا بعد ان بعث الخان الاكبر سفارة من نصارى النساطرة الى البابا انشونسيوس الرابع (١٢٤١ – ١٢٥٤) ثم الى الملك لويس التاسع الفرنسي المشهور بحروبه الصليبية.

وفي الثلث الاول من القرن الثالث عشر توجه رهبان جمعية عبد الاحد الى المجر الكبرى اي ارض الخان الاكبر وهي سهول فسيحة واقعة في وسط روسية بين كازان وبرم ، لاجل الاتصال بقبائل التتر.

وكان البابا انشونسيوس الرابع قد وجه اربع سفارات الى التتر من ليون لكي يقوّي مركز

الكنيسة الرومانية في تلك البلاد توجهت احدى هذه السفارات الاربع الى بلاد الارمن واخرى الى مسلمي سورية واساقفة الكنيسة الشرقية في سورية وسفارة اخرى الى اليعاقبة والنشاطرة. والسفارة التي توجهت الى بلاد التتر قصدت اولا الاراضي المقدسة ومنها الى بلاد الاناضول واجتازت ارمينية وارز الروم ووصلت الى «تفليس» حتى بلغت الى محلة الزعيم التتري بيجو ولم تذهب ابعد من «باكو» ولم تصل الى بلاد الخان الاكبر.

وكما نرى ان رحلة ماركو بولو الى اراضي الخان لم تكن الاولى، سبقتها سفرات ورحلات الرهبان الى كافة المناطق التي احتلها الخان الاكبر.

فالبابوات والملك الفونس التاسع الفرنسي الذي منحته رومة لقب قديس والذي استمر سنوات عديدة في بيت المقدس وتوفي في تونس، بذلوا جهدهم للولوج في صميم الامبراطورية المنغولية ولو عن طريق التحالف مع احد من ملوك تلك المنطقة ليكون مساعدا للبابا على الاسلام فيهاجمه من بغداد او سورية من المؤخرة ويبيد قواته ويضم هذا البابا قواته الى قوات المغول. اوليس المغول هم الذين استولوا على بغداد عاصمة العباسيين سنة ١٢٥٨ واطاحوا بالدولة العباسية. ولنا في ابن الطقطقي وصف لدخول المغول بغداد على عهد الخليفة المستعصم فيقول:

انه في رابع محرم سنة ست وخمسين وستمائة يقابلها سنة ١٢٥٨ مسيحية ثارت غبرة عظيمة شرقي بغداد على درب يعقوبا بحيث عمت البلدة، فانزعج الناس من ذلك وصعدوا الى اعالي السطوح والمنابر يشرفون فانكشفت الغبرة عن عساكر السلطان (هولاكو) وخيوله ولفيفه وكراعه وقد طبّق وجه الارض واحاط ببغداد من جميع جهاتها ثم شرعوا في استعمال اسباب الحصار وشرع عسكر المستعصم في المدافعة والمقاومة الى تاسع عشر محرم، اي خمسة عشر يوما، فلم يشعر الا ورايات المغول ظاهرة على سور بغداد، برج العجمي وتقحم العسكر السلطاني هجوما ودخولا فجرى من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة فما الظن بتفاصيله.

وامر السلطان هولاكو بخروج الخليفة وولده ونسائه فخرجوا، وحضر الخليفة بين يدي الدركاه، فعوتب ووبخ بسبب العجز والتفريط والغفول اليه اما بناته فاسرن، ثم استشهد المستعصم في رابع صفر سنة ست وخمسين وستمائة...

كل هذا مرّ في ذاكرة كلمبو في حصار بسطة حيث القتلى تتساقط بكثرة ولم يجد الملكان الكاثوليكيان سبيلا للقضاء على هذه المقاومة التي لا تنتهي.

الفصل الثامن
بداية النهاية

ووجد الملك الكاثوليكي فرننده انه غير قادر على افتتاح بسطة فطلب من الملكة الحضور الى المحلة التي تحولت الى مدينة تضم اكثر من الف بيت ، لكي تقف بذاتها على حقيقة الامر ، لان المسلمين اذا شاهدوها في المعسكر ادركوا ان الحصار مستمر وليس في نية الملك التخلي عنه . هذا من جهة ومن جهة اخرى لكي تتفقد الحالة والموقف الذي لا يبشر بالخير رغم التكاليف الباهظة بالاموال ورغم التضحية بالرجال والعتاد ، والنتيجة لا شيء .

وتحركت الملكة بناء على توسلات الملك وتضرعات الاكابر في البلاط فقصدت محلة الملك في بسطة . وشاع في المدينة ان الملكة قادمة لانهاء حالة الحرب وللتفاوض مع الاهالي فشاء قائد بسطة يحيى النيار معرفة شروط الملكين الكاثوليكيين فتوجه صاحب ليون بامر منهما للكلام معه وقال النصراني :

«اذا اعتقدت ايها القائد الجليل ، انك قادر على الدفاع عن المدينة ضد قوات الملك والملكة فانت على خطأ ، لذا جئت ابلغك ان في نية جلالتهما الاستيلاء على بسطة فاذا استوليا عليها عنوة لا يستعملان الحلم والرافة فانصحك انت الذي قاتلت ببسالة ان تعمل الآن لاجل حقن الدماء ، اعطِ مواطنيك الامان والحياة ، واذا احسنت في الدفاع عن المدينة حتى الآن فان احسانك يكون اسمى وارفع اذا عرفت ان تطيع . انظر هذه ملكتنا قد جاءت الى المحلة والرجال يتدفقون علينا يوما بعد يوم من كل فج وصوب ولا تتامل بنقص الطعام عندنا انظر الى اهرائنا انها مليئة بالحنطة والشعير واذا ظننت ان جلالتهما بحاجة الى المال فانت مخطىء ، فصاحب الممالك والممتلكات المترامية الاطراف لا يعوزه المال ، وانت

تعلم انه بعد ستة اشهر ونيّف من التضحيات الجسام في الاموال والرجال والعتاد والتكاليف الباهظة التي تكبدها مولاي الملك لا يتراجع صفر اليدين دون الاستيلاء على المدينة فتبصر بالامر ما دامت الفرصة سانحة فانا اعدك باسم الملك والملكة انه اذا حصل تسليم المدينة تصبحون من رعايا جلالتها وتحتفظون بشرائعكم وحريتكم وممتلكاتكم ودينكم طبعا، كونوا على ثقة ان جلالتها لا يرجعان عن كلمتها المعطاة.

اجابه القائد يحيى النيار: اني اعتقد بصحة كلامك ولو كان الامر بيدي لسلمته المدينة ولكن لا بد من استشارة اهلها وغيرهم.

وفعلا شاء يحيى النيار معرفة رأي الآخرين، فاجتمع الرأي على استشارة مولاي ابي عبدالله الزغل المالك في وادي آش، فتوجه اليه واطلعه على ان المؤونة فائضة عند النصارى وهم في مامن من قرّ الشتاء بعد ان بنوا ما يزيد على الف بيت.

وسمع الزغل اقوال يحيى النيار فشاء التشاور مع الفقهاء فاجابوه: لنسال اهل غرناطة، انهم كثيرو العدد، ونظرا للضرورة القصوى لا يترددون في حمل السلاح والانضمام الى فرسان بسطة لانه اذا سقطت هذه المدينة سقطت كل مملكة غرناطة في ايدي الملكين.

غير ان سكان غرناطة ينعمون بعطف النصراني وليسوا مستعدين لاغضابه، ولا اهل وادي آش وحدهم قادرون على اغاثتها.

واختلط الامر عليهم فلا يدرون ماذا يصنعون والزغل يريد مساعدتها ولكن اليد قصيرة، وحصلت ضجة في مدينة بسطة، وتساءل الناس عما اذا كانت حياتهم في امان واموالهم وممتلكاتهم مصونة فاجاب يحيى النيار: وهي كذلك.

طلب القائد العربي الاجتماع بموفد الملك. فاستشار هذا مولاه ونال موافقته فقال يحيى النيار:

«ايها الفارس النبيل، لا نفاد مؤونتنا ولا ضعف اسوارنا ولا انهيار معنويات جنودنا يحملنا على الاستسلام، ولكن حركنا كرم ملككم وشهامته، فليس فقط نسلمكم بسطة بل وادي آش والمرية بالشروط ذاتها التي يتم فيها تسليم هذه المدينة.

واطلع الملك والملكة على رد يحيى النيار واستصوباه فتم التسليم على النحو التالي:

اولا : جميع الفرسان الذين دخلوا الى بسطة يغادرونها بخيلهم وسلاحهم الى حيث شاءوا.

ثانيا : جميع سكان بسطة يخرجون منها ويسكنون في الارباض واذا ابوا السكنى فيها يحق لهم الذهاب الى حيث يشاءون.

ثالثا : يقسم يمين الولاء للملك والملكة جميع الذين يقيمون في الارباض، ويدفعون لها المغارم التي كانوا يدفعونها لملوكهم السابقين.

رابعا : يتعهد الملك والملكة بترك الحرية للمسلمين بالبقاء على دينهم وشرائعهم وعاداتهم وتقاليدهم، واذا اعتدى عليهم احد ومنعهم من ممارسة شرائعهم وعاداتهم ودينهم يتعرض للعقاب.

خامسا : تسلم المدينة وقصبتها الى الملك والملكة او الى من يقوم مقامها خلال ستة ايام لكي يتمكن السكان من اخلائها بمَا عندهم ولهم. وضمانة لتنفيذ هذه الشروط تؤخذ خمس عشرة رهينة من اولاد الاعيان، لم يتردد يحيى النيار باحضارهم.

تمّ تسليم مدينة بسطة للملكين الكاثوليكيين في اليوم الرابع من كانون الاول سنة الف واربعمائة وتسع وثمانين، واستمر حصار هذه المدينة ستة اشهر وعشرين يوما، واخرج منها خمسمائة وعشرة اشخاص من النصارى كانوا في الاسر.

ظن كريستفرو كلمبو انه باستسلام بسطة بعد هذا الحصار الطويل ينظر الملكان الكاثوليكيان بقضيته، بقيت غرناطة ولكنها تحت حكم الملك ابي عبدالله الصغير الذي ساعد الملكين الكاثوليكيين في مالقة وبسطة ومدهما بالمال والرجال. فتكون حرب غرناطة انتهت عمليا ولكن الملكة طلبت من كلمبو التربص بينما منحته راتبا قدره ثلاثة الاف مرابطية في الشهر اي ما يوازي في ايامنا الحاضرة مائة دولار وهي تكفيه للعيش بدون عمل، انه سخاء من قبل الملكة تجاه شخص اجنبي لم تستفد منه شيئا حتى الآن، والجدير بالاشارة ان العالم اللغوي نبريجة والمدرّس في جامعة قلعة النهر آنذاك لم يكن راتبه اكثر من ثلاثة الاف وثلاثمائة وثلاثون مرابطية.

ولمّا وجدت الملكة ان الخزينة لا تتحمل نفقات اضافية كتبت الى كافة الامصار التي يمر بها كلمبو تامر المجالس والقضاة والحكام والفرسان ومعاوني الفرسان والضباط ورجال الخير والاحسان ان يستضيفوا كريستفرو كلمبو بدون بدل وان يكرموا مثواه دون ان يتقاضوا منه مالا لقاء الاكل والشرب والنوم له ولمرافقيه.

سهلت له هذه الرسالة التنقل حيثما يتوجه جلالتهما ليقف على اخبارهما.

ومع كل هذا الاكرام الذي يلاقيه لم يعترف بجميل ولم يقر بفضل احد عليه سوى الراهب المرشيني رغم انه طيلة ثلاثة اعوام استلم رواتب من الخزينة ونزل ضيفا طيلة عامين في قصر دوق مدينة سالم ومع ذلك يدعي ان الجميع اساءوا التصرف معه.

بعد استسلام المرية ووادي آش توجه فرناندو وايزابيل الى جيان وتوقفا عدة اسابيع في استيجة. وفي شهر شباط من سنة ١٤٩٠ وصلا الى اشبيلية لاجراء الاستعدادات اللازمة لزواج ابنتهما الكبرى ايزابيل بولي العهد البرتغالي، ورغم نفاد المال من الخزينة لجأت الملكة الى القروض لا تريد ان تظهر بمظهر العاجز المقصّر فاستدانت لسد نفقات العرس.

وصل الى اشبيلية المبعوث البرتغالي لتتميم مراسم الزواج فكرمته الملكة بهدايا وصلت قيمتها الى ٧٩٠٠٠ مرابطية. كما انها اعدت جهاز العروس بنفسها، ولا احد يعلم كم بلغت نفقات هذا الجهاز ولكن نعلم نفقات الاواني الفضية والذهبية التي حملتها العروس معها الى البرتغال عند مغادرتها البيت الوالدي ٣٢٧٧٢٢٧ مرابطية.

وحدث ولا حرج عن النفقات على الاعياد والاحتفالات التي اقيمت بهذه المناسبة السعيدة في شهر نيسان من ذلك العام اكثر من نصف مليون مرابطية اجور مراكيب السيدات اللواتي رافقن الخطيبة لحضور حفلات المبارزة للتسلية والالعاب البهلوانية وغيرها ١١١٦٩٦ مرابطية: نفقات زينة فرس العروس، نفقات الخيول التي جهزها الامير جوان خلال هذه الاحتفالات ٣١٠٠٣٢ مرابطية، لتزين المسرح الذي تجرى عليه الالعاب التهريجية ٢٦٥٥٤ مرابطية، نفقات الثياب التي يرتديها المهرجون خلال الحفلات التي نظمها الامير جوان اكراما لاخته ٣٥٧١٥٣ مرابطية.

لم تشهد قشتالة في تاريخها كله احتفالات افخم من هذه الاحتفالات.

ضاع كريستوف كلمبو في وسط هذه الاعياد وتنوسيت قضيته، ومرت سنة ١٤٩٠ واوائل سنة ١٤٩١ ولم تقرر الملكة شيئا ولم تقطع امله بل ارجأت البت بالقضية الى فرصة اخرى. موقفه يائس ترك ابنه دياغه في دير الرابطة وقد بلغ الآن احد عشر عاما وابنه الآخر البالغ الثانية من عمره تحنو عليه امه بيتريس في قرطبة، لا شك انهما يعوزهما القوت والكسوة.

قطع رجاءه من قشتالة فالى اين يتوجه؟ توجه الى دير الرابطة ليخرج ابنه منه، وهناك

صادف الراهب يوحنا المرشاني الذي يعتبره كلمبو الصديق الوحيد الذي اهتم به ، ومن المعروف عن هذا الراهب انه من علماء الفلك المعروفين في ذلك العهد لقد وقف على الكتب العربية الباحث في هذا العلم كما وقف على الكتب الفلكية المنقولة من هذه اللغة الى اللاتينية في القرون الوسطى ومنها كتاب العمل بالاسطرلاب لابن الصفار الذي نقله الى اللاتينية «بلاطون طبرطينوس» في الثلث الاول من القرن الثاني عشر بالتعاون مع ابراهيم برحجة صاحب الشرطة ببرشلونة.

وقد نقل هذا الكتاب الهام «العمل في الاسطرلاب» الى العبرية والناقل هو اليهودي المترجم الكبير «يعقوب ماهر» الذي يعرف «ببروفيت بن طبون».

اطلع المرشاني على هذا الكتاب الهام الذي يمكن لكريستفرو كلمبو ان يستفيد منه في رحلته. فلما اجتمع بالملاح الجنوى شرع يحدثه عنه ويفسر له طريقة استعماله ويصفه له فكان يصغي اليه كريستفورو كل الاصغاء لمّا ذكر له الات الاسطرلاب واجزائه وهي:

اولا الحلقة وتسمى العلاقة وهي التي تعلق الاسطرلاب بها لاخذ الارتفاع.

ثم العروة وهي المتصلة بها.

ثم الكرسي.

ثم الام وهي الصفيحة الكبرى الجامعة للصفائح وفيها الطوق وتسمى الحجرة وهي مقسومة الى ثلاثمائة وستين درجة دور الفلك.

ثم الصفائح داخلها وفي كل صفيحة منها ثلاث دوائر على مركز الصفيحة، فالصغرى منها مدار راس السرطان والوسطى مدار راس الحمل والميزان، والكبرى مدار راس الجدي.

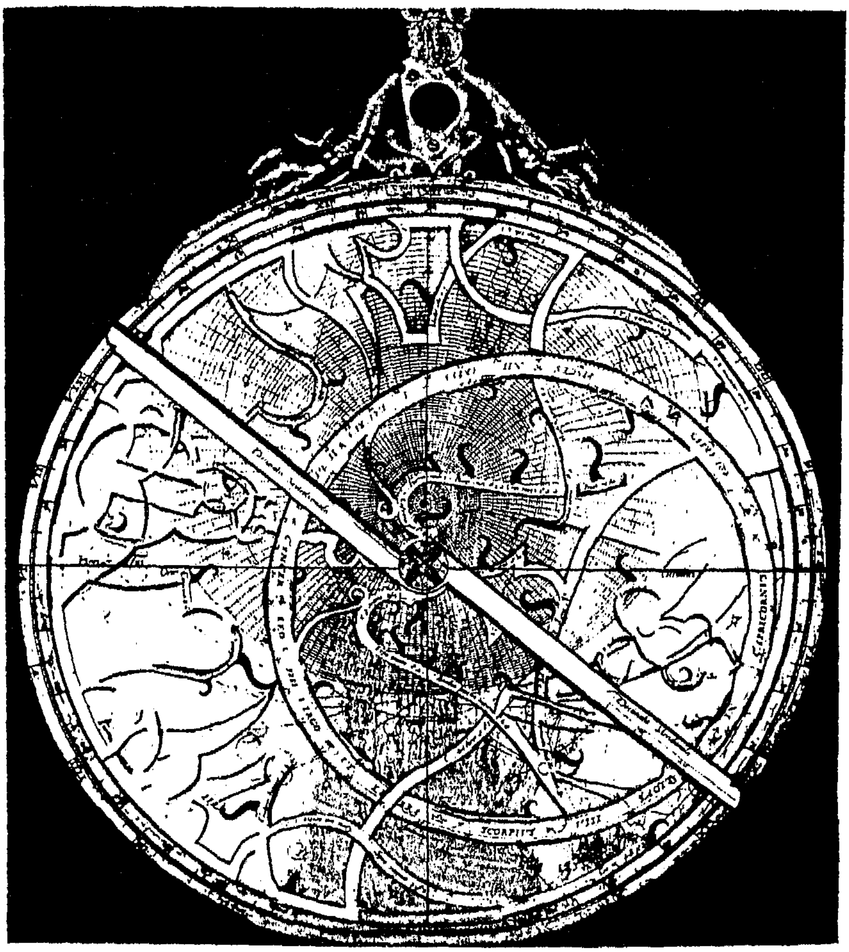
ثم المقنطرات وهي الدوائر المخطوطة في النصف الاعلى الظاهر الينا واولها الافق وهو فرق ما بين ما يرى وبين ما لا يرى والنقطة التي في وسط هذه المقنطرات سمت الرؤوس.

ثم السموت وهي قطع دوائر مقاطعة للمقنطرات.

ثم الساعات وهي المخطوطة في القطعة السفلى الخفية عنا وفيما بين الساعات ثلاثة خطوط للظهر والعصر وآخر العصر وخطان لطلوع الفجر ومغيب الشفق.

ثم خط وسط السماء وهو الخط الآخذ من موضع العلاقة مارا على مركز الدائرة.

وتقسم الصفيحة بنصفين فما كان منه فوق الافق فهو خط وسط السماء ويسمى خط



اسطرلاب اسباني

نصف النهار وخط الزوال وماكان منه تحت الافق فهو خط وتد الارض ويسمى خط نصف الليل وهو خط الزوال ايضا.

ثم العنكبوت وهي الشبكة الموضوعة فيها البروج والكواكب ومنطقة البروج منها الدائرة المتضمنة لدرجات البروج وهي طريقة الشمس والشمالية من هذه البروج ماكان داخل مدار راس الحمل وهي ستة من اول الحمل الى آخر العذرى ، والجنوبية ماكان خارج من مدار راس الحمل وهي الستة الباقية.

ثم المرى وهي الزيادة التي في راس الجدي.

ثم المحور وهي الثقبة التي في وسط الشبكة وفيها القطب الممسك للصفائح والفرس وهو الداخل في القطب الممسك له.

ثم ظهر الاسطرلاب دائرة تعديل الشمس ودائرتان احداهما مقسومة بعدد ايام السنة وذلك ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وعليها الشهور مكتوبة والاخرى مقسومة بثلامائة وستين درجة عدد درج الفلك وعليها البروج مكتوبة.

ثم ربع اخذ الارتفاع وهو الربع الذي يلي الشمس اذا علق الاسطرلاب لاخذ الارتفاع.

ثم الربع وفيه ضلعان مقسومان كل واحدة اثنا عشر قسما وكل قسم منها يسمى اصبعا.

ثم العضادة وهي المتحركة على ظهر الاسطرلاب وفيها شطبتان مثقوبتان يؤخذ بها ارتفاع الشمس بالنهار والكواكب بالليل.

هذا وصف عام للاسطرلاب.

ثم قاده الى غرفته واراه اسطرلابا عربيا وما اكثر الاسطرلابات العربية في ذلك العهد وما زال منها في اسبانيا عدد لا يستهان به.

فدهش كريستفرو كلمبو وهو يتامل ذلك الاسطرلاب والاته واقسامه كما ذكرها له وابرزها واحدة واحدة ثم قال له اعطيك مثلا : اذا اردت ان تعلم في اي برج تكون الشمس وكم درجة قطعت منه ، فاعرف ما مر للشهر العجمي من الايام فضع العضادة على ذلك اليوم من الشهر في دائرة الشهور فاذا فعلت ذلك وقعت العضادة في دائرة البروج على الدرجة التي الشمس فيها من البرج الذي فيه ، وتصل ايضا الى معرفة اليوم من قبل درجة الشمس بان تضع العضادة عليها في البرج الذي هي فيه فستريك اليوم الذي تريد معرفته كما اراك اليوم الدرجة.

اما اذا اردت ان تعلم معرفة ما مر من الليل من ساعاته الزمانية فخذ ارتفاع كوكب من الكواكب الموضوعة في الشبكة فاحفظه ثم ادر الشبكة حتى تضع طرف الكوكب في المقنطرات على مثل عدد ارتفاعه ، فان كان في حين اخذك ارتفاعه في المغرب وضعته على مقنطرات المشرق وان كان الكوكب في وسط السماء تركته واخذت من الكوكب مشرقا او مغربا . ثم تنظر درجة الشمس فما وقعت عليه من الساعات فهو ما مر من ساعات زمانية والطالع ما كان على الافق الشرقي على ما تقدم ووسط السماء ما كان على خط نصف النهار.

وازدادت دهشة كلمبو وازداد رغبة في الاطلاع فقال :

واذا اردت معرفة وقت الظهر والعصر فماذا تصنع ؟

خذ ارتفاع الشمس وضع درجتها في المقنطرات على مثال ارتفاعها فسيريك النظير هذه الاوقات بوقوعه على الخطوط الموضوعة لها .

واذا اردت معرفة القبلة بالليل والنهار؟

اذا اردت ذلك نهارا فاعرف سمت الشمس لوقتك الذي انت فيه . ثم ضع الاسطرلاب على وجه الارض وخذ من الدائرة المشبهة بالافق مثل عدد تلك الدرجات في مثل ذلك الربع وضع طرف العضادة عليها ثم قابل بالشطبة التي تلي طرف العضادة على عدد تلك الدرجات ضوء الشمس وحرك الاسطرلاب يمنة ويسرة حتى يعتدل ظل الشطبة على العضادة دون ان تحرك العضادة على موضعها ، فاذا اعتدل الظل فامسك الاسطرلاب ولا يتحرك عما هو عليه فيكون القطر الذي قسم الدائرة بنصفين من موضع العلاقة آخذا من وسط الجنوب الى وسط الشمال ، والقطر الثاني الذي قسمتها بنصفين وقاطعه على مركز الدائرة هو اخذ من وسط المغرب الى وسط المشرق ، فهذان القطران قسما الدائرة اربعة اقسام ربعان منها شماليان واحد شرقي والآخر غربي وربعان جنوبيان احدهما شرقي والآخر غربي فاذا فعلت هذا واردت القبلة فحرك العضادة حتى تضع احد طرفيها على ثلاثين درجة من الربع الجنوبي الشرقي دون ان يتحرك الاسطرلاب ، فما قابلت الشطبة فهو القبلة بقرطبة .

واذا اردت معرفة الطول واخذه؟

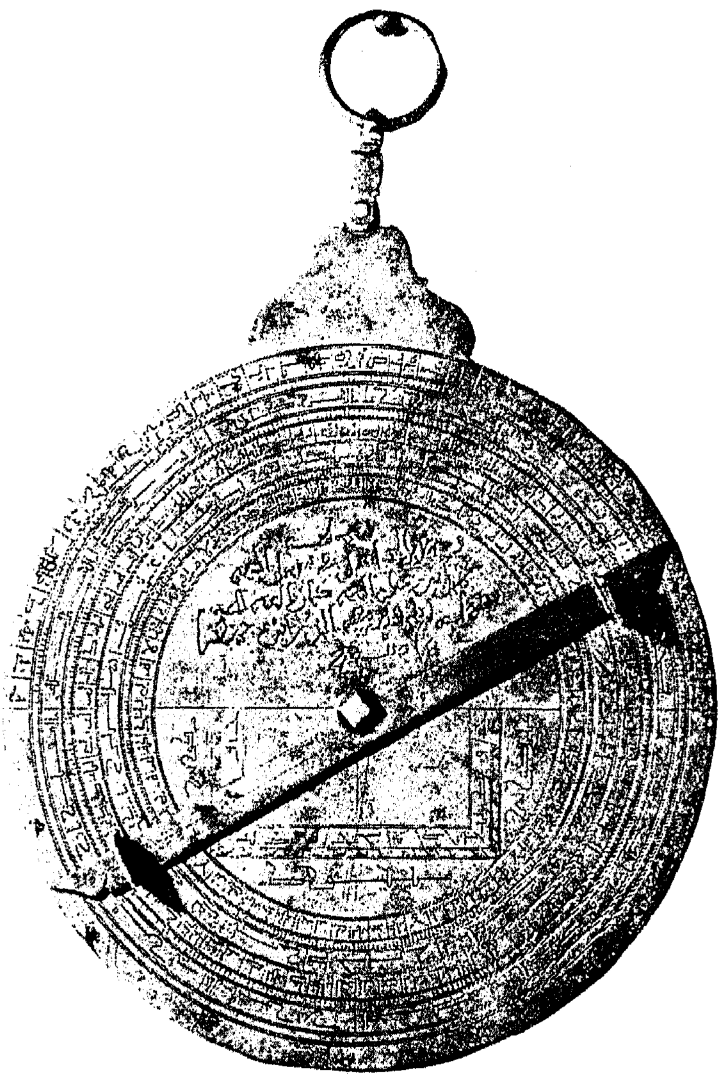
اعلم ان الطول من بين نصف نهار ونصف نهار بلد آخر من درجات دائرة معدل النهار فان اردت ما بين البلدتين من الطول فلا بد من رصد ابتداء كسوف قمر وانجلائه في البلدتين جميعا واخذ بعد وقت ابتدائه او انجلائه من النهار الذي تعلوه ليلة الكسوف بساعة معتدلة ،

فاذا عرفت كم بين وقت ابتداء الكسوف والجلائه وبين نصف النهار في البلدتين جميعا من ساعات معتدلة فصيرها درجات وذلك ان تضربها في خمسة عشر فما اجتمع لك من العدد فهو طول البلدين ، وقد جمع بطليموس في ذلك كتابا سماه بكتاب الجغرافيا جمع فيه اطوال المدائن الشهيرة وعروضها فجعل العرض ما زايل سمت الرؤوس عن معدل النهار الى الشمال وجعل الطول بعد خط نصف نهار البلد عن خط نصف نهار بلد آخر.

كل هذا تجده في كتاب «العمل بالاسطرلاب وذكر آلاته واجزائه لابن الصفار». كما تجد ايضا :

- بابا في تعديل الشمس وهو موضعها من فلك البروج.
- باب معرفة وضع درجة الشمس في فلك البروج المخطوطة في الشبكة ومعرفة النظير.
- بابا في اخذ ارتفاع الشمس وارتفاع الكواكب.
- بابا في معرفة اوقات النهار وما مر من ساعات زمانية ومعرفة الطالع في الاوقات.
- باب معرفة اوقات الليل وما مر من ساعة زمانية ومعرفة الطالع.
- بابا معرفة وقت الظهر والعصر وآخر العصر ومغيب الشفق وطلوع الفجر.
- باب معرفة قوس الليل وقوس النهار.
- بابا في معرفة اجزاء ساعة واحدة زمانية من ساعات النهار والليل.
- بابا في معرفة ما مر من كسر الساعة على الحقيقة.
- باب معرفة كم ساعة معتدلة في الليل والنهار متى شئت.
- باب معرفة كم ساعة معتدلة تمر بالليل والنهار.
- بابا في معرفة صرف الساعات الزمانية الى المعتدلة وصرف المعتدلة الى الزمانية.
- بابا في معرفة ارتفاع الشمس في نصف النهار وارتفاع الكواكب فيه وذلك ارفع ما يكون.
- بابا منه آخر.
- بابا في معرفة درجة الشمس المجهولة من قبل ارتفاع نصف النهار المعلوم ومعرفة اليوم الذي يكون ذلك فيه.
- بابا في معرفة يوم مجهول مساو لنهار يوم معلوم.
- بابا في معرفة ما تجهله من كواكب السماء الموضوعة في الشبكة من قبل ما تعلمه منها.
- بابا في معرفة وقت طلوع اي درجة شئت من البروج واي كوكب اردت من الكواكب الموضوعة في الشبكة.

– باب معرفة اي درجة تتوسط السماء مع اي كوكب شئت ومع اي درجة يطلع ويغرب.
– بابا في معرفة سمت الشمس بالنهار والكواكب بالليل.
– بابا في معرفة القبلة بالليل والنهار.
– باب الطول والعرض.
– بابا في معرفة ميل اي درجة شئت من درجات البروج عن دائرة معدل النهار وميل اي كوكب اردت من الكواكب وميلها هو بعدها عنه.
– بابا في معرفة اخذ عرض كل بلد.
– باب معرفة اخذ الساعات في بلد لا عرض له في الصفائح.
– بابا في معرفة ساعات النهار بالرسوم الموضوعة على ظهر العضادة.
– بابا في معرفة الطول واخذه.
– باب معرفة على كم يكون سمت بلد يسال عنه عن سمت بلدك وكم بعد رؤوس اهله من سمت رؤوس اهل بلدك.
– بابا في معرفة الظل من قبل ارتفاع الشمس.
– بابا في معرفة ارتفاع الشمس من قبل الظل.
– بابا في معرفة ظل نصف النهار الذي هو ظل الزوال ومعرفة ظل وقت الظهر ووقت العصر في اي يوم شئت من ايام السنة.
– بابا في معرفة ارتفاع الشمس ومعرفة سمتها ومعرفة اي ساعة اردت من ساعات النهار ولاي يوم شئت ذلك من ايام السنة.
– بابا في معرفة درجة الشمس المجهولة من قبل الارتفاع والسمت المعلومين ومعرفة اليوم الذي يكون ذلك فيه.
– باب معرفة ارتفاع الصوامع والنخل وغير ذلك مما يقع فوق الارض.
– بابا آخر في معرفة ما بين مكانين وما يزيد الاعلى منهما على الاخفض.
– بابا في معرفة ما يطلع به البرج من درجة دائرة معدل النهار في الفلك المستقيم وهو مثل طلوعها في خط.
– في نصف النهار.
– بابا في معرفة ما تطلع به البروج من درجات دائرة معدل النهار في اي بلد شئت.
– بابا في معرفة موضع القمر من البروج ومواضع الكواكب السيارة فيها على المقاربة.



اسطرلاب مورسكي

– بابا في معرفة تسوية البيوت الاثني عشر.
– باب تحويل سني العالم وسني الموالد وطوالعها.
– بابا في معرفة المشارق.

الزرقالي :

وعندي كتاب آخر لا يقل اهمية وفائدة عن كتاب ابن الصفار في نصيه العربي واللاتيني. واليك بعض فصوله. ولكن قبل ذلك احدثك عن الزرقالي ابصر اهل زمانه بارصاد الكوكب في هيئة الافلاك واستنباط الالات النجومية. وصفيحته مشهورة، ولد في طليطلة على عهد المامون بن ذي النون وتوفي في قرطبة سنة ١١٠٠ ميلادية.

– باب معرفة مواضع الشمس من البروج والدرج والدقائق بالجدول.
– باب معرفة تقويم القمر من الجدول.
– باب معرفة مواضع الجوزهر.
– باب معرفة مواضع الكواكب الخمسة بهذا القانون.
– باب معرفة اصلاح التقريب في حركة الكواكب الخمسة والشمس والقمر لمن اراد العمل بهذا القانون عن السنين المكبسة كلها ووجوه العمل في ذلك التقريب واصلاحه الذي يقع في مواضع الكواكب الخمسة والنيرين من اجل هذه السنين التي فيها بين سنة الف واربعمائة والوقت المطلوب ونسميها سنين البعد.
– باب في معرفة اخراج التواريخ بعضها من بعض.
– باب معرفة ميل الشمس وعرض القمر والبهت.
– باب في معرفة تقويم التاريخ بالايام والليالي من ذلك.
– باب معرفة مطالع البروج في الفلك المستقيم.
– باب في معرفة نصف قوس الشمس او اي كوكب شئت مما له طلوع او غروب في بلدك.
– باب في معرفة الجزء الذي يتوسط القمر السماء معه من البروج.
– باب معرفة جزء وسط السماء من قبل ما مر النهار والليل.
– باب معرفة الطالع من قبل جزء وسط السماء.
– باب معرفة وسط السماء من قبل جزء الطالع.
– باب معرفة ما بين اول الحمل واي درجة شئت من البروج من مطالع بلدك.

- باب صرف اجزاء المطالع من اول الحمل في بلدك الى اجزاء البروج.
- باب معرفة ما بين غروب الشمس والقمر وهو باب روية الاهلة في كل عرض باقرب ما يمكن من الحساب.
- باب معرفة ارتفاع الشمس او الكواكب مما بينه وبين دائرة نصف النهار من ازمان معدل النهار.
- باب معرفة عرض الكواكب الخمسة المتحيرة.
- باب طلوع الكواكب المتحيرة وغروبها.
- باب معرفة اختلاف المنظر في دائرة الارتفاع وفي الطول وفي العرض.
- باب معرفة ما مرّ للنهار او الليل من قبل ارتفاع الشمس او بعض الكواكب.
- باب معرفة كسوف القمر.
- باب معرفة كسوف الشمس.
- باب اقامة طالع الاجتماع او الاستقبال.(١)

وها اني اطلعك على جداول الزرقالي التي اطلق عليها اسم «الجداول الطليطلية»، اترك لها نصها باللاتينية.

جدول رقم ١ - جدول لمعرفة اي يوم يدخل اي شهر شئت من شهور العرب.

جدول رقم ٢ - لمعرفة اي يوم يدخل اي شهر شئت من شهور الروم اطرح سني ذي القرنين بالنسبة الى التي انت فيها ثمانية ثمانية وعشرين فما بقي اقل فادخل بها في هذا الجدول فما وجدت من العدة تحت الشهر فابدأ به من يوم الاحد فحيث ما تم العدد فبذلك اليوم يدخل الشهر الذي تريد.

جدول رقم ٣ - جدول لمعرفة اوائل شهور القبط والعمل بها كالعمل بجدول شهور الروم.

جدول رقم ٤ - جدول لمعرفة شهور الفرس. اذا اردت ذلك فخذ ما مضى لتاريخ يزد جرد بالسنة التي فيها ذلك الشهر الذي تريد معرفة اوله واسقطها سبعة سبعة وما بقي اقل من سبعة فاطلب مثله في اعلى الجدول وخذ ما تحته

(١) اطلع كريستفرو كلمبو على الجداول الطليطلية التي هي من صنع الزرقالي الذي نحن بصدده.

مما يقابل الشهر الذي تريد معرفة اوله من العلامات فما كان من العدد فابدأ به من يوم الاحد فحيث ما تم العدد فبذلك اليوم يدخل الشهر الذي تريد معرفته.

جدول رقم ٥ – جدول لاخراج التواريخ بعضها من بعض في السنين المجموعة.
جدول رقم ٦ – جدول المبسوط في اخراج التواريخ الثلاثة.
جدول رقم ٧ – مواضع الشمس المقومة في السنة الاولى بعد الطرح.
جدول رقم ٨ – تمام مواضع الشمس المقومة في السنة الاولى بعد الطرح.
جدول رقم ٩ – مواضع الشمس المقومة في السنة الثانية بعد الطرح.
جدول رقم ١٠ – تمام جدول مواضع الشمس المقومة في السنة الثانية بعد الطرح.
جدول رقم ١١ – مواضع الشمس المقومة في السنة الثالثة بعد الطرح.
جدول رقم ١٢ – تمام جدول مواضع الشمس المقومة في السنة الثالثة بعد الطرح.
جدول رقم ١٣ – مواضع الشمس المقومة في السنة الرابعة بعد الطرح.
جدول رقم ١٤ – تمام جدول مواضع الشمس المقومة في السنة الرابعة بعد الطرح.
جدول رقم ١٥ – جدول وسط القمر في اول كل سنة من سني ادواره مكبسة.
جدول رقم ١٦ – مواضع وسط القمر في الشهور العجمية وايامها لعام واحد غير مكبس.
جدول رقم ١٧ – مواضع وسط القمر في الشهور العجمية وايامها لعام واحد غير مكبس.
جدول رقم ١٨ – تمام جدول مواضع وسط القمر في الشهور العجمية وايامها لعام واحد غير مكبس.
جدول رقم ١٩ – مواضع حصة القمر لاول كل سنة من سني ادواره.
جدول رقم ٢٠ – مواضع حصة القمر في الشهور العجمية وايامها.
جدول رقم ٢١ – مواضع حصة القمر في الشهور العجمية وايامها لعام واحد غير مكبس.
جدول رقم ٢٢ – جدول تقويم القمر الكلي.
جدول رقم ٢٣ –
جدول رقم ٢٤ – مواضع الجوزهر في كل سنة من سني ادواره.

جدول رقم ٢٥ – مواضع الجوزهر في الشهور العجمية وايامها لعام واحد.
جدول رقم ٢٦ – مواضع زحل المقومة.
جدول رقم ٢٧ – مواضع زحل المقومة.
جدول رقم ٢٨ – مواضع زحل المقومة.
جدول رقم ٢٩ – مواضع زحل المقومة.
جدول رقم ٣٠ – مواضع زحل المقومة.
جدول رقم ٣١ – تمام جدول مواضع زحل المقومة.
جدول رقم ٣٢ – مواضع المشترى المقومة.
جدول رقم ٣٣ – مواضع المشترى المقومة.
جدول رقم ٣٤ – مواضع المشترى المقومة.
جدول رقم ٣٥ – مواضع المشترى المقومة.
جدول رقم ٣٦ – مواضع المشترى المقومة.
جدول رقم ٣٧ – مواضع المشترى المقومة.
جدول رقم ٣٨ – مواضع المشترى المقومة.
جدول رقم ٣٩ – تمام جدول مواضع المشترى المقومة.
جدول رقم ٤٠ – مواضع المريخ المقومة.
جداول ٤١ – ٤٢ – ٤٣ – ٤٤ – ٤٥ – ٤٦ – ٤٧ – ٤٨ – ٤٩ – ٥٠ – ٥١ – ٥٢ – مواضع المريخ المقومة.
جدول رقم ٥٣ – مواضع الزهرة المقومة.
جدول رقم ٥٤ – مواضع الزهرة المقومة.
جدول رقم ٥٥ – مواضع الزهرة المقومة.
جدول رقم ٥٦ – مواضع عطارد المقومة.
جداول ٥٦ – ٥٧ – ٥٨ – ٥٩ – ٦٠ – ٦١ – ٦٢ – ٦٣ – مواضع جداول عطارد المقومة.
جداول ٦٤ – ٦٥ – ٦٦ – ٦٧ –
جدول رقم ٦٨ – جدول طلوع الكواكب المتحيرة بالغدوات.

جدول رقم ٦٩ – جدول مطالع البروج في الفلك المستقيم وتعديل الايام ولياليها في كل وقت.
جدول رقم ٧٠ – جدول مطالع البروج في الفلك المستقيم وتعديل الايام ولياليها في كل وقت.
جدول رقم ٧١ – جدول مطالع الاقاليم.
جدول رقم ٧٢ – جدول مطالع الاقاليم.
جدول رقم ٧٣ – جدول مطالع الاقاليم.
جدول رقم ٧٤ – جدول فضول المطالع على ان الميل كله.
جدول رقم ٧٥ – جدول انصاف فضول ظهورات الكواكب واختلاف القمر وفضول خط المدار.
جدول رقم ٧٦ – جدول فضول قيس نصف النهار في الاقاليم السبعة.
جدول رقم ٧٧ – جدول ازمان ما بين غروب الشمس والقمر اذا كانت الشمس في انصاف البروج واواخرها.
جدول رقم ٧٨ – جدول الجيب المنكوس جيب التمام جدول الجيب المستوى.
جدول رقم ٧٩ – جدول الجيب والظل.
جدول رقم ٨٠ – جدول كسوف القمر في بعده الابعد وجدول كسوف القمر في بعده الاقرب.
جدول رقم ٨١ – جدول اختلاف منظر القمر في دائرة الارتفاع.
جدول رقم ٨٢ – جدول التقويم.
جدول رقم ٨٣ – جدول كسوف الشمس في البعد الاقرب.
جدول كسوف الشمس في البعد الابعد.

تلك هي الجداول الطليطلية التي لعبت اكبر دور في القرون الوسطى وقد جاء على ذكرها كريستفرو كلومبو في تعليقاته على «صورة العالم» IMAGO MUNDI لبيار دايي (١) PIERRE D'AILLY فيقول: ان الجداول الطليطلية تضع الغرب اقرب الى الشرق مما ذكره بطليموس حول «راس كنيسة الغراب» «CABO SAN UICENTE».

وكان يحضر تلك الاجتماعات العلمية الفلكية رئيس الدير الاب «جوان فارس» JUAN PERES واحد النطاسيين اسمه «غرسيه فرنندس» مهتم ايضا بعلم الكواكب

والنجوم وامور البحار، فان رحلة الى الهند عن طريق الغرب في بحر الظلمات يدهش عقول اولئك الناس.

استمروا على تلك الحال اياما يسمعون من كلمبس ويسمع منهم.

وكان الراهب جوان فارس كما اشرنا المرشد الروحي للملكة طيلة اشهر عندما عاشت في اشبيلية، فعرض على الملاح الاجنبي خدماته، انه سيكتب الى الملكة بشانه.

وفعلا بادر الى الكتابة لما درى ان الاجنبي عازم على السفر الى بلاد الفرنجة ليعرض مشروعه على ملك فرنسة بعد ان يئس من البرتغال وقشتالة، فقد هزأ منه الجميع في هذين البلاطين.

وقال مدير الدير في كتابه الى الملكة الكاثوليكية بشان كلمبس: ورايت اقناعه بالبقاء في الدير بضعة ايام مع ابنه دياغه ريثما يكتب الى صاحبة الجلالة بشانه لانه يعتقد ان مشروعه قابل التحقيق ولا يريد القس ان يتحقق هذا المشروع على ايدي ملوك غير ملكة قشتالة.

ودفع الرسالة الى احد ابناء البلدة اسمه «سبستيان ردريغس» ليحمل الرسالة الى جلالة الملكة الموجودة في «شَنْتَفِي» SANTAFE تشرف على حصار غرناطة.

وصل الرد بعد اربعة وعشرين يوما. تاثرت الملكة من كلمات مرشدها الروحي السابق راجية منه التوجه اليها ليبحثا الامر مليا.

وبعد ساعات قليلة وعند منتصف الليل كان الاب فارس يخرج من دير الرابطة ممتطيا بغلة استعارها من احد الفلاحين الميسورين في البلدة اسمه شانجه كيسيدور، رجل امي ولكنه متحمس لسماع اقوال الملاح الاجنبي وقصصه.

وفي ذات يوم دفع صاحب بلدة «بَالُس» الى كريستفرو كلمبو كتابا صادرا عن البلاط في شنتفي جاء فيه: ان الملكة متلهفة الى سماع مشروع الاكتشاف.

وقد ارفق بالرسالة مبلغ الفي مرابطية لتقوم باود كلمبو اثناء الرحلة ولاجل شراء ثياب جديدة لائقة واكتراء بغلة تنقله الى غرناطة.

عاد كلمبو مرة اخرى الى غرناطة للكلام مع الملكين الكاثوليكيين وحالته تختلف عن الحالات السابقة، الاب فارس قريب منه يشدد حيله ويشجعه، ويعتمد على مساعدين في البلاط: لويس سانتنجل اليهودي الارغوني المرتد ورفائيل شانتشس ومستشارون آخرون للملك فرننده لم يتخلوا قط عن كلمبس.

ولكن الملك الكاثوليكي فرننده الارغوني ظل يعتبر مطالب الملاح غير معقولة فليس من بلاط في اوروبة يقبل بهذه المطالب لانها اذا تحققت تعني انشاء دولة ملكية وراء البحار اوسع من جميع الممالك الاوروبية، يجلس على عرشها رجل طريد شريد. هل من المعقول ان يقبل رئيس دولة او ملك او سلطان بذلك؟ قد تقبله النساء الرومنطيات والرهبان والافراد الذين تسيرهم العاطفة دون سواها، قليلو الخبرة بشؤون تدبير الممالك.

كان سانتنجيل اليهودي يبتسم لما يسمع كلمبو يتحدث بحماس منقطع النظير عن الذهب بكلمات شعرية ودينية في الوقت نفسه:

– الذهب اثمن شيء في العالم يا جلالة الملكة، الذهب مفتاح جميع الابواب الموصدة وتصل قدرته الى اخراج النفوس من المطهر ونقلها الى جنات الخلد والنعيم.

سانتنجل لا يكره الذهب ولكن يفضل الافاويه، انه يتصور مئات السفن محملة بها عائدة من بلاد الخان الاكبر وترسو في الثغور القشتالية والارغونية، انه يتصور قشتالة تحولت الى مستودع كبير للقرفة والقرنفل وكبش القرنفل والفلفل وجوز الطيب والزنجبيل وحب الهال، كلها باشد الحاجة اليها، غالية الثمن لقلتها ولكثرة الطلب عليها.

واستمع الملك فرننده الى مشورة امين سره «سانتنجل» فقبل الشروط التي تقدم بها الملاح المجهول النسب والحسب. عندما قال له:

«ان هذا الملاح الاجنبي قادر على اقامة علاقات تجارية مع الخان الاكبر، واكثر ما يتوصل اليه هو حكم بعض الجزر المجهولة في بحر الظلمات، لم يشأ الخان الاستيلاء عليها لضآلتها فهي لا تستحق اعارتها انتباها فتركها وشانها.

واقتنع الملك فرننده بهذه الحجج المنطقية ورضي ان يحمل هذا المكتشف العتيد لقب «امير البحر» و «نائب ملك». ولكن علاوة عن ذلك يطلب المال وهذا ما لا يقوى الملكان الكاثوليكيان على قبوله لان الخزينة فارغة ومثقلة بالديون الضخمة بعد حرب ظافرة ولكن لم تعط ثمرة حتى الآن.

وكلمبس الحرون المصر على مطلبه، لا يتنازل قيد انملة عن عما يمني نفسه به، لمّا وجد انه من الصعب على الملكة والملك قبول شروطه غادر البلاط وقبل ان يمتطي البغلة التي اكتراها بقسم من المال الذي ارسلته له الملكة شاء توديع سانتنجل واطلاعه على فشل المشروع لانه يدرك اهتمام اليهودي المرتد ورغبته في احتكار الافاويه الاسيوية، اسوة بمدينة البندقية التي تحوّلت بواسطة هذه التجارة الى ان تصبح اغنى مدينة بحرية في اوروبة.

لم يتجاسر امين سر الملك الارغوني على ازعاج سيده بهذه القضية للمرة الثانية او الثالثة او الرابعة لاقناعه بمنح كلمبو الالقاب التي يطلبها والمراتب التي يسمو اليها والاموال التي يبغي الحصول عليها راى من اصالة الرأي مخاطبة الملكة ايزابيل فهي تصغي اليه دائما وتستشيره في امور كثيرة عندما تريد شراء الحلى والثياب الثمينة لانه خبير بها عليم.

واكثر من مرة لجأ الملك فرننده الى عائلة سانتنجل الارغونية اليهودية الغنية المقيم فرع منها في بلنسية وقلعة ايوب طالبا القروض، وسانتنجل هذا على علاقة باكبر المصارف الاوروبية ويجيد لغات عديدة ولم تتردد الملكة ايزابيل بالرجوع اليه عند الحاجة رغم معرفتها باصله اليهودي ولكن تدنيه منها ثقافته وحسن تصرفاته ومعاملاته وطيبة عشرته.

واول ما صنعته الملكة بناء على اشارة سانتنجل ان وجهت رسولا للحاق بكلمبوس ورده الى البلاط، فادركه الرسول على قيد فرسخين من غرناطة في محلة «جسر الصنوبر».

وخلال فترة انتظار عودة الرسول مصحوبا بكلمبو تحدثت الملكة مع سانتنجيل عن المال الذي لا بد منه لتحقيق الرحلة لان هذا الرجل ادرى من غيره بحالة الخزينة. في غير هذه الظروف رهنت الملكة حلاها مشترطة على الراهنين ان يتركوها لها بضع ساعات في الاحتفالات الرسمية، اما الآن فلا سبيل الى الرهن لان الحلى مرهونة منذ زمان بعيد وسانتنجل نفسه كان الوسيط بين الملكة والدائنين من بلنسية سلموها مبالغ ضخمة لانها حرب غرناطة، فكيف الحصول على مليون مرابطية ونيّف وهو المبلغ الذي يحتاج اليه الملاح الاجنبي لشحن ثلاث سفن توصله الى بلاد الخان الاكبر.

وفكّر مليا ووجد الحل في استدانة المبلغ من مدينة بلنسية ولكن هذا القرض لا يتم بدون بدل لان له شركاء فيه يستوفي عنه واحد ونصف بالمائة فقط.

قبلت شروط كلمبس جميعها:

١ – منحه لقب امير البحر.

٢ – منحه لقب نائب ملك على جميع الاراضي التي يكتشفها.

٣ – عشر الارباح من الثروات التي يعثر عليها بمّا فيها الذهب والفضة وغيرها.

٤ – في حال حصول نزاع بين الملكين الكاثوليكيين والبلدان التي يكتشفها، يحكم بين الطرفين.

وحدقت الملكة بالملك الذي ظل صامتا يتامل كلمبس بدهشة فانه لم يسمع احدا ينطق

بهذه اللهجة كيف يمكن منح هذا الرجل المغرور النسب كل هذه الالقاب. امير بحر رتبة ينعم بها عم الملك دون سواه، لحسن الحظ ان جده قد توفي ولم يسمع هذه الطلبات التي كان رفضها بدون تردد.

ومع كل هذا تمت الصفقة والاتفاق على كل شيء وتحققت رغبات كلمبو ولكنه ما زال في اول الطريق والصعوبات الكبرى تاتي فيما بعد.

ولكن على الله الاتكال.

النهاية:

لمس الملكان الكاثوليكيان رغبة الملك ابي عبدالله الصغير في التفاوض فاختارا غنصالس القرطبي في اول الامر ثم «هرنانده الصخراوي». واستمرت المفاوضات اشهرا بصورة سرية تامة اذ ان تبادل الرسائل كان يجري في الليل بين الملكين الكاثوليكيين والملك ابي عبدالله بواسطة ممثليهم الصخراوي من قبل ايزابيل وفرنادو، وابن كميشة والمليح من قبل الملك ابي عبدالله الصغير.

واخيرا تمّ التسليم على النحو التالي وبالشروط الآتية: (١)

١ – ان جلالة الملكين الكاثوليكيين تمنح الملك ابا عبدالله الى الابد الضياع والاماكن من طاعات «برجة» «ودلاية» «ومرشانة» «ولوشار» «واندرش» «وشبالش» «واجيجر» «وجبل العين» «وفريرة» «وبقيرة» «وارجبة» من «البشرّة» وكل ما يخص هذه المناطق من الضرائب والحقوق والمداخيل التي تخص جلالتهما في هذه الطاعات لتصبح ملكه ويستطيع بيعها ورهنها ويتصرف بها كما يلذ له واذا شاء بيعها يعرض ذلك على جلالتهما، واذا اردت شراءها دفعت له ثمنها الحقيقي.

٢ – يحق لجلالتهما حراسة عدرة والاحتفاظ بقلعتها او اي منطقة اخرى من البشرة وبناء وتملك قلاع وابراج على شاطىء البحر واذا بنيا قلعة على جانب البحر تبقى القلعة القديمة في يد الملك ابي عبدالله بعد اصلاحها من قبل جلالتهما وليس عليه ان يدفع شيئا لترميمها بل يكون له دخلها صافيا.

---

(١) سيمون حايك ثريا الرومية.

٣ – بعد تسليم قلعة الحمراء والقلاع الاخرى يامر جلالتها بان يدفع له ثلاثون الف دينار قشتالي ذهب.

٤ – تترك جلالتها للملك ابي عبدالله جميع تلك الاراضي التي يملكها منذ عهد والده الملك ابي الحسن ، ومعاصر الزيت والاملاك والعقارات التي يملكها الآن في منطقة غرناطة كما في منطقة البشرات.

٥ – تهب جلالتها الملكة عائشة ام ابي عبدالله واخوته ،وامرأته وزوجة ابيه، جميع البساتين والاراضي والحشوش والطواحين والكروم والمعاصر وجميع المواريث التي لهم في مدينة غرناطة وفي البشرات وهي معفاة من جميع الضرائب والرسوم.

٦ – لا يامر جلالتها باعادة الاشياء المنقولة وغير المنقولة التي اخذها الملك ابو عبدالله وحشمه وخدمه من المسلمين او النصارى ، واذا شاءت جلالتها اصدار امر برد بعض هذه الممتلكات الماخوذة من اي شخص يجب دفع ثمنها للملك ابي عبدالله.

٧ – اذا شاء الملك ابو عبدالله او امه او اخوته او امرأته او زوجة ابيه ابي الحسن وقواده وحشمه وخدمه الانتقال الى افريقية تامر جلالتها بتجهيز خراقتان جنويتين تنقلانهم ساعة يشاءون بدون اجر ويستطيعون نقل البستهم واغراضهم وامتعتهم وما يملكونه من ذهب وفضة وجواهر وانعام واسلحة الا الاسلحة النارية لان هذه تبقى لجلالتها وليس عليهم ان يدفعوا مكوسا او ضرائب او بدل نقل.

٨ – اذا لم يتمكّنوا من بيع ما يملكونه في غرناطة يمكنهم توكيل من يشاءون لقبض الثمن وارساله اليهم دون مانع او عائق.

٩ – عند خروجه من غرناطة يستطيع التوجه حيث يشاء في الاماكن المخصصة له وياخذ معه خدمه وعلماءه وفرسانه وجميع من يريد مرافقته وما شاء حمله بجميع ما لهم واسلحتهم ايضا الا المدافع ولا توضع الآن او فيما بعد شارة خاصة على ثيابهم ولا علامة تمييزية اخرى لهم او لنسلهم ويتمتعون بجميع الامتيازات التي نصت عليها عهود تسليم غرناطة.

١٠ – تسلم جلالتها للملك ابي عبدالله وامه وامرأته واخوته وارملة ابيه هذه المراسيم عندما يجري تسليم غرناطة وتكون موقعة وممهورة بختم الرصاص ومربوطة بشريط من حرير ومصدق عليها من الامير جوان ورئيس اساقفة اسبانية ورؤساء جمعيات الفرسان الدينية والاساقفة ورؤساء الاساقفة والاشراف من دوق ومركيز وقند ومقدّم.

صدرت هذه الوثيقة عن محلة شنتفي في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٤٩١ ، وبعد ثلاثة ايام من هذا التاريخ وضعت بنود تسليم مدينة غرناطة وهذه بعضها.

١ — ان ملك غرناطة والقواد والفقهاء والقضاة والوزراء والعلماء والاعيان وعامة الشعب في مدينة غرناطة والبيازين والارباض يعطون ويسلمون جلالتيهما او الشخص الذي ينتدبانه بمحبة وسلام ونية خالصة خلال اربعين يوما التالية قلعة الحمراء والحصن مع كافة الابراج والابواب وبقية القلاع والابواب والابراج في المدينة وفي حي البيازين.

— يتعهد جلالتيهما وخلفاؤهما الى الابد بان يتركوا الملك ابا عبدالله وقواده وقضاته ومفتييه ووزراءه والاعيان وجميع الناس من كبار وصغار في حكم شريعتهم ولا يسمحان بان تنزع منهم مساجدهم ولا ابراجها ولا مآذنها وان تترك لهم الحبوس ومداخيل هذه المساجد ولا يمنعون عنهم عاداتهم وتقاليدهم.

— يحاكم المسلمون بموجب شرائعهم وبواسطة قضاتهم.

— لا يدفع الملك ابو عبدالله ولا المسلمون في مدينة غرناطة ولا في حي البيازين والارباض الضرائب المفروضة على الدور والممتلكات لمدة ثلاثة اعوام، ويدفعون فقط العشور في شهر آب وفي الخريف والعشور عن المواشي في شهر نيسان وايار مثلما يدفع النصارى.

— لا يسمح جلالتيهما للنصارى بالدخول الى اماكن الصلاة الخاصة بالمسلمين بدون اذن من الفقهاء، ومن دخل بغير اذن يعاقب.

— لا يسمح جلالتيهما ان يكون لليهود اي سلطة على المسلمين ولا ان يكون منهم جباة ضرائب.

— اذا حصل خلاف بين المسلمين يفصل فيه وفقا لاحكام شرائعهم قضاتهم واذا كان الخلاف بين مسلم ومسيحي يفصل فيه قاضيان مسلم ونصراني لكي لا يتذمر احد من الطرفين.

— لا يدفع المسلمون لجلالتيهما اكثر مما كانوا يدفعون من الضرائب لملوكهم.

— لا يطالب جلالتيهما وخلفاؤهما الملك ابا عبدالله ولا اي شخص آخر من غرناطة باي اثم ارتكبوه قبل يوم تسليم المدينة.

– تامر جلالتها بان يحتفظ المسلمون بعاداتهم التي ساروا عليها في تقسيم المواريث، وينظر في الامر حكامهم وقضاتهم.

– جميع المسلمين غير الواردين في هذا الاتفاق اذا رغبوا في خدمة جلالتها يمكنهم ذلك خلال ثلاثين يوما ويتمتعون بجميع محتوياته الا فيما يتعلق بالاعفاء من الضرائب طيلة ثلاثة اعوام.

– لا يستدعي احد من المسلمين للتجنيد ضد ارادته واذا شاءت جلالتها استدعاء الفرسان الذين يملكون خيولا وسلاحا للعمل في الاندلس تدفع لهم اجورهم من يوم الرحيل حتى يوم العودة.

– الديون المتوجبة بين المسلمين تدفع لاصحابها ولا يؤثر تغيير السيادة بشيء فعلى كل واحد ان يدفع ما عليه.

– تكون مجازر النصارى منفصلة عن مجازر المسلمين ولا تختلط البيوت بعضها ببعض واذا تصرف احد على غير هذا الشكل يتعرض للعقوبة.

– تامر جلالتها بالتقيد بكل ما جاء في هذه الاتفاقية اعتبارا من يوم تسليم غرناطة والحصون.

التاريخ ٢٨ تشرين الثاني ١٤٩١ [١]

ذلك هو بعض شروط تسليم غرناطة الى الملكين الكاثوليكيين، ولكن الشروط شيء والعمل بها شيء آخر، خولفت شرطا شرطا بعد سنوات قليلة، لا مجال لذكرها هنا.

لا يمكن ان نتصور فرحة كريستفرو كلمبو قد تكون فاقت فرحة الملكين الكاثوليكيين الآن يستطيعان ان ينصرفا جديا للنظر في قضيته وتنفيذها فلم يعد من مانع يحول دون ذلك زال الهم الكبير وتوقفت نفقات هذه الحرب وما دمنا نتكلم عن النفقات نقول انها وصلت الى ارقام خيالية في ذلك العصر:

تكاليف حرب غرناطة:

قبل الكلام عن تكاليفها نذكر تمويلها ومصادره او بكلمة اخرى من اين جاءت هذه

(١) من شاء مراجعتها كاملة يجدها في كتابي «ثريا الرومية» او «استسلام غرناطة» من صفحة ٢٧٩ الى ٢٨٧

الاموال ومن دفع نفقات الحرب؟ الدراسات عنها قليلة ويكتفي المؤرخون بذكر كلمات عابرة مثل انها كانت باهظة والملكة ايزابيل الكاثوليكية اضطرت الى رهن حلاها سدا للنفقات.

وجدنا درسا ممتعا لهذا التمويل في كتاب صدر عن مكتبة المؤلفين المسيحيين «باك» بالاسبانية BAC عنوانه ايزابيل الكاثوليكية، مؤلفه راهب من جمعية عبد الاحد «الدمنكان»، وقبل قراءة هذه المعلومات لم يكن يدور في خلدي ان حرب غرناطة كلفت كل تلك الاموال الطائلة، ولا عجب بعد ذلك اذا تلكأت الملكة ايزابيل الكاثوليكية عن تمويل رحلة كلمبو.

مصادر هذه الاموال خمسة:

١ — العشور.
٢ — الاموال التي دفعتها الهيئات الدينية.
٣ — التبرعات للحرب الصليبية.
٤ — القروض من الخاصة ومن الهيئات الرسمية.
٥ — الموارد التي جاء عن طريق الرهن والحجز.

منذ ان وضعت الملكة ايزابيل الكاثوليكية نصب عينيها احتلال غرناطة فكّرت جديا في تمويل هذه الحرب التي تصورتها طويلة وغالية ومن اين تاتي الاموال لها؟.

عثر على وثيقة لمؤلف مجهول عنوانها: «الراهب الابيض» تقول هذه الوثيقة:

«ان حرب غرناطة ترجع بالدرجة الاولى الى القدرة الالهية وفي الدرجة الثانية الى المال وهو من السهل الوصول اليه بالطرق الآتية:

من الكنائس والاديار، هنالك ثروات لا حد لها ضائعة هدرا، لا يستفاد منها في سبيل الله ولا في سبيل الايمان ولا في سبيل الاشخاص، مثلا دير القديس بنيتو «مبارك» في بلد الوليد يمكن ان يقدم من عشرين الى خمسة وعشرين مليونا. ومثل هذا الدير اديار كثيرة.

ثم القروض فانه من واجب رئيس الكنيسة الاسبانية والاساقفة الاخرين ان يعيروا اموالهم، لان الملكة منحتهم امتيازات لا حد لها.

وتقول الرسالة ايضا وهي موجهة الى الملكة: «في مملكة جلالتك الف خوراسقف واعيان واشراف انفقوا اموال السيد المسيح في الفخفخة والمجد الباطل وعلى الكلاب المفترسة والكلاب السلوقية البزات المعدة للصيد وعلى قضايا خسيسة مخلة بالشرف والكرامة.

فارى ان الذي يصل مدخوله الى مائة الف مرابطية فليقدم نفقات فارس واحد اي مبلغ خمسة وعشرين الف مرابطية ، واذا كان مدخوله اقل فليضم هذا المدخول الى مدخول آخر او الى اكثر من مدخول بحيث ان كل مبلغ يصل الى مائة الف مرابطية يقدم منها عشرين الفا.

وعلى الصعيد المدني «هريرة» يستطيع تقديم عشرة ملايين مرابطية ، و«كردناس» خمسة عشر مليونا.

ولا يمكن تجاهل التجار في برغش وبلبا وطليطلة و «المدينة» يمكن ان يجمع منهم مبلغ عشرين او ثلاثين مليونا.

من مملكة ارغون يمكن ان يطلب من كل تاجر الف فلورين اي ٢٤٠٠٠٠ مرابطية والجماعات اليهودية قادرة على تقديم مبالغ هامة ، في «شقوبية» «وابلة» «والمحصن» «وفرمستة» «والمدينة» فهذه الجماعات اليهودية في هذه المدن تملك اموالا لا تحصى.

واكثر من هذا يوجد في ارغون وبلنسية اكثر من مائة الف «مقطع» يملكون الكثير من الاسلحة الممتازة يتمنون وصول التركي لكي يتمردوا ، يجب نزع هذا السلاح من ايديهم وتسليمه الى النصارى للدفاع عن الايمان واقناع هؤلاء المدجنين انهم عبيد.

واذا كان كل هذا لا يكفي تستولي الملكة على الفضة التي تزخر بها الكنائس ، واذا كانت جلالة الملكة في مناسبات سابقة قد ضبطت هذه الآنية الفضية لاجل الدفاع عن المملكة فكم بالاحرى ان تستولي عليها الآن لاجل الدفاع عن الايمان وانقاذ النصارى من الاسر.

هل اثرت هذه التوصيات المتطرفة التي تكشف عن الحنق على الاكليروس من الطبقة العالية وعلى الاقليات الكبيرة من المسلمين المدجنين في ارغون؟

لا شك في ذلك كما سنرى.

اسهام الكنيسة في تمويل حرب غرناطة:

اسهم الاكليروس والمؤمنون في هذه الحرب التي ارتدت طابعا دينيا وبالتالي حربا صليبية ، فالكنيسة تقدم نعما روحية لجميع اولئك الذين يشتركون في هذه الحرب بالتبرعات وغير ذلك.

لم تحاول الملكة ايزابيل ان تضع يدها مرة اخرى على الآنية الفضية الكنسية ولكنها

شاءت امتحان اسهام الاكليروس في مشروع يهم الكنيسة والسلطة الدينية. اللجوء الى هذا الاسلوب ليس جديدا، فالبابوات في حروبهم ضد الاتراك لجأوا الى هذه الوسيلة في مناسبات عديدة، وفي هذه المرة المسالة لا تختلف فاي فرق بين التركي وبين مسلم غرناطة، فهذا المسلم الغرناطي ليس سوى امتداد للمسلم التركي المرابط قريبا جدا من الممالك النصرانية ويهددها بالخطر، واحتلاله القسطنطينية قريب العهد.

انتهى اجتماع الاكليروس في قرطبة في ٢ تشرين الاول سنة ١٤٨٢ ودرس مسالة تمويل هذه الحرب وقرر مساعدة الملكين الكاثوليكيين بمائة الف فلورين ذهبية (كل فلورين يساوي ٢٤٠ مرابطية فيكون المبلغ الاجمالي مائتي واربعين مليون مرابطية) موزعة على النحو التالي:

طليطلة	:	٩٩٠٥	فلورين	موندونييدو	:	١٧٠٠	فلورين
سانتيقوب	:	٦٠٩٦	فلورين	توى	:	٥٩٠	فلورين
اشبيلية	:	٧٦١١	فلورين	شقوبية	:	٢٩٧٢	فلورين
برغش	:	٧٦٥٠	فلورين	ابلة	:	٣٣١٦	فلورين
ليون	:	٤٠٤١	فلورين	صورية	:	١١٢٩	فلورين
اوفييدو	:	٢١٦١	فلورين	جيان	:	١٣٩٤	فلورين
بلانسية	:	٥٦٦٠	فلورين	شنتيقوب	:	٦٩٨٦	فلورين
سمورة	:	٢٠٢٧	فلورين	قلعة رباح	:	٤٣٣٩	فلورين
شلمنقة	:	٢٥٧٨	فلورين	القنطرة	:	٣٤٩٦	فلورين
قونكة	:	٢٨٤٧	فلورين	سان جوان	:	١٦٩٥	فلورين
سيغونسة	:	٢٤١٥	فلورين				
اوصمة	:	٢٦٤٨	فلورين				

وقد جاء هذا التوزيع حسب القدرة الاقتصادية التي تنعم بها الابرشية.

ثم كانت مساعدة سنة ١٤٨٥ وقد تناول هذه المرة الاساقفة المقيمين في البلاط والبلاط نفسه ورئيس اساقفة اسبانية الكردنال «مندوسة» وقد وصلت هذه المساعدة الى ١١٥٠٠٠ فلورين اي اثنا عشر مليون مرابطية دفع الملكان الكاثوليكيان قسما هاما من هذا المبلغ.

والتمويل الثالث حصل في سنة ١٤٨٩ والرابع في ١٤٩١ بمبالغ تعادل تقريبا المبالغ السابقة او تزيد عليها وبهذا يكون الاكليروس الاسباني قد اسهم بما يزيد على مائة مليون مرابطية، وهذا المبلغ بحد ذاته ضخم جدا في تلك الايام ولكنه لا يقف عند هذا الحد.

العشور:

يعتبر ما جمع منها مرتبطا بالبند السابق. كان من المقرر ان يساعد الاكليروس بعشر مدخوله ولكنه راى ان يدفع مبلغا مقطوعا قدره مائة الف فلورين، وهذا يوافق الكنيسة في قشتالة ويوافق الملكين الكاثوليكيين ايضا. يوافق الكنيسة لان هذا المبلغ هو اقل من عشر المدخول ويوافق الملكين الكاثوليكيين لانهما لا يضطران الى فرض ضرائب جديدة.

هذا في قشتالة اما في ارغون فاليكم الارقام.

في سنة ١٤٩١ دفعت امارة قطالونية من المكاسب والعشور ٦٦٠٠٠ ليرة.

وفي سنة ١٤٩٢ ما يقرب من ٦٧٠٠٠ ليرة.

ولا نخطئ اذا قلنا ان المبلغ الاجمالي الذي اسهم فيه الاكليروس في ارغون وبلنسية وقطلونية وصل الى عشرين مليون مرابطية.

الصليبية:

نفهم بالصليبية هنا الانعامات الروحية التي يمنحها البابا المؤمنين ولكن لكي يكسبها المؤمن يجب ان يتحلى ببعض الاستعدادات الروحية والمادية مثلا كأن يتبرع ببعض المال لمواصلة الحرب ضد المسلم.

اول انعام من هذا النوع منحه البابا سكستوس الرابع سنة ١٤٨٢ اثر التوتر الذي حصل بين البابا نفسه والملوك، ثم منحت اربعة غفرانات سنة ١٤٨٥ و ١٤٨٩ و ١٤٨٧ و ١٤٩١ والقصد من هذه الغفرانات اي غفران الخطايا والذنوب، الحصول على مبالغ معينة.

عيّن مفوض اكبر هو المطران الطلبيري ومحاسب هو «لويس سانتنجيل» اليهودي المرتد وحولها عدة مئات من الموظفين من اكليروس وعلمانيين مفوضين وقضاة ووعّاظ ومدنيين، جباة ثابتون وموقتون وامناء صندوق وسعاة.

كان الراهب شانجه الالبي المسؤول عن سجل الغفرانات والبراءات البابوية التي تعفي النصارى من بعض واجباتهم الدينية كالصوم واكل اللحم يوم الاربعاء والجمعة لقاء اعطاء صدقة او تبرع وهذا الراهب يوزع البراءات على كل امين صندوق لكيما يطالب المحاسب بالمبالغ المجموعة.

والعملية معقدة تحتاج الى تدخل اشخاص كثيرين وقد اضطر الملوك الى تعيين مفتشين يراقبون سير العمليات وفحص دفاتر المحاسبين والتدقيق في عدد البراءات الموزعة والمبالغ الحاصلة من جراء التوزيع .

نقدم جدولا بالمبالغ التي تبرعت بها كل ابرشية :

ابرشية ابلة	:	٢٥٦٣١٨٨٢	مرابطية
بطليوس	:	١١٦٣٤٧٥٨	مرابطية
برغش	:	٣١٦٣٧٩٢٣	مرابطية
قصارس	:	٩٠٠٠	مرابطية
قلهرة	:	٧٢١٥٢٣٠	مرابطية
قلعة رباح	:	٣٦٤٧٠٤	مرابطية
ابرشية كامبوس	:	٢٦٨٠٤٥٧	مرابطية
ابرشية قرطجنة	:	١٥٣٤٣٩١	مرابطية
ابرشية قريون	:	٩٣٢٣٥١	مرابطية
ابرشية شيراتو	:	٨٥٠٥٢٩	مرابطية
ابرشية سيوداد ريال	:	٩٤٢٧٨٣	مرابطية
ابرشية قرطبة	:	٢٨٥٠٧٧٠٣	مرابطية
ابرشية شيوداد ردريغو	:	١٢٢٩١٦٧	مرابطية
ابرشية قورية	:	٢٨٥١٣٧٥	مرابطية
ابرشية قونكة	:	١٤١٤٧٠١٧	مرابطية
ابرشية جليقية	:	١٤٠٧٧٢٧٧	مرابطية
أبرشية مملكة غرناطة	:	١٧٤٨٣٦٦	مرابطية
ابرشية وادي الحجارة	:	٣٣٨٤٨٦٨	مرابطية
ابرشية اقليش	:	١١٥٠٠٠٠	مرابطية
ابرشية جيان	:	١٠٠٣٢٥٣٨	مرابطية
ابرشية ليون	:	٢٧١٤٥٦٣٦	مرابطية
ابرشية مدريد	:	٧٣٣٧٣١	مرابطية
ابرشية مدينة الحقل	:	٣٥١٥١٤	مرابطية

ابرشية مونتي راي	:	٢٠٠٠٠٠	مرابطية
ابرشية اوسمة	:	٧١٢٠٨٤٤	مرابطية
ابرشية اوفييدو	:	١٩٩٢٨٣٩٩	مرابطية
ابرشية بالنسية	:	١٤٠٦٨٨١٤	مرابطية
ابرشية بلاسنسية	:	١٢٣٧٧٠٧٦	مرابطية
ابرشية شلمنقة	:	١٣٨٢٦٢٧٨	مرابطية
ابرشية شقوبية	:	٩٥٠٦٨٣٢	مرابطية
ابرشية اشبيلية	:	٢٨٠٩٧٢٥٢	مرابطية
ابرشية سيغونسة	:	١٩٤٢١٦٣	مرابطية
ابرشية صورية	:	١٥٠٦٠	مرابطية
ابرشية طلبيرة	:	٦٥٢٠٩٤	مرابطية
ابرشية طليطلة	:	٤٧٩١٤٩٠٠	مرابطية
ابرشية توي	:	١٢٢٢٦١٣٧	مرابطية
ابرشية سمورة	:	١٤٢٠١١٩٦	مرابطية
متنوعات	:	١١٢٦٩٨٤	مرابطية
المجموع	:	٣٦١٩٩٧٢٢٩	مرابطية

جاء هذا المبلغ من المؤمنين في مملكة قشتالة وحدها اما في الممالك الاخرى فقدكانت على النحو التالي :

– مملكة اراغون	:	٢٦٠٢٠٨٧٤	مرابطية
– مملكة بلنسية	:	٣٧٨٥٥٠٤٤	مرابطية
– مملكة ميورقة	:	٢٧٦١٤٢١	مرابطية
– امارة قطلونية	:	٣٢٥٠٨	مرابطية
– مملكة نبارة	:	٦٥٨٩٤٦	مرابطية
المجموع	:	٦٧٣٢٩٢٩٣	مرابطية.

وقد وصلت المبالغ المحولة من المطران الطلبيري الى المحاسب العام منذ سنة ١٤٨٥ الى سنة ١٤٩٢ لمّا صفّيت العمليات، الى ٥٠٥٨٠٥٨٧١ مرابطية.

الديون: ورغم هذه المبالغ الطائلة وجدت الملكة ايزابيل الكاثوليكية ان هذه الاموال غير كافية فلجأت الى الاستدانة.

تقول الوثائق المحفوظة ان الملكة دفعت في سنة ١٤٩٢ ديونا متوجبت عليها بقيمة ٧٤٤١٣٠٤٧ مليون مرابطية.

وبقي عليها ان تدفع: ٨٥٤٤٦٥٧٨ مرابطية.

لا يدخل في هذه المبالغ القرض من تجار ومصارف بلنسية في محاصرة بسطة وصلت هذه القروض الى ٩٠٠٠٠٠ «سولدة» اي ما يقارب من ٢٥ مليون مرابطية.

كيف تريد يا كلمبوس ان تنفق عليك الملكة الاموال التي تطلبها مع كل هذه الديون المتراكمة؟ لم يكن «الملاح الغريب» على علم بكل هذه الديون، وما همه منها؟ همه تنفيذ خطته مهما كلف الامر.

لم تذكر المبالغ التي دفعها اليهود والمدجنون.

ونترك جانبا الاموال التي جاءت عن طريق الرهنيات: حلى الملكة مثل عقد البَلْخَش(١) وتاج ثمين اصبحا فيما بعد موضوعًا لقصص وروايات خيالية.

الوداع:

كانت الشمس قد توسطت الفلك لمّا شاهدت بيتريس صبيا يركض نحوها صارخا: «اقبل الغريب، اقبل الغريب، زوجك» انه يستريح في الحانة. فهرعت تصلح من شانها وترتدي تنورتها التي لا تلبسها الا في ايام الآحاد والاعياد والقت شالا على كتفيها وتدلى طرفاه على صدرها المحمر من فرط فركه وغسله، وتكحلت وتضمخت وتعطرت بمَا احتفظت به في حق كانت قد اشترته من احد الباعة المدجنين المنتشرين في اسواق قرطبة، واحتفظت به للمناسبات. انها تطفح سرورا وحبورا، هذا رجلها يعود اليها بعد شهور طويلة. انها ستلقم اولئك الشامتين بها حجرا، سمعت منهم الكثير من القدح والذم بهذا الغريب الذي استسلمت اليه وانجبت منه طفلا وتركها غير سائل عنها وعن طفلها.

---

(١) نوع من الجوهر يؤتى به من بلخشان في بلاد الترك.

هذا الرجل الغريب الذي نزع منك طهارتك وعفافك نبذه الملكان واصبح شريدا طريدا لا تستقر به قدم ، هجر قشتالة قاصدا فرنسة عله يجد عند الفرنسيس ما لم يجده عند القشتاليين.

وسمعت آخرين : قد عاد الى شنتفي القريبة من مدينة غرناطة الى بلاط الملكة والملك ، والآن يبشرونها انه في قرطبة من جديد ، ما اجملها بشارة.

واضطربت نفسها قليلا ، كيف تستقبله؟ ، وخالجها الشك في قدرتها الاغرائية فقد يجدها رجلها شاخت ، لا فائدة ترتجى منها. وتاملت وجهها في المرآة واعجبها فيه نضارته ، وتبسمت راضية ، وامتدت يداها الى نهديها فوجدتهما جامدان ، فاسرعت خطاها نحو الحانة هازئة في داخلها من اولئك الذين شمتوا بها او الذين حاولوا اغراءها واحتلال مقام رجلها في قلبها وحياتها. انها تمشي واثقة الخطى مطمئنة الى ان «الغريب» سيلقاها بلهفة وشوق يذكرانها ايامها الجميلة ، انها ما زالت في الرابعة والعشرين من عمرها ، اجمل سني حياتها.

وتلاقت النظرات وبدا لها منه انه اكتسب رجولة وازدادت ثقته بنفسه بعد ان تحققت احلامه ، وراقها ثوبه القشيب وحذاؤه اللماع. عاد اليها ونزل في افخم غرفة في الفندق حيث ينزل الاعيان ورجال الاكليروس اساقفة واحبار. ولماذا لا؟ انه يحمل كتابا من الملكين موجها الى صاحب كل مدينة ينزل فيها لكي يستضيفه في افخر الفنادق هو ومن معه. اجل معه حاشية صغيرة خادمان يسيران في ركابه. لم يشأ ان يظهر بمظهر الرجل المتعجرف والانسان المترفع عن بقية الناس بعد ان حبته الملكة من النعم ومن الالقاب التي لا ينالها الا اقرب المقربين الى الملكين من اقاربهما الادنين ، فتحدث مع الكبير والصغير والشيخ والفتى وتبادل كؤوس الشراب مع ندمائه السابقين ، لم يتغير تصرفه معهم ، ولكن شخصه ارتدى جلالا ، فراسه اشتعل شيبا وتوشح بصبغة من الهيبة والوقار والرزانة. منتصب القامة شامخ الانف عن غير كبرياء.

اول ما استرعى انتباه بيتريس لباسه عليه سمة العظام كانه من رجال البلاط ، ولاح على صدره صليب مدلّى مربوط بسلسلة. ولم يدم هذا التفحص طويلا فارتمت بين ذراعيه تقبله على راسه ووجهه بحرارة الشوق والكبت والحرمان دون ان تتمكن من العثور على شفتيه. ورد لها القبلات الحارة وارتد بسرعة الى ولده الذي رافقها لمشاهدة ابيه وقد تشبث باذيال امه فاخذه بين ذراعيه ورفعه حتى اصبح محاذيا لوجهه وتامله مليا ، كبر ، لم يعد ذلك الطفل

المتمرغ في الحضيض والتراب يدب على اربع ، وتكهن له بمستقبل واعد اذا عاد ظافرا من رحلته سيطلق عليه لقب «ضون» «فرنانده».

وجلس الى جانب بيتريس على كرسي من الجلد ووضع الطفل على ركبتيه محدقا به والطفل معجب بلباس ابيه الفخم وبالسلسلة البراقة على صدره انها من العنبر الزكي الرائحة ، وسيفه المدلى على جنبه ، وتامله بخجل ودهشة ، والام صامتة وجلة لمست في رجلها مسحة من العجب والكبرياء افزعتها ، وتغلبت على ارادتها وتجاسرت ومدت يديها نحو يديه.

– كريستوفرو ، لم يفارقني ايماني بك وثقتي بان الناس سيرون فيك ويكتشفون ما رأيته واكتشفته فيك منذ اللحظة الأولى.

وكان في صوتها رقة وحنان وعطف لا مجال للرياء فيه. وتوقفت عن الكلام لمّا تكلم بصوت غريب على اذنيها وبلهجة لم تعهدها به من ذي قبل.

– لن انساك انت ام ولدي. لا حاجة بنا الى ايقاظ الماضي ، انه بعيد عن حاضره الذي يتطلب منه نسيان ما يسمونه خزعبلات الحب لنترك العشق والغرام للمراهقين.

عليّ ان اكون في حال النعمة ، مهمة خطيرة ملقاة على عاتقي...

اختارني الباري عزّ وجلّ لانقل كلمته الى شعوب اسيوية تنتظرها منذ اجيال وراء بحر الظلمات. علينا ان ننسى يا بيتريس مداعباتنا ومهارشاتنا واشواقنا وشهواتنا القديمة العهد علي ان اركز افكاري وحسي وجهودي وقواي على المهمة المقبلة التي يجب انجازها بواسطة اناس لا يخلون من النقص والعيوب لانهم بشر معرضون للخطأ في كل وقت ، ومن يضع نصب عينيه مهمة يجب ان ينصرف عما سواها ، علي ان الجم شهواتي واتغلب على التجربة الماثلة امامي في شخصك يا بيتريس.

وانزل الطفل عن ركبتيه وتركه يلتجيء الى حضن امه.

وتحادث مع بيتريس اكثر من ساعة وكانه يتحادث مع سيدة اقبلت للسلام عليه ، فحدثها عن مشاريعه الكبرى التي يجب تحقيقها قريبا. الملكان يدعمانه بالمال والمراسيم ولكن هذا لا يكفي ، عليه ان يبحث عن السفن وعن الملاحين ويجمع المون لمدة شهور عديدة وعليه ان يختار الربابنة الخبيرين المحنكين والمدربين. جئت الى قرطبة لهذا الغرض وللسلام عليك وعلى ولدي ، ومن يعلم قد تكون هذه المرة الاخيرة التي تبصركما عيناي.

اني اثق بالله العظيم فهو يردني سالما معافى من هذه الرحلة الجريئة والمخاطرة الكبيرة ، اني

اعتمد على وسائل اخرى كفيلة بهديي الطريق المستقيم فلا اتيه في بحر الظلمات الكثير الاهوال .

– آه يا كرستوبال .

وخطت نحوه تريد الارتماء بين ذراعيه ولكن في هذه المرة مبللة العينين بالدموع وبللت بها وجه رجلها وظلا سادرين في هذه الحالة البريئة الحزينة والطفل غافل عما يجري حوله .

ثم نحّى كلمبو عنه هذا الجسد الملتصق به الذي يدعوه الى اكل الثمرة المحرمة :

– يعزّ علي يا بيتريس الانفصال عنك دون ان نعطي علاقاتنا طابعا شرعيا كما نصت شرائع الله ، ولكن فات الاوان ، فلا مجال للتفكير بهذا الامر في الوقت الحاضر ، لا مجال للتفكير الا بالسفن والرجال والملاحين والمؤن والرحلة الاستكشافية ، وعند العودة ندرس القضية ، وعلى كل حال سواء تمّ الزواج بيننا او لم يتمّ ليس عليك ان تخشي غائلة المستقبل المجهول ستعيشين في رخاء البحبوحة والمال فائض بين يديك تنفقين منه ما يحلو لك ويطيب ، وابننا فرننده سيصبح اميرا بحول الله يامر وينهي ، والكنوز التي ستوفرها لي هذه الرحلة لا يوازيها سوى كنوز الملك الاسكندر ذي القرنين الذي سبقني الى بلاد الهند الغنية . فليكن الله في معونتي والكنوز التي حصل عليها الاسكندر لا تحسب شيئا تجاه الكنوز التي ساملأ بها خزائن الملك والملكة .

وتناول الطعام مع بيتريس وابنه في الفندق ، والخادمين اللذين يرافقانه ، واطلع بيتريس على رغبته في ارسال ابنه الكبير دياغه الذي تركه عند الرهبان في دير الرابطة الى قرطبة لتسهري عليه ايضا «فدياغه» وفرننده أخَوَان ، وانتظر منك ان تعامليه كما لو كان ابنك الحقيقي .

وضمها الى صدره ، انه الوداع الاخير.

الفصل التاسع

كلمبس في بالس

عاد كلمبس الى بَالُس المرفأ الصغير على النهر الاحمر، حاملا في جيبه رسالة من الملكين الكاثوليكيين الى اهل هذه الاسكلة البحرية، القاطنين في مجموعة من المنازل المطلية بالكلس والرابضة عند سفح قلعة عربية.

استدعى سلطات البلدة والسكان الى ساحة كنيسة القديس جورجيوس لكي يقرأ عليهم مرسوم الملكين الكاثوليكيين القائل: ان عليهم ان يقدموا سفينتين توضعان تحت تصرف كريستفرو كلمبو.

بهت الحاضرون من سماع المرسوم الملكي، انهم مستعدون للطاعة ولكنهم ليسوا مستعدين للتنفيذ. ساءه هذا السلوك اذ من شانه تاخير السفر وتحقيق الحلم المنشود لا سيّمَا وان الوقت الملائم للابحار قريب فاذا فات الوقت واقبل الخريف اقتضى الانتظار الى منتصف الربيع القادم، ووجد ذاته عاجزا عن تنفيذ خطته وحده، انسان غريب مثله لا يقنع الناس بالسفر معه في بحر كثير الاهوال. كل شيء ما عدا الاستسلام الى الخذلان. وتمثلت امام عينيه علامات السخرية التي طالما تعرض لها عندما يتحدث عن رحلاته واكتشافاته. ماذا ينقصه؟ المال متوافر والاوامر حاضرة حتى انها تسمح له باخراج المحكوم عليهم بالاعدام والعفو عنهم اذا احبوا ان يرافقوه في رحلته.

اهل بالس الذين قضوا اكثر اوقاتهم في البحر لا يعرفون الشرائع وتفسيراتها، ارتكبوا مخالفات ضد السلطة فحكمت عليهم بتقديم سفينتين للملكين يتصرفان بهما كما يشاءان طيلة ستة اشهر على الاقل.

بادر كلمبس في الحال الى احتجاز سفينتين من احسن السفن الراسية في المرفأ، ولكن المركبين لا يسيران بدون ملاحين ولم يتقدم احد من الاهالي بطلب السفر، انهم يعيشون في بحبوحة وان لم يصلوا الى الغنى وليسوا في حاجة الى التورط في رحلة يعلم الله وحده عواقبها.

وهدد وتوعد بتنصيب المدافع في القلعة وقصف السكان منها، ولكن تهديده لم يسفر عن نتيجة ولم يوفر اي ملاح للمركبين.

ودهش الملاحون وسكان «بَالُس ومُغِير» وغيرهم من القرى المجاورة من جهل الملكين الكاثوليكيين بشؤون الملاحة فقد ظنّا ان مجرد اصدار اوامر ومراسيم وكتابات على الورق تحل المشاكل، فالملاحون في امارة لبلة عندما لا ينزلون الى صيد الاسماك ينخرطون في السفن المتوجهة الى انكلترة او مرافىء البلطيق او الى الجزر الخالدات او الى الشواطىء الغينية البرتغالية لقاء اجور يتفق عليها. اما الآن فقد جاء هذا الاجنبي الذي لا يدري شيئا عن الملاحة ولمسوا في اقواله وتصرفاته مناقضات فاضحة، يطلب منهم الرحيل معه بالقوة بصفة ملاحين ومقاتلين لقاء اجور زهيدة. انهم يبحرون تحت قيادة ربابنة محنكين خاضوا البحار السبع وليسوا مستعدين للسفر مع هذا الملاح الذي لم يشاهدوه الا في الدير مع الرهبان ولم يبصروا له وجها على ظهر سفينة. فاذا فشلت الرحلة وعادوا على الاقل سالمين، يتوجه هذا الغريب الى بلاد اخرى حاملا معه اوهامه واحلامه ومشاريعه يعرضها على ملك او امير او دوق، اما اذا تمكن من الوصول الى الهند يحظى بالاكرام والثروة والجاه ولا يصيبهم من ذلك شيئا مع انهم يكونون قد قاسوا الاهوال ومخاطر المغامرة اكثر منه ولقاء اجر زهيد قادرون على ربحه مضاعفا في اي رحلة اخرى قريبة لا خطر فيها عبر البحر المتوسط.

وراجت الاشاعة في القرى المجاورة ان الملكين الكاثوليكيين يغدقان الثروات والنعم والالقاب على هذا «الرجل الغريب» عندما يصل الى بلاد الخان الاكبر، لا يقدم الخدمة مجردة ولوجه الله ونشر الايمان الكاثوليكي وليس من العدل في شيء ان يامرهم الملك والملكة بخدمة هذا الجنوي دون مكافأة جزيلة.

ومرت الايام والسفينتان المحجوزتان في المرفأ راسيتان كانما حلت عليهما لعنة الله. وشعر كلمبو انه في محيط غير راض عنه ووجد ذاته وحيدا وتملكه اليأس فلا المراسيم الملكية نفعته شيئا ولا التوصيات من رجال البلاط فادته فهو ينتقل بين النهر الاحمر ونهر «اوديبل» ODIEL مع هذه الاوراق والمراسيم والرسائل الموجهة من الملكين الكاثوليكيين الى الخان الاكبر وغيره من الملوك الذين يصادفهم في طريقه.

بعد العشاء يتوجه الى منزل الملاح «بطره فشكس» مع اصدقائه او من يظنهم اصدقاءه ومعارفه، «وفشكش» VASQUEZ هذا ملاح متقدم في السن قضى الشطر الاكبر من حياته في خدمة ملك البرتغال متنقلا في المستعمرات البرتغالية المكتشفة حديثا على الشواطىء الافريقية. وتطول ليالي السمر والاحاديث عن البحار.

اعتاد ان يحضر هذه الجلسات مزارع كبير من بلدة «مغير» القريبة الملقب بكبير الراس، متحمس لكلمبو يصغي الى اقواله وكانها مُنْزَلَةٌ. وطبيب القرية غرسية فرنندس يلذ له دراسة علم الفلك، اجتمع بالجنوي مرارا عديدة في دير الرابطة، حاول بالاتفاق مع رئيس الدير «حنا فارس» اقناع الملاحين والربابنة بالانخراط مع كلمبو في رحلته الاستكشافية، ولم يوفقا فقال النطاسي:

«ينقصنا شخص واحد ليته هنا، انه الوحيد القادر على انقاذ الموقف».

وانفتحت عينا كولومبس واسعتين كانه استيقظ من سبات عميق وقال: ومن هو هذا الرجل؟

— مرتين الونسه.

وكان كلمبو في بعض الاحيان ينسى دماثة اخلاقه المصطنعة ويظهر بمظهره الحقيقي المتكبر المتعجرف، فيخطر في باله ان يطلب من الملكة ارسال قوة الى هذه الامارة لارغام الملاحين على مرافقته ثم يفرض عليهم ارادته بالقوة.

ولكن النطاسي العالم بحقيقة هؤلاء السكان ارتسمت على شفتيه ابتسامة كئيبة وقال:

— حذار حذار من هذا الخطل، ان هؤلاء الاندلسيين الذين تريد تجنيدهم بالقوة، بعد اربع وعشرين ساعة من نزولهم الى البحر يثورون عليك ويقتلونك شر قتلة ويلقونك في قاع الاقيانوس طعاما للاسماك.

ولمّا اطل الصيف صارت الحلقات تعقد على مدخل الدار في الحديقة بعضهم يتكىء الى جذع شجرة واخر يجلس على كرسي صغيرة وآخر على حجر كبير وآخر على الحضيض والجميع مقتنع ان وراء هذا الاوقيانوس جزر كثيرة غنية وبينها جزيرة كبرى يسميها البرتغاليون «جزيرة السبع مدن» والاسبان «انتيليا» ومؤلفو الخوارط البحرية يضعونها على بعد اربعمائة فرسخ من الجزر الخالدات، وقصة المدن السبع معروفة في اسبانية والبرتغال ويروونها على الشكل التالي:

«لمّا استولى العرب على شبه الجزيرة الابرية في اوائل القرن الثامن الميلادي هرب سبعة من الاساقفة مع رعاياهم من الاندلس وحملهم البحر الى هذه الجزيرة فنزلوا بها.

ظل امرهم مجهولا طيلة ستة اجيال دون ان يدري بوجودهم احد، فقد شاءوا العيش في عزلتهم سعداء وعندما تصل سفينة الى جزيرتهم يلقون القبض على الملاحين ويتخذونهم عبيدا ويحسنون معاملتهم، ويعيشون معهم دون ان يسمحوا لهم بالعودة الى اوطانهم...

غير ان سفينة برتغالية تمكنت من الفرار بعد ان استمرت بضع ساعات في هذه الجزيرة، ونزل الى الشاطيء بعض الصبيان الملاحين لاصلاح المواقد ووجدوا عند عودتهم الى اشبونة ان الطين الذي طيّنت به المواقد يحتوي على نسبة عالية من الذهب.

لم يميز الكثيرون هذه الجزيرة الكبيرة عن جزيرة «اليابان»، وتحدث عنها القبطان مرتين الونسه وفي بغيته السفر اليها يوما ما، غير ان اعماله الكثيرة حالت بينه وبين تنفيذ بغيته.

ودار حديث في هذه المرة عن ملاح من مدينة اونبة اعتاد على قطع الطريق البحرية بين الجزر الخالدات وانكلترة، وفاجأته العاصفة في احدى سفراته وجرته نحو الغرب ووصل الى جزيرة كبيرة وعاد الى اوروبة ونزل في جزيرة «مديرة القمر» وهو على آخر رمق من الحياة مع ثلاثة من رفاقه وتوفوا جميعا ولكن قبل وفاة هذا الربان الاعور كشف سره للعائلة التي التقطته ورفاقه.

كان ذلك منذ خمسة عشر عاما تقريبا.

وارتعش كلمبس عند سماعه هذه القصة لانه المقصود بها، واخفى اضطرابه ولم يكترث لها حتى لا ينكشف سره لان بعض الحاضرين دروا انه قبل ان يبحر الى اسبانية عاش في «مديرة القمر» او في «المرفأ المقدس» القريب منها.

وذكروا في هذه الحلقات المتواترة ان سكان «الازور» بعد هبوب العواصف الطاغية على شواطئهم يجمعون ما تقذفه الامواج من اخشاب لا عهد لهم بها وقصبات كبيرة الحجم بين عقدة وعقدة فراغ يتسع لابريق ماء وجذوع شجر غريب ويؤكدون ان البحر لفظ مرة جثتين تدل ملامحها وشكلها على انهما تنتميان الى جنس آخر من البشر لا ابيض ولا اسود.

وسكان الجزر الخالدات يلمحون دائما في المكان نفسه من الافق غيمة ثابتة يجب ان تكون جزيرة، ويأسفون انهم لا يملكون مركبا شراعيا للوصول اليها.

وتتجه الانظار والاسماع الى بطره فشكش عندما يتكلم لانه ملاح جاب الكثير من

الاماكن البحرية ، وهو على ثقة تامة من وجود اراضي في المحيط ، ويقول : عندما يصل المركب الى بحر الحشائش لا يجب التراجع كما يفعل الملاحون بل يجب مواصلة السير وخرق الحشيش لانه ينفرج و يمر المركب فيه بدون خطر خلافا لما يعتقد الربابنة ان المركب اذا توغل في هذا الحشيش لا يستطيع الخروج منه ، فاذا صودف ان مركبا وصل الى ذلك المكان فلا يخشى مواصلة السير في البحر الاخضر.

وتردد اسم مرتين الونسه في هذه المحادثات الجارية على ضوء النجوم الشاحب.

انه اشهر فرد في عائلة بنشون «الشرشور» وهو لقب غلب عليها ، استقرت هذه العائلة في بلدة «بالس» و «مغير» ، انه مسافر في الوقت الحاضر حمل شحنة كبيرة من الخمور على ظهر سفينة وتوجه الى مرفأ «اوسنية» AUSONIA ليبيعها في رومة.

ينتظرون عودته ليسمعوا رأيه في هذه المشكلة التي جلب عليهم هذا الغريب.

وقال احدهم : ان الشرشور من اشهر الملاحين واجرأهم واشجعهم ولا يجاريه احد في شؤون الملاحة ، وله مركب خاص وفي بعض الاحيان يكتري مركبين او ثلاثة مراكب.

تذكر كلمبس انه تحادث مع مرتين الونسه في احد اروقة دير الرابطة.

كان لطيف المعشر مستعدا لخدمة من يقصده ، يخاطب جلساءه بكل احترام وكلمة «سيدي» تسبق كل خطاب يجري مع جلسائه من المتقدمين في السن مهما كان وضعهم الاجتماعي. جاب البحار طولها وعرضها ومارس عمل القراصنة عندما دارت الحرب بين اسبانيا والبرتغال ، جمع ثروة لا يستهان بها بالمتاجرة في نقل البضائع على مراكبه الخاصة.

انه صورة اخرى لكلمبو ، يريد كشف الاسرار الجغرافية.

بلغ من العمر خمسين عاما وله خمسة اولاد رزقهم من زوجته مارية الفارس غلب عليه لقب «الشرشور» (عصفور صغير).

انقسمت عائلة الشرشور الى فرعين ، احدهما فرعه المشكل من ثلاثة اخوات هو واخوه فرنسيسكو والثالث اخوه بيجنت يانيس.

والفرع الثاني ابن عمه دياغه مرتين الشرشور وجميعهم عاشوا فوق امواج البحر اكثر مما عاشوا فوق اليابسة ومرتين الونسه تربطه قرابة مع جميع عائلات الملاحين المعروفين ، يتعاطى التجارة بين الغينية البرتغالية والجزر الخالدات وعدة مرافىء في البحر المتوسط على شواطىء ايطالية وصقلية.

راودته في الايام الاخيرة فكرة لا تفارقه ، يحدثك عن صديق له في رومة قريب من البابا انشونسيوس الثامن (١٤٨٤ – ١٤٩٢)، مسؤول عن المكتبة البابوية.

ان هذا الصديق واحد من الاسبان الكثيرين الذين استوطنوا رومة منذ بابوية «كالكستوس الثالث» ١٤٥٥ – ١٤٥٨ الاسباني الاصل يرتقي السدة البابوية.

اعتاد الشرشور على تبادل الرسائل مع هذا الصديق الذي يستشيره لتكميل معارفه البحرية اذ ان مكتبة الفاتيكان تعتبر من اغنى المكتبات في تلك الحقبة من التاريخ.

وعد اصدقاءه انه عند عودته من «اوستة» OSTIA سيحمل معه معلومات خطيرة جدا اذ ان صديقه وعده بخارطة هامة جدا محفوظة في مكتبة الفاتيكان وفيها جزيرة كبيرة ما وراء الجزر الخالدات والبعض يسمونها «انتيليا» وغيرهم «جزيرة المدن السبع» ولكن تشير اليها هذه الخارطة باسم «اليابان» حسب المعلومات الماخوذة عن ماركو بولو.

والشرشور الذي طالما سمع من الملاحين البرتغاليين عن وجود جزائر كثيرة في البحر المحيط ، عزم اجتياز هذا البحر بعد ان تأكد من صديقه في رومة صحة ما يدعيه الملاحون البرتغاليون، فعاد الى مسقط راسه وفي فكره هذا التصميم على اكتشاف تلك الجزر.

وكلمبو العالم بهذه الامور التي حدثه عنها الملاحون ورئيس دير الرابطة بنوع خاص قد وصلت الى اسماعه ما يروي عن مخططات مرتين الونسه الشرشور، فسُرّ كلمبه وطمع في مشاركته ولكنه خشي في الوقت ذاته المزاحمة ولكن موقفه الذي لا يحسد عليه لم يوفر له سوى قلة قليلة من الملاحين، اربعة فقط محكومون بالاعدام رغبوا في مرافقته لانهم بذلك ينجون من حبل المشنقة وقصتهم هي هذه:

تشاجر احدهم اسمه برتلومي طوريس مع المنادي حنا مرتين، رجل فظ الطباع ، حاد المزاج ، وقتله بطعنة خنجر فحكم عليه بالاعدام رغم ان المبارزة كانت عادلة ووجها لوجه ، لان القتيل موظف في البلدية.

فتعصب له ثلاثة ملاحين خاضوا البحار سوية وقاسوا الاهوال معا ، حميت اريحتهم وغلى الدم في عروقهم فهجموا على السجن وانقذوا رفيقهم. هؤلاء فقط رضوا بالذهاب معه ، فرأى من الضرورة القصوى التعاون مع الشرشور المعروف لدى الخاص والعام.

وفي ذات يوم سمع ان مرتين الونسه هذا عاد من رحلته وتوجه الى دير الرابطة يقرع الباب طالبا مقابلة رئيس الدير القس حنا فارس. لاستئناف المحادثات الجغرافية في قاعة الدير

المزينة برسوم جيء بها في الرحلات العديدة الى الغينية البرتغالية وهي عبارة عن طيور افريقية غير مالوفة في الاندلس، ومجموعات متنوعة من عرق اللؤلؤ والصدف الكبير الحجم جيء بها من الجزر الخالدات.

وتحدث مرتين الونسه عن صديقه الاسباني – الروماني نسيب البابا ووصف الخوارط والصور التي شاهدها في مكتبة الفاتيكان وقد نسخ عنها صورة وهي تمثل موقع اليابان بالضبط، على اقل من الف فرسخ من الجزر الخالدات باتجاه الغرب.

تتفق هذه المعلومات مع المعلومات التي يحتفظ بها كلمبو بسرية تامة.

ووجد رئيس الدير ان الفرصة سانحة للجمع بين الرجلين الراغبين في الاكتشاف ووجد من كلمبو استعدادا كاملا وتنازلا متواضعا وحتى ذليلا، اين منه ذلك الاصرار امام الملكين الكاثوليكيين وذلك العناد والتشبث بمطالبه دون التنازل قيد انملة عنها والان امام الشرشور يستسلم صاغرا ويمنيه بالثروات الضخمة ويقاسمه مناصفة المكاسب والارباح والثروات التي يجنيانها من جراء هذا الاكتشاف العتيد الاكيد؟

فلماذا لا يذهبان معًا فثروات اليابان ترضي الاثنين، كلمبو يقدم المراسيم الملكية والطابع الرسمي الذي ترتديه هذه الرحلة الاستكشافية بينما مرتين الونسه الشرشور يقدم خبرته البحرية وشهرته وشعبيته التي تجعله ان يكون مطاعا وثروته الخاصة...

وتركهما رئيس الدير وحدهما يتداولان، واغدق كلمبو الوعود السخية على شريكه الجديد، ولكن تجنب كتابة هذه الوعود على الورق.

والشرشور الواثق من هذا الرجل الغريب انجر في تياره دون تحفظ اكتفى بالوعود الكلامية دون كتابة محضر او وثيقة او تعهد بذلك رغم اهمية الخطوة التي سيخطوها.

وتكلم كلمبو: ايها السيد الونسه مرتين يكفي الكلام بيننا، سنخوض هذه المغامرة معا واذا وفقنا الله واكتشفنا بلدانا اعدك بحق التاج الملكي اني اتقاسم نصف الثروات وما يتأتى منها، كما لو كنت اخي الحقيقي.

ثم صافحه بحرارة وفي اليوم التالي راجت اشاعة في بَالُسُ ومِغير وأوْنَبَة وتناقلها الملاحون: الشرشور اتفق مع الاجنبي على المشاركة في الاكتشاف.

ووضع الشرشور مائدة في ساحة كنيسة القديس جورجيوس، جلس وراءها اخوه وكاتب لتسجيل اسماء الراغبين في الانخراط بهذه المغامرة، وشوهد فوق المائدة كومتان من

الدنانير المرابطية والدنانير القشتالية لاغراء الناس من جهة وللبرهان على ان القائمين بهذه الحملة ليسوا من الفقراء، من جهة ثانية.

والشرشور في هذه الاثناء يدور بين الناس المتجمعين في ساحة الكنيسة بعد القداس يوم الاحد وهو يحثهم على تسجيل اسمائهم، ثم انحدر الى الميناء يرد السلام في طريقه على الذين يحيونه من عامة الشعب بابتسامته المعهودة وبشاشته المعروفة عنه ويخاطب الجميع كما لو كانوا من اعيان الناس مع انهم يرتدون الثياب العتيقة التي تفوح منها رائحة الشحم والخيش، انهم عمال المرافىء: رافقتك السلامة ايها الملاح.

وبالحقيقة ليس الرجل ملاحا انه من عمال المرفأ.

اما الصبيان — الملاحون والغلمان الذين يخدمون ربان السفينة فيخاطبهم بحنو الاب ويدنو من رجاله الذين رافقوه في رحلاته الطويلة قائلا:

«ايها الاصدقاء، تعالوا الي، رافقونا في هذه الرحلة بدل ان تظلوا متسكعين هنا في البؤس، اقول لكم اننا متوجهون الى اكتشاف اليابان، بمعونة الله، تقول عنها الكتب ان سقوف بيوتها من الذهب وستعودون كلكم مثقلين بالذهب، اغنياء كراما سعداء».

وصل الى سمع الجميع ما تحتويه تلك البلاد من خيرات وافاويه وذهب وفضة وحجارة كريمة، وتوهموا ان كل هذا الغنى اصبح في متناول يدهم، ومن منهم لا يريد ان يصبح غنيا؟، والبقاء في «بالس» لا يخرجهم من الفقر ابدا، الى اليابان ايها الملاحون!، الى اليابان ايها الصبيان المتدرجون في فنون الملاحة!

وانتقل هذا الحماس الذي غمر الشرشور الى الجماعات التي الى اسابيع خلت هزأت من الاجنبي ومن مراسيمه الملكية، فالشرشور مع غناه يسافر في هذه الرحلة برفقة اخويه واقربائه، ويتغطرسون لانهم سجلوا اسماءهم ويرمقون بهزء واحتقار اولئك الذين تخلفوا عن اغتنام هذه الفرصة الوحيدة المتاحة لهم او الذين يترددون.

وقد جرت العادة في ذلك الحين انه لا يكفي الملاح ان يتقدم من مائدة التسجيل، انه يحتاج الى كفيل، وعادة يجب على هذا الكفيل ان يكون ثريا ومن رجال البحر المعروفين يجاوب عنه بكفاءته وبحسن سلوكه ويتحمل مسؤولية من حيث المبلغ الذي يدفع له قبل الابحار.

اول من تقدم لتسجيل اسمه على اللائحة «دياغه الاراني»«DIEGO DE ARANA»

نسيب بيتريس التي تركها كلمبُه في قرطبة مع ولديه. جاء الى بالس منذ ايام وشاهد بمرارة تلكؤ الناس عن تسجيل اسمائهم في اللائحة. ولمّا وضعت المائدة كان اول من سجّل اسمه فقد وعده كلمبه بوظيفة محافظ على النظام والامن في المركب، فتمنطق بالسيف المتدلى على وسطه وتبختر، انه حديث النعمة لم يتسلم في بلده وظيفة تتناسب ومواهبه العلمية التي يعتد بها.

وتلاه في التسجيل الاربعة المحكوم عليهم بالاعدام فجريمتهم ليست من تلك الجرائم التي لا تغتفر، الواحد منهم تبارز بالسكاكين وجها لوجه والآخرون الثلاثة انقذوا رفيقهم واليف عمرهم من السجن.

انهم بحاجة الى ما يقرب من مائة رجل وكاد يكتمل العدد من ملاحي «بالس» «ومغير» واونبة وقرطبة واشبيلية. وكفل بجنت يانيس اخو الشرشور ملاحا من مملكة ارغون اسمه «حنا مردنيش الذوقي» اصله من دانية التابعة لمملكة غرناطة وكانت على ايام العرب دولة مستقلة اشتهرت بملاحيها وجراتهم وكان يحكمها مجاهد العامري.

وانخرط ايضا ملاحون من قشتالة وجليقية ولكنهم مقيمون في بَالُس.

مرتين الونسه الشرشور لولب الحركة، يشرف على توزيع الملاحين على السفن، وجد ان السفينتين اللتين اختارهما كلمبه غير صالحتين لرحلة طويلة فنبذهما واختار اثنتين غيرهما امتن واكبر من جميع السفن الشراعية الراسية في المرفأ وهما «نينيا» و«بنتا» نسبة الى صاحبيهما «نينيو» «وبنتو».

فالقارب اسرع السفن، توصل الى قطع مسافة ستمائة ميل في ست وثلاثين ساعة. ولكن هذه السرعة الكبيرة محفوفة بالمخاطر فعلى الربابنة ان يكون على المستوى المطلوب منهم، مهارة وسهر وحراسة مستمرة ويقظة كاملة، فمقدم القارب ومؤخره عاليا جدا ولذا سميا «القلعة» والصوارى ثلاثة تحمل على العموم اشرعة مربعة في الاعليين وشراعا مثلثا في مؤخرته وهذا الشراع المثلث ادخله العرب الى الغرب ويطلق عليه اسم الشراع اللاتيني.

احتفظ الشرشور بقيادة القارب «بنتا» وسلّم قيادة القارب «نينيا» لاخيه بجنت «منصور» ووضع كلمبه عينيه على سفينة غليشية راسية في المرفأ يسمونها «ماري غلانت» وملاحوها من بلاد البشكنس اسم صاحبها «يوحنا الكوسي، كان في ذلك الحين ملاحا بسيطا يسافر من بحر قنطبرية الى جزيرة انكلترة او الى الشواطىء الاندلسية والتوغل في البحر المتوسط.

رجل قصير القامة باسم الثغر قليل الكلام، يتلقى الاوامر بالصمت والطاعة وينفذها باسرع وقت ممكن، تعكس ابتسامته حياة داخلية يقظة ينظر حواليه مهتما باسرار الاشخاص والاشياء حريصا على اكتشافها، مستدير الراس بارز الجبهة عيناه غائصتان في وقبيهما، يلحظ في هذا الرجل البسيط الساذج فورة غضبية قادرة على تخطي اقصى درجات البطولة، ولكن يغلب عليه التواضع والاستعداد لخدمة الآخرين ومجاراة الظروف، ينحني امام ارادة من هم في مستواه. تهزه الرغبة في الاكتشاف مثل الكثيرين في ذلك العصر.

يفضل الشرشور القوارب السريعة نظرا لسهولة قيادتها، وعيبها الوحيد الذي قد ينتج عنه الخطر هو خفتها المفرطة مما يقلل من صمودها تجاه العواصف ولكن هذا العيب يزول بسهولة امام مهارة الملاح وخبرته.

لا يريد كلمبو قاربا سريعا، يريد سفينة كبيرة قوية ولذلك وضع عينيه على مارية الجليقية، ولكن يجب تغيير هذا الاسم فاعطاها اسما اخر «اليق بها في هذه الرحلة الاكتشافية» «سانتا ماريا» او «القديسة مريم»، حمولتها تزيد على مائة طن، اكبر سفينة شوهدت راسية في الميناء.

لم يجد صعوبة في التفاهم مع صاحبها «يوحنا الكوسي»، منذ ان حدثه عن اليابان، وقد علم ان هذا الاميرال قادر على احتجازها بموجب المراسيم التي يحملها ففضّل تسليمها عن رضى واكتفى بمرافقته بصفة مرؤوس فيها لا رئيس.

وزعت الاجور مقدما على الملاحين والخدم والمتدرجين واخذت الكومتان من الدنانير المرابطية والقشتالية تنقص شيئا فشيئا حتى نفدت جميعها.

كان المبلغ الذي استلمه كلمبه من سانتنجيل يصل الى مليون ومائة واربعين الف مرابطية انفقه كله وما زال بحاجة الى مليون مرابطية لدفع الاجور ولشحن القاربان والسفينة بالمؤن لمدة عام على الاقل.

وتجلت له خطورة موقفه، من اين يستدين المال؟

وعرض المشكلة الجديدة على رئيس الدير الاب يوحنا فارس ورأى هذا ان يخاطب الملكة ايزابيل الكاثوليكية او يذهب بنفسه الى مواجهتها مع كلمبه لاجل الحصول على المال المطلوب لتكملة تجهيز الرحلة. ولكن هل يجد اذنا صاغية هذه المرة ايضا وقد نسي الملكان القضية وانصرفا الى امور يعتبرانها ملحة ووجد ان الوقت قصر واذا لم يتم السفر قريبا جدا اقتضى تاجيله الى العام القادم ومن يدري ما يخبئه العام القادم؟

وتداول الراهب وكلمبُه والشرشور في الامر ولم يطل التداول حتى وجد الشرشور الحل فقال: انا اتعهد بالمبلغ الباقي.

ودهش الراهب يوحنا فارس وكريستفرو كلمبه[1] من هذه كون هذه الاريحية الصادرة عن الشرشور وارتابا في قدرته على تحقيق الرغبة.

وبعد ايام حضر المال.

وتساءل الناس من اين جمع هذا المبلغ الضخم الذي عجزت عنه الخزينة؟

وقال الناس انه من ماله الخاص ومن اصدقائه ومعارفه.

وزال الهم وتدحرج الحجر الموضوع في وجه المشروع.

اللائحة:

انتهت الاعدادات واكتمل العدد وتوزع على القاربين وعلى السفينة وهذه لائحة باسماء المنخرطين في الرحلة الاكتشافية الاولى:

١ – الونسه فرنسيس الخصاصي: ALONSO FRANCISCO CHOCERO

ابن فرنسيسكو الخصاصي اي الذي يصنع الخصوص «الاكواخ» والونسه هذا كان خادما عند يوحنا ردريغس الغيني استلم عنه معلمه مبلغ الفين وستمائة وست وستين مرابطية دفعت له «دوبلات» اي عملة ذهبية قشتالية والدوبلة تساوي ٣٧٥ مرابطية... لا يستبعد ان يكون هذا الصبي الملاح من المدجنين او المورسكيين المتنصرين لان عائلة ابيه تحمل اسما عربيا CHOCERO «كوخ»

٢ – الهونشه ميسترى: ALONSO MAESTRE

طبيب من مدينة «مغير» وهذه الكلمة ايضا عربية «مغار» او «مغارة». توفي هذا الطبيب في جزيرة «نافداد» وقد جاء في محفوظات «شنتمنكش» ما يلي:

«دفع في ٤ ايار سنة ١٥١٠ لالونسه راسكون من مدينة المغيرة، الوصي على املاك وممتلكات حنا وفرنسيسكو غرسية حفيدي المعلم «الهنشه الطبيب الذي توفي في جزيرة

---

(١) سميّ كرستفرو كلمبه باسماء عديدة منها كلمبس وكولون وكريستوبال كولون وغيرها.

«اسبانيولة» من جملة السبعة وثلاثين شخصا الذين توفوا في تلك الجزيرة، مبلغ احد عشر الف ومائة وثمانية وثمانون مرابطية، وهي اجور الطبيب المذكور.

٣ – الهونشه مرارش: ALONSO MORALES

من بلدة صغيرة توفي ايضا في جزيرة اسبانيولة، وعائلة «مرارش» هي من العائلات المدجنة او المورسكية التي هاجرت الى المغرب بعد طرد المورسكيين من اسبانية.

تقول محفوظات شنت منكش انه دفع في العاشر من تموز سنة ١٥١٠ لبطره ردريغش النجار من مدينة «اونبة» باسم ليونور الهنشه من مغيرة، ارملة الهنشه مراريش المتوفي مع السبعة وثلاثين شخصا في الجزر الهندية لمّا توجه الاميرال لتعمير تلك الجزيرة الاسبانية، مبلغ اربعة الاف وخمسمائة وستين مرابطية اجور المتوفي المذكور... اسم ليونور شائع بين المدجنين والمورسكيين.

٤ – الهنشه كلابيجه ALONSO CLAVIJO

مجرم قاتل عفي عنه لانه سافر مع كلمبه وتقول المحفوظات في شنت منكش

«اما انت يا الهونشه كلافيجه من «بقير» فانك منذ عام ونصف تقريبا، لمّا كان برتلماوس طوريش سجينا في مدينة «بالس» لانه قتل ايرونيموس مرتين، خلعت باب السجن وانقذته، فحكمت عليك المحكمة غيابا بالاعدام واستملاك اراضيك، ونظرا للخدمات التي اديتها في ذهابك الى اكتشاف الجزر الهندية عن طريق بحر الظلمات.

صدر العفو عنك في ٢٦ ايار سنة ١٤٩٣: الامضاء: نحن الملك، نحن الملكة.

٥ – الهنشه البالي: ALONSO DE PALOS

ملاح صبي كفله مرتين الهنشه الشرشور وكان من ملاحي القارب «بنتة»، دفعت له اجوره مقدما وهي الفان وستمائة وست وستون مرابطية اي ثمان دوبلات ذهبية.

٦ – ألبَرُّ «ALVARO»

ملاح في القارب «بنتة» وهو قريب «جيل فارس»، هذا الاسم كان معروفا بين المستعربين، دفع له مبلغ اربعة الاف مرابطية

٧ – اندراوس الاونبي ANDRES DE HUELVA

ملاح صبي توفي في الجزيرة الاسبانية دفع راتبه لدير الرابطة في اونبة، وتقول الوثيقة في

محفوظات شنتمنكش : انه دفع للقس ميخائيل القرطبي رئيس دير الرابطة مبلغ سبعة الاف وسبعمائة وثمان مرابطيات ، استلمها باسم الدير وهي اجور اندراوس الاونبي توفي في الرحلة الاولى الاستكشافية بجزيرة الاسبانيولة وهو واحد من السبعة والثلاثين شخصا الذين توفوا في تلك الجزيرة.

٨ – اندراوس جبانش ANDRES DE YEVENES

ملاح صبي كانت اجوره سبعة دوقات استلمها عنه جوان رينال وكان الدفع مقدما لان هذه الاموال لا قيمة لها في البلاد المكتشفة.

٩ – انطونيو دي كوليار ANTONIO DE CUELLAR

توفي ايضا في الجزيرة الاسبنيولية ، وتقول الوثيقة الموجودة في محفوظات شنتمنكش انه في السابع والعشرين من شهر آذار مارس سنة ١٥١٥ دفع من الخزانة «لهرنادو دي لوسة» من مدينة قوليار ولزوجته ايزابيل مبلغ ثلاثة عشر الف وخمسمائة وست واربعين مرابطية بصفتهما وريثا انطونيو دي قوليار الذي توفي في الجزيرة الاسبانيولة في الرحلة الاولى الاكتشافية الكولمبية.

١٠ – انطونيو القلبري ANTONIO CALABRES

ملاح خديم مرتين الهونشه الشرشور، استلم اربعة الاف مرابطية من مخدومه.

١١ – برتلماوس بيبش BARTOLOME RIVES

من بالس ، ملاح دفعت له اجوره مقدما ، مبلغ اربعة آلاف مرابطية.

١٢ – برتلماوس غرسية BARTOLOM GARCIA

عريف الملاحين ومراقب وناظر، كان في قارب «نينية» بشهادة نسيب له قال عنه : انه رافق كريستفرو كلمبس في الرحلة الاولى وهو من قرية «بَالُس»

١٣ – برتلماوس رولدان BARTOLOME ROLDAN

ملاح من قيرة المغيرة ، عاد في قارب «نينية» دفعت له اجوره مقدما.

تقول الوثيقة انه من بلدة مغير، ملاح ، استلم مبلغ اربعة الاف مرابطية ، عاش بعد الرحلة الاولى في جزيرة سانتو دومنقه وتملك فيها.

١٤ – برتلماوس طوريش BARTOLOME DE TORRES

من «بالس» مجرم طعن جوان مرتين المنادى من بلدة «بالس ايضا» واودع السجن فخلع اصحابه ابواب السجن وانقذوه وفروا هاربين فحكم عليهم بالاعدام حكما غيابيا والاستيلاء على جميع املاكهم ولكن اتضح لاهل القتيل انه هو المسؤول فاسقطوا الدعوى. ثم عرضت ذاتك للخطر بمرافقة كريستوبال كولون امير البحر المحيط لاكتشاف الجزر الهندية.

صدر عن مدينة برشلونة في ٢٧ ايار ١٤٩٣

هذا ما جاء في مرسوم العفو الذي اصدره الملكان الكاثوليكيان

رافق كولون في المرة الثانية واستمر ثلاثة اعوام في الجزر الهندية وعاد سنة ١٤٩٦، عائلة طوريس ما زالت الى اليوم موجودة في المغرب وخاصة في مدينة تطوان هاجرت من اسبانية الى المغرب

١٥ – برنال BERNAL

صبي ملاح وهذا ايضا من المدجنين لان عائلة برنال انقرضت في المغرب بتطوان سنة ١٦٧٧/١٠٨٨

تقول الوثيقة : برنال خديم الهونشه مرتين، استلم مخدومه الفين وتسعمائة وعشرين مرابطية

١٦ – كرستبال القر CRISTOBAL CARO

صبي ملاح يعمل في الصباغة او الدهان وهو ايضا من المدجنين وعائلته ما زالت معروفة في تطوان.

كان مدينا لمرتين من ارتوبية بمبلغ عشرة الاف واربعمائة وثلاث واربعين مرابطية

١٧ – كريستوبال كولون CRISTOBAL COLON

الاميرال والقائد العام لهذه الحملة الاكتشافية الاولى

١٨ – كرستبال قِنطِيرُه CRISTOBAL QUINTERO

ملاح في القارب «بينتة» وهو صاحب هذا القارب تقول الوثيقة : انه سافر بالرغم منه كما جاء في تاريخ «لاس كاساس»

١٩ – كرستبال غرسية شالمينته CRISTOBAL GARCIA SARMIENTO

وهذا ايضا من المدجنين المتنصرين، دفعت له اجوره مقدما.

٢٠ – شانشو SANCHO

مراقب او مناظر في القارب «بنتة»، توفي في جزيرة «نفداد».

تقول الوثيقة انه توفي في الجزر الهندية التي اكتشفت في الرحلة الاولى وهو من بلاد البَشْكُنْس.

٢١ – المعلم دياغه MEASTRE DIEGO

كان في القارب «بنتة»: المصادر عنه موجودة في «يوميات كلمبس» (يوم ٥ تشرين الثاني). جاء الناظر برتلماوس غرسية في القارب بنتة يطلب البشارة من الاميرال لانه عثر على المصطكي ولكنه لم يات بشيء منها لانه ضاع منه فوعده امير البحر خيرا ثم ارسل لذريق شانجه والمعلم دياغه الى الشجر فجاءوا بقليل من المصطكي.

٢٢ – دياغه الاراني DIEGO DE ARANA

الوكيل في الاسطول او الناظر والمراقب كان في القارب سانتامرية، توفي في جزيرة «نافداد» دُفِعَ لابنته مبلغ ١٣٤٥٥ ويرد اسمه في وثائق عديدة.

٢٣ – دياغه برمند DIEGO BERMUDEZ

صبي ملاح وصيف، المعلومات ضئيلة عنه.

٢٤ – دياغه ليال DIEGO LEAL

صبي ملاح عندما جرى توزيع الهنود سنة ١٥١٤ استلم اربعة منهم للخدمة وجارية هندية.

٢٥ – دياغه لورنس DIEGO LORENZO

وكيل في قارب «نينية» توفي في جزيرة «نفداد». تقول الوثائق في المحفوظات الهندية انه دُفِع سبعة الاف وتسعمائة وثلاث وثلاثون مرابطية في سنة ١٥٠٨ «لايناس فرنكة» من أوْنَبَة ارملة دياغه لورنسه الذي توفي في الجزر الهندية من جملة السبعة وثلاثين شخصا المشار اليهم.

٢٦ – دياغه مرتين DIEGO MARTIN

عائلة مرتين هذه من المدجنين وهي من العائلات التي نزحت الى تطوان ويطلق عليها اسم مرتيل

٢٧ – دياغه فارس DIEGO PERES

من المتنصرين ملاح ودهان توفي في جزيرة «نبداد» دفعت له الخزينة مبلغ ١٠٣٤٨ مرابطية من اصل ١٠٨٥٠ مرابطية مستحقة له، دفعت لورثته وقد جرى الدفع في غرناطة واصله من مرسية

٢٨ – دومنقه DOMINGO

صانع براميل توفي في نفداد، كان في السفينة سانتا ماريا وهو من بلاد البشكنس توفي في الجزر الهندية في الرحلة الاولى الاكتشافية الكولمبية تقول الوثيقة: ان ورثته استلمت اجوره البالغة ١١٨٣٣ مرابطية.

٢٩ – دومنقه دي ليكيتيو DOMINGO DE LEQUEITIO

توفي في جزيرة «نفداد» تقول الوثائق انه دفعت ديونه والباقي سُلِّم لامه المجموع ١٧٦٧٤ مرابطية.

٣٠ – فرنانده مديل FERNANDO MEDEL

ملاح صبي في القارب «بنتة» دفعت له اجوره مقدما وقد قبضها عنه مرتين الهنشه الشرشور مبلغ الفان وسبعمائة وست وستين مرابطية.

٣١ – فرنانده الطرياني FERNANDO DE TRIANA

صبي ملاح دفعت له اجوره مقدما وهي الفان وستمائة وست وستون مرابطية كان كفيله بجنت يانيس الشرشور اخو الهنشه الشرشور.

انه من المدجنين من اشبيلية.

٣٢ – فرنسيسكو الاونبي FRANCISCO DE HUELVA

توفي في جزيرة «نبداد» دفع لابيه من خزانة الملكة ايزابيل الكاثوليكية سنة ١٥٠٢ في اشبيلية في ٢٢ شباط مبلغ ٦٢٠٥ مرابطية عن المدة التي خدم بها في الجزر الهندية، الموقع على ايصال الدفع ابوه وريثه الشرعي اسمه جوان الاونبي.

٣٣ – فرنسيسكو مديل FRANCISCO MEDEL

صبي ملاح من اونبة دفع له الفان وستمائة وست وستون مرابطية، اختلف في اسمه فنهم

من يقول انه مندس فاذا صح هذا الاسم يكن من المدجنين الموركسيين، فقد هاجرت عائلته الى المغرب واستوطنت تطوان وانقرضت سنة ١١٩٥/١٧٨١

٣٤ – فرنسيسكو نينيو FRANCISCO NINO

يتبين من شهادة غنصالس الاشبيلي في بورتو ريكو سنة ١٥١٥ والمحفوظة في وثائق الجزر الهندية تقول: انه لمّا سئل هذا الشاهد عما اكتشف في الرحلة الاولى قال انه سمع ان فرنسيسكو نينيو وجوان الشريشي جاءا مع الاميرال واكتشفوا الجزر الهندية

٣٥ – فرنسيسكو مرتين بنسون «الشرشور» FRANCISCO MARTIN PINZON

نائب قبطان او ربان سفينة «بنته» اخو مرتين الشرشور وبجنت يانيس دفعت له اجوره مقدما، وجاء في الوثيقة ان فرنسيسكو الشرشور ربّان القارب «بنتة» استلم ثمانية آلاف مرابطية، وهذا القارب من اسرع القوارب الشراعية يخص مرتين الشرشور وضع فيها اخاه، وفي القارب الآخر «نينية» كان الربان اخاه الآخر بجنت الشرشور، والشهادات على ذلك كثيرة.

٣٦ – فرنسيسكو غرسية فليجو FRANCISCO GARCIA VALLEZO

ملاح من بلدة المغير دفعت له اجوره مقدما جاء في الدعوى رقم ٢ صفحة ٢٢ انه في احدى الليالي ودع مرتين الهنشه الشرشور امير البحر كيرستوبال كولون وتوجه الى جزيرة اسمها «بابويكا» وبعد ان اكتشفها قطع مسافة مائتي فرسخ جنوبي شرقي هذه الجزيرة واكتشف جزيرة اسبانيولة ودخل في النهر واعطاه اسم مرتين الهنشه واستمرت رحلته خمسة واربعين يوما ثم التحق بامير البحر في جزيرة اسمها «مونتي كريستو».

٣٧ – غرسية الهنشه GARCIA ALONSO

تقول الوثائق ان هذا الشاهد جاء مع امير البحر كريستوبال كولون في الرحلة الاولى وشاهد كافة الجزر موضوع هذه الدعوى، كان عمره ثمانية عشر عاما او عشرين عاما لمّا سافر مع امير البحر كلمبو.

٣٨ – غرسية فرناندس GARCIA FERNANDEZ

بحار، امين خزانة الاطعمة في قارب «بنتة» من مدينة اونبة.

دفعت له اجوره مقدما، شهد في الدعاوى دفع له اربعة الاف مرابطية وهو الذي شهد

وقال انه كان من المستحيل على كريستفرو كلمبو ان يجمع ملاحين بدون مساعدة الشرشور، وهذا الشاهد كان امين خزانة الاطعمة في القارب «بنتة» الذي وصل الى العالم الجديد.

٣٩ – جيل فارس GIL PEREZ

تشير بعض الدلائل الى انه كان من ملاحي «بنتة»، سافر «خليل فارس» مع الاميرال في الرحلة الاولى وشهد ان امير البحر كلمبس اغمي عليه وانه قال لمرتين الهنشه الشرشور: بمَا اننا سرنا طويلا ولم نشاهد اليابسة فلنرجع. وتباعدت السفن عن بعضها البعض ومرتين الهونشه تقدمها وانه اكتشف اليابسة وسار فيها عدة ايام قبل كلمبس وان مرتين الهنشه بعد اكتشافه عاد للبحث عن كلمبس فوجد ان سفينته تعطلت لانها جنحت في الشاطىء وان بجنت اخا مرتين الهنشه التقطه واخذه في قاربه هو ومن معه.

٤٠ – غومس رشكون GOMEZ RASCON

ملاح في قارب «بنتة» ومشارك فيه.

٤١ – غنصاله فرنكو GONZALO FRANCO

توفي في جزيرة نفداد، وكان المحاسب لذريق شانتشس الشقوبي بامر من الملك والملكة قد رافق كريستوبال كولون في الرحلة الاولى وقد ضمن للملاحين باسمنا ان اجورهم ستدفع لهم وبنوع خاص لدياغه غرسية فرنكو من اشبيلية ضمن له دفع اجور ابنه، غنصاله فرنكو، الذي رافق امير البحر كلمبو وعند عودته من تلك الرحلة الاولى بقي في الجزر الهندية بعض الاشخاص الذين رافقوا امير البحر ومن جملتهم غنصله فرنكو المذكور والاشخاص الذين مكثوا هناك لمّا عاد الاميرال في الرحلة الثانية وجدهم قد ماتوا والآن فان دياغه غرسية فرنكو يطالب بالاجور المتوجبة لابنه.

وبعد مرور ثمانية اعوام صدر امر من الملك والملكة بدفع الاجور المتوجبة لهذا الملاح المتوفي لورثته والمبلغ الذي امر الملكان بدفعه هو ٢٣١٤ مرابطية متبقية من اصل ١٥٥٠٠ مرابطية وهي الاجور المتوجبة له عن مدة الخدمة خلال سنة ١٤٩٢ و١٤٩٣ عندما قتله الهنود.

٤٢ – جاكومي الريكو JACOME EL RICO

توفي ايضا في جزيرة نفداد، اصله من جنوى دُفِعَ لارملته واولاده في سنة ١٥١٠ مبلغ

٩٨٩٢ مرابطية وهو اجور جقمة المذكور المتوجبة له عن المدة التي قضاها في الجزر الهندية حتى قتله الهنود.

٤٣ – جوان JUAN

ملاح صبي، خادم جوان بوين انيو، دفع له مبلغ ٢٦٦٦ مرابطية لا يعرف شيئا عن هذا الصبي والاعتقاد السائد هو انه من المسلمين المتنصرين.

٤٤ – المعلم جوان MEASTER JUAN

طبيب جراح جئنا على ذكره مرارا عديدة، توفي في نفداد يذكره المؤرخ «لاس كاساس» يقول في الكتاب الاول الفصل ٦٣ المجلد الاول الصفحة ٤١٤، ان امير البحر كلمبو ترك مع اولئك الجماعة في جزيرة نفداد الطبيب جوان لكي يداويهم ويشفي جراحهم.

٤٥ – جوان ارياس JUAN ARIAS

صبي ملاح دفعت له اجوره مقدما، يقال عنه انه برتغالي ابن لب ارياس من بلدة طبيرة، وبلدة طبيرة عربية سلمها القاضي ابن محفوظ للملك فرننده الثالث سنة ١٢٤٧/٦٤٥ اي قبل سقوط اشبيلية بقليل، لب عائلة من عائلات المولدين المعروفة.

دفع له مبلغ الفين وستمائة وست وستين مرابطية.

من اسماء لب عندنا لب بن الطربيشة – لب بن زكريا بن عمروش – لب بن محمد بن لب – لب بن موسى ولب بن سليمان بن هود.

يفيدنا التاريخ ان طبيرة هي من المدن التي تنازل عنها القاضي ابن محفوظ المذكور من زعماء الغرب لملك قشتالة فرننده سنة ٦٤٥ هـ ١٢٤٧ مسيحية ومدن اخرى هي العلي وشلب ومرشوشة وبطرنا والحرة.

لب بن الطربيشة: من زعماء المولدين في طليطلة حاصره عبد الرحمن مدة سنتين فاضطر الى الاستسلام وسار لب مع الامير بقواته لغزو النصارى سنة ٣٠٨ هـ (راجع عبدالله عنان العصر الاول القسم الثاني من تاريخ الأندلس صفحة ٣٧٧).

لب بن زكريا بن عمروش: في سنة ٨٦٩ مسيحية ثار سليمان بن عبدوس في مدينة «سرية» وهي من اعمال سرقسطة، فسار اليها الحكم بن الامير محمد وحاصرها وهدم اسوارها بالمنجنيق. وفي العام التالي ٢٥٦/٨٧٠ ثار بوشقة عاملها عمروس بن عمرو بن عمروس

حفيد عمروس بن يوسف بطل واقعة الحضرة بطليطلة وقد كان بنو عمروس مثل بني قسيّ مولدين من اصل نصراني ، فسيّر عامل الثغر عبد الوهاب بن احمد بن مغيث الجند لمقاتلة الثائر ، فلما انتهى الى وشقة فرّ عنها عمروس واسر حفيده لب بن زكريا بن عمروس وقتل وعلق راسه على سور المدينة.

لب بن محمد بن لب : محمد بن لب بن موسى ، كبير بني قسي وزعيم الثغر الاعلى وكان بنو قسي قد تحولوا الى الثغر الاوسط بعد فقدهم سرقسطة واستولوا على طليطلة سنة ٨٩٧/٢٨٣ وبعث محمد بن لب ولده لبا الى احواز جيان فهاجم لب حصن قسطلونة واستولى عليه ، والظاهر ان تلك الحملة كان لها علاقة بمشروع التحالف بين بني قسي وبني حفصون ، ولكن محمدا لم يلبث ان قتل بعد عامين تحت اسوار سرقسطة وهو يحاول انتزاعها من التجيبيين ولم يستطع ولده لب ان يستمر في حكم طليطلة فابعد عنها حينا ولكن اهل طليطلة عادوا فدعوه الى حكمها فبعث اليهم اخاه مطرفا فتولى حكمها ثم خرج عليه محمد بن اسماعيل بن موسى من ابناء عمومته فحكمها حتى مصرعه سنة ٩٠٦.

اما لب بن محمد فاستقر في طليطلة وكان النزاع يضطرم في الثغر الاعلى منذ اعوام بين التجيبيين وبني قسي وقتل محمد بن لب تحت اسوار سرقسطة سنة ٨٩٨ وهوى نجم بني قسي بعد هلاك محمد.

خلفه ولده لب في طليطلة وما حولها واقره الامير عبدالله على حكم تطيلة وطرسونة وما جاورها. وشغل لب في الاعوام التالية بغزو اراضي النصارى المجاورة فغزا سنة ٩٠٣/٢٩٠ ارض ليون واستولى على بعض حصونها. كان جريئا توفي شابا في الثانية والثلاثين من عمره وكانت وفاته ضربة شديدة لسلطان بني قسي.

خلفه في تطيلة اخوه عبدالله بن محمد بن لب وتابع الغارة على ارض النصارى بعد انضوائه تحت لواء الامير عبد الرحمن.

لب بن موسى اعلن خضوعه لاوردونيو ملك ليون وتحالف معه ضد المسلمين توفي في معركة وادي الحجارة سنة ٣٦٥

هذه المعلومات التاريخية ضرورية للدلالة على ان عائلة لب كانت نصرانية ثم دخلت الاسلام في اوائل الفتح العربي وظلت حتى نزوح العرب عن الاندلس ثم دخلت في النصرانية من جديد.

٤٦ – جوان الريس JUAN ARRAEZ

ملاح على القارب «نينية» ابن بطرس الريس، دفع له اربعة الاف مرابطية استلمها عنه بجنت يانيس، وهذا ايضا من المدجنين بدون شك مثل ابيه، عائلته تدل عليه.

٤٧ – جوان الكوسي JUAN DE LA COSA

صاحب قارب او سفينة «سانتا ماريا» التي كان كلمبو على ظهرها.

٤٨ – حنا مردنيش السوقي JUAN MARTINEZ DE AZOQUE

ملاح، نال اربعة الاف مرابطية، مسقط راسه «دابة» وهذا من المدجنين ايضا.

٤٩ – يوحنا من مدينة. JUAN DE MEDINA

ملاح من بلدة «بالس» قد يكون توفي في جزيرة «ترنداد»، وهو من المدجنين، هاجرت عائلة مدينة الى المغرب وما زال هذا اللقب موجودا حتى الآن في تطوان. سافر مع كلمبو في الرحلة الاولى وكان يتعاطى مهنة الخياطة.

٥٠ – يوحنا المغيري. JUAN DE MOGUER

حكم عليه بالاعدام، ويقول مرسوم العفو:

«وانت يا يوحنا المغيري من بلدة بالس، بناء على الخدمات التي انجزتها لنا بمرافقتك كيرستوبال كولمبو الى اكتشاف الجزر الهندية عن طريق البحر المحيط غربا...

٥١ – جوان نينيو JUAN NINO

نائب قبطان وصاحب القارب «نينية» من مجير، تثبت ذلك الشهادات في الدعاوى وشهادة حفيد له الهنشه بنيغش، كاهن مقيم في مدينة شنتيقوب من اعمال غواتمالا قال: انه منذ اكثر من خمسين عاما اكتشف كريستوبال كولون جزيرة اسبانيولة ومناطق اخرى في الرحلة الاولى وجاء معه على قارب خاص به جوان نينيو، جدى والد امي ليونور نينيو.

وهذا يحملنا على الاعتقاد ان خوان نينيو وعائلته تنتسب الى عائلة بنغيش الغرناطية الشهيرة التي لعبت دورا كبيرا في استسلام غرناطة الى الملكين الكاثوليكيين فليونور ابنة خوان نينيو تزوجت فرنسيسكو بنغش وام الهنشه بنيغش.

٥٢ – جوان ديلا بلاسا JUAN DELA PLAZA

مغير على الارجح من بالس. دفعت له اجوره مقدما نقرأ في الوثائق: «جوان ديلا بلاسا، دفع له مبلغ اربعة الاف مرابطية.

٥٣ – جوان كودرادو JUAN CUADRADO

صبي ملاح على ظهر القارب «بنتة». دفعت له اجوره مقدما الفان وستمائة وست وستون مرابطية. وقد كفله جوان قنطيره، عريف الملاحين.

٥٤ – جوان قنطيره الغروتي JUAN QUINTERO DE ALGRUTA

مشتبه في قراءة اسمه ولا شك ان هذا الالتباس عائد الى اعجمية الاسم وهي تشير عادة الى اصله العربي، وفي بعض الاحيان يضاف اليه الريس.

دفعت له اجوره مقدما، ثمانية عشر دوقاده اي ستة الاف وستمائة وخمسين مرابطية.

٥٥ – جوان رينال JUAN REYNAL

من اونبة دفعت له اجوره مقدما، اربعة الاف وخمسمائة مرابطية. رافق كلون في الرحلة الثانية ايضا.

٥٦ – يوحنا ردريغس الاحمر JUAN RODRIGUEZ BERMEJO

ملاح من بلدة ملينوس الاشبيلية هو اول من شاهد اليابسة، وهذا الاسم عربي محض، الاحمر، ينتسب الى بني الاحمر من غرناطة وقد نزحت هذه العائلة الى المغرب ويطلق عليها اسم برميجو انقرضت سنة ١١٥٠ هـ ١٧٧٨ ميلادية، شهد له ثلاثة اشخاص: فرنسيسكو غرسية ومانويل فلدفينوس ودباغه فرناندس النحّال وقال الثلاثة انه اول من شاهد اليابسة، والنص هو لفرننده كلمبو ابن امير البحر كريستوبال كلون يقول هذا في «تاريخ امير البحر» فصل ٢١ المجلد الاول صفحة ١٠٠ ما يلي:

لمّا كان امير البحر واثقا انه قريب من اليابسة، ولمّا اقبل الليل وانتهت انشودة المساء التي اعتاد ان يغنيها الملاحون، تحدث الى الجميع متاكدا من انه في تلك الليلة سيصل الى اليابسة فليحرس كل واحد وليسهر لان الملكين الكاثوليكيين وعدا بمكافأة قدرها ثلاثون دينارا لاول من يرى اليابسة وهو اي امير البحر بدوره يمنحه جبة من المخمل.

وبعد ذلك، ولمّا كان امير البحر في مؤخر السفينة قبل نصف الليل شاهد نورا ارضيا

ولكن لم يتاكد من انه نور على الارض ، فاستدعى بطره غوتيرس رئيس الندل التابع للملك وقال له : انظر لعلك ترى ضوءا فاجابه : اجل. ثم استدعيا رودريغس سانتشس الشقوبي ولكنه لم يشاهد الضوء لانه لم يصعد عاليا وبعد ذلك لم يشاهدوا الضوء سوى مرتين او ثلاث مرات لانه يختني ثم يظهر فجأة بحيث ان البعض ظنوا انهم قريبون من اليابسة.

وبعد نصف الليل بساعتين كانت سفينة «البنتة» تسير في الطليعة لانها شراعية ، اعطت الاشارة انهم امام اليابسة التي راها قبل الجميع الملاح لذريق الطرياني وانهم على مسافة فرسخين منها ، لم يحظ بعشرة الآف مرابطية بل نالها امير البحر لانه اول من شاهد النور.

هذا ما يقوله فرنانده كولون في تاريخه.

اما لاس كاساس فيقول في التاريخ المجلد الاول صفحة ٢٨٧ ما يلي :

بعد نصف الليل عندما تليت انشودة المساء كما جرت العادة عند الملاحين، تحدث الاميرال لانه كان واثقا بربنا يسوع المسيح انهم في تلك الليلة اصبحوا قريبين جدا من اليابسة او ربمّا شاهدوها ، وان على كل واحد منهم ان يكون شديد الانتباه لكي يراها قبل الآخرين لانه بصرف النظر عن العشرة الاف مرابطية التي تمنحها الملكة فان الاميرال يمنحه جبة من المخمل.

وعندما كان كلمبوس في مؤخرة السفينة وعيناه عالقتان شاخصتان لان هذا من واجبه بصفته قائد الاسطول شاهد ضوءا شاحبا لم يجسر ان يؤكد انه صادر عن يابسة فاستدعى بطره غوتيرس سرا وقال له : انه يخال انه شاهد نورا فلينظر هو لعله يبصر مثلما ابصر، فراى غوتيرس انه نور واستدعى لذريق سانتشس الشقوبي الذي اوكل اليه الملكان ان يكون ناطورا على الاسطول ولكنه لم يتمكن من مشاهدة النور ثم شوهد الضوء مرة او مرتين على شاكلة قنديل شحيح النور يرتفع وينخفض. لم يشك كرستوبال كولون بانه نور وانهم قريبون من اليابسة وهكذا كان.

فسهر كولون وامر الآخرين بالسهر في مقدمة السفينة. ولمّا كان القارب الشراعي «بنتة» يقوده مرتين الهنشه الشرشور سائرا في الطليعة شاهد اليابسة بعد نصف الليل بساعتين على مسافة فرسخين فاطلق مدفعا ورفعت الاعلام كما كان متفقا عليه.

اول من شاهد هذه اليابسة ملاح اسمه لذريق الطرياني ولكن الملكين حكما باعطاء المكافأة عشرة الاف مرابطية اي ثلاثين اسكودا ، الاميرال لانه اول من شاهد الضوء.

هذان هما النصان اللذان يتحدثان عن رؤية الضوء واليابسة بقي نص ثالث هو لاوفيدو التاريخ : المجلد الاول الفصل الخامس الصفحة ٢٤ يقول :

وبينما هم على هذه الحالة قال احد الملاحين الذي كان في القارب السائر في الطليعة : ضوء... ارض ، ارض.

فرد احد خدم كلمبس اسمه «سلسيده» قائلا : وهذا ما يقوله معلمي امير البحر.

ثم قال كريستوبال كلون : هذا ما قلته منذ وقت وشاهدت الضوء في اليابسة.

وهكذا صار، في يوم الخميس في الساعة الثانية بعد نصف الليل استدعى امير البحر احد الاشراف اسمه اسكوبيده رئيس خدم مطبخ الملك وقال له : انه شاهد ضوءا.

وفي اليوم التالي عندما لاح الصباح وابصر اليابسة ملاح اسمه لذريق الطرياني وذلك الملاح الذي ابصر اليابسة وعاد الى اسبانية ولانهم لم يعطوه البشارة غضب وتوجه الى افريقية وجحد ايمانه.

وبالفعل هذا الملاح الذي اول من شاهد اليابسة هو من المدجنين اعتنق الديانة المسيحية ولمّا لم يكافأ حسب الوعد تنكر للنصرانية وغادر اسبانية الى شمالي افريقية وعاد من جديد الى ديانته السابقة الاسلام. وسنرجع للكلام عن هذه المسألة.

٥٧ – جوان روميره JUAN ROMERO

ملاح على ظهر القارب «بنتة» ، تقول عنه الوثائق انه ملاح يعمل مع بطره غنصالس فرانده ، دفعت له اجوره اي مبلغ اربعة آلاف مرابطية.

٥٨ – جوان رويز البنية JUAN RUIZ DELA PENA

ملاح من بلاد البشكنس دفعت له اربعة الاف مرابطية مقدما استلمها عنه بجنت يانيس وكفله انيقة من دايفة كما فعل مع جوان مردنيش السوقي.

وهذا ايضا من المدجنين ثم المورسكيين سافرت عائلته الى المغرب وهناك سميت باسم بينية وقد انقرضت سنة ١١٨٥ هـ ١٧٧١ ميلادية. ملاح على ظهر السفينة «سانتا مارية» سفينة الاميرال كلمبو.

٥٩ – جوان فردي الطرياني JUAN VERDE DE TRIANA

ملاح على ظهر القارب «بنتة» ، تقول الوثيقة خوان فردي الطرياني ، دفع له مبلغ اربعة الآف مرابطية استلمها عنه مرتين الهنشه الشرشور.

٦٠ – جوان بيشانه JUAN VEZANO

دفعت له اجوره مقدما وهو ملاح لان المبلغ الذي استلمه له مرتين الهنشه الشرشور هو اربعة الاف مرابطية ، راتب ملاح ، وقد يكون اسمه الفنسيانو اي البندقي من مدينة البندقية.

٦١ – جوان الشريشي JUAN DE XERES

جوان الشريشي ملاح شهد له خمسة اشخاص : انه سمع ان احدهم يدعى جوان الشريشي سافر مع كلمبس سمع ذلك منذ ثلاثة وعشرين او اربعة وعشرين عاما.

وشاهد آخر اسمه جوان اسكلنتي شهد ايضا الشهادة نفسها ولا يستبعد اطلاقا ان يكون الشريشي من المتنصرين.

٦٢ – لب القلفاطي LOPE CALAFATE

كان في السفينة «سانتا مارية»، توفي في جزيرة «نفداد». دُفِعَ لورثته سنة ١٥١٠/٣٦٠٠ مرابطية كما تقول الوثيقة :

انه في ٩ آذار سنة ١٥١٠ دفع لردريغس النجار من «بالس» ثلاثة الآف وستمائة مرابطية المتوجبة لكل واحد من الثمانية والثلاثين شخصا الذين قتلوا في جزيرة اسبانيولة ، وكان امير البحر قد تركهم هناك في اول رحلة اكتشافية حققها.

وهذا ايضا من اصل مولّدي كما رأينا.

٦٣ – لويس دي طورّس LUIS DE TORRES

يهودي مرتد ، مات في «جزيرة نفداد». دفع لامراته ما هو متوجب له.

تقول الوثيقة : «ان امير البحر قرر ارسال رجلين اسبانيين الواحد اسمه لذريق الشريشي المقيم في ايامونت والآخر لويس الطورس عاش مع مقدم مرسية ، وكان يهوديا مرتدا يعرف العبرية والكلدانية والعربية وارسل معهما هنديين احدهما من «غوانا هاني» والآخر من تلك الاكواخ الريفية الواقعة قرب النهر.

ويقول المؤرخ لاس كاساس : (مجلد ١ صفحة ٣٢٧) : ولمّا كان امير البحر واثقا من ان تلك الاراضي تابعة لمملكة الخان الاكبر او حدودها وتخومها ، ولمّا كان يرغب في معرفة الاخبار عنه وجّه اليه اسبانيين احدهما لذريق الشريشي ، من ايامونت ، والآخر لويس الطرّس الذي عاش مع مقدّم مرسية وكان يهودي الاصل ويعرف العربية والعبرية والكلدانية ، وارسل معهما هنديين احدهما من غواناهاني والآخر من تلك الاكواخ القروية.

المبلغ الذي دفع لارملة لوس الطرس «قاتالينا سانتشس» CATALINA هو ثمانية آلاف وستمائة وخمس واربعون مرابطية وذلك سنة ١٥٠٨.

ويقول المؤرخ لاس كاساس: ان لويس طورس حمل رسالة من الملكيين الكاثوليكيين مكتوبة باللغة اللاتينية وصادرة عن مدينة غرناطة في ٣٠ نيسان ١٤٩٢ يوصي بكلمبوس خيرا.

توفي هذا اليهودي المرتد وهو المسافر الوحيد من اصل يهودي في جزيرة «نفداد»، كما يعتقد بعض المؤرخين ولكن بالحقيقة يوجد اكثر من يهودي واحد متنصر واكثر من مسلم متنصر بالظاهر فقط قلما وصلوا الى العالم الجديد ووجدوا ذاتهم بنجوة من محاكم التفتيش عادوا الى ديانتهم السابقة.

هناك نظرية جاء بها استاذ في جامعة «تكومة» TACUMA بالمكسيك اسم هذا الاستاذ «ريفاس بويغرسفير» RIVAS PUIGCEVER يهودي الاصل نشر سنة ١٨٩١ وثيقة ضمن مقال عنوانه «اليهود في العالم الجديد».

شاء هذا الاستاذ اليهودي ان يبرهن بواسطة اغنية قديمة جدا من اصل افريقي، انه كان يرافق كلمبس عدد كبير من اليهود والمسلمين المدجنين والمورسكيين، وان قسما منهم، خوفا من محاكم التفتيش طلب البقاء في تلك الجزر، كما جاء في مذكرات كلمبوس نفسه ان عددا كبيرا منهم طلب البقاء في هذه الجزيرة وان الباري تعالى شاء ذلك والا لمّا جنحت السفينة الكبرى «سانتا مارية» واصبحت غير صالحة للملاحة والاغنية الشعبية التي عثر عليها «البرفسور اليهودي بوغسرفير والتي بعثها فيما بعد الى فرنندس دوره» FERNANDEZ DURO تقول:

وهذا تعريبها:

A las dos de la mañana,	في الساعة الثانية صباحا
«I, I, Rodrigo de Triana	يي يي، لذريق الطرياني
diz a un portugués, Qual cinta	قال للبرتغالي وهو ينظر
dende el caçar de la Pinta,	من قصر (مقدم القارب «بنتة»)
vese agora, e non es vana»,	ارى الآن وليس كذبا
Este demanda «?Ueana?	وهذا البرتغالي سأل واين؟

حدّق النظر وحدق النظر هناك هناك	Cata, cata allá; !hení!
رآها وقال: «اين؟ هنى	véla e diz, Uaana hení!
عندئذ صرخ الاول	Estonce grita el primero
بشدة لانه كان ملاحا	fuerte, ca era marinero
ايها الملاحون، يابسة، يابسة	«Navegantes! Tierra! Tierra»
وطرحوا الصوت انتبهوا جيدا، القوا المرساة.	Dan la voz: «Amaña! Aferra!
هاليلويا، هااتوسيم	Haleluia haanusim!
والحمد لله مسلمين (هكذا جاءت في النص الاسباني)	E «Alhamdo lillah muslimin»
وهتف الجميع هاليلويا	Dicen todos, «Haleluia!»
غير ان المكافأة لم تصبح له	Mas la pension no fue suia
	ca, de retorno en España
اعطوها كلمبوس وثار غضبه	danla a Colombo; e con saña
لان الملك نزع منه حقه	ca el rei le quita el derecho
والآن اجتاز المضيق	agora pasa el Estrecho
متذمرا من امير البحر	quexose del almirante
هذا الاسباني المتهود	este español judizante,

هذه الاغنية الشعبية لا تترك مجالا للشك في ان عدد الملاحين الذين رافقوا كريستفرو كولون كان كبيرا، كما ان اسم الجزيرة «غواناهاني» ليس بالواقع سوى كلمتين عربيتين: واين؟ هناك. وبهذا يزول الشك عن اسم هذه الجزيرة الذي نسبوه الى الهنود وليس سوى الحديث المتبادل بين لذريق الطرياني والبرتغالي: — واين؟ هناك.

ثم اطلقوا على هذه الجزيرة «غواناهاني» اسم سان سلفادور. اي «القديس المخلّص»، يسوع المسيح.

٦٤ — مرتين اورتوبيا MARTIN DE URTUBI

صبي ملاح توفي في جزيرة «ترينداد». TRINIDAD

دفعت اجوره لامه وريثته وهي من بلاد البشكنس. وكان قد رافق كلمبوس في الرحلة الاولى الى اكتشاف الجزر الهندية، والمبلغ المدفوع هو عشرة الاف واربعمائة وثلاث واربعون

مرابطية تكملة اجوره ، والف وستمائة واربع وعشرون مرابطية له من كرستوبال كارو الصائغ ، ومن دياغه ليال وهما صبيان ملاحان ، والمبلغ الكامل المدفوع له يكون اثني عشر الف وسبع وستين مرابطية (١٢٠٦٧) كما جاء في سجل الحسابات العامة صفحة ١٥١.

٦٥ – مرتين الهونسه الشرشور MARTIN ALFONSO DE PINZON

ربان البنتة اسمه في كل مكان وهو الذي موّل قسما من مشروع كرستفرو كلمبو ، وياتي في الرتبة الثانية في قيادة الاسطول الذي توجه الى الجزر الهندية وعلى راسه كريستفورو كلمبو.

٦٦ – ميخائيل من «سرية» MIGUEL DE SORIA

صبي ملاح ، دفعت له اجوره مقدما كما يتبين من لائحة المسجلين للسفر الى اكتشاف الجزر الهندية خادم عند دياغه لب ، المبلغ المدفوع له الفان وستمائة وست وسبعون مرابطية كفله دياغه لب سيده ، يقابلها ثمان دوبلات.

وهذا ايضا من المدجنين ، عائلة «شرية» توجهت الى المغرب واندثرت سنة ١٠٨٨ هـ يقابلها ١٦٧٧ ميلادية.

٦٧ – بطره الاراكي. PEDRO DE ARCOS

كان على ظهر القارب «بنتة» «pinta»

شهد على ذلك «الهنشه الجليقي» قال : انه سمع من اولئك الاشخاص الذين جاءوا في ذلك الاسطول وبنوع خاص احدهم وهو بطره الاراكي الذي سافر في الرحلة الاولى في قارب مرتين الهنشه الشرشور.

٦٨ – بطره الريّس PEDRO ARRAEZ

ملاح على ظهر القارب «نينية» دفعت له اجوره مقدما وهي اربعة الاف مرابطية استلمها له بجنت ينيس الشرشور.

شهد جوان فينياش في سانتو دومنقه سنة ١٥١٢ ، لمّا سئل عما اذا كان مكتشفون آخرون قد نزلوا الى اليابسة مع كرستوبال كولون فقال انه شاهد «بطره الهنشه نينيو» «وجوان نينيو» «وجوان الشريشي» «وجوان المجيري» «وبطره الرايس» ، جاءوا مع امير البحر كلمبو في الرحلة الاولى لمّا اكتشف الجزيرة اسبنيولة وجزرا اخرى.

وهو ايضا من المدجنين توجهت عائلته الى تطوان.

٦٩ – بطره غوتيرس PEDRO GUTIERREZ

طاه في البلاط الملكي. توفي في جزيرة نفداد.

جاء ما يلي في يوميات كلمبس:

ان امير البحر، في الساعة العاشرة ليلا كان على سطح مؤخر السفينة شاهد ضوءا شاحبا جدا بحيث انه لم يشأ ان يجزم على وجود يابسة فاستدعى بطره غوتيرس طاه في البلاط الملكي وقال له: انظر انه على ما يبدو انه ضوئ وبالفعل شاهد بطره غوتيرس الضوئ.

٧٠ – بطره اليسارى PEDRO IZQUIERDO

من «لب» LEPE محكوم عليه بالاعدام.

البرهان على ذهاب مع كريستفورو كلمبو ان الملك والملكة عفو عنه سافر مع امير البحر كما تقول وثيقة العفو في محفوظات شمنكس، ايار ١٤٩٣ والمطبوعة في نشرة آذار ١٩٢٠.

٧١ – بطره اللبي PEDRO DE LEPE

صبي ملاح من ردونديلة، توفي في جزيرة «نفداد».

دفعت اجوره لورثته سنة ١٥١٠، (محفوظات شمنكس) ثلاثة الاف ومائة وتسع وثمانون مرابطية، لاخته ميور شانشس ارملة من قرية ريدونديلة. «REDONDELA«

٧٢ – بطره الهنشه نينيو PEDRO ALFONSO NINO

القبطان الاكبر. يستدل على ذهابه مع كلمبو من اقوال ثلاثة شهود في دعاوى كلمبس، موجودة في المحفوظات الهندية.

ونعرف ايضا من يوميات كلمبس نفسه التي تقول في يوم ٧ شباط فبراير:

«في هذا الصباح كان امير البحر في جنوب جزيرة الزهور على بعد ٧٥ فرسخا، والربان بطره الهونشه متوجه الى الشمال مارا بالجزيرة الثالثة وبجزيرة سانتا مارية.

وفي مكان آخر من هذه المذكرات، ١٠ شباط ١٤٩٣ ياتي على ذكر بطره الهونشه.

٧٣ – بطره شلسيده PEDRO SALCEDO

خادم كلمبس من شهادة «فرنسيسكو مولاالس» في المحفوظات الهندية وفي التاريخ العام «اوفيده» عندما ياتي على ذكر الضوئ الذي شاهده كلمبس يقول:

«بينا هم سائرون على هذا النحو قال احد الملاحين من سفينة امير البحر واصله من لَبْ:

«ضوء» ضوء، فردّ عليه خادم كلمبس قائلا: هذا ما قاله سيدي الاميرال. ثم قال كلمبس: هذا ما قلته منذ وقت ورايت ذلك النور المتأتي من اليابسة.

ولكن على ما يبدو ان هذا النور او الضوء لم يكن متأتيا من البر بل انه توجد بعض الحيوانات المائية ترسل نورا في بعض اوقات من السنة وهذه الاضواء التي شاهدها كلمبس ليست سوى تلك الاضواء المتأتية من هذه الحيوانات المائية وليست من البر كما ظن كلمبس وبالفعل فقد ظهرت هذه الاضواء من الحيوانات المائية في الوقت الذي مرّ به كلمبو بتلك الناحية.

قال بهذه النظرية الدكتور كروسهاي، في مجلة علمية انكليزية اسمها «نتشير» مجلد ١٣٦ ص ٥٥٩ تشرين الاول سنة ١٩٣٥.

٧٤ – بطره شانشس المونتيلي PEDRO SANCHEZ DE MONTILLA

ملاح دفعت له اجوره سلفا. تقول الوثيقة: بطره شانشس المونتيلي دفع له اربعة الاف مرابطية.

٧٥ – بطره شورية PEDRO DE SORIA

يشهد على نفسه انه رافق كلمبو الى اكتشاف العالم الجديد، واكتشف جزيرة اسبنيولة وهذا ايضا من المدجنين هاجرت عائلة «سرية» الى المغرب وانقرضت سنة ١٦٧٧ ميلادية ويطلق عليها في المغرب اسم «شورية».

٧٦ – بطره تجيره PEDRO TEJERO

صبي ملاح دفعت له اجوره سلفا، فنقرأ على لائحة الصبيان الملاحين: بطره تجيره «بطرس الحايك» الفان وستمائة وست وستون مرابطية.

٧٧ – بطره طريرو PEDRO TERRERO

رئيس الندل عند كلمبس، من شهادة فرنسيسكو دي مورالش في بورتو ريكو ٣٠ ايلول ١٥١٤ يقول انه سمع بطره طريرو وجوان نينيو وبطره في السفينة سانتا مارية وشلشيده وصيف امير البحر انهم جاءوا مع كريستوبال كولون في الرحلة الاولى.

هذا الملاح ايضا من المدجنين سافرت عائلة طريرو الى المغرب وانقرضت سنة ١٠٩٧ هـ، يقابلها ١٦٨٦ ميلادية.

٧٨ – بطره دي فيليا PEDRO DE VILLA

ملاح على ظهر السفينة «سانتا ماريا».

المصدر – مذكرات كلمبس، يوم ١٤ شباط ١٤٩٣ يقول وقعت على ملاح اسمه بطره دي فيليا لكي يذهب الى الحج الى انكونا في بلاد البابا، حيث ان السيدة العذراء اجترحت الكثير من العجائب، ووعده الاميرال باعطاء نفقات الرحلة.

٧٩ – لذريق اشكوبدو RODRIGO ESCOBEDO

كاتب في الاسطول توفي في جزيرة نفداد، كان على ظهر السفينة «سانتا ماريا».

المصادر: مذكرات كلمبو ١٢ تشرين الاول ١٤٩٢ و ٢ كانون الثاني ١٤٩٣.

تقول المذكرات: ان الاميرال استدعى رباني القاربين ولذريق الاسكوباد ولكي ينزلوا الى البر، ولذريق هذا كاتب في الاسطول لكي يشهدوا على استلامه تلك الجزيرة باسم الملك والملكة.

٨٠ – لذريق الجليقي RODRIGO GALLEGO

ملاح صبي، دفع له راتبه سلفا. انه خادم غنصاله فويغو، المبلغ المدفوع له هو الفان وستمائة وست وستون مرابطية، وقد كفله معلمه، المرابطية دفعت له دوبلات ثمان.

٨١ – لذريق المونجي RODRIGO EL MUNGE

المصادر شهادة دياغه ردريغس شمعون تقول ان ردريق مونجي وغيره رافقوا كريستوبال كولون الى اكتشاف الجزر الهندية.

٨٢ – لذريق سانتشس الشقوبي RODIGO SANCHEZ DE SEGOVIA

الناظر على الاسطول كان مسافرا في السفينة «سانتا مارية» التي يديرها امير البحر كلمبو.

المصادر عن هذا الرجل كثيرة نجدها في مذكرات كلمبو اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الاول سنة ١٤٩٢ عند مشاهدة الضوء فيذكر ان كلمبو طلب اليه ان يأتي ويشاهد الضوء ولكنه لم يشاهد شيئا لانه لم يكن في المكان المناسب لكي يشاهده.

ولاس كاساس في تاريخه يتحدث عنه ويقول انه مبعوث من قبل الملك والملكة لكي يراقب الامور وما يجري في الاسطول.

ونجد له ذكرا ايضا في «حياة الاميرال» التي كتبها ابن كلمبو، فرننده الذي رزقه من بيتريس كما رأينا.

٨٣ — لذريق الطرياني RODRIGO DE TRIANA

جئنا على ذكره سابقا تحت اسم جوان ردريغس الاحمر وقلنا عنه انه اول من شاهد البر ولم يحظ بالبشارة التي وعد بها الملك والملكة وثار غضبه وهرب من اسبانية الى شمالي افريقية حيث اعتنق الديانة الاسلامية وكما قلنا فان اسم جزيرة «غوانا هاني» ليست سوى تحريف لكلمتين عربيتين تبادلها البرتغالي مع الطرياني لمّا سأل البرتغالي عن ارض التي رأها الطرياني قال: اين؟ ورد عليه الطرياني: هني، اي هناك ومن دمج هاتين الكلمتين اين وهني نتج «واناهاني»، وهو اسم الجزيرة التي اختلف المؤرخون في تاويل اسمها.

٨٤ — لذريق الشريشي. RODRIGO DE XERES

كان من سكان ايامونتي (Ayamonte)

جاء في مذكرات كلمبو ان الاميرال ارسله مع لويس الطورس اليهودي الاصل ويرافقها هنديان احدهما من جزيرة «واناهاني» والآخر من تلك الاكواج الكائنة على النهر واعطاهم ما يحتاجون لشراء الاطعمة ويجب ان يعودوا خلال ستة ايام، بعض نماذج من افاويه لعلهم يعثرون على بعضها واعطاهم ايضا تعليمات للسوال عن ملك تلك الاراضي وما يجب ان يخاطبوه عن لسان الملك والملكة القشتالية.

والمؤرخ لاس كاساس يذكره ايضا في تاريخه جزء اول ص ٣٢٧.

وهذا ايضا من المدجنين يعرف في المغرب باسم «شليش او شليس» لا نعرف بالضبط متى توجهت هذه العائلة الى المغرب ولكن نعلم انها انقرضت في تطوان سنة ١١٧١ هـ الموافق سنة ١٧٥٨ ميلادية.

٨٥ — روى غرسية RUI GARCIA

ملاح من سانتونية.

المصادر: حياة الاميرال، كتبها ابنه فرنندو كلمبو. يقول النص الاسباني القديم انهم عندما كانوا يخوضون البحر، والاخطار محدقة بهم بسبب العواصف يوم الجمعة المصادف ١٥ شباط فبراير، في الصباح شاهد روى غرسية ارضا في الشمال الشرقي.

وروى غرسية هذا هو من مرفأ سانتا مارية من سانتونية.

٨٦ – شانجه دي راما SANCHO DE RAMA

ملاح من بلدة «بالس» كان في القارب «بنتة» Pinta

دفعت له اجوره سلفا اربعة آلاف مرابطية، كفله الهنشه الشرشور.

لا يعرف عنه شيء آخر.

٨٧ – شانجه رويز دي غاما SANCHO RUIZ DE GAMA

ربان الوثائق: يظهر اسمه بين اولئك الذين دفعت لهم اجورهم سلفا المبلغ المدفوع له عشرون دوقية وهذا ايضا من المدجنين توجهت عائلته الى المغرب ويضيفون الى الاسم رويز «ال» فتصبح الرويز.

٨٨ – بجنت آنس الشرشور VICENTE YANES PINZON

ربان الزورق القارب «نينية» Niña

المصادر: مذكرات كلمبو.

تاريخ لاس كاساس، وفرنندو كولون.

فهو الذي شارك في اعداد الرحلة، ويقول لاس كاساس في تاريخه: ان مرتين الهنشه الشرشور واخوته ساعدوا كريستوبال كولون كثيرا باموالهم لانهم اثرياء وموثوق بهم.

ويضيف هذا المؤرخ: ان مرتين الهنشة المذكور، كما اعرف ساعد كلمبو بمبلغ نصف مليون مرابطية، اما وحده او بمساعدة اخوته.

ويقول لاس كاساس في مكان آخر: وفي القارب الآخر الذي اطلق عليه اسم «نينية» عيّن كولون بجنت انيس اخ الهنشه قبطانا وهو من بلدة بالس.

وفي مذكرات كلمبو نقرأ ما يلي: وخرج الاميرال من السفينة ونزل الى البر وكذلك مرتين الهنشه الشرشور وبجنت انيس اخوه الذي كان ربانا في القارب «نينية».

تلك هي لائحة موثوق بها، بقيت هناك اسماء مشكوك بها ولا باس في ان نذكرها:

٨٩ – دياغه دلغادو DIEGO DELGADO

ربان من بلدة «بالس» Palos

المصادر: شهادته:
يقول انه سافر مع كلمبو في الرحلة الرابعة وفي الرحلة الاولى ايضا.

٩٠ – جوان فيفاس JUAN VIVAS

ملاح.

٩١ – ارياس الشرشور ARIAS PINZON

شهد له لذريف الفارس فقال: انه لم يسافر مع كلمبو في الرحلة الاولى غير انه كان معه في الثالثة والرابعة، لم يكمل الرحلة الثالثة لانه مرض في الراس الاخضر وبقي هناك. وسمع من يقول ان برتولومي مرتين بنسون بن دياغه الشرشور، وآخر اسمه ارياس الشرور سافرا مع كلمبو في الرحلة الاولى.

٩٢ – برتلماوس مرتين الشرشور BARTOLOME MARTIN PINZON

ما قلناه عن السابق نقوله عن هذا لان الشاهد نفسه، والشهادة السابقة ادلي بها في سانتو دومنقو سنة ١٥١٤.

٩٣ – الهنشه فارس رولدان ALONSO PEREZ ROLDAN

شهد له الراهب لذريق في سانتو دومنقو بشهر ايلول ١٥١٤.

٩٤ – برتلماوس فارس BARTOLOME PEREZ

ما قلنا عن السابق نقوله عن هذا الذي شهد له الراهب ايضا لذريق.
فقد قال ما يلي:

ان له من العمر اثنين وستين عاما، كان خادما للاميرال كولومبو وانه جاء معه الى الجزيرة اسبنيولا في الرحلة الثانية، وسمع انه جاء مع الاميرال الى جزيرة في الرحلة الاولى الهنشه فارس رولدان وبرتلماوس فارس. والاثنان هما من الربابنة.

٩٥ – الهونشه مديل ALONSO MEDEL

قال الشاهد دياغه برمودس في الدعوى المقامة سنة ١٥١٥ في بالس لصالح دياغه كلون انه سمع من يقول ان «فارس نينيو» «والونسه مديل» «وفرنسيسكو نينيو» كانوا مع كلمبو لمّا توجه الى اكتشاف الجزر الهندية.

٩٦ – فرننده دي غيفارس FERNANDO DE GUEVARAS

وهذا مرتبط بشهادة فرنسيسكو فرناندس.

٩٧ – هرنان فارس HERNAN PEREZ

شهد له دياغه رودريغس شمعون وهذا الشاهد من بلدة بَالُس وله من العمر خمسة وثلاثون عاما وسافر مع كلمبو في الرحلة الرابعة ولمّا سئل عن الرحلة الاولى التي جرت سنة ١٤٩٢ قال انه سمع من يقول عن السنة الكثيرين من سكان بلدة بالس ويذكر بنوع خاص انه سمع جوان كنتيره ورودريغه مونجي وهرنان فارس سافروا مع كريستوبال كولون لاكتشاف الجزر الهندية...

٩٨ – جوان من طريانة JUAN DE TRIANA

٩٩ – جوان الاشبيلي JUAN DE SEVILLA

١٠٠ – جوان فارس JUAN PEREZ

شهد لهم في كانون الاول سنة ١٥٣٥ كريستوبال سريسو دي باديليا من اشبيلية في محلة طريانة، وهذا الشاهد له من العمر خمسة وخمسون عاما ويحسن القراءة تعرف على لويس كولون وعلى كريستوبال كولون ومرتين الهنشه الشرشور وكان في سانتو دومنغو، قال انه سمع الكثيرين من سكان بالس يقولون ان مرتين الهنشه الشرشور اخذ معه اناسا كثيرين من اقربائه للاكتشاف، وسمع اناسا يقولون ذاكرين اسم يوحنا الاشبيلي المقيم في بالس ويوحنا فارس قلفاطي من بالس ايضا وحنا من طريانة المقيم في مجير.

١٠١ – جوان اورتيس JUAN ORTIZ

١٠٢ – الهونشه هرنادس العزيز. ALONSO HERNANDEZ QUERIDO

شهد لهما بطره اورتيس ابن عم جوان اورتيس، صرح في «اونبة» مسقط راسه في شهر كانون الثاني ١٥٣٦ له من العمر خمسة وسبعون عاما تعرّف على كولون ومرتين الهنشه الشرشور قال: انه لمّا تشكل الاسطول للتوجه الى الاكتشاف في المرة الاولى شاهد في مدينة اونبة كرستوبال كولون ومرتين الهنشه الشرشور اللذين كان يبحثان عن ملاحين للسفر معهما الى الاكتشاف وكان هذا الشاهد يرغب في الذهاب معهم ولكن حالت بينه وبين رغبته اسباب عائلية.

وقال ايضا انه بينما كان ذات يوم يصطاد السمك على شواطىء بلاد البربر شاهد الاسطول قادما من الاكتشاف الاول وشاهد هنودا وعلامات اخرى كثيرة من تلك الاراضي المكتشفة، وقال ايضا، وكان قادما معهم الهونسه هرنادس العزيز وجوان اورتيس ابن عمه، وقد توفي الاثنان.

١٠٣ – بطره برمند PEDRO BERMUDEZ

شهد له جوان دومنغس من بلدة اونبة سنة ١٥٣٦، عمره خمسة وثمانون عاما تقريبا تعرف على مرتين الهنشه انه سمع من يقول ان مرتين الهنشه المذكور كان قبطانا في قاربه وبطره برمند من بلد بالس كان ربانا في قارب آخر ولا يعرف اكثر من هذا شيئا.

١٠٤ – دياغه ردريغس DIEGO RODRIGUEZ

شهد له انطونيو قنطيره والشهادة كانت باشبيلية سنة ١٥٣٦. انه ربان سفينة، له من العمر اثنان واربعون عاما لم يسافر مع كلمبو. جاب البحار حتى جزيرة كوبا قال انه سمع من الربابنة من سكان بَالُس ان الكثيرين سافروا مع كلمبو في الرحلة الاولى ويذكر بنوع خاص دياغه ردريغس ولا يذكر اسماء الآخرين.

١٠٥ – الهنشه فارس نينو ALONSO PEREZ NINO

ليس من برهان يدل على انه رافق كلمبو سنة ٩٢

١٠٦ – الهونسه نينو ALONSO NINO

ابن جوان نينو سافر في الرحلة الثانية.

١٠٧ – برتلماوس فارس نينو BARTOLOME PEREZ NINO

١٠٨ – كريستوبال نينو CRISTOBAL NINO

١٠٩ – اندرس نينو ANDRES NINO

ليس من دليل يثبت ان هؤلاء الثلاثة سافروا مع كريستوبال كولون في الرحلة الاولى الاكتشافية.

وبهذا نكون قد جئنا على جميع الذين سافروا في الرحلة الاولى الاكتشافية، وقد اجمع المؤرخون على ان العدد يبلغ المائة شخص، ذكرنا مائة وتسعة اشخاص مع الاثباتات الكافية، بدون شك. زاد العدد قليلا على المائة.

الفصل العَاشر

المغامرة الكبرى

واكتمل العدد المطلوب وراح الشرشور يوزع الناس على السفن الشراعية الثلاث ، لانه ادرى بهم من كريستفرو كلمبو ، وقد اعتاد منذ صباه على تشكيل طاقم السفن. احتفظ لنفسه بقيادة القارب الشراعي «بنتة» PINTA اذ انه اسرع من «نينية» ومن السفينة الشراعية «سانتا مارية» التي يقودها الاميرال كريستوبال كولون واكثر الملاحين من «بالس» او من مجير ، انه طاقم ملاحي عائلي.

والقارب الشراعي الآخر «نينية» NINA يقوده بجنت الشرشور اخو مرتين الهونشه الشرشور والطاقم من بالس ومجير واونبة ، اناس تمرسوا في البحار منذ نعومة اظفارهم ومن جملة الملاحين جوان برمند او برمودس الذي اكتشف فيما بعد جزر برمودة.

اما السفينة الشراعية «سانتا مارية» التي يقودها امير البحر فقد تشكل ملاحوها من اماكن مختلفة : من بلاد البشكنس ، ومن جليقية وقشتالة والاندلس كما سافر فيها جميع الذين لم يعتادوا على السفر في البحار ، حوالي عشرين شخصا من الموظفين المدنيين او من صنيعة امير البحر.

وهذا الاسطول الصغير مسلح بالمدافع : اربعة مدافع في سفينة سانتا مارية قذائفها من الحجارة وتزود كل قارب بمدفعين صغيرين وقذائفهما من الرصاص ، كما احتملت هذه السفن عددا لا يستهان به من بنادق وسهام وسيوف وفؤوس.

حمولة سانتا ماريا مئتا طن ، والقاربان الآخران كل واحد منهما مائة طن ونيف.

المطبخ على ظهر السفينة ومن واجب الوصفاء السهر عليه في الليل حتى لا تتاجج فيه النيران وعند ذلك يخشى خطر الحريق.

يسخنون عليه الطناجر في النهار لاعداد الطعام، وقد ضمت العنابر القناطير من البسكوت والكعك وعشرات القناطير من الارز والحمص والبازلة واللحم المجفف والسمك المقدد والمملح يتناولونه في الايام التي حرّم عليهم فيها اكل اللحم مثل يوم الجمعة.

امتلاء ايضا البراميل من الخمور والزيت والخل.

والخل هو من الحاجات الضرورية جدا للسفر في البحار صفت عشرة براميل، منه، يصلح الماء اذا فسد ويصبح صالحا للشرب، وضروري ايضا لرشه على السمك في وقت الاكل، ومن الضروري ايضا رش غرف النوم بالخل تجنبا للامراض وفي بعض الاحيان يفسد الهواء في العنابر ودواؤه الخل فيصبح الهواء قابلا للتنفس، انه دواء اكيد ومجرّب.

ومن الماكولات اللازمة في السفن الجبن، فقد شحنت كميات كبيرة منه، لانه، عندما تهب العواصف، لا يمكن اشعال النار في المطبخ المعرض للهواء كما قلنا وبالتالي لا سبيل الى طهي الطعام كما ان تارجح المركب على اليمين واليسار يقلب ادوات المطبخ والصحون راسا على عقب وعندما يكون البحر شديد العواصف يتناول الملاحون الجبن والبسكوت والخمر.

الصبي الملاح تتراوح سنه بين الثامنة عشر والخامسة والعشرين، عليه ان يقوم بتلك الاعمال التي تتطلب خفة ونشاطا مثل تحريك الطلمبة ورفع الاشرعة وخفض القلوع عندما تهب الرياح.

وعلى الصبيان الملاحين والملاحين ان يحملوا معهم دائما سكينا في وسطهم لقطع اي حبل او مرسة او خيط.

فالسكين ضرورية للملاح مثل الاكل والشرب والنوم، وفي كثير من الاحيان، قطع حبل في حينه يحول دون وقوع كارثة في السفينة، كما عليهم ان يتزودوا بامراس مشدودة الى وسطهم، والوصفاء والصبيان الملاحون منهم يحملون امراسا او خيطانا من قصيرة وطويلة تكون جاهزة عندما يطلبها الملاحون منهم. وعليهم ان يتعلموا الصلوات التي يتلوها الوصفاء عندما ياتي المساء ونجوم الليل تنثر، يصعد وصيف الى برج مقدمة السفينة ويتلو الصلاة التالية:

تبارك النور

وتبارك الصليب
وسيد الحق
والثالوس الاقدس.
تباركت النفس
والسيد الذي يتراسنا
تبارك النهار والله الذي ارسله الينا.

ثم يتلو الصلاة الربية اي «ابانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك لبأت ملكوثك لتكن مشيئتك في السماء كما على الارض.

ثم يتلو السلام الملائكي: «السلام عليكم يا مريم يا ممتلئة نعمة، الرب معك، ومباركة انت بين النساء ومبارك ثمرة بطنك سيدنا يسوع المسيح».

وعندما يحين وقت الطعام على الوصفاء ان يصرخوا بصوت عال:

المائدة موضوعة واللحم جاهز
عاش ملك قشتالة على البر وعلى البحر
ومن عصاه او حاربه فليقطع راسه
ومن لم يقل امين لا يقدّم له شراب
ومن لا يحضر الى المائدة لا ياكل.

وفي العشاء ينادي الوصيف على الناس مثلما نادى عليهم عند الظهر، وعند انتهاء وليمة العشاء يتلو وصيفان الصلاة الربية والسلام الملائكي اللذين جئنا على ذكرهما وفعل الايمان اي: اومن باله واحد آب ضابط الكل، خالق السموات والارض كلما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، اله من اله، نور من نور اله حق من اله حق مولود غير مخلوق مساو للآب في الجوهر.

واومن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب والابن، يسجد له ويمجد.

واومن بكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية...

ثم صلاة لمريم العذراء: السلام عليك يا سلطانة السماء والبحار،... مرتلة من قبل الجميع. وكان اليوم الثاني من شهر آب عيد سيدة الرابطة، فاحتفل به في ذلك العام بابهة توديعا للاسطول الصغير.

توجه اكثر المسافرين الى الدير لسماع القداس الالهي ، وبعضهم اعترف بخطاياه وتناول القربان المقدس وهذا ما صنع القائد الاعلى الاميرال كلون.

وفي اليوم التالي المصادف الجمعة والثالث من شهر آب اغسطس وقبل شروق الشمس بنصف ساعة رفع الملاحون زوارقهم الى المراكب وقطعوا كل اتصال لهم بالبر، واتخذ المائة وتسعة رجال الذين ذكرناهم امكنتهم في المراكب.

وشوهد على الرصيف رئيس دير الرابطة مع عدد من رهبانه ، والنطاسي غرسية فرنندس وبطرس بشكش وجماعة من النساء يبكين بصمت وغيرهن صارخات ماسكات بشعورهن كانهن نوادب في مأتم. رحلة طويلة مؤونة لعام كامل. هل يعود رجالهن يوما ما؟

ولعن هؤلاء النسوة الاجنبي الذي جاء الى «بالس» لبلاء الكثيرين.

وحاول الملاحون الباقون على الرصيف اسكاتهن قائلين: اليس مرتين الهنشه واخوته واقاربه مسافرين بكامل رضاهم معه وهم من الاثرياء ولا حاجة لهم الى سلوك المغامرات وخوض البحار؟ الم يوافق الناس العقلاء مثل نطاسي البلدة ورئيس الدير العارفان بتقلبات الفلك واسراره ، على القيام بهذه الرحلة؟

وعلا صوت مرتين الهنشه الشرشور، انه سيتذكرهم جميعا وسيجلب لكل واحد منهم تذكارا من اليابان ، قرميدة من ذهب.

وطلعت الشمس ودنت الساعة المنتظرة منذ اعوام ، ونزع كلمبس قبعته واحنى راسه ونادى عاليا:

باسم الله ، الى الامام.

ورد على هذا النداء صوت ثان وثالث من القاربين الآخرين: باسم الله ، الى الامام.

ورفع رئيس الدير حنا فارس يده راسما اشارة الصليب مانحا البركة اولئك المسافرين.

وشقت السفينة الشراعية والقاربان عباب البحر قاصدة الجزر الخالدات ومنها الى بلاد الذهب والافاويه والحجارة الكريمة ، الذهب سيد الكون والافاويه تتطيب بها الاطعمة ، انهم يتوجهون الى البلدان ذات القصور المنيفة ، فالدر والياقوت حصباؤها وتربها العنبر والند... الى الجزر العامرة ، الى ارض الفيلة والقردة والرجال بدون راس وبعين واحدة ، ارض العجائب والغرائب ، يحكمها الخان الاكبر، ملك الملوك.

ولكن هذا الخان الاكبر الذي غالى في وصفه ماركو بولو ويقصده كلمبو الآن قد خلع عن عرشه سنة ١٣٦٨ ، وحلت محلّه السلالة الصينية «منغ». مرّ مائة واربعة وعشرون عاما على الاطاحة به.

وتناولوا طعام الغذاء للمرة الاولى على ظهر اليم وسايرتهم الريح في الايام الاوائل ، فليسوا بحاجة الى اعمال غير عادية ، فجلسوا حلقات يتحادثون ويروون اقاصيص مغامراتهم السابقة في رحلاتهم العديدة فانبرى احدهم اسمه بطره اللبي يروي ما جرى له في رحلة الى الغينية البرتغالية لمّا رست السفينة في المرفأ ، تعالت اصوات غريبة في الغابات تنبه القبائل المتوزعة في الارياف الى وصول الاوروبيين ، ومعنى وصول الاوروبيين اصطياد الشبان والشابات ونقلهم الى المراكب ارقاء للبيع في اسواق النخاسين ، وما طال الوقت حتى دنا رئيس القبيلة حاملا قليلا من الذهب الناعم والافاويه والريش وجلود الاسود ويسوق عبيدا سودا ليباعوا في المرافىء المغربية او في اشبيلية نفسها.

ويقول هذا الملاح : توجهت مع الربان «بطره قبرون» الذي يرحّل اليهود الان من مملكة قشتالة بعد صدور الاوامر الملكية بطردهم ، طلب مني مرافقته لان زعيم القبيلة دعاه لزيارته وتناول الطعام على مائدته وليس من اللائق رفض الدعوة ، ولكن الربان هذا اخذ علما من المطلعين على عادات تلك القبائل ، انه لا يجب ان يأكل لحما بل ثمارا وخبزا فقط لان هذه القبائل هي من اكلة لحوم البشر وكل ما يقدم على موائدهم هو من لحم البشر دون سواه ، وافضل هدية في نظرهم فخذ طفل صغير لم يبلغ اكثر من ستة اشهر من عمره ، سمين كما لو كان تيس ماعز صغير مشوى ، ولمّا شاهد بطره المشهد اقسم انه اعتراه قرف كاد يستفرغ كل ما في جوفه ، ولكن الله لم يتخل عنه في تلك الساعة الحرجة ، ولمّا قال له رئيس القبيلة الافريقية : لماذا لا تاكل؟

اجابه : لاني وعدت الله ربي ونذرت له اني لا آكل اللحم حتى اعود الى بلادي واتخلص من اعمال البحر ، ولذا وبرا بقسمي لا آكل سوى الثمار المجففة التي احملها معي في السفينة.

فامر زعيم القبيلة ان يؤتى له بالثمار.

وقبل السفر وعند الوداع شاء آكل لحوم البشر ان يريه بيته الذي تحول الى مخزن مؤونة : مائة فخذ بشري مقددة ومعلقة ، وكاد يتقيأ الربان مما شاهد.

فقال له زعيم القبيلة بكل لطف وبشاشة: بمَا اني لم اتمكن من ان اطعمك لحما على مائدتي لانك نذرت لربك الاّ تأكل اللحم قبل وصولك الى بلادك، فاليك فخذين، انهما مطيبان على احسن ما يكون ولا تخش ان تصاب بضرر.

ثم اعطاه اياهما كما لو انه اعطاه فخذى لحم خنزير مجفف، وتظاهر «بطره قبرون» انه مسرور بهذه الهدية وحملها الى السفينة، ولمّا اصبح في المركب اعطى الاوامر بالقائهما في البحر في الحال.

والاغرب من هذا كله ان العبيد الارقاء الموجودين في السفينة المعدين للبيع اخذوا يصرخون: لماذا لا يعطونهم هذه اللحوم لياكلوها ولا يرمونها في البحر؟ انهم اعتادوا على اكل لحوم بني آدم مثلما اعتدنا نحن على تذوق لحوم البقر والغنم والماعز.

والنوتية الذين يصغون الى قصص هذا الملاح رددوا في داخلهم: هل يحدث لهم في البلدان التي يتوجهون اليها مثلما حدث لهذا الملاح في افريقية السوداء؟

وكريستوبال كولون الذي مكث زمنا طويلا في البرتغال شاهد بنفسه كيف كان البرتغاليون يتاجرون مع العبيد، يعطونهم اجراسا صغيرة وقلانس حمر ومرآى صغيرة وسكاكين رهيفة وقطعا من الحدائد وعقودا من خرز ملون لقاء منتوجات البلاد. ويضيف القراصنة الى هذه الاشياء التافهة ادوات مصنوعة من الصدف او عرق اللؤلؤ في الجزر الخالدات فيتزين المقاتلون السود باصداف كبيرة يعلقونها على صدورهم.

وضع كلمبو في اسطوله الصغير كميات كبيرة من هذه الادوات على امل الاستفادة منها عندما يصادف سكان البادية قبل الوصول الى اهل الحضر.

وبعد اسبوع من خروجهم من «بالس» وصلوا الى الجزر الخالدات التي اكتشف بعضها الاسبان والبعض الآخر ما زال مستقلا يقاتل من يحاول الاستيلاء عليه.

وكانت المياه قد تسربت الى القارب «بنتة» واراد كلمبو ابداله بقارب آخر ظنا منه انه لم يعد صالحا للملاحة غير ان الشرشور يرى عكس ذلك فانصرف الى تصليحه، انه امتن من القارب الآخر ومن سفينة امير البحر وقد اثبتت التجارب فيما بعد صحة ادعاء الشرشور.

ولمّا اكتملت التجهيزات وشحن الاسطول الصغير بالماء والحطب واللحوم والضرورات المتطلبة لمثل هذه الرحلة في بحر الظلمات، نشرت الاشرعة في السادس من ايلول ١٤٩٢ وابحروا من جزيرة غميرة.

دبّر كلمبو حيلة يخدع بها الملاحين غير المجربين، وذلك انه اذا قطعت السفينة الشراعية عشرة فراسخ مثلا، يدوّن في السجل سبعة فراسخ فقط والغرض من ذلك كله تقصير المسافة بين الجزر الخالدات وبلاد الخان الاكبر حتى لا يضج الملاحون اذا لم يقوّم الحساب. ولكن هذه الحيلة البريئة لا تنطلي على الملاحين المجرّبين، قد يخدع الملاحين الصبيان ولكن لا يخدع الملاحين القدامى في سفينة شراعية مثل «سانتا مارية»، اما في القاربين الآخرين فلا مجال للخداع مع انه اتفق مع مرتين الهونشه الشرشور على استعمال هذه الحيلة واستعملها احيانا.

وكانت الريح مؤاتية لهم في الايام الاولى من الرحلة منذ ان غادروا جزيرة غوميرة. GOMERA

في الحادي عشر من الشهر المذكور قطعوا عشرين فرسخا ولكن لم يدوّن سوى ستة عشر. وهكذا في كل يوم يطرح عدة فراسخ من الرقم الحقيقي.

وجاء اليوم السابع عشر فعدوه من اسعد ايامهم اذ قطعوا اكثر من سبعة وخمسين فرسخا في اربع وعشرين ساعة، ولم يسجل سوى سبعة واربعين، والسبب في هذه السرعة الكبيرة هو مساعدة الريح لهم. وشاهدوا الكثير من العشب يطفو على سطح البحر فخالوا انهم اصبحوا على قاب قوسين من اليابسة.

وعندما طلع عليهم صباح الاثنين وجدوا سطح البحر مغطى بالحشيش، انها علامة لا تقبل الشك بقربهم من اليابسة والدليل الآخر ان ماء البحر هناك اقل ملوحة من مياه الجزر الخالدات، وافعم السرور قلبهم، واصطادوا تنينا من التنانين العديدة السابحة بالقرب منهم.

وفي الصباح شاهدوا طيرا ابيض لا يبيت في البحر.

وكان يوم الثلاثاء المصادف الثامن عشر من ايلول، قطعوا مسافة تزيد على خمسة وخمسين فرسخا بين ليلة وضحاها بمدة اربع وعشرين ساعة ولكن لم يسجل امير البحر سوى ثمانية واربعين لان البحر هادىء مثل نهر وادي الكبير في اشبيلية.

شاهدوا الطيور في ذلك اليوم متوجهة نحو الغرب وازدادت ثقتهم بدنو نهاية الرحلة والنزول الى البر.

وفي ٢٠ ايلول ابصروا طائر القطراس واحدا واثنين وثلاثة منه وهي علامة اخرى على وجود يابسة قريبة، كما شاهدوا حشيشا كثيرا واخذوا بيدهم نهريا. واقبلت طيور اخرى في الصباح الباكر وقبل طلوع الشمس اختفت، ثم عاينوا قطراسا قادما من الشمال الغربي ومتجها الى الجنوب الشرقي.

وجاء يوم الاحد المصادف الثالث والعشرين من ايلول قطعوا مسافة اثنين وعشرين فرسخا وابصروا حمامة وقطراسا وطيورا اخرى مجهولة يحمل بعضها السراطين بين منقاريه وكثر الحشيش، وكثر التذمر. الايام تمر على وتيرة واحدة وفي كل يوم ياملون بالعثور على اراضي ويخيب املهم، وساءت الظنون امير البحر ليس على المستوى المطلوب منه، وصار الناس يفكرون بالعودة.

وفي اليوم الخامس والعشرين منه تحادث امير البحر مع الشرشور قبطان القارب الشراعي «بينتة» عن خارطة رماها كلمبو منذ ثلاثة ايام الى الشرشور بعد ان ربطها بخيط ممسكا بطرفه لئلا تقع في البحر وهي عزيزة جدا على قلبه صانها عن عيون الناس، انها سره الدفين.

واجتمع راى الاثنين على انهما وصلا الى جزر موجودة على الخارطة، يجب ان تكون هناك جزر انتيلا الباعدة اربعمائة فرسخ عن الجزر الخالدات وقد قطعوا هذه المسافة وازيد منها.

ورد الشرشور الخارطة الى امير البحر بالطريقة ذاتها.

والشرشور السائر في الطليعة يتفقد ويتفحص السهل الازرق والاخضر الذي تنعكس عليه الانوار الخدّاعة انها ساعة السراب والرؤيا الخيالية التي تخلقها المخيلات الخصبة.

وفجأة سمع دوي في هدأة الليل، اطلق القارب «بنتة» مدفعا وهتف الشرشور طالبا البشرى من شريكه ورئيسه امير البحر: يابسة، يابسة.

فخرّ امير البحر ساجدا في برج سانتا مارية وجميع الذين معه شاكرين الله، بينما مرتين الهونشه ورفاقه في «القارب» يرتلون: «المجد لله في العلى»، وردد الباقون هذه العبارة المجد لله في العلى وعلى الارض السلام والرجاء الصالح لبني البشر».

وانحرفت المراكب الثلاثة عن طريقها الذي اختطته حتى ذلك الحين وتوجهت نحو الافق حيث ظن مرتين الهونشه الشرشور انه شاهد يابسة على مسافة عشرين فرسخا، وساروا طيلة الليل بحذر ولمّا اشرق الصباح وجدوا انه ما ظنوه يابسة ليس سوى وهم من الاوهام التي اعترتهم في تلك الرحلة المجهولة العواقب.

البحر ساكن والنسيم عليل، والاسطول الصغير قطع نصف الطريق فقط، اذ ان اليابسة التي يتشوقون اليها بفارغ صبر لن يبلغوها قبل الثاني عشر من تشرين الاول اي بعد ستة عشر يوما.

ومرت ستة ايام اخرى والضجر يقتلهم والتذمر سائد في سفينة سانتا مارية بينما يراقب الاميرال في برج مقدمة السفينة الافق البعيد ويصطنع رباطة الجاش ولم يخف على الملاحين ان «الاجنبي» فقد ثقته بنفسه بعدما تحقق من ان بحر الظلمات يختلف عما جاء في الخارطة التي حافظ عليها مثلما يحافظ على حدقة عينه.

ووجد مرتين الهنشه الشرشور انه من الاوفق السير نحو الجنوب الغربي بعدما راقب وجهة الطيور وظهور الحشائش من جديد فاذا توجهوا في هذه الناحية علهم يصطدمون بجزر اليابان «سيبانغو» تاركين زيارة بلاد الخان الاكبر الى ما بعد. وتذكر الشرشور ان الفتوحات والاكتشافات التي حققها البرتغاليون حصلت بفضل الطيور التي كانت تهديهم الى البر.

وكان اليوم التاسع من شهر تشرين الاول، قصدوا الجنوب الغربي ولم ينقطع طيلة الليل مرور الطيور البحرية. وعلا التذمر في سفينة امير البحر من هذه الرحلة التي ليس لها آخر، وشكوا بقدرة هذا الاجنبي الذي يراسهم، وتحدث بعضهم عن قتله ورميه في البحر ثم يعودون الى بلادهم. ولكنهم اضطروا للصمت تجاه معارضة زملائهم فالسفينة سانتا ماريا ليست وحدها، نسوا ان الشرشور قريب منهم ويخشون غضبه اذا بدا له منهم اي تذمر او عصيان في هذا الاسطول الصغير. واقتصر التمرد على وشوشة وهمس وفلتات لسان لم يتعد الكلام، فقد خشوا سطوة الشرشور فلا يتردد في معاقبتهم بقسوة ويساعده عليهم اقاربه الكثيرون في هذا الاسطول، بينما الملاحون الذين يسيرون سفينة سانتا ماريا متعددو الجنسيات منهم البسكي ومنهم الجليقي ومنهم القشتالي والاندلسي وفيهم من نزل الى البحر للمرة الاولى، بينما الملاحون في القاربين اللذين يقودهما الشرشور واخوه من «بالس» «ومغيرة» «واونبة» لم تبدر منهم اي علامة تذمر، احترموا امير البحر في بادىء الامر بصفته رجلا عالما وصاحب نفوذ في البلاط بعد الالقاب العالية التي حظى بها عند الملكين الكاثوليكيين، بصرف النظر عن انه يحسن الكلام والخطابة ولكن شخصه لا يوحي السلطة اذ في الحال ادرك الملاحون القدامى انه قبطان قليل الخبرة في شؤون الملاحة، سيء الطباع، سريع الغضب، اناني لا يعدل ولا يعرف معنى للاخوة بين الملاحين تلك الاخوة التي تنشأ بين رجال البحر على مختلف درجاتهم ورتبهم اذ انهم يلاقون المصير نفسه، وقبل الوصول الى الجزر الخالدات دب الشقاق بينه وبين رجاله في السفينة «سانتا مارية» فانهم اعتادوا على معاملة اكثر رفقا بهم من هذه المعاملة الجافة التي وجدوها في هذا الاجنبي المترفع عنهم كانه من طينة غير طينة البشر.

وطبعه السيء ادى به للجوء الى الشرشور لمّا ادرك ان التذمر حول الموقد على ظهر

السفينة الشراعية ترتفع حدته وتشتد لهجته في اليوم العاشر من تشرين الاول.

واقتربت السفن الثلاث من بعضها البعض وقال امير البحر:

«ايها القبطان، موجها كلامه الى الشرشور، ان رجالي يتذمرون فما العمل»؟

رد عليه ربان القارب الشراعي «نينية» بجنت أنِس الشرشور: نسير حتى نبلغ مسافة الفي فرسخ واذا لم نجد ما نبحث عنه نتخذ طريق العودة.

اما اخوه مرتين الهونشه الشرشور فقال: يتذمرون ويتبرمون ونحن ما زلنا في اول الطريق؟ الى الامام والله يهبنا النصر المبين لانه لا يريد ان نعود صفر اليدين متجلببين بالخزى والعار.

ثم هتف بصوت عال حتى يسمعه جميع الملاحين في سفينة امير البحر كريستفورو كلمبو:

«اشنق بضعة رجال وارمهم في البحر واذا كنت لا تجسر على ذلك فانا واخي ورجالنا نوردهم مورد الحتوف فرد عليه امير البحر: طوبى لكم، باركم الله فلنتصالح مع هؤلاء الناس الكرام ولنسر ثمانية ايام اخر واذا لم نوفق يكن لكل حادث حديث.

فقال مرتين الهونشه: «وعدت بطره فشكش اني لن اعود من رحلتي دون اكتشافي اراضي، وما دام رجالي بصحة جيدة وعافية. ماذا ينقصنا؟ الجميع بصحة جيدة ومراكبنا عامرة بالمؤن فلماذا العودة؟ ومن شاء العودة فليعدا اما انا فاني اسعى الى اكتشاف الاراضي او اموت دونه.

وبعد هذا الحديث من مركب الى مركب ساد النظام من جديد في السفينة القائدة.

وسار القارب الشراعي «بنتة» مرة اخرى امام المركبين الآخرين لانه اسرع منهما، يشق عباب البحر، لا يريد ان يسبقه احد الى رؤية اليابسة.

وعثر الملاحون على قصبة سابحة ثم على لوحة صغيرة وكومة من العشب لا شك في انها نبتت في التراب. ومرت فوقهم اسراب من طيور الببغاء في اتجاه واحد.

وبعد غياب الشمس يوم الخميس المصادف الحادي عشر من تشرين الاول، رتل الملاحون الاناشيد المعتادة: «السلام عليك يا مريم، يا سلطانة الجبال والبحار.

وتكلم كالعادة امير الاسطول: ايها السادة لنقدم شكرنا للباري تعالى الذي سهّل لنا هذه الرحلة فارسل لنا ريحا مواتية في كل وقت دون ان يعرضنا لاهوال العواصف الذي يصادفها

الملاحون عادة في سفراتهم ، لاني اؤمن برحمة الله التي انتظرت منها رؤية اليابسة منذ ايام ، ارجوكم بحرارة ان تشددوا الحراسة هذه الليلة في برج مقدم السفينة محدقين في الافق احسن مما صنعتم حتى الان».

هذه اوامر عامة تصدر اليهم كل ليلة منذ خروجهم من الجزر الخالدات.

وبعد ان قطعوا مسافة سبعمائة فرسخ في اتجاه الغرب ولم تقع انظارهم على جزيرة في هذا البحر المحيط سار الاسطول متباعدة قطعه الواحدة عن الاخرى.

كانت الساعة العاشرة ليلا من ١١ تشرين الاول وكريستوبال كولون في برج مؤخرة السفينة الشراعية «سانتا مارية» لمّا شاهد ضوءا شاحبا كانه نور فانوس يرتفع وينخفض ، لم يؤكد انه متات من البر، والاسطول يسير بطيئا في تلك الآونة لا تتجاوز سرعته اثني عشر ميلا في الساعة.

استدعى كلمبس سرا «بطره غوتيرس» رئيس الندل وقال له :

«اعتقدت اني لمحت نورا بعيدا فانظر لعلك تبصر ما ابصرت».

فاجابه رئيس الندل قائلا : اجل ابصر نورا شاحبا.

ثم استدعى كلمبو لذريق شانشس الشقوبي ، المراقب على الاسطول من قبل الملكين الكاثوليكيين وقال «لا ارى شيئا» ، لان موقفه في السفينة لم يسمح له بمشاهدة الضوء.

وعاد كلمبو ورئيس الندل وشاهد الضوء مرة او مرتين يعلو وينخفض.

ظن الاميرال طيلة حياته ان هذا النور صادر عن احد الهنود الذي اخد فانوسا وخرج من كوخه لقضاء حاجة طبيعية ثم عاد الى مكانه ، وهذا تصور مخطىء ، لان المشهد جرى في الساعة العاشرة ليلا ، ثم واصل الاسطول سيره مسرعا بمعدل اثني عشر ميلا في الساعة طيلة اربع ساعات اي من العاشرة ليلا حتى الساعة الثانية بعد نصف الليل والجزيرة المكتشفة كانت على بعد ستة وخمسين ميلا ، اسمها «غواناهاني» المحرفة عن كلمتين عربيتين تبودلتا اثر العثور عليها بين الملاح البرتغالي الموجود على ظهر القارب الشراعي «بينتة» ولذريق الطرياني مكتشف الجزيرة ، نادى هذا الاخير انظر ارى يابسة فاجابه البرتغالي : اين؟ فرد عليه الطرياني : هنا. فخرج من هذا السوال والجواب كلمة «واناهاني» ، كما اشرنا الى ذلك في محله ، وهذه الجزيرة التي اطلق عليها فيما بعد اسم «سان سلفادور» منخفضة وبدون جبال عالية بحيث انه من المستحيل مشاهدة نور على تلك المسافة البعيدة.

وعندما جاء نصف الليل استضاءت السماء بعد ان كانت مغلفة بالضباب وغائمة وانكشف القمر ونشر اشعته الشاحبة على مياه هذا الاقيانس الفسيح شاهد لذريق الطرياني رأسا ابيض من الرمل ثم تامله مليا فميز خطاً اسود انه خط شاطىء ممتد.

كانت الساعة الثانية صباحا عندما القارب الشراعي «بنتة» اعطى اشارة مبشرة بزوال الهم والقلق الذين ساور الاسطول طيلة الرحلة.

ودنا لذريق الطرياني من المدفع وخرجت طلقة وصرخ بصوت جهوري : يابسة يابسة وتوقف الاسطول حتى اقبل الصباح. ليجمع شمله، وكلمبو لمّا سمع طلقة المدفع خرج من غرفته ونادى الشرشور قائلا : «يا الهونش شاهدتم اليابسة؟

فرد عليه قائلا : لا تضيع مكافاتي.

– اني مرسل لك خمسة الاف مرابطية.

وسمع لذريق الطرياني الحديث بينهما وارتعش : ماذا يقولان؟ انه يريد جبة المخمل التي وعد بها الاميرال كما يطالب بعشرة الآف مرابطية.

ولكن المسكين لم يحظ باي من المكافاتين لا جبة الحرير ولا العشرة الاف مرابطية، لان اعطاءه جبة الحرير تعني الاعتراف بانه اول من شاهد اليابسة، وبالتالي يحق له استلام عشرة آلاف مرابطية مكافأة سنوية.

جمع كريستفرو كلمبو بين الشاعر والتاجر، بين المتصوف المترفع عن المادة، واليهودي الضنين الشحيح الحريص على جمع المال بأي طريقة كانت، اعتقد ان المكافأة حق واجب له دون سواه.

انها مكافأة تافهة بالنسبة له، فقد استحق منذ تلك الليلة ان يحمل لقب «امير البحر» و «نائب ملك» على جميع تلك الاراضي التي يكتشفها، بينما هذه المكافأة تعتبر ثروة كبيرة في عيني هذا الملاح المتنصر المسكين.

ومنذ تلك الليلة دب الخلاف بين الشريكين اللذين قادا هذا الاسطول في هذه المغامرة الاكتشافية.

وتقرب المتملقون من امير البحر وساندوه في اقواله واحتج طريره ودهش من جسارة هذا الملاح المنتسب الى القارب «بينتة» وتهكم عليه مرددا الكلمات ذاتها التي فاه بها الطرياني :

«يابسة، يابسة، ان ما تقوله، قاله سيدي في الساعة العاشرة ليلا اي اربع ساعات قبلك».

واستنكر ربانا القاربين الاخوان بيجنت يانس ومرتين الهنشه هذا الكلام غير المعقول ودهشا منه، كيف يمكن رؤية ارض من البحر على مسافة مائة كيلومتر كما ان كروية الارض تمنع رؤية الاماكن المنخفضة على مسافة اميال قليلة فكيف تريد ان تراها على مسافة تزيد على الخمسين ميلا؟

ولكن الحماس الذي دب في النفوس بسبب اكتشاف الارض والتشوق لرؤيتها اصمت الآذان واعمت العقول عن سماع هذه التوضيحات وتركوا القضية للملكين الكاثوليكيين لكي يبتا بها عندما يعودون الى قشتالة.

استهل اكتشاف اميركا بظلم فاضح وهضم حقوق سافر لم يشهد مثلها التاريخ، شاء الملكان الكاثوليكيان ارضاء كلمبو المتعطش الى المكاسب ولو كانت من مال اليتيم وارث الارملة فحكما ان الفانوس او بالاحرى الضوء الذي كان يعلو وينخفض في الساعة العاشرة ليلا صادر عن البر على بعد ستة وخمسين ميلا، وبالتالي استحق امير البحر المكافأة: عشرة آلاف مرابطية في السنة مدى الحياة.

وقد اثبت العلم في ايامنا الحاضرة ان بعض الحيوانات المائية ترسل ضوءا في ايام معينة من السنة وذلك ما جرى بالفعل فالضوء كان يعلو ويهبط عندما يرتفع الحيوان البحري عن الماء وعندما يغور فيه.

ثار لذريق الطرياني او «لذريق الاحمر» نسبة لاحد ملوك بني الاحمر في غرناطة لهذا الظلم الفاضح والجور المخزي وليس في اليد حيلة اتريد منهم ان يصدقوه هو المورسكي المرتد ويكذّبوا كلمبو المكتشف الكبير؟، لا، لا.

راى ان يغادر قشتالة الى المغرب ليلتحق بابناء بجدته ويعتنق من جديد الديانة الاسلامية.

تلك هي قصة الاكتشاف من اولها الى آخرها وكما راينا ان فضل العرب كبير فقد شاركوا فيه بصورة عملية، فقد نقل العرب المشارقة منهم والمغاربة الى الملاحين الاسبان والبرتغاليين المعلومات التالية:

اولا: ادخال البوصلة التي كانت معروفة في الاندلس على الاقل سنة ٨٥٤، على عهد

الحكم ابن الامير بن هشام فقد جاء في البيان المغرب لابن عذارى المراكشي انه في سنة ٢٣٩ الموافقة ٨٥٤ ميلادية اخرج الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط الى شندلة قاسم بن العباس وتمّام بن ابي العطاف صاحب الخيل ومعهما الحشم. فلما حلاّ باندوجر خرجت عليهم كمائن اهل طليطلة ووقعت الحرب وكثر القتل فانهزم قاسم وتمام واصيب ما في العسكر. وفي ذلك يقول صفوان بن العباس اخو قاسم المذكور:

ضرط القاسم يوما ضرطة في القرميط = (البوصلة)
مات منها كل حوت كان في البحر المحيط

وهذا يدل على ان البوصلة او القرميط كانت معروفة ومشهورة في منتصف القرن التاسع الميلادي في الاندلس.

ثانيا: العرب علموا الغربيين استعمال «دفتر ارشادات الملاحة» وكانوا يسمونه «رهماني» اي الدليل البحري. وكلمة دفتر نقلت الى الاسبانية فاصبحت.

ثالثا: الخوارط البحرية DERROTERO فصاحب السفينة العربي يتخذ ربانا مسؤولا عن كل ما يتعلق بالملاحة.

ويحدثنا التاريخ ان الشاطىء اليمني جنوب الجزيرة العربية كان لفترة طويلة في القرن الاول للميلاد يزدحم بارباب السفن والملاحين العرب، وكان يسكن هذا الشاطىء قبيلة حمير التي عرف ابناؤها في هذا القرن بنشاطهم البحري اذ كانوا على اتصال دائم بمدن الصومال وارتريا والهند وفارس.

ويقول التاريخ ان الحبشة اسسها عرب الجنوب الذين حكموا الصومال وما جاورها وان زنجبار كان يحكمها سلطان عربي وكان العرب قدموا الى هذه البلاد واستوطنوها مع جاليات ضخمة من العرب عن طريق البحر بسبب نشاطهم الملاحي الذي كان سببا لانتشارهم في اكثر البلاد والمدن الساحلية على البحر الاحمر والمحيط الهندي وخليج فارس.

وقد عرف العرب قديما الانواء البحرية ومواعيدها كما عرفوا الايام التي تهب فيها الانواء الموسمية وعينوا الايام الصالحة للملاحة.

ولم يكن العرب بعد الاسلام اقل عناية بالبحر والملاحة منهم قبل الاسلام بل زادت هذه العناية فبنوا الاساطيل الحربية الى جانب السفن التجارية التي كانت تمخر عباب المحيط

الهادي والبحر المتوسط بعد اتساع الفتح العربي والقضاء على الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية.

وصلات العرب بالحبشة معروفة والنبي صلعم امر المؤمنين بالهجرة الى الحبشة لما اشتد اذى مشركي قريش لهم ولقد احسن النجاشي ملك الحبشة استقبالهم في مملكته وامنهم ولم يسلمهم حين طلب اليه كبار قريش من المشركين دفعهم اليهم لينتقموا منهم وليردوهم الى دين الوثنية.

والتاريخ يقول ايضا انه كان للجالية العربية الاسلامية التي سكنت الصين بسبب صلاتها التجارية البحرية معها امتيازات خاصة عند ملك الصين اذ منحهم حق احالة خلافاتهم الى قاض منهم يحكم بينهم بمعزل عن القضاء الصيني.

ولم يمض على الفتح العربي واحتلال بعض شواطىء البحر المتوسط زمن طويل حتى شعر الولاة العرب بالحاجة الى اسطول عظيم يحمي شواطئهم من غارات الاسطول الرومي عليها فلقد كان الاسطول البيزنطي يغير بين حين وآخر على سواحل سورية وفلسطين ومصر فينال منها ثم يقفل راجعا.

وفي فترة قصيرة صار للعرب اسطول ضخم يجوب البحر المتوسط دون خوف.

اخطر معركة بحرية خاضها الاسطول الاسلامي حينذاك وسجل فيها انتصارا حاسما هي المعركة المعروفة بذات الصوارى وقد وقعت هذه المعركة في خلافة عثمان بن عفان ايضا فقد خرج الروم في اسطول يتألف من ستمائة قطعة بحرية وهجموا على سواحل مصر ليعيدوها الى قبضتهم بعد ان فقدوها فهب لملاقاتهم عبدالله بن ابي السرح على رأس اسطوله كما خرج معاوية نفسه من الشام باسطول آخر وعندما التقيت الاساطيل الثلاثة دارت معركة بحرية اسفرت عن هزيمة اسطول الروم واصيب ملكهم بجراح شديدة ولاذ بالفرار واستولى العرب على كثير من قطع الاسطول الرومي وسبب تسمية هذه المعركة «بذات الصوارى» كثرة استعمال السفن الحربية ذات الصوارى فيها.

وكانت السفن الاسلامية تلقي بخطا طيفها على سفن الاعداء فتجذبها اليها وتلقي عليها الالواح لكي يمر من فوقها الجنود الى سفن الاعداء للقتال والاستيلاء عليها.

سرعان ما دعت الحاجة الى دراسة فن الملاحة علما قائما بذاته فأُلّفِت فيه كتب اتسمت بطابع الحيوية والتجربة دوّن فيها ربابنة السفن عصارة تجاربهم في كتب بسيطة ذات اسلوب سهل ولكنها عامرة بالحقائق الصادقة.

رابعا : استعمال نصل الرمح من قبل كدمستو الملاح الذي عندما وصل الى الدرجة ١٣٠ شمالا شاهد النجمة القطبية لما كان الطقس جيدا وهي على علو نصل الرمح وهذا ما استعمله الملاحون في المحيط الهندي في القرن الثالث عشر وهو موجود في كتب علم الفلك منذ القرن العاشر: مثلا في كتاب وصف السماء والاجرام الفلكية ووضع الخرائط السماوية للصوفي ، وقد نقل هذا الكتاب من العربية الى الرومانسية على عهد الملك الفونسه العاشر الحكيم.

خامسا : الجداول التي استعملها كلمبس مشتقة من جداول ابن الكمّاد.

سادسا : اخذ الملاحون الاسبان والبرتغاليون الذين اكتشفوا طريق راس الرجاء الصالح الفنون البحرية وتعلموها عن العرب وهم مدينون لهم بهذه الاكتشافات.

وان الفضل يرجع للعرب في تهيئة اذهان الاوروبيين لقبول فكرة وجود ارض اخرى عبر آفاق المحيط الاطلسي.

سابعا : والعرب هم الذين نبهوا الاذهان الى اتصال المحيط الاطلسي بالمحيط الهندي وامكان الدوران حول القارة الافريقية جنوبا للوصول الى الهند.

وقد وصف القلقشندى ذلك الاتصال مفصلا في كتابه صبح الاعشى فذكر المحيط الاطلسي ياخذ في الامتداد من سواحل بلاد المغرب الاقصى من زقاق سبتة اي مضيق جبل طارق الذي بين الاندلس وبين العدوة الى جهة الجنوب حتى يجاور صحراء لمتونة وهي بادية البربر ثم يستمر في امتداده قائلا : انه يعطف الى جهة الشرق وراء جبال القمر التي ينبع منها نيل مصر فيصير البحر المذكور جنوبا عن الارض ويمتد شرقا على ارض خراب وراء بلاد الزنج ثم يمتد شرقا وشمالا حتى يتصل ببحر الهند...

ثامنا : ان اول جزيرة اكتشفت في العالم الجديد تحمل اسما عربيا «وين هنا» «غواناهاني» المحرفة والمكتشف من المدجنين المتنصرين وهو الذي اعطاها هذا الاسم كما ذكرنا في محله.

هذا المدجن المتنصر المتحدر من عائلة بني الاحمر «برميخو» ساءه الاجحاف بحقه وحرمانه من الجائزة فذهب الى المغرب واعتنق من جديد الديانة الاسلامية.

وكان للعرب فضل كبير على البرتغاليين بسبب النهضة الكبيرة في الدراسات الجغرافية والملاحية في البرتغال الاسلامية ، وكان ذلك ثمرة العناية التي اولاها المسلمون منذ عهد

الامارة الاموية بالاندلس للموانىء الغربية منه ولمّا انشأوا فيها من دور للصناعات البحرية والحربية.

يقول التاريخ ان اول محاولة لخوض المحيط الاطلسي «بحر الظلمات» واكتشاف ما قد يكون وراءه من يابسة انما كان منطلقا من الساحل البرتغالي في ظل دولة المسلمين. نعني بها تلك الرحلة التي قام بها فتى يدعى خشخاش البحري، خاطر بنفسه هو وجملة من فتيان قرطبة في اوائل القرن الثالث الهجري فركبوا مراكب توغلوا بها في البحر ثم عادوا بغنائم كبيرة، وقد تولى خشخاش البحري هذا قيادة الاسطول الاندلسي حينما هاجم الاردمانيون «الفيكونغ» سواحل الاندلس وما زال يقاتلهم حتى استشهد في سنة ٨٥٩/٢٤٥.

ويروي لنا الحميري في الروض المعطار قصة «الفتية المغررين»، وكانوا ثمانية رجال كلهم ابناء عم خرجوا من الحمة وهو الجزء البحري من مدينة الاشبونة وابتنوا مركبا شحنوه بالماء والزاد ما يكفيهم لاشهر ثم دخلوا البحر ووصلوا الى جزر الازور وجزر كنارياس.

وهكذا فتح هؤلاء المسلمون الطريق امام البرتغال لكي تصبح في طليعة الدول البحرية، فالاكتشافات التي قام بها البرتغاليون بعد ذلك في القرن الخامس عشر انما يرجع الفضل فيها الى ما تعلموه على ايدي هؤلاء البحارة المسلمين.

وكلمبو قضى شطرا كبيرا من حياته في البرتغال كما راينا وتزوج هناك واطلع على الفنون البحرية وتعلم الكثير من البرتغاليين ولو رضي ملك البرتغال ان يموّل الرحلة الاكتشافية الى العالم الجديد لمّا كان قدم كريستفرو كلومبو او كريستوبال كولون او كلمبس كلها اسماء متعددة ولكن لها مدلول واحد واسم واحد، الى اسبانية يعرض خدماته على الملكين الكاثوليكيين.

اجل لقد شارك العرب بصورة فعالة في اكتشاف العالم الجديد.

المصادر والمراجع العربية

١ – تاريخ الادب العربي : بروكلمان – الجزء الرابع – دار المعارف – مصر.

٢ – تراث الاسلام تصنيف شاخت وبوردرث – ترجمة حسين مؤنس – الكويت.

٣ – تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس – حسين مؤنس – مطبعة معهد الدراسات الاسلامية مدريد ١٩٦٧.

٤ – ابو الريحان البيروني – علي احمد الشحات دار المعارف بمصر.

٥ – علم الفلك – كارلو نلينو – روما ١٩١١.

٦ – جريدة القصر وجريدة العصر – للعماد الاصفهاني جزء اول الدار التونسية للنشر ١٩٧٣.

٧ – العرب في صقلية – احسان عباس – دار المعارف بمصر ١٩٥٩.

٨ – الروض المعطار – الحميري – تحقيق احسان عباس – بيروت.

٩ – مروج الذاهب المسعودي.

١٠ – ثريا الرومية (استسلام غرناطة) سيمون الحايك.

١١ – تعربت... وتغربت – سيمون الحايك.

١٢ – الافادة والاعتبار – عبد اللطيف البغدادي.

١٣ – البيروني محمد جمال الفندي – امام ابراهيم احمد.

١٤ – فضل علماء المسلمين على الحضارة الاوروبية – عز الدين فراج.

١٥ – تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس – عبد العزيز سالم – احمد مختار العبادي.

١٦ – ابن عذارى المراكشي – البيان المغرب في تاريخ الاندلس والمغرب.

١٧ – مقدمة ابن خلدون – ابن خلدون.
١٨ – جغرافية الاندلس واوروبة – ابو عبيد البكري تحقيق عبد الرحمن الحجي.
١٩ – ذكر الاندلس – تأليف الشريف الادريسي – تحقيق كوندي.
٢٠ – الاثار الاندلسية الباقية – عبدالله عنان.
٢١ – نفح الطيب – المقري.
٢٢ – رحلة ابي حامد الغرناطي في الاراضي الاوروبية الاسيوية – تحقيق دبلير مدريد ١٩٥٣.
٢٣ – آخر ايام غرناطة – محمد رضوان الداية.
٢٤ – دائرة المعارف – فواد افرام البستاني – بيروت.
٢٥ – طبقات الامم – صاعد الاندلسي – دار الطليعة – بيروت.
٢٦ – المستظرف في كل فن مستطرف – الابشيهي – تحقيق عبدالله الطباع – بيروت.
٢٧ – عروق الذهب في مناجم الروم والعرب – سيمون الحايك – مطبعة البولسية – جونية – لبنان.
٢٨ – تاريخ العلم – جورج سارتون – ترجمة لفيف من العلماء – دار المعارف – مصر.
٢٩ – تاريخ المماليك البحرية: الدكتور علي ابراهيم حسن – مكتبة النهضة المصرية.
٣٠ – الشريف الادريسي – مشاهير رجال المغرب رقم ٢٤ – عبدالله كنون – معهد مولاي الحسن.
٣١ – ابن جبير: دائرة المعارف – فواد افرام البستاني – الجزء ٢ سنة ١٩٥٨.
٣٢ – الابرة المغناطيسية – دائرة المعارف – فواد افرام البستاني – الجزء ٢ ١ ١٩٥٨.
٣٣ – ابن حوقل – دائرة المعارف – فواد افرام البستاني – الجزء ٢ ص ٤٧٩.
٣٤ – عائلات تطوانية من اصل اسباني – محمد بن عزوز حكيم – مجلة «اوراق» عدد ٩ – المعهد الاسباني العربي للثقافة – مدريد.

المصادر والمراجع الأجنبية

BIBLIOGRAFIA

1 — LUISA LOPEZ VERGARA. «No serán las Indias». Colleción Andanzas nº 63. Barcelona 1988

2 — SALVADOR MADARIAGA: Cristobal Colón — Espasa Calpe

3 - MANUEL LOPEZ FLORES. Colón no descubrió America — Editorial Clasica — Madrid — 16.

4 - ISABEL LA CATOLICA: Tarsicio de Ascona. B.A.C.

5 — EN BUSCA DEL GRAN KAN: Vicente Blasco Ibañez. Valencia 1929

6 — La cultura hispanoarabe en Orient y Occidente». Juan Vernet. Ariel Historia. 1978.

7 — FERNANDO EL CATOLICO: Ricardo del Acro. 1939.

8 — SANTA ISABEL DE CASTILLA: Madrid 1951

9 — SAN PEDRO Y SUS SUCESORES: Maurus Schellhorn, Libro documento.

10 — EL Hapra y la somba. Alejo Carpentier. Oceanus. Siglo veintiuno editores. 1979.

11 — Nueva Lista documentada de los tripulantes de Colon en 1492. Alicia B. Gould. Madrid 1984.

12 — Astrolabios existentes en España., Salvador García Franco. Instituto historico de Marina. Burgos.

13 — COLON NACIÓ EN AMERICA: J.M. De Zuloaga. Madrid 1948.

14 — FERNANDO EL CATOLICO. Andrés Jimenez Soler. Editorial Labor.

15 — Memorias de Colón. Colón Cristobal.

16 — Los corsarios Berberiscos. PHILIP GOSSE. Colección Austral Espasa calpe nº 795.

17 — Venecia: CARLOS DIEHL. Colección Austral. nº 1309.

18 — ISABEL DE ESPAÑA: WILLAM THOMAS WALSH: Cultura Española tradc. Alberto de Mestas.

19 — El mundo Antiguo: ALDO MIELI. Espasa Calpe.

20 — La Eclosion de lRenacimiento: Aldo Mieli — Espasa Calpe.

21 — El Mundo Islamico Aldo Mieli, — Espasa Calpe.

22 — GENGHIS KHAN — HAROLD LAMB. Alinza Editorial — Madrid.

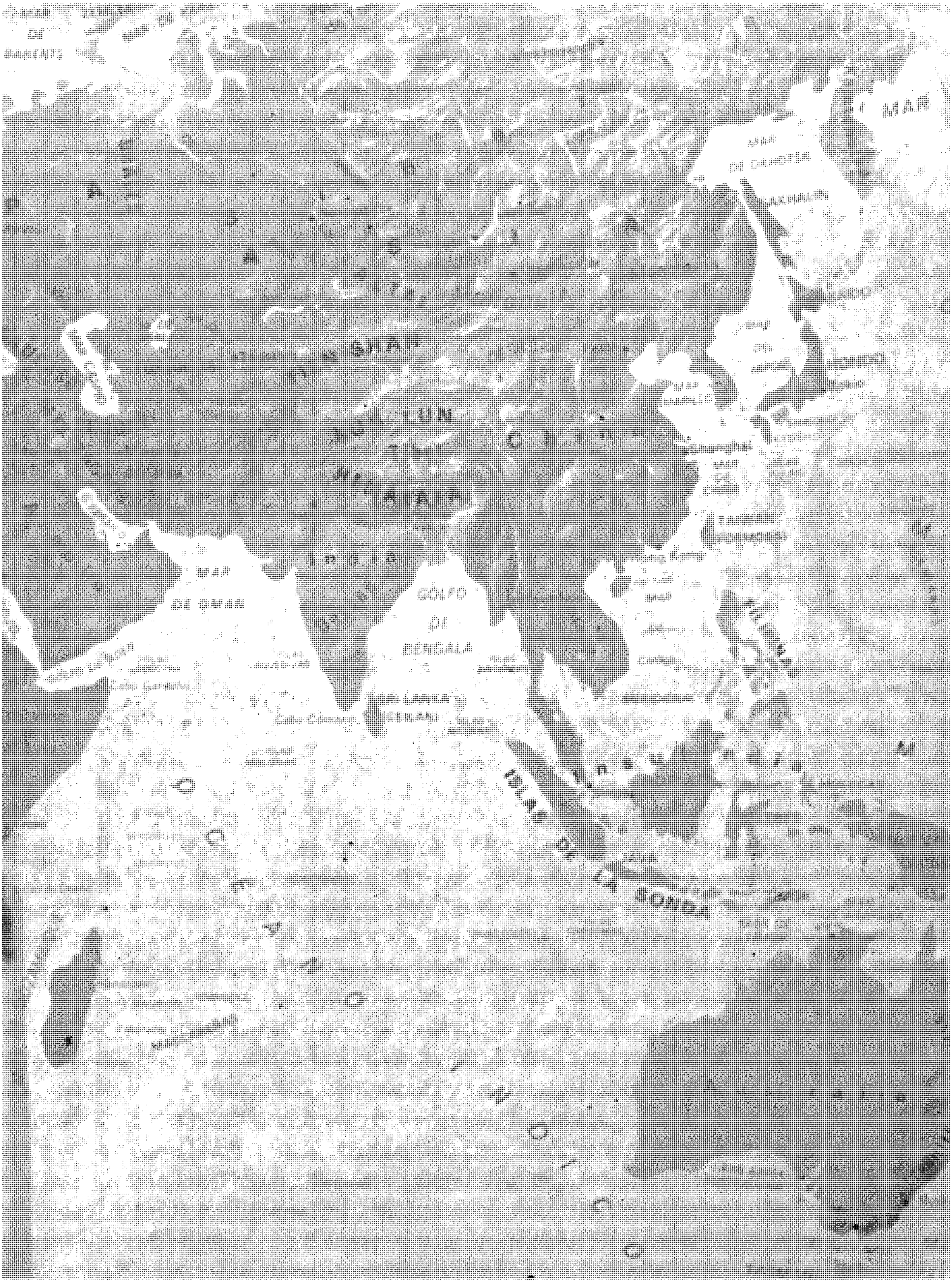
الفهرس

المطبعة البولسية
جونيه - لبنان

سلسلة أبطال من الاندلس

ظهر منها حتى الآن

- بلاي الرومي ، أو العرب في إسبانية وجنوبي فرنسا.
- عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)
- الناصر لدين الله (عبد الرحمن الثالث أول خليفة في الأندلس).
- صبح البشكنسية أو الدولة العامرية.
- السيد عنترة الإسبان، أو الأندلس على عهد ملوك الطوائف وقدوم المرابطين إليها.
- عبد الرحمن الأوسط.
- ألفونس العاشر الحكيم أو نشوء الدّولة النصريّة.
- ثريا الرومية أو إستسلام غرناطة.
- أوراكة ملكة قشتالة.
- عمر بن حفصون أو ثورة المُولِّدين.
- كريستوف كلمبس


DE
BARENTS
MAR
KUN LUN
HIMALAYA
MAR
DE OMAN
GOLFO
DE
BENGALA
ISLAS DE LA SONDA